ذخائر العرب
١٢

إعجاز القران

للباقلانى
أبى بكر محمد بن الطيب

تحقيق
السيد أحمد صقر

دار المعارف بمصر

إعجاز القرآن

للباقلاني

أبي بكر محمد بن الطيب

ذخائر العرب
١٢

إعجاز القرآن

للباقلانى
أبى بكر محمد بن الطيب

تحقيق
السيد أحمد صقر

دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

جرت سنة الله فى ابتعاث رسله إلى خلقه ، لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته ، أن يؤيدهم بأمور حسية تخالف السنن الكونية ، وتشذ عن النواميس الطبيعية ؛ وتكون من قبيل ما استحكم فى زمانهم ، وغلب على خاصتهم ، وعظم فى نفوس عامتهم ؛ لتكون معجزة الرسول المرسل إليهم مفحمة لأعجب الأمور فى أنظارهم ، ومبطلة لأقوى الأشياء فى حسبانهم ؛ ولئلا يجد المبطلون متعلقاً يتشبثون به ، ولا سبيلاً يتخذونه إلى اختداع الضعفاء .

فقد أيد الله جل جلاله موسى عليه السلام — وكان عصره عصر سحر — بفلق البحر ، وانقلاب العصا حية تسعى ، وانبجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرَّوَاء .

وأيد عيسى عليه السلام — وكان عهده عهد طب — بإبراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير من الطين ، و إحياء الموتى بإذنه .

ولمَّا أرسل رسوله محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الناس أجمعين ، وجعله خاتم النبيين — أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه من المرسلين ، وخصَّه بمعجزة عقلية خالدة ، وهى إنزال القرآن الكريم ، الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا ، ولوكان بعضهم لبعض ظهيراً . وكان ذلك فى زمن سما فيه شأن البيان ، وجلَّت مكانته فى صدور أهله ، وعرفوا باللَّسَن والفصاحة ، وقوة العارضة فى الإعراب عن خوالج النفوس ، والإبانة عن مشاعر القلوب . وظل رسول الله ، صلوات الله عليه ، يتحدّاهم بما كانوا يعتقدون فى

أنفسهم القدرة عليه ، والتمكن منه ؛ ولم يزل يقرّعهم بعجزهم ، ويكشف عن نقصهم ؛ حتى استكانوا وذلّوا وطبع عليهم الخزى بطابعه ، وصاروا حيال فصاحته فى أمر مريج .

وقد أدهش القرآن العرب لمّا سمعوه ، وحيّر ألبابهم وعقولهم بسحر بيانه ، وروعة معانيه ، ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه ؛ فمنهم من آمن به ومنهم من كفر ، وافترقت كلمة الكافرين فى وصفه ، وتباينت فى نعته . فقال بعضهم : هو شعر ، وقال فريق : إنه سحر ، وزعمت طائفة أنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، وذهب قوم إلى أنه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون . وقال غير هؤلاء وهؤلاء : لو نشاء لقلنا مثل هذا . ولكنهم لم يقولوا هم ولا غيرهم، لأن تأليف القرآن البديع ، ووصفه الغريب ، ونظمه العجيب ؛ قد أخذ عليهم منافذ البيان كلها ، وقطع أطماعهم فى معارضته ؛ فظلوا مقموعين مدحورين ثلاثة وعشرين عاماً ، يتجرعون مرارة الإخفاق ، ويُهْطِعُون لِقَوارِع التَّبكيت ، ويُنْغِضُون رُؤُوسَهم تحت مقارع التحدّى والتعيير ، مع أنفتهم وعزّتهم ، واستكمال عدّتهم ؛ وكثرة خطبائهم وشعرائهم ، وشيوع البلاغة فيهم ؛ والتهاب قلوبهم بنار عداوته ، وترادف الحوافز إلى مناهضته ؛ وعِرفَانِهم أنّ معارضته بسورة واحدة أو آيات يسيرة أنقض لقوله ، وأفعل فى إطفاء أمره ، وأنجع فى تحطيم دعوته ، وتفريق الناس عنه — من مناجزته ، ونصبهم الحرب له ؛ وإخطارهم بأرواحهم وأموالهم ، وخروجهم عن أوطانهم وديارهم .

وقد ندب الله المسلمين إلى تلاوة القرآن ، وقراءة ما تيسر منه ؛ وحضّهم على ادّكار معانيه ، وتدبر أغراضه ومراميه ؛ ليهتدوا ببصائره وهداه ، وليستضيئوا بأنواره فى الحياة ؛ حتى تكون كلمتهم فيها هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى . فأقبل عليه علماؤهم يتدبّرونه ويفسّرونه ، ويُجَلُّون آياته على أعين الناس لعلهم

يشهدون ما فيها من المنافع لهم ، فيأتمروا حيث أمر ، و ينتهوا حيث زجر . وأقبل عليه غيرهم ، من أعدائه وأعدائهم ، فاتبعوا ما تشابه من آيه ابتغاء الفتنة بتأويلها، وتحريف كلمه عن مواضعها ؛ وخيّلت لهم أفهامهم الكليلة ، وأذهانهم العليلة ؛ أن فى نظمه فساداً ؛ وفى أسلوبه لحناً ، وفى معانيه تناقضاً ، وفى نقله اضطراباً ؛ فنفوا عنه صفة الإعجاز ، وسدّدوا نحوه المطاعن ، وبثّوا حوله الشكوك . وكان الناجمون الأولون منهم يخافتون بأقوالهم ، و يجمجمون بآرائهم ، و يستخفون بمذاهبهم ؛ و يصطنعون الحذر والدهاء فى كل ما يأتون وما يذرون ، خوفاً من بطش الخلفاء الراشدين ، ومن تلاهم من خلفاء الأمويين .

وخلَف من بعدهؤلاء خَلْف كانوا أكثر ثقافة ، وأغزر علماً وأحسن بياناً ؛ فأَصْحَرُوا بآرائهم ، وجاهروا بمعتقداتهم ، و بثوا شكوكهم فى المجالس والأندية، وسطَّروها فى الكتب والرسائل التى أسرفوا فى تحسينها وبالغوا فى تزيينها ؛ وغالوا فى انتقاء ورقها ومدادها واستجادة خطها ، ليحسن وقعها فى الأنظار ، وتصبو إليها أنفس القراء .

وقد ساعدهم على جهرهم هذا ومكن لهم منه ، تبدل الزمان وتغير الحال ، بتسامح الخلفاء فى غير ما يمس سلطانهم و يعرض لدولتهم ، وامتلاك غير العرب لزمام الأمور فى الدولة ، وانتشار الكتب المترجمة ؛ وازدياد اتصال العرب بغيرهم من أهل المذاهب والنحل الأخرى ، وكثرة الجدال بين المذاهب الإسلامية ، واشتعال نار العداوة بين الفرق الكلامية .

ولمّا كثرت المطاعن فى القرآن ، وأوشكت الشبهات أن تأخذ سبيلها إلى نفوس الأغْرَار والأحداث — : نهض فريق من العلماء يدرأون عنه ، و ينافحون دونه ، و يرمون من ورائه بالحجج النيرة والأدلة الواقعة ؛ فشرعوا أقلامهم لتأليف الكتب والرسائل فى الرد عليهم ، وتبيين مفترياتهم . وفى طليعة هؤلاء أبو محمد

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، فقد عمد إلي مطاعنهم فيه فجمعها ، ثم كر عليها بالنقض فى كتابه الجليل : « تأويل مشكل القرآن » .

وكانت مسألة الإعجاز من أبرز المسائل التى تعاورها العلماء بالبحث أثناء تفسيرهم للقرآن ، وردهم على منكرى النبوة ، وخوضهم فى علم الكلام ؛ كعلى بن رَبَن كاتب المتوكل فى كتاب : «الدين والدولة» وكأبى جعفر الطبري فى تفسيره : «جامع البيان عن وجوه تأويل آي القرآن» ؛ وكأبي الحسن الأشعري فى « مقالات الإسلاميين » ، وأبى عثمان الجاحظ فى كتاب : « الحجة فى تثبيت النبوّة » .

وكان علماء الاعتزال أكثر المثيرين للكلام فى إعجاز القرآن ، فقد ذهب النظّام — من بينهم — إلى أن القرآن نفسه غير معجز ، وإنما كان إعجازه بالصرفة ؛ وقال : « إن الله ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام ؛ والعرب إنما لم يعارضوه ، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك ، وسلب علومهم به » .

وذهب هشام الفُوَطِيّ ، وعبَّاد بن سليمان إلى أن القرآن لم يُجْعَل عَلَماً للنبي ، وهو عرض من الأعراض ، والأعراض لا يدل شيء منها على الله ولا على نبوة النبي .

وكان ذلك وغيره من أقوال أئمتهما ، منبعاً غزيراً للقول فى إعجاز القرآن .

وقد انبرى كثير منهم للرد على من أنكر إعجازه جملة ، كأبى الحسين الخياط وأبى على الجبائى ، اللذين نقضا على « ابن الراوندى » كتابه : « الدامغ » ؛ الذى طعن فيه على نظم القرآن وما يحتويه من المعانى ؛ وقال : إن فيه سفهاً وكذباً .

وكذلك رد كثير منهم على من خالف عن قول جماعتهم : بأن تأليف القرآن ونظمه معجز ، وأنه علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كالجاحظ الذى رد على النظام رأيه فى الصرفة ، فى كتاب : « نظم القرآن » .

ألف الجاحظ كتابه هذا فى الاحتجاج لنظم القرآن وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه ؛ على حد قوله فى مقدمة كتاب الحيوان . وهو من كتبه الضائعة . وقد أشار إليه الباقلانى فى إعجاز القرآن ؛ إذ يقول ص ٧ : « وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى » .

وأخشى أن يكون الباقلانى قد حاف فى حكمه على نظم القرآن ، وحملته العصبية المذهبية على تنقّصه . فقد وصف الجاحظ نظم القرآن فى كتابه « حجج النبوة » حيث يقول فى صفحة ١٤٧ مخاطباً من كتب له الكتاب : « وفهمت — حفظك الله — كتابك الأول ، وما حثثتَ عليه من تبادل العلم ، والتعاون على البحث ، والتحابّ فى الدين ، والنصيحة لجميع المسلمين . وقلت : اكتب إلىّ كتاباً تقصد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى صلاح القلوب ، وإلى معتلجات الشكوك ، وخواطر الشبهات ؛ دون الذى عليه أكثر المتكلمين من التطويل ، ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب ، وإضاعة ما يجب . وقلت : كن كالمعلم الرفيق ، والمعالج الشفيق ؛ الذى يعرف الداء وسببه ، والدواء وموقعه ؛ ويصبر على طول العلاج ، ولا يسأم كثرة الترداد . وقلت : اجعل تجارتك التى إياها تؤمل ، وصناعتك التى إياها تعتمد — إصلاح الفاسد ، وردَّ الشارد . وقلت : ولا بد من استجماع الأصول ، ومن استيفاء الفروع ، ومن حسم كل خاطر ، وقمع كل ناجم ، وصرف كل هاجس ، ودفع كل شاغل ؛ حتى تتمكن من الحجة ، وتتهنأ بالنعمة ، وتجد رائحة الكفاية ؛ وتثلج ببرد اليقين ، وتفضى إلى حقيقة الأمر . وقلت : ابدأ بالأخف فالأخف ، وبكل ما كان آنق فى السمع وأحلى فى الصدر ؛ وبالباب الذى منه يؤتى الرَّيِّض المتكلّف ، والجسور المتعجرف ؛ وبكل ما كان أكثر علماً ، وأنفذ كيداً . . . فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه

نفسى ، و بلغت منه أقصى ما يمكن مثلى فى الاحتجاج للقرآن ، والرد على كل طعّان ؛ فلم أدع فيه مسألة لرافضىّ ، ولا لحديثىّ ، ولا لحشوى ؛ ولا لكافر مُبَادٍ ، ولا لمنافق مقموع ؛ ولا لأصحاب «النّظام» ، ولمن نجم بعد «النظام» ممن يزعم : أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة ؛ فلما ظننتُ أنّى قد بلغت أقصى محبتك ، وأتيت على معنى صفتك — أتانى كتابك تذكر أنك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن ، و إنما أردتَ الاحتجاج لخلق القرآن . وكانت مسألتك مبهمة ؛ فكتبتُ لك أشق الكتابين وأثقلهما ، وأغمضهما معنى ، وأطولها طولا . . . » .

ولست أعرف نقلا عن كتاب : « نظم القرآن » ؛ ولا حديثًا عنه ، ولا وصفًا له غير وصف الجاحظ هذا ؛ وأحسبه فيه من الصادقين .

وقد قلد الجاحظ فى هذه التسمية أبو بكر عبد الله بن أبى داود السجستانى ، المتوفى سنة ٣١٦ ؛ فى كتابه : « نظم القرآن » .

وأبوزيد البلخى : أحمد بن سليمان ، المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ؛ قال أبو حيان فى كتاب « البصائر والذخائر » : قال أبو حامد القاضى : لم أر كتابًا فى القرآن مثل كتاب لأبى زيد البلخي ، وكان فاضلا يذهب فى رأى الفلاسفة ، لكنه تكلم فى القرآن بكلام لطيف دقيق فى مواضع ، وأخرج سرائره ، وسماه : « نظم القرآن » ولم يأت على جميع المعانى فيه .

وكذلك أبو بكر : أحمد بن على ، المعروف بابن الإخشيد ، المعتزلى ، المتوفى سنة ٣٢٦ هـ ؛ فإنه قد ألف كتابًا أسماه : « نظم القرآن » .

وأول كتاب علمناه ، يشتمل عنوانه على كلمة الإعجاز ؛ هو كتاب: « إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه » لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى ، المعتزلى ، المتوفى سنة ٣٠٦ هـ . وهو من الكتب التى لا نعرف عنها غير أسمائها المجردة .

وقد بقى من الكتب المؤلفة فى القرن الرابع عن إعجاز القرآن ، ثلاثة كتب . أولها كتاب الرمانى ، وثانيها كتاب الخطّابى ، وثالثها كتاب الباقلانى . وهى التى نعرض لها بالبيان والتحليل ، فيما يلى :

إعجاز القرآن للرمانى :

ولد أبو الحسن : على بن عيسى الرمانى المعتزلى فى سنة ٢٧٦ ، ومات سنة ٣٨٤ وكان يعرف أيضاً بالإخشيدى ، نسبة إلى أستاذه ابن الإخشيد ، و بالوراق ؛ لأنه كان يحترف الوراقة . وقال عنه ياقوت فى معجم الأدباء ١٤/٧٤ : « كان إماماً فى علم العربية علامة فى الأدب ، فى طبقة أبى على الفارسى ، وأبى سعيد السيرافى . وله تصانيف فى جميع العلوم : من النحو واللغة والنجوم والفقه والكلام ، على رأى المعتزلة . وكان يمزج كلامه فى النحو بالمنطق ؛ حتى قال أبو على الفارسى : إن كان النحو ما يقوله الرمانى فليس معنا منه شىء ، و إن كان ما نقوله نحن ، فليس معه منه شىء » . وقال عنه أبو حيان التوحيدى فى الإمتاع والمؤانسة ١/١٣٣ : « وأما على بن عيسى فعالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق ؛ وعيب به ، لأنه لم يسلك طريق واضع المنطق ، بل أفرد صناعة ، وأظهر براعة . وقد عمل فى القرآن كتاباً نفيساً . هذا مع الدين الثخين ، والعقل الرصين » .وقال عنه فى تقريظ الجاحظ ، كما قال ياقوت ، فى معجم الأدباء ١٤/٧٦ — : « لم ير مثله قط . . . علماً بالنحو ، وغزارة فى الكلام ، و بصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، و إيضاحاً للمشكل ؛ مع تأله وتنزه ، ودين و يقين ، وفصاحة وفقاهة ، وعفافة ونظافة » .

والكتاب النفيس الذى أشار التوحيدى إليه ، هو كتاب : « الجامع لعلم القرآن » وقد ذكره الرمانى فى إعجاز القرآن .

بدأ الرمانى كتابه ببيان وجوه إعجاز القرآن ،فقال : إنها تظهر من سبع جهات وهى : ترك المعارضة ، مع توفر الدواعى وشدة الحاجة ، والتحدى للكافة ، والصرفة ، والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة ، وقياسه بكل معجزة .

ثم قسم البلاغة إلى ثلاث طبقات ، وقال : إن ما كان فى أعلاها معجز ، وهو بلاغة القرآن . ثم عرف البلاغة بأنها إيصال المعنى إلى القلب فى أحسن صورة من اللفظ ؛ وأعلاها طبقة فى الحسن بلاغة القرآن . ثم قسم البلاغة إلى عشرة أقسام ، وهى : الإيجاز ، والتشبيه ، والاستعارة ، والتلاؤم ، والفواصل ، والتجانس والتصريف ، والتضمين ، والمبالغة ، وحسن البيان .

ثم فسرها باباً باباً على ترتيبها تفسيرا وافياً شافياً . فهو — مثلا — عند ما عرض لباب الاستعارة عرفها ، وفرق بينها وبين التشبيه . ثم بين أركانها ، وقال : إن كل استعارة حسنة توجب بلاغة بيان لا تنوب منابه الحقيقة ، وذلك أنه لو كان يقوم مقامه الحقيقة كانت أولى به ، ولم تجز الاستعارة . ثم ذكر ما جاء فى القرآن من الاستعارة على جهة البلاغة ، و بدأ بقول الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ؛ فقال : « حقيقة " قدمنا " هنا : عمدنا . و " قدمنا " أبلغ منه ؛ لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر ، لأنه من أجل إمهاله لهم كعاملة الغائب عنهم . ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم . وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال . والمعنى الذى يجمعهما العدل ؛ لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل ، والقدوم أبلغ لما بينا » .

وجملة الآيات التى ذكرها فى هذا الباب على ذلك النحو المظيم — أربع وأربعون آية .

و بعد أن فرغ الرمانى من تفسير أبواب البلاغة العشر ، عاد إلى البيان عن

الوجوه السبعة التي ذكرها في أول الكتاب، وقال : إنها مظاهر إعجاز القرآن .

فأبان عن أوجه دلالتها على الإعجاز . ويعنينا أن نذكر هنا ما قاله عن توفر الدواعي » و « الصرفة » لما للأولى من دلالة خاصة ، ولأهمية الثانية .

قال : « وأما توفر الدواعي فتوجب الفعل مع الإمكان لا محالة ، في واحد كان أو في جماعة . والدليل على ذلك أن إنساناً لو توفرت دواعيه الى شرب الماء بحضرته ، من جهة عطشه واستحسانه لشربه ، وكل داع يدعو الى مثله ، وهو مع ذلك ممكن له ؛ فلا يجوز أن لايقع شربه منه حتى يموت عطشاً لتوفر الدواعي على ما بينا . فإن لم يشربه مع توفر الدواعي له دل ذلك على عجزه عنه ، فكذلك توفر الدواعي الى المعارضة على القرآن لمَّا لمْ تقع المعارضة دل ذلك على العجز عنها » .

وقال عن الصرفة : « وأما الصرفة فهي صرف الهمم عن المعارضة . وعلى ذلك يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن معارضته ، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة . وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي تظهر منها للعقول » .

وختم كتابه بالإجابة على سؤال أورده ، فقال : « فإن قيل : فلم اعتمدتم على الاحتجاج بعجز العرب دون المولدين ، وهو عندكم معجز للجميع ، مع أنه يوجد للمولدين من الكلام البليغ شيء كثير ؟ قيل له : لأن العرب كانت تقيم الأوزان والإعراب بالطباع ، وليس في المولدين من يقيم الإعراب بالطباع كما يقيم الأوزان بالطباع ؛ والعرب على البلاغة أقدر لما بينا من فطنتهم لما لا يفطن له المولدون من إقامة الإعراب بالطباع . فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز » .

وقد ذهب الرماني إلى نفي السجع من القرآن ، وتسمية ما فيه من ذلك فواصل ، لأن الأسجاع عيب ، والفواصل بلاغة ؛ لأن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما

الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ماتوجبه الحكمة فى الدلالة .

* * *

إعجاز القرآن للخطابى :

ولد أبو سليمان : حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البُسْتى سنة ٣١٩ وتوفى سنة ٣٨٨ هـ . وهو من أعلام الفكر الإسلامى فى القرن الرابع الذين امتازت كتبهم بغزارة المادة ، وعمق الفكرة ؛ ودقة الاستنباط وروعة البيان ؛ وظهرت فيها شخصيتهم واضحة المعالم ، بينة القسمات . ومن كتب الخطابى الجليلة : كتاب « غريب الحديث » و« معالم السنن فى شرح سنن أبى داود » و« أعلام السنن فى شرح البخارى » و « إعجاز القرآن » وهو أصغرها حجماً . بدأ الخطَّابى كتابه بقوله : « قد أكثر الناس الكلام فى هذا الباب قديماً وحديثاً ، وذهبوا فيه كل مذهب من القول ؛ وما وجدناهم — بعد — صَدروا عن رِىّ ؛ وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز فى القرآن ، ومعرفة الأمر فى الوقوف على كيفيته » .

ثم عرض للأقوال التى قيلت قبله فى وجوه الإعجاز ، و بدأ برأى القائلين بأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه ، وانقطعوا دونه . وعقب عليه بقوله : «وهذا — من وجوه ما قيل فيه — أبينها دلالة ، وأيسرها مؤونة ؛ وهو مقنع لمن لم تنازعه نفسه مطالعةَ كيفية وجه الإعجاز فيه » .

ثم ثنى برأى القائلين بأن العلة فى إعجازه الصرفة ، أى صرف الهمم عن المعارضة ، و إن كانت مقدوراً عليها ، غير معجوز عنها ؛ إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجارى العادات — صار كسائر المعجزات . وعلق عليه بقوله : « وهذا أيضاً وجه قريب ، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه ، وهى قوله سبحانه: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾. فأشار فى ذلك إلى أمر طريقه التكلّف والاجتهاد،

وسبيله التأهب والاحتشاد ؛ والمعنى فى الصرفة التى وصفوها لا يلائم هـذه الصفة فدل على أن المراد غيرها » .

ثم ذكر رأى الطائفة التى زعمت أن إعجازه إنما هو فيما تضمنه من الأخبار عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، وصدقت أقوالها مواقعُ أكوانها . ثم نقده بقوله : « ولا يشك فى أن هذا وما أشبهه من أخباره ، نوع من أنواع إعجازه ؛ ولكنه ليس بالأمر العام الموجود فى كل سورة من سور القرآن . وقد جعل سبحانه فى صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها ، لا يقدر أحد من الخلق أن يأتى بمثلها، فقال: ﴿ فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾، من غير تعيين . فدلّ على أن المعنى فيه غيرُ ما ذهبوا إليه » .

ثم ذكر الرأى الرابع الذى ذهب إليه الأكثرون من علماء أهل النظر ، وهو أن إعجازه من جهة البلاغة ، وقال : « ووجدت عامة أهل هذه المقالة ، قد جروا فى تسليم هذه الصفة للقرآن على نوع من التقليد ، وضرب من غلبة الظن ؛ دون التحقيق له ، و إحاطة العلم به . ولذلك صاروا إذا سئلوا عن تحديد هذه البلاغة التى اختص بها القرآن ، وعن المعنى الذى يتميز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة — قالوا : لا يمكننا تصويره،ولا تحديده بأمر ظاهر نعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام ؛ و إنما يعرفه العالمون به عند سماعه ضرْباً من المعرفة ، لا يمكن تحديده . وأحالوا على سائر أجناس الكلام الذى يقع منه التفاضل ، فتقع فى نفوس العلماء به — عند سماعه — معرفة ذلك ، ويتميز فى أفهامهم قبيل الفاضل من المفضول منه . وقد يخفى سببه عند البحث ، ويظهر أثره فى النفس ، حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به . وقد توجد لبعض الكلام عذوبة فى السمع ، وهشاشة فى النفس ، لا يوجد مثلها لغيره ؛ والكلامان معاً فصيحان ، ثم لا يوقف لشىء من ذلك على علّة » .

ثم عقب الخطابى على ذلك بقوله : « وهذا لا يقنع فى مثل هذا العلم ، ولا يشفى من داء الجهل به ؛ و إنما هو إشكال أحيل به على إبهام » .

ثم ذكر أن دقيق النظر ، وشاهد العبر ؛ قد دلاه على ما يباين به القرآن سائر الكلام ؛ وأن العلة فى ذلك : « أن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها فى نسبة التبيان متفاوتة ، ودرجاتها فى البلاغة متباينة غير متساوية . فمنها البليغ الرصين الجزل ، ومنها الفصيح القريب السهل ، ومنها الجائز المطلق الرَّسْل . وهذه أقسام الكلام الفاضل . فالقسم الأول أعلى طبقات الكلام وأرفعه ، والقسم الثانى أوسطه وأقصده ، والقسم الثالث أدناه وأقربه . فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الأقسام حصة ، وأخذت من كل نوع من أنواعها شعبة ؛ فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع صفتى الفخامة والعذوبة . وهما على الانفراد فى نعوتهما كالمتضادين ؛ لأن العذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمتانة فى الكلام تعالجان نوعاً من الوعورة . فكان اجتماع الأمرين فى نظمه — مع نُبُوّ كل واحد منهما عن الآخر — فضيلة خصّ بها القرآن » .

ثم قال : « و إنما تعذر على البشر الإتيان بمثله ، لأمور :

منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية ، و بأوضاعها التى هى ظروف المعانى ، والحوامل لها . ولا تدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض ، فيتوصلوا باختيار الأفضل عن الأحسن من وجوهها ، إلى أن يأتوا بكلام مثله . و إنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى قائم به ، ورباط لهما ناظم . و إذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة ، حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ؛ ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه . وأما المعانى

فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها ، والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها . وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام ؛ فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه ، فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير ، الذى أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً .

فتفهم الآن ، واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظوم التأليف ، مضمناً أصح المعانى : من توحيد له — عزت قدرته — وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، و بيان بمنهاج عبادته : من تحليل وتحريم ، وحَظْر و إباحة ، ومنّ ووعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر ، و إرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها . واضعاً كل شىء منها موضعه الذى لا يرى شىء أولى منه ، ولا يرى فى صورة العقل أمر أليق منه ؛ مُودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مَثُلَات الله بمن عصى وعاند منهم ؛ منبئاً عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الباقية من الزمان ؛ جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، و إنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه . ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق — أمر يعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قُدَرُهم ؛ فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله » .

وأنى لهم ذلك وأمر معاناة المعانى التى تحملها الألفاظ ، شديد بالغ الشدة «لأنها نتائج العقول ، وولائد الأفهام ، و بنات الأفكار .

وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر ؛ لأنها لجام الألفاظ وزمام المعانى ، و به يتصل أخذ الكلام ، و يلتئم بعضه ببعض ؛ فتقوم له صورة فى النفس يتشكل بها البيان » .

ثم ذكر أقوال المعاندين للقرآن ، لما عجزوا عن معارضته ؛ وقال : « إن عمود هذه البلاغة التى تجتمع لها هذه الصفات ، هو وضع كل نوع من الألفاظ التى تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذى إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إمّا تبدل المعنى الذى يكون منه فساد الكلام ، و إما ذهاب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة . ذلك أن فى الكلام ألفاظاً متقاربة فى المعانى يحسب أكثر الناس أنها متساوية فى إفادة بيان مراد الخطاب؛ كالعلم والمعرفة والحمد والشكر . . . والأمر فيها وفى ترتيبها عند علماء اللغة بخلاف ذلك ؛ لأن لكل لفظة منها خاصّية تتميز بها عن صاحبتها فى بعض معانيها ، و إن كانا قد يشتركان فى بعضها ». ثم مضى يبين الفروق بين معانى الكلمات التى ذكرها ، وأتبعها بطائفة الاعتراضات التى وجهت إلى القرآن ، أو التى يمكن أن توجه إليه ؛ كتأليف معظم كلامه من ألفاظ مبتذلة فى مخاطبات العرب ، مستعملة فى محاوراتهم ؛ وقلة حظه من الغريب المشكل ، بالإضافة إلى واضحه الكثير ؛ وقلة عدد الفقر والغرر من ألفاظه ، بالقياس إلى مباذله ومراسيله. والقول بأن كثيراً من العبارات الواقعة فى القرآن ، لم تقع فى أفصح وجوه البيان وأحسنها ، وأنه قد عرض فيه سوء التأليف من نسق الكلام على ما ينبو عنه ولا يليق به ، و إدخاله بين الكلامين ما ليس من جنسهما ، مع ما فيه من الحذف والاختصار ، ومضاعفة التكرار ؛ وغير ذلك مما يشكل معه الكلام ، و يستغلق معناه ، ويخرج به عن حد الفصاحة العالية والبلاغة السامية .

ثم كر على تلك الاعتراضات فنقضها ، وفصّل القول فى تأويل الآيات الكثيرة التى أوردوها . و بين أسرار بلاغتها تبييناً ترتاح إليه القلوب ، وتطمئن له العقول . ثم قال : « وفى إعجاز القرآن وجه آخر ، ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم . وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإنك

لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً ، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى — ما يخلص منه إليه . تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب والقلق ، وتغشاها من الخوف والفرق ما تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب . يحول بين النفس و بين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . فكم من عدو للرسول ، صلى الله عليه وسلم ، من رجال العرب وفتّاكها ، أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات من القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول ، وأن يركنوا إلى مسالمته و يدخلوا فى دينه؛ وصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً » . ثم أورد من المثل التاريخية ، والآيات القرآنية ؛ ما هو مصداق لما وصفه من أمر القرآن . وكان ذلك خاتمة الكتاب .

ثم ألف بعد الرمانى والخطابى معاصرهما أبو بكر الباقلانى ، كتابه إعجاز القرآن .

* * *

الباقلانى وإعجاز القرآن :

هو أبو بكر : محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلانى ، أو ابن الباقلانى .

ولد بالبصرة ، ولم يعين أحد من المؤرخين عام ولادته ؛ وقد تلقى العلم على أعلامها ، ثم رحل إلى بغداد فأخذ عن علمائها ، ثم اتخذها داراً لإقامته ، حتى قضى نحبه فيها . ولم يذكر أحد كذلك متى رحل إليها أول ما رحل ؛ ولا متى اتخذها مستقراً ؟

وقد أتيح للباقلانى أن يتتلمذ لطائفة من العلماء الذين جمعوا بين العلم

والعمل ، وشهروا بالورع والتقوى . ونحن نشير إلى من وقفنا عليه منهم ، فيما يلى :

(١) فمنهم أبو بكر الأبهرى : محمد بن عبد الله (٢٨٩ — ٣٧٥ هـ) شيخ المالكية فى عصره ؛ وقد أخذ عنه الباقلانى الفقه ، وصحبه فأطال صحبته ومما يؤثر عن الأبهرى أنه أخرج فى آخر حياته ثلاثة آلاف مثقال ، وفرقها على تلامذته ، وكانوا جماعة وافرة ، وآثر الباقلاني فأعطاه منها مائة مثقال .

(٢) أبو بكر : أحمد بن جعفر بن مالك القَطِيعى روای مسند الإمام أحمد (٢٧٤ — ٣٦٨) ؛ وقد أخذ عنه الحديث .

(٣) أبو محمد : عبد الله بن إبرهيم بن أيوب بن ما سى (٢٧٤—٣٦٩) .

(٤) أبو عبد الله : محمد بن خفيف الشيرازى المتوفى سنة ٣٧١ . وقد أخذ عنه الباقلانى علم الأصول .

(٥) ابن بهته : محمد بن عمر ، البزاز ، المتوفى سنة ٣٧٤ .

(٦) أبو أحمد : الحسين بن على النيسابورى ، (٢٩٣ — ٣٧٥) .

(٧) أبو أحمد : الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى (٢٩٣—٣٨٢) .

(٨) أبو محمد : عبد الله أبى زيد القيراونى ، المتوفى سنة ٣٨٦ عن ست وسبعين سنة .

(٩) أبو عبد الله الطائى : محمد بن أحمد بن محمد بن يعقوب بن مجاهد ، البصرى ، صاحب أبى الحسن الأشعرى . وقد درس عليه الباقلانى الأصول والكلام ، وكان من أخص تلاميذه .

(١٠) أبو الحسن الباهلى البصرى صاحب أبى الحسن الأشعرى ؛ قال الباقلانى: « كنت أنا وأبو إسحاق الإسفراينى ، وابن فورك معاً فى درس الشيخ الباهلى ، وكان يدرس لنا فى كل جمعة مرة واحدة ، وكان منا فى حجاب ، يرخى الستر بيننا و بينه كى لا نراه . وكان من شدة اشتغاله بالله مثل واله أو مجنون ، لم يكن « يعرف مبلغ درسنا حتى نذكِّره ذلك » . ولم يكن الباهلى يحتجب عن هؤلاء

الثلاثة فقط ، بل كان يحتجب عن كل الناس ، حتى عن الجارية التى كانت تخدمه . وقد سأله تلاميذه فى أول عهدهم به عن سبب إرساله الحجاب بينه و بينهم فقال : « إنكم ترون السوقة ، وهم أهل الغفلة ، فترونى بالعين التى ترون أولئك بها » ! وذكر ابن شاكر فى « عيون التواريخ » أن الباهلى مات سنة ٣٧٠ .

وكان الباهلى وابن مجاهد ، أعرف العلماء بمذهب الأشعرى ، وأشدهم فقهاً له ، وأقوامهم حجة فى الدفاع عنه ؛ لأنهما كانا من أقرب تلاميذه إليه . وقد سجل المؤرخون للأشعرى : أن أخص تلاميذه به أربعة : أبو بكر بن مجاهد ، وأبو الحسن الباهلى ، وأبو الحسن الطبرى ، وخادمه بندار بن الحسين الشيرازى المتوفى ٣٥٣هـ .

وقد تلقى الباقلانى عليهما أصول المذهب ، فتعشقه واندفع فى نصرته ، بما عرف عنه من قوة الحجة ، و براعة المحاورة ، وسرعة البديهة ، وطلاقة اللسان ، وغزارة البيان . فطار صيته فى الآفاق ، وهو ما زال بعد فى ريعان الصبا وفتاء الشباب ؛ حتى وصل إلى أعلام المعتزلة بشيراز .

وكانت شيراز فى ذلك الوقت حاضرة ملك أبي شجاع فَنّاخسرو بن ركن الدولة البويهى . الذى آل إليه ملك فارس بعد وفاة عمه عماد الدولة فى سنة ٣٣٨ ، فتلقب بعضد الدولة .

وكان عضد الدولة أميراً عظيم الهيبة ، غزير العقل ، شديد التيقظ ، كثير الفضل ، واسع الثقافة ، مشاركاً فى العلوم ، قد تعلم على أحسن المعلمين . فكان يقدر العلم والعلماء ، ويحب الأدب والأدباء ، ويؤثر مجالستهم على مجالسة الأمراء ؛ ويجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين ، والنحاة والمفسرين ، والشعراء والمتكلمين ، والأطباء والمهندسين .

وكانت له خزانة كتب عظيمة ، عنى بها عناية فائقة ، يدل عليها وصف المقدسى لها بأنها « حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف . ولم يبق كتاب

صنف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها . وهى أزج طويل فى صُفّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد ألصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ! والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه » .

وكان يقرض الشعر ويتمثل به ، ويحكم على معانيه بعد التقدير له ؛ فقصده العلماء من كل فج ، وصنفوا له الكتب ؛ كأبى على الفارسى الذى ألف له كتاب « الإيضاح » ، وكتاب « التكملة » فى النحو . وارتحل إليه الشعراء كأبى الطيب المتنبى الذى ورد عليه بشيراز فى جمادى الأولى سنة ٣٥٤ ، وأنشده قصيدته الهائية التى يقول فيها :

وقد رأيتُ الملوكَ قاطبةً ... وسرتُ حتى رأيت مولاها
ومن مناياهُم براحته ... يأمرها فيهمُ وينهاها
أبا شُجاعٍ بفارسٍ عَضُدَ الدْ ... دَوْلة فَنَّاخُسْرَوْ شَهَنْشَاها
أسَامِياً لم تزده معرفة ... وإنما لذةً ذكرْناها

وقد أفرد عضد الدولة فى داره لأهل الخصوص والحكماء والفلاسفة ، موضعاً يقترب من مجلسه ؛ فكانوا يجتمعون فيه للمفاوضة والمذاكرة ، آمنين من السفهاء ورعاع العامة . وكان مجلسه هذا يحتوى على شياطين المعتزلة ، كأبى سعد بشر بن الحسين قاضى قضاة شيراز ، المتوفى سنة ٣٨٠ ، والأحدب رئيس المعتزلة ببغداد ، وأبى إسحق النصيبينى رئيسهم بالبصرة وأبى الحسن : محمد بن شجاع .

وقد لاحظ عضد الدولة خلو مجلسه من أهل السنة ، فقال : هذا مجلس عامر بالعلماء ، إلا أنى لا أرى فيه واحداً من أهل الإثبات والحديث ؛ أما لهؤلاء المثبتة من ناصر؟ فقال القاضى بشر بن الحسين : ليس لهم ناصر ، وإنما هم عامة ، أصحاب

تقليد ورواية ، يروون الخبر وضدّه و يعتقدونهما جميعاً ، لا يعرفون النظر ؛ والمعتزلة هم فرسان الجدل والمناظرة . فقال عضد الدولة : محال أن يخلو مذهب طبق الأرض من ناصر! فانظر إلى موضع فيه منـاظر يكتب فيه فيجلب . فلمّا تبين القـاضى العزم فى حديثـه ، قال : سمعت أن بالبصرة شيخاً وشابًّا ، الشيخ يعرف بأبى الحسن الباهلى ، والشاب يعرف بابن الباقلانى . فكتب عضد الدولة يومئذ إلى عامله بالبصرة ليبعثهما إليه ، وأرسل إليهما خمسة آلاف درهم من الفضة . فلما وصل الـكتاب إليهما قال الشيخ : هؤلاء الديلم قوم كفرة فسقة روافض ، لا يحل لنا أن نطأ بساطهم ؛ وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال : إن مجلسه مشتمل على أصحاب المحابر كلهم ؛ ولو كان ذلك خالصاً لله لنهضت . وشايعه على ذلك بعض أصحابه . ولـكن الباقلانى لم يعجبه رأى شيخه فقال له : كذا قال ابن كلاب والحارث بن أسد المحاسبى ومن فى عصرهم : إن المأمون فاسق ظالم لا نحضر مجلسه ، حتى ساق أحمد بن حنبل ؛ وجرى عليه بعد مما عُرف ؛ ولو ناظروه لـكفّوه عن هذا الأمر ، وتبين له ما هم عليه بالحجة . وأنت أيضًا — أيها الشيخ — تسلك سبيلهم حتى يجرى على الفقهاء ما جرى على أحمد ، و يقولوا : بخلق القرآن ونفى الرؤية . وها أنا خارج إن لم تخرج . فقال الشيخ : أما إذا شرح الله صدرك لذلك فافعل .

قال الباقلانى : فخرجت إلى شيراز ، فلما دخلت المدينة استقبلنى ابن خفيف فى جماعة من الصوفية وأهل السنة ؛ فلما جلسنا فى موضع كان ابن خفيف يدُارس فيه أصحابه « اللّمع » للشيخ أبى الحسن الأشعرى ، فقلت له : تَمادَ على التدريس كما كنت ؛ فقال لى : أصلحك الله ، إنما أنا بمنزلة المتيمم عند عدم الماء ، فإذا وُجد الماء فلا حاجة الى التيمم . فقلت له : جزاك الله خيراً ، وما أنت بمتيمم ، بل لك حظ وافر من هذا العلم ، وأنت على الحق ، والله ينصرك .

ثم قلت : متى الدخول إلى فَنَّاخُسْرو ؟ فقالوا لى : يوم الجمعة لا يحجب عنه صاحب طيلسان . فدخلت والناس قد اجتمعوا ، والملك قاعد على سرير ملكه ، والناس صفوف على يسار الملك ، وفوق الكل قاضى القضاة بشر بن الحسين ، وكان يدخل مع الوزراء فى وزارتهم ، ويصغى الملك إلى رأيه فى أمر الدولة ، فلما رأيت ذلك كرهت أن أتقدم على الناس وأتخطى رقابهم ، من غير أن أرفع ؛ ولم تدعنى نفسى أن أقعد فى أخريات الناس . وكان عن يمين الملك المجلسُ خالياً ، ولا يقعد هناك إلا وزير وملك عظيم . فمضيت وقعدت عن يمينه ، بحذاء قاضي القضاة ، فوجدوا من ذلك ، وفزعوا واضطربوا ؛ لأنه كان عندهم من الجنايات العظام ؛ ونظر الملك لقاضى القضاة نظراً منكراً ، وما فى المجلس من يعرفني إلا رجل واحد . فقال للقاضى : هذا هو الرجل الذى طلبه الملك من البصرة ، فأعلم الملك بذلك ، فقال قاضى القضاة : أطال الله بقاء مولانا ، هذا هو الرجل الذى كتبت فيه ، وهو لسان المثبتة . فنظر الملك إلى الغلمان والحجّاب فطاروا من بين يديه ، ثم قال : اذكروا له مسألة ، وكان فى المجلس رئيس البغداديين من المعتزلة ، وهو الأحدب ، وكان أفصح من عندهم وأعلمهم ، وعدد كثير من معتزلة البصرة ، أقدمهم أبو إسحاق النصيبيني ؛ فقال الأحدب لبعض تلاميذه : سله ، هل لله أن يكلِّف الخلق ما لا يطيقون ؛ أو ليس له ذلك ؟ — وكان غرضه تقبيح صورتنا عند الملك — فقلت له : إن أردتم بالتكليف القول المجرَّد فقد وجد ذلك ، لأن الله تعالى قال : ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ ؛ ونحن لا نقدر أن نكون حجارة ولا حديداً . وقال تعالى : ﴿ أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ﴾ ؛ فطالبهم بما لا يعلمون ؛ وقال تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ . وهذا كله أمر بما لا يقدر عليه الخلق . وإن أردتم بالتكليف

الذى نعرفه ، وهو ما يصح فعله وتركه . فالكلام متناقض ، وسؤالك فاسد ؛ فلا تستحق جواباً ؛ لأنك قلت : تكليف ، والتكليف : اقتضاء فعل ما فيه مشقة على المكلّف؛ وما لا يطاق لا يفعل لا بمشقة ولا بغير مشقة . فسكت السائل ، وأخذ الكلام الأحدب فقال : أيها الرجل ، أنت سئلت عن كلام مفهوم فطرحته فى الاحتمالات ، وليس ذلك بجواب ؛ وجوابه إذا سئلت أن تقول : نعم أو لا . فأحفظنى كلامه لمّا لم يوقرنى توقير الشيوخ ولم يخاطبنى بما يليق . وقلت له : يا هذا أنت نائم ورجلاك فى الماء : إنما طرحت السؤال فى الاحتمالات ، وقد بينت لك الوجوه المحتملة ؛ فإن كان معك فى المسأله كلام فهاته ؛ و إلا تكلم فى غيرها . فقال الملك للأحدب : أيها الشيخ ، قد بيّن الاحتمال؛ وليس لك أن تعيد عليه ، ولا أن تغالطه ؛ ثم إنى ما جمعتكم إلا للفائدة لا للمهاترة ، ولما لا يليق بالعلماء . ثم التفت إلىّ وقال لى : تكلم على المسألة . فقلت : ما لا يطاق على ضربين : أحدهما لا يطاق للعجز عنه ، والآخر لا يطاق للاشتغال عنه بضده ؛ كما يقال : فلان لا يطيق التصرف لاشتغاله بالكتابة وما أشبه ذلك ، وهذا سبيل الكافر : أنه لا يطيق الإيمان ؛ لا لأنه عاجز عن الإيمان ، لكنه لا يطيقه لاشتغاله بضده الذى هو الكفر ؛ فهذا يجوز تكليفه بما لا يطاق . وأما العاجز فما ورد فى الشريعة تكليفه ، ولو ورد لكان جائزاً وصواباً ؛ وقد أثنى الله تعالى على من سأله ألا يكلّفه ما لا يطيق ، فقال عز وجل : (ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) ؛ لأن الله تعالى له أن يفعل فى ملكه ما يريد . ثم تجاوز الأحدب الكلام إلى غيره ، ومال الملك إلى قولى .

ثم سألنى النصيبينى عن مسألة الرؤية : هل يرى البارى سبحانه بالعين ؟ وهل تجوز الرؤية عليه أو تستحيل ؟ وقال : كل شئ يُرَى بالعين ، فيجب أن يكون فى مقابلة العين . فالتفت الملك إلىّ وقال : تكلَّم أيها الشيخ فى المسألة .فقلت : لو كان

الشيء يرى بالعين لوجب أن يكون فى مقابلة العين على ما قال ، ولكن لا يرى الله بالعين . فتعجب الملك من قولى ، والتفت إلى قاضى القضاة ، فقال : إذا لم ير الشيء بالعين ، فبأى شيء يرى ؟ فقال : يسأله الملك . فقال : أيها الشيخ ، فبأى شيء يُرى إذا لم ير بالعين ؟ فقلت : يرى بالإدراك الذى فى العين ؛ ولو كان الشيء يرى بالعين لكان يجب أن تَرَى كلُّ عين قائمة ؛ وقد علمنا أن الأجهر عينه قائمة ولا يرى شيئاً .فزاد الملك تعجباً ، وقال للنصيبينى : تكلّم . فقال : إنى لم أعلم أنه يقول هذا ، ولا بنيت إلا على ما نعرف ؛ وظننت أنه يسلم أن الشيء يرى بالعين ! فغضب الملك وقال : ما أنت مثل الرجل ؛ لأنك بنيت المسألة على الظن . ثم التفت إلىّ وقال لى : تكلم أنت . فقلت : العين لا ترى ، و إنما تُرَى الأشياء بالإدراك الذى يحدثه الله تعالى فيها ، وهو البصر ؛ ألا ترى أن المحتضر يرى الملائكة ونحن لا نراهم ؟ وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يرى جبريل عليه السلام ، ولا يراه من يحضُره ؟ والملائكة يرى بعضهم بعضاً ولا نراهم نحن ؟ والدليل على جواز رؤية البارى تعالى أنه ليس فيها قلب للحقائق ، ولا إفساد للأدلة ، ولا إلحاق صفة نقص بالقديم تعالى ؛ فوجب أن يكون كسائر الموجودات ؛ لأنه تعالى موجود ، والشيء إنما يرى لأنه موجود ، لأن المرئىّ لم يكن مَرْئيًا لأنه جنس ؛ لأنا نرى سائر الأجناس المختلفة ؛ ولا لقيام معنى بالمرئىّ ؛ لأنا نرى الأعراض التى لا تحمل المعانى ؛ وقد ثبت بالنص وجوب رؤية الحق سبحانه فى الدار الآخرة . ثم جرى فى المجلس كلام كثير ، وقال الملك على إثره لقاضى القضاة : ألم أقل لك: إن مذهباً طبّق الأرض لا بد له من ناصر . ولما انقضى المجلس صحبنى بعض الحجاب إلى منزل هُيِّئَ لى فيه جميع ما أحتاج إليه ، فسكنته .

ولما خرج الباقلانى قال الملك لقاضيه : فكرت بأى قتلة أقتله لجلوسه حيث جلس بغير أمرى ؛ وأما الآن فقد علمت أنه أحق بمكانى منى .

ثم دفع إليه ابنه صمصام الدولة ، ليعلمه مذهب أهل السنة ؛ فعلمه وألف له كتاب « التمهيد » .

ولم يزل الباقلانى مع عضد الدولة ، إلى أن قدم بغداد . وكان دخوله إياها فى سنة ٣٦٧ ؛ وظل الباقلانى أثيراً لديه ، حتى إنه جعله رئيس البعثة التى أوفدها فى سنة ٣٧١ إلى ملك الروم .

وقد قال الأستاذ « محمود محمد الخضيرى » والدكتور « محمد عبد الهادى أبو ريدة » فى مقدمتهما لكتاب التمهيد : « إن هذه المناظرة جرت فى مجلس الإمبراطور باسيليوس الثانى ، الذى حكم من سنة ٣٦٥ إلى سنة ٤١٦ هـ » ؛ ثم قالا : « ومهما يكن أمر سفارة الباقلانى بين عضد الدولة و بين ملك الروم ، فنحن لا نعرف ظروفها التاريخية ، وربما كان ملك الروم قد أراد من يبين له أمر الإسلام أو يجيب عن أسئلة النصارى بشأن مايعتقده المسلمون . ويتبين من تفصيل المناقشات أن مهمة الباقلانى كانت مدنية علمية ، هى أشبه ببعثة تبادل الآراء ومعرفة وجهات النظر الدينية ، لا سيما وأنه ليس عندنا فى التاريخ ما يدل على اتصال وثيق بين عضد الدولة و بين الروم من شأنه أن يكون داعياً لبعثات سياسية أو حربية أو ما أشبه ذلك ، وأن المؤرخين يشيرون إلى هذه السفارة باختصار ، أوهم يذكرون ما يدل على صبغتها الفكرية الدينية الخالصة . على أنه من الجائز أن يكون ظهور شأن السلطان الفاتح عضد الدولة ، بعد حروب دامت طويلا بين البيزنطيين والمسلمين و بعد تمرد أحد قواد الروم على الإمبراطور فى الشرق ، كان مما دعا الإمبراطور البيزنطى إلى عقد صلات التعارف مع عضد الدولة » . ثم قالا : « إن الغرض الذى رمى إليه عضد الدولة من بعثة الباقلانى إلى بيزنطة هو إرضاء شعور المسلمين بالسعى فى تحرير أسراهم المعذبين لدى الروم » .

وكان خليقاً بالأستاذين الفاضلين ألا يكتبا هذا الكلام البيزنطى بعد نقلهما

لقول ابن الأثير : إن عضد الدولة أرسل الباقلانى إلى ملك الروم فى جواب رسالة وردت منه . وكان حسبهما أن يسجلا على أنفسهما عدم « معرفة ظروفها التاريخية » فإن ذلك كان أسلم لهما ، وكان يمنعهما من أن يتورطا فيما تورطا فيه .

فليس صحيحاً ما قالاه من أنه « ليس فى التاريخ ما يدل على اتصال وثيق بين عضد الدولة و بين الروم من شأنه أن يكون داعياً لبعثات سياسية أو حربية » ، وليس صحيحا كذلك أن المؤرخين أشاروا إلى هذه السفارة باختصار ، ودلّوا على صبغتها الدينية الخالصة ، وليس صحيحاً مرة ثالثة أن عضد الدولة قد قصد من بعثة الباقلانى إرضاء شعور المسلمين بالسعى فى تحرير أسراهم .

أجل إن هذه الأقوال كلها ليست من الصحة والصواب فى شىء ، فقد بين المؤرخون لتلك الفترة من الزمان الاتصال الوثيق بين عضد الدولة وملك الروم ، وأن البعثات السياسية قد تبودلت بينهما عدة مرات منذ سنة ٣٦٩ حتى وفاة عضد الدولة فى شوال سنة ٣٧٢ ، وأن وفد الروم الثالث أدرك وفاة عضد الدولة وحضر مجلس صمام الدولة وتسلم منه الهدايا وتم عقد المعاهدة . ومجمل ما فصله المؤرخون فى ذلك: أنه لما توفى أرمانوس ملك الروم وقام بعده ابناه باسيل وقسطنطين، افترقت كلمة الروم ، وطمع كبار القواد فى الاستئثار بالملك . وكان ممن طمع فى ذلك السقلاروس المعروف بورد الرومى ؛ فجمع الجموع واستجاش بالمسلمين من الثغور ، وكاتب أبا تغلب بن حمدان وواصله وصاهره ، وأخرج إليه الملكان عسكرًا بعد عسكر فكسرهم ، وجرت بين الفريقين معارك طاحنة ، انتهت فى يوم الأحد لثمان بقين من شعبان سنة ٣٦٨ هـ بانهزام السقلاروس ؛ وقد توجه بعد هزيمته إلى ديار بكر ، ونزل بظاهر ميافارقين ، وأنفذ أخاه قسطنطين إلى عضد الدولة يستنصره على ملكى الروم ، ويعده ببذل الطاعة وحمل الخراج إذا انتصر ؛ فأحسن عضد الدولة استقباله ، ووثق إليه بخطه ، ووعده بجميل إنجاده ؛ وتطاول مقام قسطنطين لدى

عضد الدولة ، وانتهى خبره إلى الملكين الأخوين بقسطنطينية ؛ فأنفذا إلى عضد الدولة كاتباً لهما وجيهاً أريباً ، يسمى نقفور ، ويعرف بالأورانوس ، ليفسد ماشرع فيه مع السقلاروس ؛ واجتمع الرسولان على بساط عضدالدولة يتنافسان فى التقرب إليه ، ويستبقان إلى التماس الذمام منه ، ولم ينصرفا إلى أن انسلخت سنة تسع وستين وثلثمائة. وذلك أمر لم يكن مثله قط ، ويعده المؤرخون من مآثر عضد الدولة .

وكان طلب الأورانوس ينحصر فى تسليم السقلاروس ولو بابتياعه ، والوعد بتأمينه ومن معه ، وإخراج كل أسير للمسلمين فى بلاد الروم . فمال عضد الدولة إلى ذلك ، واحتال حتى حمل إليه عامله على ديار بكر السقلاروس مقبوضاً عليه ، فأكرمه بعد أن احتاط عليه ، ووعده بإطلاقه وتجريد عساكر معه لنصرته ، ثم وعد الأورانوس خيراً ، وأخرج معه الباقلانى بجواب الرسالة ، وعاد الباقلانى بمشروع معاهدة ، ومعه رسول يعرف بابن قونس ليأخذ إمضاء عضد الدولة عليها ، ولكن عضد الدولة بدا له أن يظفر فى المعاهدة باسترجاع بعض الحصون ، فأعاد ابن قونس وأرسل معه أبا إسحاق بن شهرام ، ورجع ابن شهرام بمشروع المعاهدة الأخير ، ومعه رسول يعرف بنقفور الكانكلى ، ولكن وصولهما صادف اشتداد العلة على عضد الدولة وموته فى الثامن من شوال . ووقع المعاهدة صمصام الدولة على شرطين : أولهما عقد الهدنة لمدة عشر سنوات ، وتسليم الحصون التى اشترط ابن شهرام استرجاعها ؛ وثانيهما اطلاق نقفور بعد أخذ خط ملك الروم بتأمينه ، وإرجاعه إلى مرتبته .

ذلك مجمل ما كان من أمر الصلة بين عضد الدولة وبين ملك الروم ، والبعثات العديدة التى كانت بينهما ، والتى قال الأستاذ الخضيرى والدكتور أبو ريدة : إنه ليس فى التاريخ مايدل عليها . ورتبا على ذلك مارتبا من شتى الفروض والاحتمالات .

ولو قد فطنا لقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٧٠ : « إن عضد الدولة أرسل الباقلانى إلى ملك الروم فى جواب رسالة » وقدرا قوله هذا حق قدره ، ورجعا إلى كلامه فى حوادث سنة ٦٩ — لألفياه يفصل القول فى السبب الذى دعا ملك الروم إلى مراسلة عضد الدولة ومفاوضته ، وطلب عقد الهدنة معه ٨/٢٥٥ — ٢٥٦.

* * *

وعند ما تهيأ الباقلانى للخروج إلى القسطنطينية ، قال له أبو القاسم المطهر بن عبد الله ، وزير عضد الدولة : الطالع خروجك . فسأله عن معنى هذا الكلام ، فلما فسّر له مراده ، قال الباقلانى : لا أقول بهذا ؛ لأن السعد والنحس كله والشر والخير بيد الله عز وجل ، وليس للكواكب هاهنا مثقال ذرة من القدرة ؛ و إنما وضعت كتب المنجمين ليتعيش بها الجاهلون من العامة ، ولا حقيقة لها . فقال الوزير : أحضروا إلى أبا سليمان المنطقى ، فليست المناظرة من شأنى ، ولا أنا قائم بها ؛ و إنما أنا أحفظ علم النجوم وأقول : إذا كان من النجوم كذا كان كذا ، وأما تعليله فهو من علم المنطق . فأحضر وأمر بمكالمة الباقلانى ، فقال أبو سليمان للوزير : هذا القاضى يقول : إن البارى — سبحانه — قادر على أن يُركب عشرةَ أنفس فى ذلك المركب الذى فى دجلة ، فإذا وصلوا الجانب الآخر يكون الله قد زاد فيهم آخر فيكونون أحد عشر ، ويكون الحادى عشر قد خلقه الله فى ذلك الوقت . ولو قلت أنا : لا يقدر على ذلك ، أو هو محال ؛ قطعوا لسانى وقتلونى ، و إن أحسنوا إلىّ كتّفونى ورمونى فى الدجلة . و إذا كان الأمر كما ذكرتُ لم يكن لمناظرتى معه معنى!! فالتفت الوزير إلى الباقلانى وقال: ما تقول أيها القاضى؟ فقال : ليس كلامنا هاهنا فى قدرة البارى تعالى ، والبارى قادر على كلّ شىء ، و إن جحده هذا الجاهل ؛ و إنما كلامنا فى تأثيرات هذه الكواكب ؛ فانتقل إلى

ما ذكر لعجزه وقلّة معرفته ؛ وإلا فأيّ تعلّق للكلام فى قدرة البارى عز وجل فى مسألتنا ؟ وأنا وإن قلت : إن القديم ، تعالى ، قادر على ذلك ؛ ما أقول : إنه يخرق العادة ويفعل هذا ؛ لأنه لا يجوز عندنا أن يخلق اليوم إنساناً من غير أبوين ؛ فإذا كان كذلك ، فقد علم الوزير أن هذا فرار من الزحف . فقال الوزير : هو كما ذكرت . وقال أبو سليمان المنطقى : المناظرات دُرْبَة وتجربة ، وأنا لا أعرف مناظرات هؤلاء القوم ، وهم لا يعرفون مُوَاضَعَاتنا وعباراتنا ، ولا تجمل المناظرة بين قوم هذا حالهم . فقال له الوزير : قبلنا اعتذارك ، والحق أبلج . ثم مال إلى الباقلانى بوجهه ، وقال له : سر فى رعاية الله . قال الباقلانى : « فخرجت فدخلنا بلاد الروم حتى وصلنا إلى ملك الروم بالقسطنطينية ؛ وأخبر الملك بمقدمنا ، فأرسل إلينا من يلقانا ، وقال : لا تدخلوا على الملك بعمائمكم حتى تنزعوها ، إلا أن تكون مناديل لطافاً ؛ وحتى تنزعوا أخفافكم . فقلت : لا أفعل ، ولا أدخل إلا بما أنا عليه من الزِّىّ واللباس ؛ فإن رضيتم ، وإلا فخذوا الكتب تقرأونها ، وأرسلوا بجوابها ، وأعود بها . فأخبر بذلك الملك ، فقال : أريد معرفة سبب هذا ، وامتناعه عما مضى عليه رسمى مع الرسل ؟ فسئلت عن ذلك ، فقلت : أنا رجل من علماء المسلمين ، وما تحبونه منا ذُلّ وصَغار ؛ والله تعالى قد رفعنا بالإسلام ، وأعزّنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ وأيضا فإن من شأن الملوك إذا بعثوا رسلهم إلى ملك آخر رفع أقدارهم ، لا إذلالهم ؛ سيما إذا كان الرسول من أهل العلم ؛ ووضْعُ قدره انهدام جانبه عند الله تعالى ، وعند المسلمين . فعرّف الترجمان الملك بذلك ، فقال : دعوه يدخل ومن معه كما يشاءون . فدخل الباقلانى ومن معه كما أرادوا ، وسأله الملك عن السبب فى امتناعه عن اتباع ما جرى به رسمه مع الرسل من قبل ؛ فشرح وجهة نظره ؛ وذكّره : أن رسوله قد دخل بملابسه على أمير المؤمنين الطائع ، وأدخل بها على السلطان عضد الدولة ؛ ثم قال : « فما تنكرون

عليّ هذا ؛ وأنا رجل من علماء المسلمين ؟ فإن دخلت بغير هيئتي ، ورجعت إلى إلى حكمك أهنت العلم ونفسي ، وذهب عند المسلمين جاهي . فقال الملك لترجمانه : قل له : قد قبلنا عذرك ، ورفعنا منزلتك ؛ وليس محلك عندنا محل سائر الرسل ، و إنما محلك عندنا محل الأبرار الأخيار ؛ وقد أخبرنا صاحبكم في كتابه أنك لسان المسلمين ، والمناظر عنهم ؛ وأنا أشتهي أن أعرف ذلك منك ، كما ذكروه عنك . فقلت : إذا أذن الملك . فقال : انزلوا حيث أعددت لكم ، ويكون بعد هذا الاجتماع . فنهضنا إلى موضع أعدّ لنا . فلما كان يوم الأحد بعث الملك في طلبي ، وقال لي من بعثه : من شأن الرسول حضور مائدة الملك ؛ فيجب أن تجيب إلى طعامنا ، ولا تنقض كل رسومنا . فقلت له : أنا من علماء المسلمين ، ولستِ كالرسل من الجند وغيرهم الذين يُعرَّفون ما يجرى في هذا الموطن عليهم ؛ والملك يعلم أن العلماء لا يقدرون أن يدخلوا في هذه الأشياء وهم يعلمون ؛ وأخشى أن يكون على مائدته من لحوم الخنازير ، وما حرّمه الله تعالى ، على رسوله وعلى المؤمنين . فذهب الترجمان وعاد عليّ ، وقال : يقول لك الملك : ليس على مائدتي ، ولا في شيء من طعامي شيء تكرهه ، وقد استحسنت ما أتيت به ؛ وما أنت عندنا كسائر الرسل ، بل أعظم ؛ وما كرهتَ من لحوم الخنازير إنما هو خارج من حضرتي ؛ بيني وبينه حجاب . فنهضت على كل حال ، وجلست وقدّم الطعام ، ومددت يدي وأوهمت الأكل ؛ ولم آكل منه شيئاً ، مع أني لم أر على مائدته ما يكره .

فلما فرغ من الطعام بخر المجلس وعَطّره ، ثم قال :

هذا الذي تدّعونه في معجزات نبيكم : من انشقاق القمر ؛ كيف هو عندكم ؟

فقلت : هو صحيح عندنا ؛ انشق القمر على عهد رسول الله حتى رأى الناس ذلك ؛ و إنما رآه الحضور ومن اتفق نظره إليه في تلك الحال .

فقال الملك : وكيف : ولم يره جميع الناس ؟ ! .

قلت : لأن الناس لم يكونوا على أهبة ووعد لشقوقه وحضوره .

فقال : وهذا القمر بينكم و بينه نسبة وقرابة ؟ ! لأى شيء لم تعـــرفه الروم وغيرها من سائر الناس ؛ و إنما رأيتموه أنتم خاصة ! ؟

قلت : فهذه المائدة بينكم وبينها نسبة ؟ وأنتم رأيتموها دون اليهود والمجوس والبراهمة وأهل الإلحاد ، وخاصة يونان جيرانكم ؛ فإنهم كلهم منكرون لهذا الشأن ، وأنتم رأيتموها دون غيركم ؟ .

فتحَيّر الملك ، وقال بكلامه : سبحان الله . وأمر بإحضار فلان القسيس ليكلمنى ، وقال : نحن لا نطيقه ؛ لأن صاحبه قال : ما فى مملكتى مثله ، ولا للمسلمين فى عصره مثله . فلم أشعر إذ جاء برجل كالذئب ، أشقر الشعر ؛ فقعد ، وحُـكيت عليه المسأله ؛ فقال : الذى قاله المسلم لازم ، وهو الحق ؛ لا أعرف له جواباً إلا ما ذكره .

فقلت له : أتقول : إن الخسوف إذا كان يراه جميع أهل الأرض ؟ أم يراه أهل الإقليم الذى بمحاذاته ؟ .

قال : لا يراه إلا من كان فى محاذاته .

فقلت : فما أنكرت من انشقاق القمر إذا كان فى ناحية أن لا يراه أهل تلك الناحية ومن تأهّب للنظر له ؛ فأما من أعرض عنه ، أو كان فى الأمكنة التى لا يرى القمر منها فلا يراه .

فقال : كما قلتَ لا يدفعك عنه دافع ؛ و إنما الكلام فى الرواة الذين نقلوه ؛ فأمّا الطعن فى غير هذا الوجه فليس بصحيح .

فقال الملك : وكيف يطعن فى النَقَلة ؟ .

فقال القسيس : شبه هـذا من الآيات — إذا صح وجب أن ينقـله

الجَمُّ الغفير حتى يتصل بنا العلم الضرورى به ؛ ولمّـا لم نعلم ذلك بالضرورة ، دَلَّ على أن الخبر مفتعل باطل .

فالتفت الملك إلىّ ، وقال : الجواب ؟

قلت : يلزمه فى نزول المائدة ، مايلزمنى فى انشقاق القمر ؛ ويقال : لو كان نزول المائدة صحيحا لوجب أن ينقله العدد الكثير ؛ فلا يبقى يهودى ولا نصرانىّ ولا وثنىّ إلا ويعلم هذا بالضرورة ؛ ولما لم يعلموا ذلك بالضرورة دل أن الخبر مكذوب .

فبهت القسيس والملك ومن ضمّه المجلس ؛ وانفصل المجلس على هذا .

* * *

قال الباقلانى : ثم سألنى الملك فى مجلس ثان ، فقال : ماتقولون فى المسيح عيسى ابن مريم ؟

قلت : روح الله وكلمته وعبده ، ونبيّه ورسوله ؛ كمثل آدم خلَقه من تراب ، ثم قال له : كن . فيكون ، وتلوت عليه النّص .

فقال : يامسلم ؛ تقولون : المسيح عبد ؟

فقلت : نعم ؛ كذا نقول ، وبه ندين .

قال : ولا تقولون : إنه ابن الله ؟

قلت : معاذ الله ؛ ﴿ ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ﴾ ؛ إنكم لتقولون قولا عظيماً ؛ فإذا جعلتم المسيح ابن الله فمن أبوه وأخوه وجده وعمه وخاله ؟ — وعددت عليه الأقارب — فتحير ، وقال :

يا مسلم : العبد يخلق ويحيى ويميت ، ويبرئ الأكمه والأبرص ؟ .

فقلت : لايقدر العبد على ذلك ؛ وإنما ذلك كلّه من فعل البارى عز وجلّ .

قال : وكيف يكون المسيح عبداً لله وخلقاً من خلقه ؛ وقد أتى بهذه الآيات ، وفعل ذلك كله ؟ .

قلت : معاذ الله ؛ ما أحيا المسيح الموتى ، ولا أبرأ الأكمه والأبرص .

فتحير وقل صبره ، وقال يا مسلم : تنكر هذا معاشتهاره فى الخلق ، وأَخْذِ الناس له بالقبول ؟ .

فقلت : ما قال أحد من أهل الفقه والمعرفة : إن الأنبياء — عليهم السلام — يفعلون المعجزات من ذاتهم ؛ و إنما هو شىء يفعله الله تعالى على أيديهم تصديقاً لهم ؛ يَجْرِى مجرى الشهادة .

فقال : قد حضر عندى جماعة من أولاد نبيكم ، وأهل دينكم ، المشهورين فيكم ، وقالوا : إن ذلك فى كتابكم .

فقلت : أيها الملك ؛ فى كتابنا أن ذلك كله بإذن الله تعالى . وتلوت عليه قوله تعالى : ﴿ إذ قال الله : يا عيسى ابن مريم ؛ اُذكر نعمتى عليك وعلى والدتك، إذ أيدتك بروح القدس ، تكلِّمُ الناس فى المهد وكهْلا ؛ و إذ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ؛ و إذ تخلُق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى ، وتبرئُ الأكمه والأبرص بإذنى ؛ و إذ تخرج الموتى بإذنى ﴾. وقلت : إنما فِعْلُ ذلك كلّه بالله وحده لا شريك له ، لا من ذات المسيح ؛ ولو كان المسيح يحيى الموتى ، و يبرئُ الأكمه والأبرص من ذاته، لجاز أن يقال : إن موسى فَلَق البحر ، وأخرج يده بيضاء من غير سوء من ذاته ؛ وليس معجزات الأنبياء ، عليهم السلام ، من ذاتهم وأفعالهم دون إرادة الخالق ؛ فلمّا لم يجز هذا : لم يجزأن تسند المعجزات التى ظهرت على يد المسيح إليه .

فقال الملك : وسائر الأنبياء كلهم ، من آدم إلى من بعده — كانوا يتضرّعون للمسيح حتى يفعل ما يطلبون ! !

قلت : أوَفى لسان اليهود عَظمٌ ، لا يقدرون أن يقولوا : إن المسيح كان يتضرّع إلى موسى؟ وكل صاحب نبي يقول : إن المسيح كان يتضرّع إلى نبيّه ؟! فلا فرق بين الموضعين فى الدعوى . وانفصل المجلس على هذا .

* * *

قال الباقلانى : وفى تكلمنا فى مجلس ثالث ، قلت : لِمَ اتّحد اللّاهوت بالنّاسوت ؟

فقال : أراد أن ينجى الناس من الهلاك .

فقلت : وهل دَرَى بأنه يقتل و يصلب و يفعل به كذا ، ولم يأمن من اليهود؟ فإن قلت : إنه لم يدر ما أراد اليهود ؛ بطل أن يكون إلهاً ؛ وإذا بطل أن يكون إلهاً بطل أن يكون ابناً . و إن قلت : قد درى ودخل فى هذا الأمر على بصيرة ، فليس بحكيم ؛ لأن الحكمة تمنع من التعرض للبلاء .

فبهت؛ وكان آخر مجلس لى معه .

* * *

ومما جرى فى تلك المجالس : أن الباقلانى قال لبعض المطارنة : كيف أنت ؟ وكيف الأهل والأولاد ؟

فقال له الملك وقد عجب من قوله : ذكر من أرسلك فى كتاب الرسالة أنك لسان الأمة ، ومتقدم على علماء الملة ! أما علمت أننا ننزه هؤلاء عن الأهل والولد ؟ .

فقال الباقلانى : أنتم لا تنزهون الله ، سبحانه وتعالى ، عن الأهل والأولاد ، وتنزهونهم ؟! فكأن هؤلاء عندكم أقدس وأجل وأعلى من الله ، سبحانه وتعالى!!

فسقط فى أيديهم ، ولم يردوا جواباً .

ثم قال له الملك : أخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم ، وما قيل فيها ؟

فقال : هما اثنتان ، قيل فيهما ما قيل : زوج نبينا ، ومريم ابنة عمران ؛ فأما

زوج نبينا : فلم تلد ؛ وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها ؛ وكل قد برأها الله مما رميت به . فانقطع الملك ولم يحر جواباً .

ويروى القاضي عياض : ان الملك قال للبطرك : ما ترى فى أمر هذا الشيطان ؟ فقال : تقضى حاجته ، وتلاطف صاحبه ، وتبعث بالهدايا إليه ؛ وتخرج هذا عن بلدك من يومك إن قدرت ؛ وإلا لم آمن الفتنة به على النصرانية . ففعل الملك ذلك ، وأحسن جواب عضد الدولة وهداياه ؛ وعجّل تسريحه ، ومعه عدة من أسارى المسلمين والمصاحف ؛ ووكل بالباقلانى من جنده من يحفظه حتى يصل إلى مأمنه .

ويروى الخطيب البغدادى بسنده : أن الباقلانى لمّا ورد على ملك الروم مدينته ، وعُرِّف خبره ، وبُيِّن له محله من العلم —: « أفكر فى أمره ، وعلم أنه لا يكفِّرُ له إذا دخل عليه ؛ كما جرى رسم الرعية ، أن تقبل الأرض بين يدى الملوك . ثم نتجت له الفكرة أن يضع سريره الذى يجلس عليه ، وراء باب لطيف لا يمكن أحد أن يدخل منه إلا راكعاً ؛ ليدخل القاضى منه على تلك الحال ، فيكون عوضاً من تكفيره بين يديه . فلمّا وضع سريره فى ذلك الموضع أمر بإدخال القاضى من الباب ؛ فسار حتى وصل إلى المكان ؛ فلمّا رآه تفكر فيه ؛ ثم فطن بالقصة ، فأدار ظهره ، وحنا رأسه راكعاً ، ودخل من الباب وهو يمشى إلى خلفه ، قد استقبل الملك بدبره ، حتى صار بين يديه ، ثم رفع رأسه ، ونصب ظهره ، وأدار وجهه حينئذ إلى الملك . فعجب من فطنته ، ووقعت له الهيبة فى نفسه » .

ولست أشك فى أن هذه الرواية أسطورة من الأساطير التى نسجت خيوطها حول رحلة الباقلانى إلى القسطنطينية . وفيما قصّه الباقلانى ، من امتناعه من خلع عمامته ونزع خفّه ؛ وتهديده بعدم الدخول على الملك ؛ ونزول الملك على

رأيه ، وقوله : دعوه يدخل ومن معه كما يشاءون — : ما يجعل هذه الفكرة الساذجة ، بعيدة الوقوع . ولو قد وقعت لتحدث بها الباقلانى ، فيما حدّث به من أخبار رحلته .

* * *

وعاد الباقلانى إلى بغداد ، وظل مع عضد الدولة حتى مات فى شوال سنة ٣٧٢ ، وتولى بعده ابنه صمصام الدولة .

ولسنا نعرف متى تولى الباقلانى وظيفة القضاء بالثغر ؟ ولا من الذى ولاه ؟

وقد جاء فى ترجمة أبى حامد أحمد بن أحمد الأستوائى (٣٥٨ — ٤٣٤) الشافعى الأشعرى : أنه «ولى القضاء بعكبرا من قبل أبى بكر بن الطيب الباقلانى».

* * *

وقد وقف الباقلانى حياته على أمرين ، ملكا عليه أقطار نفسه ، وشغفاه حبًّا ، وهما التدريس ، والتأليف .

أما التدريس ، فقد اجتمعت له كل أدواته ، ولم يصرفه عنه صارف ؛ حتى إنه أثناء مقامه مع عضد الدولة بشيراز ، وتدريسه لابنه الأمير أبى كاليجار المرزبان ؛ لم يمتنع عنه ، بل عقد دروساً عامة لأهل السنة . ومن الكتب التى درسها لهم كتاب « اللمع » لأبى الحسن الأشعرى .

وقد تتلمذ عليه كثيرون فى البصرة و بغداد وغيرها ؛ ونحن نشير إلى بعضهم فيما يلى :

(١) القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن نصر ، البغدادى المالكى (٣٦٢— ٤٢٢) . قيل له : مع من تفقهت ؟ قال : صحبت الأبهرى ، وتفقهت مع أبى الحسن بن القَصَّار ، وأبى القاسم بن الجلاّب ؛ والذى فتح أفواهنا ، وجعلنا نتكلم أبو بكر بن الطيب .

(٢) أبو عمران موسى بن عيسى بن أبى حجّاج الغَفَجُومى ، وقد أثبت سماعه من الباقلاني إملاءً فى رمضان سنة ٤٠٢ ؛ وقال : رحلت إلى بغداد ، وكنت قد تفقهت بالمغرب والأندلس عند أبى الحسن القابسى، وأبى محمد الأصيلى، وكانا عالمين بالأصول . فلما حضرت مجلس القاضى أبى بكر ، ورأيت كلامه فى الأصول والفقه مع المؤالف والمخالف ، حقرت نفسى ، وقلت : لا أعلم من العلم شيئاً ؛ ورجعت عنده كالمبتدئ » . وقال عنه حاتم بن محمد : كان أبو عمران من أحفظ الناس وأعلمهم ، لم ألق أحداً أوسع منه علماً ، ولا أكثر رواية . وذكر أن الباقلانى كان يعجبه حفظه ، ويقول له : لو اجتمعت فى « مدرستى » أنت وعبد الوهاب — وكان إذ ذاك بالموصل — لاجتمع علم مالك ؛ أنت تحفظه ، وهو ينظره . وتوفى أبو عمران سنة ٤٣٠ عن خمس وستين سنة .، وكانت رحلته إلى بغداد فى سنة ٣٩٩ .

(٣) أبو ذرٍّ الهروى عبد بن أحمد (٣٥٥ ـ ٤٣٤) المالكى الأشعرى . قال له بعض الشيوخ : أنت من هَرَاة ، فمن أين تمذهبت لمالك والأشعرى ؟ فقال: سبب ذلك أنى قدمت بغداد لطلب الحديث ، فلزمت الدَّارقُطْنى (٣٠٦ — ٣٨٥) ؛ وكنت مرة ماشياً معه ، فمر بنا شاب ، فأقبل الشيخ عليه وعظمه ، وأكرمه ودعا له ؛ فلما فارقه قلت : أيها الشيخ الإمام ؛ من هذا الذى أظهرت من إكرامه ما رأيت ؟ فقال : أوما تعرفه ؟ قلت : لا . فقال : هذا أبو بكر بن الطيب الأشعري ، ناصر السنة ، وقامع المعتزلة . ثم أفاض فى الثناء عليه . فكان ذلك سبب اختلافى إليه ، وأخذى عنه .

(٤) أبو الحسن السكرى على بن عيسى ، الشاعر الذى استفرغ شعره فى مدح الصحابة ، والرد على الرافضة ، والنقض على شعرائهم . وقد صحب الباقلانى ؛ ودرس عليه الكلام ؛ ومدحه بقصيدة طويلة ، أوردها الخطيب

البغدادى فى تاريخ بغداد ٥ / ٣٨١ — ٣٨٢ ، وابن عساكر فى تبيين كذب المفترى ص ٢٢٤ — ٢٢٦ . وهى من أشعار العلماء ؛ وفيها يقول :

اليَعْرُبِىُّ فصاحةً وبلاغــةً والأشعرى إذا اُعْتَزَى للمذهبِ
قاض إذا التبس القضاء على الحجى كشـفت له الآراء كل مغيَّب
وإذا الـكلام تطاردت فرسانه وتحامت الأقران كل مجرّب
ألفيته من لبّـه وجنانه ولسانه وبيـانه فى مِقْنَب

(٥) أبو الحسن الحربى على بن محمد المالكى (٣٥٦ — ٤٣٧) .

(٦) القاضى أبو جعفر محمد بن أحمد السمّنانى ، الحنفى (٣٦١ — ٤٤٤) .

(٧) أبو الحسن البغدادى رافع بن نصر ، المتوفى سنة ٤٤٧ .

(٨) أبو طاهر الواعظ محمد بن على ، المعروف بابن الأنبارى (٣٧٥ — ٤٤٨) .

(٩) أبو عبد الله الحسين بن حاتم الأزدى ، المتوفى غريباً بالقيروان . وهو أحد الذين رووا عن الباقلانى وصفه لمناظراته فى مجلس ملك الروم . وقد جاء فى تبيين كذب المفترى ص ٢١٦ : أن أبا الحسن بن داود الأشعرى ، المتوفى سنة ٤٠٢ « لما كان يصلى فى جامع دمشق ، تكلم فيه بعض الحشوية ؛ فكتب إلى القاضى أبى بكر محمد بن الطيب ابن الباقلانى يعرفه ذلك ، ويسأله أن يرسل إلى دمشق من أصحـابه من يوضح لهم الحق بالحجة . فبعث القاضى تلميذه أبا عبدالله الحسين بن حاتم الأزدى ؛ فعقد مجلس التذكير فى جامع دمشق ، فى حلقة أبى الحسن بن داود ؛ وذكر التوحيد ، ونزه المعبود ، ونفى عنه التشبيه والتحديد . فخرج أهل دمشق من مجلسه يقولون : أحد أحد . وأقام أبو عبد الله الأزدى بدمشق مدة ، ثم توجه الى المغرب ، فنشر العلم بتلك الناحية ، واستوطن القيروان إلى أن مات بها رحمه الله » .

وإليه وإلى أبى طاهر الواعظ ، يرجع الفضل فى انتشار مذهب الباقلانى فى المغرب.

(١٠) أبو عبد الرحمن السلمى محمد بن الحسين الصوفى (٣٣٠—٤١٢) .

وقد أخذ عن الباقلانى أثناء إقامته مع عضد الدولة بشيراز ، وقرأ عليه كتاب « اللمع » لأبى الحسن الأشعرى .

(١١) القاضى أبو محمد بن أبى نصر. قال القاضى عياض: «وتفقه عند القاضى أبو محمد بن [أبى] نصر؛ وعلّق عنه ، وحكى فى كتبه ما شاهدمن مناظرته فى الفقه — بين يدى ولى العهد ببغداد — للمخالفين » .

(١٢) أبو حاتم محمود بن الحسن الطبرى ، المعروف بالقزوينى ؛ المتوفى بمدينة « آمــل » التى ولد فيها ؛ وكان قــد قدم بغداد ، ودرس على الباقلانى أصول الفقه .

(١٣) القاضى أبو محمد عبد الله بن محمد الأصبهانى ، المعروف بابن اللبّان . وقــد صحب الباقلانى ودرس عليه كتاب : « المقدمات فى أصول الديانات » وكتاب : « أصول الفقه » .

(١٤) أبو بكر محمــد بن الحسين الإسكافى . وهو الذى روى عن الباقلانى ، خبر رحلة ابن خفيف الصوفى من شيراز إلى البصرة ، لسماع أبى الحسن الأشعرى ؛ كما فى تبيين كذب المفترى ص ٩٥ .

(١٥) أبو على الحسن بن شاذان (٣٣٩ — ٤٢٦) .

(١٦) أبو القاسم عبيد الله بن أحمد الصيرفى (٣٥٥ — ٤٣٥) .

(١٧) أبو الفضل عبيد الله بن أحمد المقرى (٣٧٠ — ٤٥١) .

وقد تتلمذ له جماعة كثيرة غير هؤلاء ، وكان أكثرهم من العراق وخراسان .

* * *

أما التأليف ، فقد أسهم فيه الباقلانى بنصيب موفور . وكان من عادته أنه إذا صلّى العشاء ، وقضى وِرْدَه ، وضع دواته بين يديه ، وكتب خمساً

وثلاثين ورقة ؛ فإذا صلى الفجر دفع إلى بعض أصحابه ما صنفه ليلته ، وأمره بقراءته عليه ؛ وأملى عليه من الزيادات ما يلوح له فيه .

وقد تسنى له أن يؤلف نيفاً وخمسين كتاباً ؛ لم يصل إلينا منها إلا عدد يسير . ونحن نشير إلى ما عرفناه منها ، وما علمناه من حديثها ، فيما يلى :

(١) كتاب : « إعجاز القرآن » ، ويأتى الحديث عنه فيما بعد .

(٢) كتاب : « التمهيد » . وقد ألفه — أثناء مقامه بشيراز — للأمير أبى كاليجار المرزبان ؛ ابن عضد الدولة ، وولى عهده . وهو من أهم الكتب الكلامية ، التى تعلق بها أهل السنة تعلقاً شديداً ؛ لأنه أجمع كتاب يبصِّرهم بمسائل الخلاف بينهم و بين مخالفيهم فى الرأى والعقيدة ؛ و يرشدهم إلى أقوى الأدلة الجدليّة ، وأحكم البراهين العقلية ؛ التى تعضد مذهبهم ، وتظهر مناعته ورجاحته على المذاهب الأخرى ، إسلامية كانت أو غير إسلامية .

وخير ما يعرِّف بهذا الكتاب و يدل على قيمته ، قول مؤلفه فى مقدمته : « أما بعد ؛ فقد عرفت إيثار سيدنا الأمير . . . . لعمل كتاب جامع مختصر ، مشتمل على ما يحتاج إليه فى الكشف عن معنى العلم وأقسامه ، وطرقه ومراتبه ؛ وضروب المعلومات ، وحقائق الموجودات ؛ وذكر الأدلة على حَدَث العالَم ، و إثبات مُحدِثه ، وأنه مخالف لخلقه ؛ وعلى ما يجب كونُه عليه ، من واحدانيّته ، وكونه حياً عالماً قادراً فى أزَلِه ؛ وما جرى مجرى ذلك من صفات ذاته ، وأنه عادل حكيم فيما أنشأه من مخترعاته ؛ من غير حاجة منه إليها ، ولا مُحرِّك وداعٍ وخاطر ، وعِلَلٍ دعته إلى إيجادها ؛ تعالى عن ذلك . وجواز إرساله رسلا إلى خلقه ، وسفراء بينه و بين عباده ؛ وأنه قد فعل ذلك ، وقطع العذر فى إيجاب تصديقهم ؛ بما أبانهم به من الآيات ؛ ودل به على صدقهم من المعجزات . وجمل من الكلام على سائر أهل الملل المخالفين لملّة الإسلام ، من

اليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وأهل التثنية ، وأصحاب الطبائع ، والمنجمين . ونعقب ذلك بذكر أبواب الخلاف بين أهل الحق ، وأهل التجسيم والتشبيه ، وأهل القدر والاعتزال ، والرافضة ، والخوارج ؛ وذكر جملٍ من مناقب الصحابة ، وفضائل الأئمة الأربعة ؛ وإثبات إمامتهم ، ووجه التأويل فيما شجر بينهم ، ووجوب موالاتهم . ولن آلوَجهداً فيما يميل إليه سيدنا الأمير — حرس الله مهجته ، وأعلى كعبه — من الاختصار ، وتحرير المعانى والأدلة والألفاظ ؛ وسلوك طريق العون على تأمّل ما أُودِعُه هذا الكتاب ، وإزالة الشكوك فيه والارتياب . وأنا — بحول الله وقوته — أسارع إلى امتثال ما رسمه ، وأقف عنده ؛ وإلى الله — جل ذكره — أرغب فى حسن التوفيق ، والإمداد بالتأييد والتسديد » .

وقد أشار الباقلانى إلى « التمهيد » ، فى كتاب « هداية المسترشدين » ؛ حيث يقول : « وقد تكلّمنا فى « التمهيد » بجمل على اليهود والنصارى والمجوس ؛ تغنى الناظر فيها » . كما أشار إليه أبو المظفر الإسفرايني فى « التبصير » ص ١١٩ ، وابن قيم الجوزية فى كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية » ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وقد طبع كتاب « التمهيد » فى سنة ، ١٣٦٦ هـ بتحقيق الأستاذين محمود محمد الخضيرى ، ومحمد عبد الهادى أبو ريدة . وقد تسرعا فى نشره عن نسخة واحدة فى مكتبة باريس ؛ وهى نسخة تنقص فصولا كثيرة من الكتاب ، يزيد عددها على عشرين باباً ؛ كبابى « التعديل والتجوير » ، و « القول فى الإمامة » اللذين نص الباقلانى على أنه قد عقدهما فى كتابه ! فهو يقول فى ص ٩٧ : « وسنتكلم على هذا الباب وما يتصل به ، فى باب التعديل والتجوير من كتابنا هذا ؛ إن شاء الله » ؛ ويقول فى ص ١٤٠ : « وسنقول فى تفصيل

الأخبار . . . وغير ذلك من أحكام الأخبار ؛ فى باب القول فى الإمامة ؛ إن شاء الله » .

(٣) كتاب : «هداية المسترشدين ، والمقنع فى معرفة أصول الدين » . يقول القاضى عياض عنه : إنه كتاب كبير . ويشير إليه أبو المظفر الإسفرايني ، فى « التبصير » ص ١١٩ ؛ وابن تيمية فى « رسالة الفرقان بين الحق والباطل » ص ١٣٠ ، وفى الرسالة التسعينية من فتاويه ٥/٢٤١ .

وقد بقى من هذا الكتاب مجلد ، فى مكتبة الأزهر ، يحتوى على ٢٤٨ ورقة ؛ كتبه محمد بن عبد الله العدوى بمدينة صور فى سنة ٤٥٩ . ولكن يد البلى قد عاثت فيه ، وأتلفت كثيراً من أوراقه ، وقد تركز إفسادها فى أوراق متتالية (٨٦ — ١٠٥) فخرقت أوساطها ، وجعلتها فى حكم الأوراق المفقودة . ويشتمل هذا المجلد على أحد عشر جزءاً من تجزئة المؤلف ، تبتدئ بأول الجزء السادس ، وتنتهى بانتهاء الجزء السابع عشر . وهذه الأجزاء كلها مقصورة على القول فى النبوات . وأهم ما فيها وأروعه ، تلك الأبحاث الجليلة الطويلة ، التى أدار الباقلانى الكلام فيها على « إعجاز القرآن » وملأ بها ستاً وخمسين ومائة ورقة (٦١ — ٢١٧) ؛ وهى أكبر حجماً من كتاب « إعجاز القرآن » ، وأغزر مادة ، وأكثر تفصيلا ، وأعمق بحثاً ، وأدق بياناً .

وكنت على نية إفرادها ونشرها مستقلة ؛ لولا أن بعض أصدقائى المغاربة أشار علىّ بالتريث حتى يحضر لى صورة من نسخة ناقصة ، قال : إنه رآها فى بعض المكاتب هناك . فامتثلت لإشارته ، رجاء أن يكون فى تلك النسخة ما يصلح مواطن الفساد فى نسخة الأزهر .

(٤) كتاب : « الانتصار لصحة نقل القرآن ، والرد على من نحله الفساد بزيادة أو نقصان » . وقد قال فى مقدمته : « أما بعد فقد وقفت — تولى الله

عصمتكم ، وأحسن هدايتكم وتوفيقكم — على ما ذكرتموه من شدة حاجتكم إلى الـكلام فى نقل القرآن ، و إقامة البرهان على استفاضة أمره ، و إحاطة السلف بعلمه ، وانقطاع العذر فى نقله ، وقيام الحجة على الخلق به ، و إبطال ما يدعيه أهل الضلال من تحريفه وتغييره ، ودخول الخلل فيه ، وذهاب شيء كثير منه ، وزيادة أمور فيه . وما يدعيه أهل الإلحاد وشيعتهم من منتحلى الإسلام — من تناقض كثير منه ، وخلو بعضه من الفائدة ، وكونه غير متناسب . وما ذكروه من فساد النظم ، ودخول اللحن فيه ، وركاكة التكرار ، وقلة البيان ، وتأخر المقدم ، وتقديم المؤخر ؛ إلى غير ذلك من وجوه مطاعنهم . وذكر جمل مما روى من الحروف الزائدة ، والقراءات المخالفة لمصحف الجماعة ، والإبانة عن وَهَاء نقل ذلك وضعفه ، وأن الحجة لم تقم بشيء منه . وعرفت ما وصفتموه من كثرة استضرار الضعفاء بتمويههم ، وعظم موقع الاستبصار والانتفاع بنقض شبههم . ونحن بحول الله وعونه نأتى فى ذلك بجمل تزيل الريب والشبهة ، وتوقف على الواضحة .

ونبدأ بالكلام فى نقل القراءات ، وقيام الحجة به ، ووصف توفر همم الأمة على نقله وحياطته ؛ ثم نذكر إبتداء أبى بكر ، رضى الله عنه ، لجمعه على ما أنزل عليه ، بعد تفرقة فى المواضع التى كتب فيها ، وفى صدور خلق حفظوا جميعه ، وخلق لم يحيطوا بحفظ جميعه ، واتباع عمر رضى الله عنه والجماعة له على ذلك ، وصوابه فيما صنعه ، وسبقه إلى الفضيلة به ، والسبب الموجب لذلك .

ثم نذكر جمع عثمان رضى الله عنه — الناسَ على مصحف واحد ، وحرف زيد بن ثابت ، ونبين أنه لم يقصد فى ذلك قصد أبى بكر فى جمع القرآن فى صحيفة واحدة على ترتيب ما أوحى به ؛ إذ كان ذلك أمراً قد استقر وفرغ منه قبل أيامه . ونبين صواب عثمان رضى الله عنه فى جمع الناس على حرف ، وحظره ومنعه لما عداه من القراءات ، وأن الواجب على كافة الناس اتباعه ، وحرامٌ عليهم

بعدُ قراءةُ القرآن بالأحرف والقراءات التي حظرها عثمان ومنع منها، وأن له أخذ المصاحف المخالفة لمصحفه، ومطالبة الناس بها، ومنعهم من نشرها والنظر فيها.

ونذكر ما يتعلق به من ادعاء نقصان القرآن، وتغيير نظمه وتحريفه — من الروايات الشاذة الباطلة، عن عمر وعثمان وعلى وأبيّ وعبد الله بن مسعود، وما يرويه قوم من الرافضة فى ذلك عن أهل البيت خاصة. ونكشف عن تكذّب هذه الروايات. ونبين أيضاً ماخالف فيه عبدُ الله بن مسعود عثمانَ والجماعةَ، وهل كان ذلك على جهة الحيطة، ونسبته إياهم إلى زيادة فيه أو نقصان منه، أو تغيير لنظمه وما أنزل عليه؟ أو التصويب لما فعلوه، وإن استجاز مع ذلك قراءتَه والتمسك بحرفه. ونذكر ما شجر بينه وبين عثمان رضى الله عنه، ونصف رجوعه إلى مذهب الجماعة، وخنوعه لعثمان، وقدر ما نقمه من أمر زيد ثابت وعيب عليه وعلى الجماعة لأجله. ثم نبين أن القرآن معجزة للرسول، صلى الله عليه وسلم، ودلالة على صدقه، وشاهد لنبوته. ثم نبين أن القرآن نزل على سبعة أحرف كلّها شافٍ كافٍ، ونوضح ما هذه السبعة أحرف، والروايات الواردة فيها، وجنس اختلافها، ونذكر خلاف الناس فى تأويلها، ونفسد من ذلك ما ليس بصواب، وندل على صحة ما نرغب فيه ونجتبيه، ونذكر حال قرآة القراء: وهل قراءتهم هى السبعة الأحرف التى أنزل القرآن بها، أو بعضها؟ وهل هم بأسرهم متبعون لمصحف عثمان وحرف زيد، أو مختلفون فى ذلك وقارؤون أو بعضهم بغير قراءة الجماعة؟

ونصف جملاً من مطاعن الملحدين وأتباعهم من الرافضة فى كتاب الله عز وجل. ونكشف عن تمويه الفريقين بما يوضح الحق. ونذكر فى كل فصل من هذه الفصول بمشيئة الله وتوفيقه — ما فيه بلاغ للمهتدين، وشفاء وتبصرة للمسترشدين، توخّياً لطاعة الله جل وعز، ورغبةً فى جزيل ثوابه. وما توفيقنا إلا بالله، وهو المستعان».

وقد ذكره فى « هداية المسترشدين » ؛ حيث يقول (ورقة ١٤١ — ا) :

« وقد ذكرنا فى كتاب « الانتصار لصحة نقل القرآن » جميع مطاعن الملحدة وكل من خالف عن الملة - على القرآن ؛ وكشفنا عن فساد توهمهم وتمويههم ، ودعواهم لتناقض آيات منه واختلافها ؛ وما طعنوا به من كثرة التكرار ؛ وما قالوه : من أنه قد ذكر فيه أشياء لا يعرفها أهل اللغة ؛ من نحو قوله : ﴿ وفاكهة وأبًّا ﴾ . وقولهم : إن فيه ما ليس من لغة العرب . وقولهم : إن فيه كلمات ملحونة لا تجوز فى الإعراب . وأبطلنا أيضاً قدحهم فيه بكونه مثبتاً على غير تاريخ نزوله ، وأنه قد قدّم منه ما يجب تأخيره ، وأخِّر ما يجب تقديمه . وأفسدنا أيضاً قدحهم فيه بإنزال بعضه متشابهاً ، مع الإخبار بإلحاد قوم فيه واتّباع المتشابه منه . وأبطلنا أيضاً قول من قال : إن فيه تحريفاً وتغييراً وتبديلاً ، وزيادة ونقصاناً ؛ وإنه إنما أثبته السلف بأخبار الآحاد ، وشهادة الاثنين ، ومن جرى مجراها ؛ وإن الدّاجن والغنم آكلا كثيراً منه فضاع ودثر . وأبطلنا أيضاً قول من قال : إنه ليس فيه ما يدل على شىء بظاهره ؛ وإن علم ذلك يجب أخذه عن الرسول والإمام ، ولا يسوغ أن يفسره سواهما ، وما تقوله الباطنية وتهذى به وتموه فى هذا الباب . واعترضنا أيضاً على قول من زعم أن القرآن يجب الإيمان به ، والتسليم بصحته ؛ دون معرفة معناه وتأويله . وأبطلنا أيضاً طعنهم على القرآن باختلاف خطوط المصاحف ، واختلاف القراءات ، وذكر الشواذ . وبينا ما ثبت من ذلك ، وما يجب إبطاله . وذكرنا قدحهم فيه بما روى من قوله عليه السلام : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهم لترتجى » . إلى غير ذلك من وجوه اعتراضاتهم على صحة القرآن . وأوردناه فى ذلك الكتاب ، وطرفاً منه فى « أصول الفقه » ؛ بما يغنى يسيره الناظر فيه ، إن شاء الله » .

وتوجد نسخة من الجزء الأول من هذا الكتاب فى مكتبة « قرا مصطفى باشا» باستنبول .

وقد نقل منه ابن حزم فى الفصل ٤ / ٢١٨ ، ٢٢٠، ٢٢١ ، ٢٢٢ نقولاً رماه من أجلها بالكفر ، والكيد للدين ، وتكذيب الله ، وغير ذلك مما رماه به .
كما نقل منه السيوطى فى الإتقان ١ / ٤٨ ، ١٠٣، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٢ ، ١٣٤ ، ٢ / ٤٢ .

(٥) كتاب : « الفرق بين معجزات النبيين ، وكرامات الصالحين » . ذكره فى « هداية المسترشدين » مرتين ؛ قال فى أولاهما : « وقد بينا فى كتاب : الفرق بين معجزات النبيين وكرامات الصالحين ؛ معنى وصف النبى أنه نبى ، وأن من الناس من قال : إنه مشتق ومأخوذ من الإنباء عن الأشياء ، والإخبار عن الله عز وجل » . ومن هذا الكتاب قسم فى مكتبة « تينجن » بألمانيا .

(٦) كتاب : « مناقب الأئمة ، ونقض المطاعن على سلف الأمة » . أشار إليه فى « التمهيد » ص ٢٢٩ . وفى الخزانة الظاهرة بدمشق ، نسخة من الجزء الثانى ، كتب تحت عنوانها : « تأليف القاضى أبى بكر بن الطيب » . وقد علق على هذه العبارة الدكتور يوسف العش ـ فى فهرس مخطوطات الظاهرية ص ٨٤ ـ بقوله : « ولا شك أنه أحمد بن على الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ » . وقد أخطأ الدكتور فى اسم الباقلانى واسم أبيه ؛ فهو : « محمد بن الطيب » ؛ لا « أحمد بن على » .

(٧) كتاب : « إكفار المتأولين » . أشار إليه فى كتاب التمهيد فى باب ذكر ما يوجب خلع الإمام وسقوط فرض طاعته ؛ ص ١٨٦ ؛ حيث يقول : « وقد ذكرنا ما فى هـذا الباب ، فى كتاب إكفار المتأولين ؛ وذكرنا ما روى فى معارضتها ؛ وقلنا فى تأويلها بما يغنى الناظر فيه » .

(٨) كتاب : « الإمامة الكبيرة » . وقد أشار إليه فى « هداية المسترشدين » ، فى آخر حديثه عن آية انشقاق القمر؛ إذ يقول : « وقد تقصينا القول فى ذلك ــ فى كتاب الإمامة ــ بما يغنى متأمله » . وقد ذكره ابن حزم فى الفصل ٤ / ٢٢٥ ، ونقل منه فى ص ١٦٦ .

(٩) كتاب : « الأصول الكبير فى الفقه » . أشار إليه أبو المظفر الإسفرايني فى كتاب التبصير ص ١١٩ ؛ وقال : إنه يشتمل على عشرة آلاف ورقة . وذكره الباقلانى فى كتابى : « التمهيد » و « هداية المسترشدين » .

(١٠) كتاب : « كيفية الاستشهاد ، فى الرد على أهل الجحد والعناد » . أشار إليه فى كتاب « التمهيد » ص ٤٠ .

(١١) كتاب : « نقض النقض » . ذكره أبو المظفر الاسفرايني فى التبصير ص ١١٩ .

(١٢) كتاب : « كشف الأسرار ، وهتك الأستار ؛ فى الرد على الباطنية » .

ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ١١ / ٣٤٦ ؛ فقال : « وقد صنف القاضى الباقلانى كتاباً فى الرد على هؤلاء ؛ وسماه كشف الأسرار ، وهتك الأستار ؛ بين فيه فضائحهم وقبائحهم ، ووضح أمرهم لكل أحد ... وقد كان الباقلانى يقول فى عبارته عنهم : هم قوم يظهرون الرفض ، و يبطنون الكفر المحض » .

وقد نقل منه ابن تَغْرِى بَرْدى فى النجوم الزاهرة ٤ / ٧٥ ؛ فى كلامه عن نسب المعزّ وآبائه ؛ فقال : « وقال القاضى أبو بكر بن الباقلانى : القداح ، جد عبيد الله ، كان مجوسيًّا ، ودخل عبيد الله المغرب ، وادعى أنه علوى ؛ ولم يعرفه أحد من علماء النسب ؛ وكان باطنيًّا خبيثاً ، حريصاً على إزالة ملَّة الإسلام ؛ أعدم الفقه والعلم ، ليتمكن من إغراء الخلق ؛ وجاء أولادُه أسلوبَه ، وأباحوا الخمر

والفروج ؛ وأشاعوا الرفض ، و بثوا دعاة فأفسدوا عقائد جبال الشام ، كالنُّصَيرِيَّة والدّروزيّة . وكان القداح كاذباً محترقاً ؛ وهو أصل دعاة القرامطة » .

وقد أشار إلى هـذا الـكتاب السيوطى ، فى حسن المحاضرة ٢/٢٨ ؛ والسبكى فى طبقات الشافعية ١٩٢/٤ ؛ أثناء ترجمته لنجم الدين الخبوشانى ، المتوفى سنة ٥٨٧ ؛ والذى كان على يده خراب بيت العبيدين الرافضة ، الذين يزعمون أنهم فاطميون .

(١٣) كتاب : « الإيجاز » . ذكره أبو عذبة فى كتاب « الروضة البهية ، فيما بين الأشاعرة والماتريدية » ؛ ثلاث مرات ، قال فى أولاها ص ١٨ : إن القاضى أبا بكر ذكر فى كتاب الايجاز أن المحبة والإرادة ، والمشيئة والإشاءة ، والرضى والاختيار ؛ كلها بمعنى واحد ؛ كما أن العلم والمعرفة شىء واحد . وقال فى الثانية ص ٣٥ : إنه يقول فى هذا الكتاب : إن أحكام الدين على ثلاثة أضرب : ضرب لا يعلم إلا بالدليل العقلى ؛ كحدوث العالم وإثبات محدثه ؛ وما هو عليه من صفاته المتوقف عليها الفعل ، كقدرته تعالى وإرادته ، وعلمه وحياته ، ونبوة رسله . وضرب لا يعلم إلا من جهة الشرع ؛ وهو الأحكام المشروعة، من الواجب والحرام والمباح . وضرب يصح أن يعلم تارة بدليل العقل ، وتارة بالسمع ؛ نحو الصفات التى لا تتوقف على العقل ، كالسمع له تعالى والبصر والكلام ، والعلم بجواز رؤيته تعالى، وجواز الغفران للمذنبين، وما أشبه ذلك . وقال فى الثالثة ص ٥٨ : إن القاضى أبا بكر ذكر فى كتاب الإيجاز أن نبينا صلى الله عليه وسلم معصوم فيما يؤديه عن الله تعالى ؛ وكذا سائر الأنبياء ؛ وأن الصغيرة تجوز على الأنبياء بعد الوحى مطلقاً ؛ لا على سبيل السهو وحده .

(١٤) كتاب : « الإبانة عن إبطال مذهب أهل الـكفر والضلالة » . وقد نقل منه ابن تيمية : فى « رسالة الفتوى الحموية الـكبرى » ص ٧٦ ، ٧٧ ؛ وابن قيم

الجوزية فى كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية، على غزو المعطلة والجهمية» ص ١٢٠ .

(١٥) كتاب : « دقائق الكلام والرد على من خالف الحق من الأوائل ومنتحلى الإسلام» . ذكره فى « هداية المسترشدين » . وأشار إليه ابن تيمية ، فى كتاب « بيان موافقة صريح المعقول ، لصحيح المنقول » ١/ ٨٨ ؛ أثناء كلامه على كثرة الاختلاف بين طوائف الفلاسفة ؛ إذ يقول : « واعتبر هذا بما ذكره أرباب المقالات عنهم فى العلوم الرياضية والطبيعية ؛ كما نقله الأشعرى فى كتابه : فى مقالات غير الإسلاميين؛ وما ذكره القاضى أبو بكر عنهم ، فى كتابه فى الدقائق . فإن فى ذلك من الخلاف عنهم — أضعاف أضعاف ما ذكره الشهرستانى وأمثاله ممن يحكى مقالاتهم » . وقد ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ١١/ ٣٥٠ أن للباقلانى كتاباً اسمه : « دقائق الحقائق » . ولا أدرى أهو اسم لهذا الكتاب أم اسم لكتاب آخر ؟

(١٦) كتاب : « رسالة الحُرّة » . ومبلغ علم الباحثين عنه أنه من كتب الباقلانى المفقودة ، التى لا يعرفون موضوعها ، ولا يفقهون معنى تسميتها . ومن أعجب العجب أن الكتاب موجود بين أيديهم ، مطبوع يقرءون فيه ! لكنه يحمل اسماً آخر لم يضعه له الباقلانى ؛ وهو : « الإنصاف » ، الذى طبع بالقاهرة فى سنة ١٣٦٩ ؛ بتحقيق المرحوم الشيخ محمد زاهد الكوثرى .

وإنى لأقطع بأن كتاب « الإنصاف » هذا ، إنما هو فى حقيقة الأمر كتاب «رسالة الحرّة» ؛ وأن ذلك الاسم الذى طبع به ، اسم دخيل عليه ، قد وضع على نسخته المخطوطة المحفوظة بدار الكتب المصرية .

والذى دفعنى إلى ذلك القطع ، قول الباقلانى فى أول مقدمته : « أما بعد ؛ فقد وقفت على ما التمسته « الحرة » الفاضلة الدّيّنة — أحسن الله توفيقها — لما تتوخاه من طلب الحق ونصرته ، وتنكّب الباطل وتجنّبه ؛ واعتماد القُربة

باعتقاد المفروض فى أحكام الدين ، واتباع السلف الصالح من المؤمنين ؛ من ذكر جمل ما يجب على المكلّفين اعتقاده ، ولا يسع الجهل به ؛ وما إذا تديّن به المرء صار إلى التزام الحق المفروض ، والسلامة من البدع والباطل المرفوض . وإنى - بحول الله تعالى وعونه ، ومشيئته وطَوْلِه - أذكر « لها » جملا مختصرة ، تأتى على البغية من ذلك ؛ و يستغنى بالوقوف عليها عن الطلب ، واشتغال الهمّة بما سواه . فنقول وبالله التوفيق : إن الواجب على المكلف ... » .

وقول الباقلانى هذا ، يدل دلالة قاطعة على أنه يقدم لرسالة الحرّة ، لا لكتاب الإنصاف . ولست أدرى كيف مرَّ محقق الكتاب على هذا الكلام ، دون أن يتنبه لدلالته الناطقة باسمه ؛ مع علمه بأن القاضى عياضاً قد ذكر « رسالة الحرّة » ضمن مؤلفات الباقلانى ، ولم يذكر « الإنصاف » . !! .

ولست أدرى كيف فاته مع ذلك أن يتنبه إلى النصين الدخيلين على كلام الباقلانى فى هذا الكتاب - فى ص ٥٨ ، ٦٤ - والمصدرين بقول كاتبهما : « قال الشيخ الأجل الإمام جمال الإسلام : ووقع لى أنا دليل ... » . و « قال الشريف الأجل جمال الإسلام : ووقع لى جواب أخصر من هذا وأجود ... » .؟!

ولا مراء فى أن هذين النصين من تعليق بعض قراء النسخة على هامشها ؛ فأدخلهما ناسخها أو طابعها فى صلب الكتاب .

وقد نقل ابن حزم - فى الفِصَل ٤/٢١٦ - قولاً زعم أن الأشاعرة قالوه فى كتبهم ؛ وهو : « أن الروح تنتقل عند خروجها من الجسم إلى جسم آخر » ؛ وعقب عليه بقوله : « هكذا نص الباقلانى فى أحد كتبه ؛ وأظنه الرسالة ، المعروفة بالحرة . وهذا مذهب التناسخ بلا كلفة » . ولقد كذب على ابن حزم ظنه ، فليس فى رسالة الحرة ما يشير إلى هذا القول المزعوم من قريب أو بعيد ، ولم يرد فى رسالة الحرّة - من حديث الروح -: إلا قوله ص ٤٥ : « ويجب

أن يعلم أن كل ما ورد به الشرع من عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، وردّ الروح إلى الميت عند السؤال ، ونصب الصراط والميزان ، والحوض ، والشفاعة للعصاة من المؤمنين — : كل ذلك حق وصدق، يجب الإيمان والقطع به؛ لأن جميع ذلك غير مستحيل فى العقل » .

ولقد نقل ابن قيم الجوزية فى كتاب « اجتماع الجيوش الإسلامية ، على غزو المعطلة والجهمية » أقوالاً من كتب الباقلانى فى صفات الله ؛ ختمها بقوله ص ١٢٠ : « ذكر قوله فى رسالة الحرّة . قال فى كلام ذكره فى الصفات : إن له وجهاً ويدين ، وإنه ينزل إلى سماء الدنيا . ثم قال : وإنه استوى على عرشه ، فاستولى على خلقه . ففرق بين الاستواء الخاص ، والاستيلاء العام » .

وما أشار إليه ابن قيم الجوزية من قول الباقلانى فى الوجه واليدين ، والاستواء على العرش مذكور فى رسالة الحرة المسماة بالإنصاف ؛ ص ٢١ ، ٢٢ . ونص عبارته فى ذلك : « ... وأخبر الله أنه ذو الوجه الباقى بعد تقضى الماضيات ... واليدين اللتين نطق بإثباتهما القرآن ... وأنهما ليستا جارحتين ، ولا ذوى صورة وهيئة . وأن الله جل ثناؤه مستو على العرش ، ومستول على جميع خلقه ، كما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش أستوى ﴾ ... بغير مماسة وكيفيَّة ، ولا مجاورة ؛ وأنه فى السماء إله وفى الأرض إله ، كما أخبر بذلك » .

وهذا دليل آخر يؤيد ما ذهبت إليه من أن كتاب « الإنصاف » إنما هو رسالة الحرّة .

(١٧) كتاب : « التقريب والإرشاد » فى أصول الفقه . قال القاضى عياض : إنه كتاب كبير . وذكره أبو المظفر الإسفرانى فى كتاب التبصير ص ١١٩ ؛ وأشار إليه السيوطى فى الإتقان ١/٤٨ .

(١٨) كتاب : «التبصرة» . ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ١١/٣٥٠ .

(١٩) كتاب : « البيان عن فرائض الدين وشرائع الإسلام ، ووصف ما يلزم من جرت عليه الأقلام ، من معرفة الأحكام » .

(٢٠) كتاب : « الحدود » فى الرد على أبى طاهر محمد بن عبدالله بن القاسم .

(٢١) كتاب : « تصرف العباد ، والفرق بين الخلق والاكتساب » .

(٢٢) كتاب : « الرد على المعتزلة ، فيما اشتبه عليهم من تأويل القرآن » .

(٢٣) كتاب : « الدماء التى جرت بين الصحابة » .

(٢٤) كتاب : « المقدمات فى أصول الديانات » .

(٢٥) كتاب : « المقنع فى أصول الفقه » .

(٢٦) كتاب : « الأصول الصغير » .

(٢٧) كتاب : « مسائل الأصول » .

(٢٨) كتاب : « مختصر التقريب والإرشاد الصغير » .

(٢٩) كتاب : « مختصر التقريب والإرشاد الأوسط » .

(٣٠) كتاب : « المسائل التى سأل عنها ابن عبد المؤمن » .

(٣١) كتاب : « رسالة الأمير » .

(٣٢) كتاب : « المسائل القسطنطينية » .

(٣٣) جواب أهل فلسطين .

(٣٤) البغداديات .

(٣٥) الأصبهانيات .

(٣٦) النيسابوريات .

(٣٧) الجرجانيات .

(٣٨) كتاب : « الكرامات » .

(٣٩) كتاب : « الأحكام والعلل » .

(٤٠) كتاب : « إمامة بنى العباس » . ذكره القاضى عياض .

(٤١) كتاب: « نقض النقض على الهمدانى ». ذكره فى « هداية المسترشدين ».

(٤٢) كتاب : « الإمامة الصغيرة » .

(٤٣) كتاب : « التعديل والتجويز » .

(٤٤) شرح اللمع لأبى الحسن الأشعرى .

(٤٥) كتاب : « شرح أدب الجدل » .

(٤٦) كتاب : « أمالى إجماع أهل المدينة » .

(٤٧) كتاب : « فى أن المعدوم ليس بشىء » .

(٤٨) كتاب : « فضل الجهاد » .

(٤٩) كتاب : « المسائل والمجالسات المنثورة » .

(٥٠) كتاب : « الرد على المتناسخين » .

(٥١) نقض الفنون للجاحظ .

(٥٢) كتاب : « الكسب » . ذكره أبو المظفر الإسفراينى فى التبصير ص ١١٩ .

(٥٣) كتاب : « فى الإيمان » أشار إليه ابن تيمية ، فى رسالته « الفرقان بين الحق والباطل » ؛ أثناء حديثه عن الإيمان ؛ حيث يقول ص ٤٣ : « وكلام الناس فى هذا الاسم ومسماه كثير ، وقد رأيت لابن الهيضم فيه مصنفاً فى : أنه قول اللسان فقط . ورأيت لابن الباقلانى فيه مصنفاً : أنه تصديق القلب فقط . وكلاهما فى عصر واحد ؛ وكلاهما يرد على المعتزلة والرافضة » .

(٥٤) كتاب : « النقض الكبير » . ومنه هذا النص الذى أورده إمام الحرمين فى الشامل : « قال أبو بكر الباقلانى فى النقض الكبير : من زعم أن السين من بسم الله بعد الباء ، والميم بعد السين الواقعة بعد الباء ؛ لا أول له :—

فقد خرج عن المعقول ، وجحد الضرورة ، وأنكر البديهة . فإن اعترف بوقوع شيء بعد شيء ، فقد اعترف بأوليته ؛ فإن ادعى أنه لا أول له ، فقد سقطت محاجته ، وتعين لحوقه بالسفسطة. وكيف يرجى أن يرشد بالدليل من يتواقح فى جحد الضرورى ؟ ! » .

(٥٥) كتاب : « الرد على الرافضة والمعتزلة ، والخوارج والجهمية » . ذكره الصلاح الصفدى فى « الوافى بالوفيات » ٣/١٧٧ .

آراء العلماء فى البقلانى .

(١) روى ابن عساكر فى تبيين كذب المفترى — عن أبى علقمة ، عن أبى هريرة — : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة ، على رأس كل مائة سنة ، من يجدد لها دينها » ؛ ثم قال ص ٥٣ : « وسمعت الشيخ الإمام أبا الحسن على بن المسلم — على كرسيه بجامع دمشق — يقول وذكر حديث أبى علقمة هذا : « كان على رأس المائة الأولى : عمر بن عبد العزيز ؛ وكان على رأس المائة الثانية : محمد بن إدريس الشافعى ؛ وكان على رأس المائة الثالثة : الأشعرى؛ وكان على رأس المائة الرابعة :ابن الباقلانى » .

(٢) قال الصاحب ابن عباد فى وصفه ووصف زميليه — : أبى بكر بن فُورَك المتوفى سنة ٤٠٦ ، وأبى إسحاق الإسفرايينى ، المتوفى سنة ٤١٨ — : وابن الباقلانى بحر مغرق ، وابن فُورَك صِلٌّ مُطْرِق ، والإسفرايينى نار تحرق » . وقد علق ابن عساكر على هذا القول فى تبيين كذب المفترى ص ٢٤٤ — فقال : « وكأن روح القدس نفث فى رُوعه ، حيث أخبر عن حال هؤلاء الثلاثة ، بما هو حقيقة الحال فيهم » .

(٣) قال الخطيب البغدادى ٥/٣٧٩ : « كان الباقلانى ثقة . وأما الكلام

فكان أعرف الناس به ، وأحسنهم خاطراً ، وأجودهم لساناً وأوضحهم بياناً ؛ وأصحهم عبارة » .

(٤) قال القاضي عياض في « ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك » : « ومن أهل العراق والمشرق : أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد ، القاضي المعروف بابن الباقلاني ؛ الملقب بشيخ السنة ، ولسان الأمة ؛ المتكلم على مذهب المُثْبتة وأهل الحديث ، وطريقة أبي الحسن الأشعري . قال الخطيب ... وقال أبو الحسن بن جهضم الهمداني : كان شيخ المالكيين في وقته ، وعالم عصره المرجوع إليه فيما أشكل على غيره . قال غيره : وإليه انتهت رياسة المالكيين في وقته ؛ وكان حسن الفقه ، عظيم الجدل ؛ وكانت له ببغداد حلقة عظيمة ، وكان ينزل الكرخ . ذكر أبو عبد الله بن سعدون الفقيه : أن سائر الفرق رضيت بالقاضي أبي بكر في الحكم بين المتناظرين » .

(٥) قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : « ابن الباقلاني الإمام العلامة ، أوحد المتكلمين ، مقدّم الأصوليين ، صاحب التصانيف ، كان يضرب المثل بفهمه ... وكان بحق إماماً بارعاً ، صنف في الرد على المعتزلة والرافضة ، والخوارج والجهمية والكرامية . وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري ، وقد يخالفه في مضايق ؛ فإنه من نظرائه ، وقد أخذ علم النظر عن أصحابه .... » .

(٦) قال ابن العماد في شذرات الذهب ٣ / ١٦٨ : « القاضي أبو بكر بن الباقلاني محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، البصري ، المالكي الأصولي المتكلم ، صاحب المصنفات ، وأوحد وقته في فنه ... وكانت له بجامع المنصور حلقة عظيمة ... وقال ابن الأهدل : سيف السنة القاضي أبو بكر بن الباقلاني الأصولي الأشعري المالكي ، مجدد الدين على رأس المائة الرابعة ... » .

(٧) قال ابن تيمية في رسالة الفتوى الحموية الكبرى ص ٧٦ : « وقال

القاضى أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتكلم ؛ وهو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعرى ، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده . قال فى كتاب الإبانة» .

(٨) قال ابن خلكان ٣ / ٤٠٠ : « القاضى أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ، المعروف بالباقلانى ، البصرى ، المتكلم المشهور ؛ كان على مذهب الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، ومؤيداً اعتقاده ، وناصراً طريقته. وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام وغيره ، وكان أوحد زمانه ، وانتهت إليه الرياسة فى مذهبه ؛ وكان موصوفاً بجودة الاستنباط ، وسرعة الجواب ؛ وسمع الحديث . وكان كثير التطويل فى المناظرة ، مشهوراً بذلك عند الجماعة » .

(٩) قال الصفدى فى الوافى بالوفيات ٣ / ١٧٧ : « أبو بكر الباقلانى البصرى ، صاحب التصانيف فى علم الكلام . وكان ثقة عارفاً بالكلام ، صنف الرد على الرافضة والمعتزلة ، والخوارج والجهمية .. جرى بينه وبين أبى سعيد الهارونى مناظرة ، فأكثر الباقلانى الكلام فيها ، ووسع العبارة ، وزاد فى الإسهاب ؛ ثم التفت إلى الحاضرين ، وقال : اشهدوا علىّ أنه إن أعاد ما قلت لم أطالبه بالجواب ؛ فقال الهارونى : اشهدوا علىّ أنه إن أعاد كلام نفسه سلّمت له ما قال » .

وذكره الصفدى أيضاً فى ترجمة أبى الحسن المتكلم محمد بن شجاع المعتزلى ؛ حيث يقول ٣ / ١٤٧ : « حضر مجلس عضد الدولة ، وكلّم أبا بكر الباقلانى الأشعرى فى مسألة كلامية ، فطوّل فى بعض نوبه ؛ فلما أخذ أبو الحسن الكلامَ فى نوبته ، قال له القاضى أبو بكر : قد أخللت بالجواب عن فصل ياشيخ . وأخذ الباقلانى الكلام على نوبته فزاد فى الطول ؛ فقال له أبو الحسن : علاوتك أثقل من حملك . فضحك عضد الدولة من ذلك » .

(١٠) قال ابن عمار الميورقى : « كان ابن الطيب مالكياً فاضلاً متورعاً ، ممن لم تحفظ عليه زلة قط ، ولا نسبت إليه نقيصة . وكان يلقب بشيخ السنّة ، ولسان الأمة ؛ وكان فارس هذا العلم ، مباركاً على هذه الأمة . وكان حصناً من حصون المسلمين ، وما سُرَّ أهل البدع بشىء كسرورهم بموته » .

(١١) قال أبو القاسم عبد الواحد بن على بن بَرْهَان النحوى ، المتوفى سنة ٤٥٦ : « من سمع مناظرة القاضى أبى بكر ، لم يستلذ بعدها بسماع كلام أحد من المتكلمين والفقهاء والخطباء والمسترسلين ؛ ولا الأغانى أيضاً ؛ من طيب كلامه وفصاحته ، وحسن نظامه و إشارته » .

(١٢) قال أبو عمران الفاسى (٣٦٨ — ٤٣٠) : « القاضى أبو بكر سيف أهل السنة فى زمانه ، و إمام متكلّمى أهل الحق فى وقتنا » ...

(١٣) قال أبو عبد الله الصيرفى : « كان صلاح القاضى أكثر من علمه ؛ وما نفع الله هذه الأمة بكتبه ، وبثّها فيهم ؛ إلا بحسن نيته واحتسابه بذلك . وكان يدرس نهاره وأكثر ليله » .

(١٤) قال أبو حاتم الطبرى محمود بن الحسن القزوينى : « إن ما كان يضمره القاضى الإمام أبو بكر الأشعرى رضى الله عنه ، من الورع والديانة ، والزهد والصّيانة ، أضعاف ما كان يظهره ؛ فقيل له فى ذلك ؟ فقال : إنما أظهر ما أظهره غيظاً لليهود والنصارى ، والمعتزلة والرافضة والمخالفين ؛ لئلا يستحقروا علماء الحق والدين ، فأُضمِر ما أُضمِره ؛ فإنى رأيت آدم — مع جلالته — نودى عليه بِذَوْقَة ، وداود بنظرة ، و يوسف بهمّة ، ومحمداً بخطْرَة ؛ عليهم السلام » .

(١٥) قال أبو الفرج محمد بن عمران الخلّال : « وكان ورد القاضى أبى بكر محمد بن الطيب ، فى كل ليلة ، عشرين ترويحة ؛ ما يتركها فى حضر ولا سفر » .

(١٦) قال أبو بكر الخوارزمى محمد بن العباس ، المتوفى سنة ٣٨٣ — : « كل مصنِّف ببغداد إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه ؛ سوى القاضى أبى بكر ، فإن صدره يحوى علمه وعلم الناس » .

(١٧) قال أبو محمد الباقى : « لو أوصى رجل بثلث ماله أن يُدفع إلى أفصح الناس ، لوجب أن يُدفع لأبى بكر الأشعرى » .

(١٨) قال على بن محمد بن الحسن الحربى ، المالكى : « كان القاضى أبو بكر الأشعرى ، يهم بأن يختصر ما يصنِّفه ، فلا يقدر على ذلك ؛ لسعة علمه ، وكثرة حفظه . وما صنَّف أحد خِلافاً إلا احتاج أن يُطالع كتبَ المخالفين ؛ غير القاضى أبى بكر ؛ فإن جميع ما كان يذكر خلافَ الناس فيه ، صنَّفَه من حفظه » .

(١٩) روى الإمام أبو عبد الله الحسين بن أحمد الدامغانى ؛ قال : لما قدم القاضى الإمام أبو بكر الأشعرى بغداد ، دعاه الشيخ أبو الحسن التميمى الحنبلى (٣٧١) إمام عصره فى مذهبه ، وشيخ مصره فى رهطه ؛ وحضر الشيخ أبو عبد الله بن مجاهد (٣٧٠) ، والشيخ أبو الحسين محمد بن أحمد بن سمعون (٣٨٧) ، وأبو الحسن الفقيه ، فجرت مسألة الاجتهاد — بين القاضى أبى بكر ، و بين أبى عبدالله بن مجاهد ، وتعلَّق الكلامُ بينهما إلى أن انفجر عمود الصبح ، وظهر كلام القاضى عليه . وكان أبو الحسن التميمى الحنبلى يقول لأصحابه : تمسكوا بهذا الرجل ، فليس للسنة عنه غنى أبداً » .

(٢٠) أما أبو حامد الإسفراينى (٣٤٤ — ٤٠٦) فقد كان شديد الإنكار على أصحاب الكلام عامة ، وعلى الأشاعرة والباقلانى خاصة ؛ حتى إنهم رووا أن الباقلانى كان يخرج الى الحمام متبرقعاً خوفاً منه . وقد نقل ابن تيمية فى فتاويه ٥ / ٢٣٩ : أن أبا الحسن الكرخى قال فى كتابه « الفصول فى الأصول »: « وسمعت شيخى الإمام أبا منصور ، الفقيه الأصبهانى ، يقول : سمعت شيخنا

الإمام أبا بكر الزاذاقانى ، يقول : كنت فى درس الشيخ أبى حامد الإسفراينى ، وكان ينهى أصحابه عن الكلام ، وعن الدخول على الباقلانى . فبلغه أن نفراً من أصحابه يدخلون عليه خفية لقراءة الكلام ، فظن أنى معهم ومنهم ؛ وذكر قصة قال فى آخرها : إن الشيخ أبا حامد قال لى : يا بنى ، بلغنى أنك تدخل على هذا الرجل — يعنى الباقلانى — فإيّاك و إياه ، فإنه مبتدع يدعو الناس إلى الضلالة ، و إلا فلا تحضر مجلسى ، فقلت : أنا عائذ بالله مما قيل ! وتائب إليه ! واشهدوا علىّ أنى لا أدخل عليه ! » .

وأعجب مما سبق قوله أيضاً : « كان الشيخ أبو حامد أحمد بن أبى طاهر الإسفراينى — إمام الأئمة الذى طبّق الأرض علماً وأصحاباً — إذا سعى إلى الجمعة من قطيعة الكرخ إلى جامع المنصور ، يدخل الرِّباط المعروف بالرّوزى المحاذى للجامع ، و يقبل على من حضر و يقول : اشهدوا علىّ بأن القرآن كلام الله غير مخلوق كما قاله أحمد بن حنبل ، لا كما يقوله الباقلانى ؛ وتكرّر ذلك منه فى جمعات ؛ فقيل له فى ذلك ؟ فقال : حتى ينتشر فى الناس وفى أهل الصلاح ، و يشيع الخبر فى البلاد : أنى برىء مما هم عليه — يعنى الأشاعرة — وبرىء من مذهب أبى بكر الباقلانى ، فإن جماعة من المتفقهة الغرباء ، يدخلون على الباقلانى خفية فيقرءون عليه ، فيفتنون بمذهبه ، فإذا رجعوا إلى بلادهم أظهروا بدعتهم لا محالة ، فيظن ظان أنهم منى تعلموه وأنا قلته ، وأنا برىء من مذهب الباقلانى وعقيدته » .

هذا قول الإسفراينى فى معاصره الباقلانى، وهو قول سداه الإسراف والتجنى ، ولحمته الهوى والعصبية ، فما كان الباقلانى مبتدعاً يدعو الناس إلى الضلالة ، وما كان مذهبه فاسداً ، ولا عقيدته مدخولة ؛ بحيث يتبرأ منهما مسلم ولكن العصبية قاهرة غلابة ، والتعاصر مع التماثل فى الصناعة مدرجة العداوة والبغضاء .

(٢١) ذكر أبو حيان التوحيدى فى كتاب « الامتاع والمؤانسة » ١/ ١٤٣ أن الوزير أبا عبد الله العارض، سأله فى الليلة الثامنة، وقال له : « فما تقول فى ابن الباقلانى؟ قلت :

فما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

يزعم أنه ينصر السنة، ويفحم المعتزلة، وينشر الرواية، وهو فى أضعاف ذلك على مذهب الخُرَّمِيَّة، وطرائق الملحدة. قال : والله إن هذا لمن المصائب الكبار، والمحن الغلاظ، والأمراض التى ليس لها علاج » .

ولست أرتاب فى أن أبا حيان قد جاء بالإفك، حين رمى الباقلانى بأنه كان على مذهب الخرَّمِيَّة وطرائق الملحدة، ولو كان لذلك الاتهام نصيب من الصحة لجرَّد له قلمه الجبار، وذهب يبين عن مظاهره ومصادره، ويفيض فى الطعن عليه، ولبادر إلى ثلبه والتشهير به، أعداؤه من شتى المذاهب والنحل التى نقض أقوالها، وأتى على معتقداتها من القواعد؛ ولتسابقوا إلى تأليب الناس عليه، وتحريض السلطان على إهدار دمه وصلبه، كما صلب بابك الخرمى. فإن الخرمية فرقة مبتدعة، لا يعدها أحد فى زمرة المسلمين ؛ لأنها تستحل كل محرم، وتذهب إلى شركة الناس جميعاً فى الأموال والنساء، ويجتمع رجالها ونساؤها فى ليال مخصوصة، يفنونها فى احتساء الخمر والرقص، ثم يطفئون كل سراج منير، وكل نار موقدة، ويعكف كل واحد منهم على المرأة التى اتفق جلوسها بجانبه! وهم يدينون بألوهية بابك الخرَّمى، ويدعون أنه كان لهم ملك فى الجاهلية اسمه « شروين »، ينوحون على موتاهم باسمه، ويفضلونه على الأنبياء جميعاً .

ولست أدرى كيف يكون الباقلانى على مذهب هؤلاء الخرَّمية، ويخفى أمره على أعدائه المتربصين به، وعلى أوليائه الملتفين حوله، ولا يظهر إلا لأبى

حيان وحده ! فيتفرد بتسجيله عليه ؛ ثم لا ينقله عنه ناقل ، ولا ينبزه به نابز ؟!
إن فى ذلك لآية على إفكه ، ودليلا على اختلاقه عليه ، وعداوته له .

ولعل من أسباب عداوة أبى حيان للباقلانى ، بغضه للكلام والمتكلمين ، الذى أفصح عنه بقوله : « ولم أر متكلماً فى مدة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينه خوفاً ، أو أقلع عن كبيرة رغبة ، يتناظرون مستهزئين ، و يتحاسدون متعصبين ، و يتلاقَوْن متخادعين ، و يصنفون متحاملين ، جذّ الله عروقهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح البلاد والعباد منهم ، فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفاتهم على صغار الناس وكبارهم ، ودبّ داؤهم ، وعسر دواؤهم ؛ وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعضعاً ، ومساكنه متجعجعاً » .

وقد يكون أبو حيان مدفوعاً الى تلك العداوة بتأثير العداوة بين الباقلانى و بين أستاذه أبى سليمان المنطقى من جهة ، و بينه وبين أبى حامد الإسفرايينى من جهة أخرى ، وكلاهما له فى نفس أبى حيان منزلة سامية ، و إجلال بالغ .

ومهما يكن من أمر عداوة أبى حيان للباقلانى ، وأيًّا كان مبعثها ومأتاها ، فلا مراء فى أنه قد ظلمه ظلماً مبيناً ؛ إذ نسبه إلى طائفة الخرمية ، وهو منها برىء براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

(٢٢) وثالثة الأثافى التى رمى بها الباقلانى ، تلك الأقوال المنكرة التى قالها عنه ابن حزم الظاهرى (٣٨٤ — ٤٥٦) فى كتاب « الفصل فى الملل والأهواء النحل » فهو عنده : « كافر أصلع الكفر ، مشرك يقدح فى النبوات ، ملحد خبيث المذهب ملعون ، يلحد فى أسماء الله ، و يخالف القرآن و يكذب الله ؛ نذل يوجب الشك فى الله وفى صحة النبوة؛ مظلم الجهالة ، من أهل الضلالة، مَمْرُورٌ فاسق ؛ أحمق ؛ يكيد للإسلام و يستخف به ، قد صدق فيه قول القائل :

شهدت بأن ابن المعلم هازل بأصحابه والباقلانىّ أهزل

وما الجعل الملعون فى ذاك دونه   وكلّهمُ فى الإفك والكفر منزل » .

هذه بعض أقوال ابن حزم فى الباقلانى ، نقلتها بألفاظها كما أثبتها فى مواضع مختلفة من كتابه .

ولو صدق بعض هذه الأقوال عليه لوجب على المسلمين البراة منه ، ونبذ كتبه ، وعدّه فى طليعة أعداء الإسلام ؛ فكيف إذا صدقت كلّها ؟ !

ويجدر بنا — قبل أن نعرض للحكم عليها — أن نتبين : هل كان ابن حزم نزيهاً فى حكمه ، منصفاً فى قوله ، أميناً فى نقله ؛ سليم الصدر من دواعى الهوى والعصبية ؟ أم كان غير ذلك ؟

ومما يدعو إلى الدهشة والعجب حقًّا، ويملأ النفس بالأسف الممض، أن يكون ابن حزم عريًّا عن ذلك كلّه ، متنكباً سبيل العلم والأخلاق والدين فى حديثه عن الباقلانى ؛ لأنه أشعرى ، وهو ظاهرى يبغض الأشاعرة جميعاً ، ويصفهم بخبث المقالة وفساد الدين واستسهال الكذب على الله جهاراً ، وعلى رسوله بلا رهبة ؛ ويقول عنهم : « والحمد لله الذى لم يجعلنا من أهل هذه الصفة المرذولة ، ولا من هذه العصابة المخذولة » ، ويحمد الله على ضعفهم فى عصره ، فيقول : « وأما الأشاعرة فكانوا ببغداد والبصرة ؛ ثم قامت لهم سوق بصقلية والقيروان وبالأندلس ؛ ثم رق أمرهم ، والحمد لله رب العالمين » .

وهو ينسب إليهم أقوالاً لم يقولوها ، ومذاهب لم يذهبوا إليها ؛ ثم يندفع فى تكفيرهم ، وكيل الشتائم لهم ، كما صنع فى باب الرد على من زعم أن الأنبياء والرسل ليسوا اليوم أنبياء ولا رسلا ؛ حيث يقول ١ / ٨٨ : « حديث فرقة مبتدعة ، تزعم أن محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليس هو الآن رسول الله ، ولكنه كان رسول الله . وهذا قول ذهب إليه الأشعرية . وهذه مقالة خبيثة ، مخالفة لله تعالى ولرسوله ، ولما أجمع عليه جميع أهل الإسلام منذ كان الإسلام

إلى يوم القيامة . . . ونعوذ بالله من هذ القول ، فإنه كفر صراح لا ترداد فيه » ؛ ثم اندفع فى إبطال هذا القول فى شدة وعنف ؛ ونسى أو تناسى أن هذا القول لم يقل به أحد من الأشاعرة ؛ وإنما نسبه إليهم بعض الكرّاميّة ؛ واشتد نكيرهم على من نسبه إليهم ، و بينوا أنه مختلق على إمامهم الأجل أبى الحسن الأشعرى .

وفى ذلك يقول أبو القاسم القشيرى (٣٧٦ — ٤٧٥) فى كتابه « شكاية أهل السنة » — : « فأما ما حكى عنه وعن أصحابه أنهم يقولون : إن محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، ليس بنبى فى قبره ، ولا رسول بعد موته ؛ فبهتان عظيم ، وكذب محض ، لم ينطق به أحد منهم ، ولا سمع فى مجلس مناظرة ذلك عنهم ، ولا وجد ذلك فى كتاب لهم : . » .

وليس أدل على كذب هذا القول على الأشاعرة ، من قول الباقلانى عنه — فى كتاب رسالة الحرة المسمى بالإنصاف ص ٥٥ — : « ويجب أن يعلم أن نبوات الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، لا تبطل ولاتنخرم بخروجهم عن الدنيا وانتقالهم إلى دار الآخرة ؛ بل حكمهم فى حال خروجهم من الدنيا كحكمهم فى حالة نومهم ، وحالة اشتغالهم إما بأكل وشرب ، أو قضاء وطر . والدليل عليه : أن حقيقة النبوة لو كانت ثابتة لهم فى حالة اشتغالهم بأداء الرسالة ، دون غيرها من الحالات — لكانوا فى غيرها من الأحوال غير موصوفين بذلك . وقد غلط من نسب إلى المحققين من الموحدين — إبطال نبوة الأنبياء عليهم السلام بخروجهم من دار الدنيا . وليس ذلك بصحيح ؛ لأن مذهب المحققين : أن الرسول ما استحق شرف الرساله بتأدية الرسالة ؛ وإنما صار رسولا ، واستحق شرف الرسالة والنبوة ، بقول مرسله — وهو الله تعالى —: أنت رسولى ونبيى؛ وقول الله تعالى قديم لايزول ولا يتغير . والدليل على صحة هذا أيضاً : أنه صلى الله عليه وسلم ، سئل فقيل له : متى كنت نبيًّا ؟ فقال : « كنت نبيًّا وآدم بين الماء

والطين » . فحاصل الجواب فى هذا : أن شرف النبوة وكمال المنصب ثابت للأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين ، الآن حسب ما كان ثابتاً لهم فى حال الحياة ؛ لم ينثلم ، ولم ينتقض ؛ سواء نسخت شرائعهم أو لم تنسخ . ومن راجع نفسه ، ولم يغالط حسه ، عرف وتحقّق أن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، الآن لم يخاطب شفاها ، ولا يأمرهم ، ولا يكلمهم من غير واسطة ؛ لكن حكم شريعته وصحة نبوّته ؛ ثابت لم ينتقض لأجل خروجه من الدنيا ، ولم تزل مرتبته ، ولا انخرمت رسالته ، ولا بطلت معجزته . فاعلم ذلك وتحقّقه » .

ولست أدرى : كيف يقرأ ابن حزم كلام الباقلانى هذا فى كتابه هذا ؛ ثم يستسيغ ضميره أن يزعم بعد ذلك أن الأشاعرة قالوا هذه المقالة الخبيثة ؛ مع قوله : إن الباقلانى كبيرهم ؟ حقًّا إن هذا لشىء عجاب !

وما أكثر التهم التى ألصقها ابن حزم بالأشاعرة إلصاقاً ؛ وما أوفر عبارات القذف والسباب التى قذفهم بها وسبهم ، والتى بلغت أقصى حدود الإفحاش والإقذاع ؛ وقد اختص الباقلانى منها بأعظم قسط ، وأجزل نصيب . ولعل مردّ ذلك إلى أن الباقلانى قد نقد داود الظاهرى (٢٠٠ — ٢٧٠) ؛ كما يشعر بذلك قول ابن حزم فى الفصل ٤ / ٢٢٥ : « ومن العجب أن هذا النذل الباقلانى قطع بأن داود خالف الإجماع فى قوله بإبطال القياس ، أفلا يستحى هذا الجاهل من أن يصف العلماء بصفته ، مع عظيم جهله ؟ ولكن من يضلل الله فلا هادى له » .

ومما أحفظه عليه أيضاً ، وأرّث نار عداوته فى صدره ، أنه كان لا يعبأ بالظاهريّة ، ولا يعدّهم من العلماء ؛ وقد نقل شيخ الأزهر الشيخ حسن العطار ، (المتوفى سنة ١٢٥٠) — فى حاشيته على شرح الجلال المحلى على جمع الجوامع ٢ / ٢٢١ — أن أبا إسحاق الإسفرايينى قال : « كل مسلك يختص به أصحاب الظاهر عن القياسيين . فالحكم بحسبه منقوض ؛ وبحق قال حَبْرُ الأصول القاضى

أبو بكر : إنى لا أعدّهم من علماء الأمة ، ولا أبالى بخلافهم ولا وفاقهم » .

ولست أريد أن أقبس هنا سائر ما أورده من قول ؛ وما نحله من رأى ؛ ثم أبين ما صنعه فيه من تحريف كلمه عن مواضعها ، ولىٍّ عباراته عن معانيها ، وقطع مقدماته عن نتائجها ؛ وأخذه من ظاهر لفظه ما يتفق وهوى نفسه ، ويتسق وما يريد أن يلزمه من إلزامات شائنة تذهب بسمعته ومكانته . لست أريد ذلك لأن بيانه يحتاج إلى بسط وإطناب لا سبيل إليهما فى هذا المقام . ولكنى أذكر من ذلك ما لا مناص من ذكره ، وهو ما يتعلق بقوله فى القرآن .

قال ابن حزم فى معرض حديثه عن الأشاعرة ٤ / ٢٢١ : « ومن شنعهم قول هذا الباقلانى فى كتابه المعروف بالانتصار فى القرآن : إن تقسيم آيات القرآن ، وترتيب مواضع سوره ، شىء فعله الناس ، وليس هو من عند الله ، ولا من أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . فقد كذب هذا الجاهل وأفك ؛ أتراه ما سمع قول الله تعالى : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ ؛ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى آية الكرسى ، وآية الكلالة ، والخبر : أنه عليه السلام كان يأمر إذا نزلت آية كذا ، أن تجعل فى سورة كذا ، وموضع كذا . ولو أن الناس رتبوا سوره ، لما تعدوا أحد وجوه ثلاثة : إما أن يرتبوها على الأول فالأول نزولا ، أو الأطول فما دونه ، أو الأقصر فما فوقه . فإذ ليس ذلك كذلك ، فقد صحّ أنه أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يعارض ، عن الله عز وجل ، لا يجوز غير ذلك أصلا » .

وما كذب الباقلانى ولا أفك فى مسألتى ترتيب الآيات ، وترتيب مواضع السور فى القرآن ، وما خرج بقوله فيهما عما قاله أعلام الأئمة وأجمعوا عليه . فقد أجمعوا جميعاً على أن ترتيب الآيات توقيفى لا شبهة فيه ؛ وأيد إجماعهم ما ترادف فى ذلك من النصوص . ولم تجتمع كلمتهم على أن ترتيب السور توقيفى ؛ فنهم

من قال به ، ومنهم من قال : إنه باجتهاد من الصحابة ؛ كمالك بن أنس .

وأنصع دليل على صدق الباقلانى وبراءته مما رماه به ابن حزم ، قوله فى كتاب « الانتصار لنقل القرآن » : « ترتيب الآيات أمر واجب ، وحكم لازم ؛ فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا فى موضع كذا » . وقوله أيضاً فى ذلك الكتاب (ورقة ٤ — ب) : « والذى نذهب إليه فى ذلك أن جميع القرآن الذى أنزله الله ، وأمر بإثبات رسمه ، ولم ينسخه ، ويرفع تلاوته بعد نزوله — هو هذا الذى بين الدفتين ، الذى حواه مصحف عثمان ؛ وأنه لم ينقص منه شىء ، ولا زيد فيه ، وأن ترتيبه ونظمه ثابت على ما نظمه الله تعالى ، ورتّبه عليه رسوله ، من آى السور ، لم يقدّم من ذلك مؤخراً ، ولا أخر منه مقدماً ؛ وأن الأمة ضبطت عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ترتيب آى كل سورة ومواضعها ، وعرفت مواقعها ؛ كما ضبطت عنه نفس القراءات وذات التلاوة ؛ وأنه يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم ، قد رتب سوره على ما انطوى عليه مصحف عثمان ، ويمكن أن يكون قد وكل ذلك إلى الأمة بعده ، ولم يتول ذلك بنفسه . وأن هذا القول الثانى أقرب وأشبه أن يكون حقاً .

ولن يمترى إنسان ـ بعد قراءة هذا الكلام ـ فى تكذيب ابن حزم فى قوله : إن الباقلانى يقول : إن ترتيب الآيات والسور « شىء فعله الناس ، وليس هو من عند الله ، ولا من أمر رسول الله فقد كذب هذا الجاهل وأفك ! » .

ولن يمترى كذلك فى أنه نص صريح فى تكذيب ابن حزم فى قوله عن الأشاعرة : « وقالوا كلهم : إن القرآن لم ينزل به قط جبريل على قلب محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وإنما نزل عليه بشىء آخر هو العبارة عن كلام الله ؛ وإن القرآن ليس عندنا البتة إلا على هذا المجاز ؛ وإن الذى نرى فى المصاحف ونسمع من القراء ، ونقرأ فى الصلاة ، ونحفظ فى الصدور — ليس هو القرآن البتة ،

ولا شيء منه كلام الله البتة ، بل شيء آخر ؛ و إن كلام الله لايفارق ذاته . و إن قول هذه الفرقة فى هذه المسألة نهاية الـكفر بالله عز وجل، ومخالفة القرآن والنبى ، صلى الله عليه وسلم ؛ ومخالفة جميع أهل الإسلام قبل حدوث هذه الطائفة الملعونة» .

وهذا افتراء قصد به التشنيع والتلبيس على الناس ، يدحضه قول الباقلانى فى « رسالة الحرة » ص ٦٢ : « اعلم أن الله تعالى متكلم له كلام عند أهل السنة والجماعة ، وأن كلامه قديم ليس بمخلوق ، ولامجعول ، ولامحدث ؛ بل كلامه قديم ، صفة من صفات ذاته ، كعلمه وقدرته و إرادته ، ونحو ذلك من صفات الذات . ولا يجوز أن يقال : كلام الله عبارة ولا حكاية ، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق ، ولايجوز أن يقول أحد : لفظى بالقرآن مخلوق ولا غير مخلوق ؛ ولا أنى أتـكلم بكلام الله » .

وقوله ص ٨٢ : « و يجب أن يعلم أن كلام الله تعالى مكتوب فى المصاحف على الحقيقة كما قال : ﴿ إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون ﴾ ؛ وهو فى مصاحفنا مكتوب على الوجه الذى هو مكتوب فى اللوح المحفوظ ؛ كما قال تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ . لـكن نحن نعلم وكل عاقل أن كلام الله الذى هو مكتوب فى اللوح المحفوظ ، هو والقرآن المـكتوب فى مصاحفنا شيء واحد ، لا يختلف ولا يتغير ؛ وأن اللوح غير أوراق مصاحفنا ، وأن الخط الذى فيه غير الخطوط التى فى مصاحفنا ، وأن القلم الذى كتب فى اللوح المحفوظ غير أقلامنا . وكذلك ما اختلف وغاير غـيره ، واختص بمكان دون مكان ، وزمان دون زمان — فهو مخلوق مربوب ، وكل ما هو على صفة واحدة لايختلف ولايتغير ، ولايجوز عليه شيء من صفات الخلق . فكذلك هو كلام الله تعالى القديم وجميع صفات ذاته . وكذلك القرآن محفوظ بالقلوب على الحقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ . لـكن نعلم قطعاً أن

زيداً الحافظ غير عمرو الحافظ ، وأن قلب هذا غير قلب هذا ، وأن حفظ هذا غير حفظ هذا ؛ لكن المحفوظ لهذا بحفظه هو المحفوظ للآخر بحفظه، وهو شيء واحد لايختلف ولايتغير ؛ إذ هو صفة لله تعالى ، قديم غير مخلوق . وكذلك تقول : إنه مقروء بألسنتنا ، نتلو بها على الحقيقة ؛ لكن نعلم أن زيداً القارئ غير عمرو القارئ ، وأن لسان زيد غير لسان عمرو ، وأن قراءة زيد غير قراءة عمرو ؛ ولكن المقروء لزيد هو المقروء لعمرو ، شيء واحد لايختلف ولايتغير ؛ بل هو كلام الله القديم الذى ليس بمخلوق ولايجوز عليه صفات الخلق . وهذا كما قال تعالى: ﴿ إنما أنزل بعلم الله ﴾يعلمه زيد بعلمه، ويعلمه عمرو بعلمه؛ ويعبده زيد بعبادته، ويعبده عمرو بعبادته ؛ ويدعوه زيد بدعائه ، ويدعوه عمرو بدعائه ؛ ويذكره زيد بذكره ، ويذكره عمرو بذكره ؛ ويسبحه زيد بتسبيحه ، ويسبحه عمرو بتسبيحه ؛ فزيد غير عمرو ، وذكره غير ذكر عمرو ، وعبادته غير عبادة عمرو ، ولكن المعبود لهذا هو المعبود لهذا ، والمذكور لهذا هو المذكور لهذا ، والمسبَّح لهذا هو المسبَّح لهذا ؛ والله تعالى القديم الواحد الذى ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » .

وقوله فى ص ٨٣ ، ٨٥ : « ويجب أن يعلم أن كلام الله تعالى مسموع لنا على الحقيقة ؛ لكن بواسطة ، وهو القارئ . . . ويجب أن يعلم أن كلام الله تعالى منزل على قلب النبى صلى الله عليه وسلم ، نزول إعلام وإفهام ، لا نزول حركة وانتقال » ؛ و « إن جبريل عليه السلام عَلِمَ كلام الله وفهمه ، وعلّمه الله النظم العربى الذى هو قراءته ، وعلّم هو القراءة نبينا ، صلى الله عليه وسلم ، وعلّم النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه ، ولم يزل ينقل الخلف عن السلف ذلك ، إلى أن اتصل بنا ، فصرنا نقرأ بعد أن لم نكن نقرأ » .

ويستبين من سائر هذه النصوص أن ابن حزم لم يكن أميناً فى نقله ،

ولاصادقاً فى قوله ؛ وإنما خان أمانة العلم ؛ وكذب فيما ادعاه على الباقلانى والأشاعرة ، ليتسنى له تكفيرهم ، وسبهم بما يرضى نفسه الظامئة إلى الطعن والسباب . وقد عرف ذلك عنه ، حتى قال فيه ابن العريف : « كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين » ؛ وسجل عليه ذلك المؤرخون له ، كابن خلكان، الذى يقول فى وفيات الأعيان : « وكان كثير الوقوع فى العلماء المتقدمين ، لايكاد يسلم أحد من لسانه ؛ فنفرت عنه القلوب ، واستهدف لفقهاء وقته ، فتمالئوا على بغضه ، وردوا قوله ، وأجمعوا على تضليله ، وشنعوا عليه ؛ وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه ؛ فأقصته الملوك وشردته عن بلاده » . وكالحافظ الذهبى الذى قال عنه فى سير أعلام النبلاء : « لم يتأدب مع الأئمة فى الخطاب ؛ بل فجج العبارة وسب وجدع ، فكان جزاؤه من جنس فعله ، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة وهجروها ، ونفروا منها ؛ وأحرقت فى وقته » .

وإذا كان ذلك كذلك فيجب ألايلتفت إنسان إلى قول ابن حزم فى الباقلانى ، ولا ينظر بعين الاعتبار إلى طعنه عليه ، وتكفيره له .

(٢٣) قال ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد (٧٣٢ — ٨٠٨) فى مقدمته ، أثناء حديثه فى فصل علم الكلام ص٤٦٥ : « . . وكثر أتباع الشيخ أبى الحسن الأشعرى ، واقتفى طريقته من بعده تلاميذه ، كابن مجاهد وغيره ، وأخذ عنهم القاضى أبو بكر الباقلانى ، فتصدر للإمامة فى طريقتهم وهذبها ، ووضع المقدمات العقلية التى تتوقف عليها الأدلة والأنظار ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد والخلاء ، وأن العرض لايقوم بالعرض ، وأنه لايبقى زمانين ، وأمثال ذلك مما تتوقف عليه أدلتهم ، وجعل هذه القواعد تبعاً للعقائد الإيمانية فى وجوب اعتقادها ؛ لتوقف تلك الأدلة عليها ، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول . وحملت هذه

الطريقة ، وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية ، إلا أن صور الأدلة تعتبر بها الأقيسة ، ولم تكن حينئذ ظاهرة فى الملّة ؛ ولو ظهر منها بعض الشىء ، فلم يأخذ به المتكلمون، لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة ، فكانت مهجورة عندهم لذلك . ثم جاء بعد القاضى أبى بكر الباقلانى إمام الحرمين أبو المعالى ، فأملى فى الطريقة كتاب الشامل ، وأوسع القول فيه ، ثم لخصه فى كتاب الإرشاد ، واتخذه الناس إماماً لعقائدهم . . . »

(٢٤) قال ابن تيمية فى كتاب « بغية المرتاد » ص ١٠٧ فى معرض حديثه عن مصادر معارف أبى حامد الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥) وأستاذه أبى المعالى الجوينى ؛ إمام الحرمين (٤١٩ — ٤٧٨) — : « وأبو حامد مادته الكلامية من كلام شيخه فى « الإرشاد » و « الشامل » ونحوهما ، مضموماً إلى ما تلقاه من القاضى أبى بكر الباقلانى ، لكنه فى أصول الفقه سلك فى الغالب مذهب ابن الباقلانى ، مذهب الواقفة وتصويب المجتهدين ، ونحو ذلك ، وضم إلى ذلك ما أخذه من كلام أبى زيد الدبوسى وغيره فى القياس ونحوه . وأما فى الكلام فطريقته طريقة شيخه دون القاضى أبى بكر .

وأما شيخه أبو المعالى فمادته الكلامية أكثر من كلام القاضى أبى بكر ونحوه، واستمد من كلام أبى هاشم الجبائى ؛ على مختارات له . وكان قد فسر الكلام على أبى قاسم الإسكافى ، عن أبى إسحاق الإسفراينى ، ولكن القاضى هو عندهم أولى . ولقد خرج عن طريقة القاضى وذويه فى مواضع إلى طريقة المعتزلة » .

(٢٥) ومن ألد أعداء الأشعرى والأشاعرة : أبو على الحسن بن على بن إبرهيم بن يزداد بن هرمز ، الأهوازى (٣٦٢ — ٤٤٦) وقد ألف فى مثالب الأشعرى كتاباً، رماه فيه بكل ما أمكنه ذكره من الأمر الشنيع والوصف القبيح ، كما رمى كبار أصحابه ، وأعلام مذهبه ، وقد نقض عليه كتابه الحافظ ابن عساكر

فى كتاب « تبيين كذب المفترى » ص ٣٦٤ — ٤٢٠ ومن قوله فى ص ٣٩٨ :
« وأما ما ذكره فى حق القاضى أبى بكر بن الباقلانى رحمه الله ، من أنه كان أجير القامى ، وأنه إنما ارتفع قدره بمداخلة السلاطين لا بالعلم — فعين الجهل والتعامى . وهل ينكر فضل القاضى أبى بكر فى العلم والفهم من شمّ أدنى شمّة من العلم ؟ وتصانيفه فى الخلق مبثوثة ، وعلومه عنه مستفادة موروثة . وقد كان يدرس المدّة الطويلة فى دار السلام ، ويصنف الكتب الجليلة فى قواعد الإسلام ، ويؤخذ عنه علم الفقه على مذهب مالك بن أنس ، وينتفع بدروسه فى أصول الدين والفقه كلُّ مقتبس ، والرِّحلة إليه من الشرق والغرب ، فقوله فى حقه قول من لا يتحاشى من الكذب » .

والذى حدا بالأهوازى إلى الطعن فى الأشعرى ومتابعيه ، أنه كان مشبهاً مجسماً ، يقول بالظاهر ، ويذهب مذهب السالمية ، وهى فرقة من المشبهة ، يقولون : إن الله سبحانه يرى فى صورة آدمى ، وإنه يقرأ على لسان كل قارئ ، وإنهم إذا سمعوا القرآن من قارئ يرون أنهم يسمعونه من الله . ويعتقدون أن الميت يأكل فى قبره ويشرب. وقداتهم العلماءالأهوازى بالوضع والاختلاق، وقد قال عنه تلميذه الخطيب البغدادى : أبو على الأهوازى كذّاب فى الحديث والقرآن جميعا » !

الباقلانى وابن المعلم :

وكان يعاصر الباقلانى إمام الرافضة ولسان الإمامية أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن سعيد ، البغدادى الكوفى ، المعروف بابن المعلِّم ، والملقب عند الشيعة بالشيخ المفيد (٣٣٦ — ٤١٣) وكان ابن المعلم جليل المكانة فى الدولة البويهية ، وكان عضد الدولة يزوره فى داره ، وكان قويًّا فى الكلام والفقه والجدل ، مولعاً بمناظرة أهل كل عقيدة. قال الخطيب البغدادى ٥/٣٧٩: «إن ابن المعلم شيخ الرافضة ومتكلمها ، حضر بعض مجالس النظر مع أصحاب له ، إذ أقبل القاضى أبو بكر

الأشعرى ، فالتفت ابن المعلم إلى أصحابه ، وقال لهم : قد جاءكم الشيطان ، فسمع القاضى كلامهم — وكان بعيداً من القوم — فلما جلس أقبل على ابن المعلم وأصحابه ، وقال لهم : قال الله تعالى : ﴿ إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ أى إن كنت شيطاناً فأنتم كفار ، وقد أرسلت عليكم ! » .

قال القاضى : وحكى غير الخطيب أن الحكاية جرت للبقلانى مع أهل مجلس فنّا خسرو الملك ، من شيوخ المعتزلة ، وأنه كان داخلاً إذ سمعهم يذكرون أمره ، فقال لهم بعضهم : ما هو إلا شيطان ؟ فوصل اليهم وهو يتلو الآية .

قال : وسمعت بعض الشيوخ يحكى : أن ابن المعلم تكلم معه يوماً ، فلما احتد الكلام بينهما ، رماه ابن المعلم بكف باقلاء (فول) أعده له ، يعرض له بما ينسب إليه ، ليخجله بذلك ويحصره ، فرد القاضى للحين يده فى كمه ورماه بدرة أعدها له، فعجب من فطنته و إعداده للأمور أشباهها قبل وقتها .

وفاة الباقلانى :

حدث الخطيب البغدادى ٥/٣٨٢ عن على بن أبى على المعدل ، قال : مات القاضى أبو بكر محمد بن الطيب ، فى يوم السبت لسبع بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وأر بعمائة .

وقال أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز اللخمى : توفى القاضى الباقلانى سنة أر بع وأر بعمائة .

وقد نقل القاضى عياض فى « ترتيب المدارك » ماحكاه الخطيب ، ثم قال : « ووجدت عن غيره : سنة أر بع ، أيام بهـاء الدولة ، والخليفة القادر بالله ، وهذا خطأ والأول أصح » .

وقد صلى على الباقلانى ابنه الحسن ، وكان شاباً مرجواً ، واخترمته المنية بعد أبيه . ودفن القاضى فى داره ، ثم نقل بعد ذلك فدفن فى مقبرة باب حرب ، فى

تربة بقرب قبر أحمد بن بن حنبل ، ونقش على شاهد تربته ما نصه : « هذا قبر القاضى الإمام السعيد ، فخر الأمة ، ولسان الملة ، وسيف السنة ، عماد الدين ، ناصر الإسلام ، أبى بكر محمد بن الطيب البصرى ، قدس الله روحه ، وألحقه بنبيه محمد صلوات الله عليه وسلامه ، و يزار و يستسقى و يتبرك به » .

وقد حضر أبو الفضل التميمى الحنبلى (٣٤١ — ٤١٠) يوم وفاته العزاء حافياً مع إخوته وأصحابه ، وأمر أن ينادى بين يدى جنازته : « هذا ناصر السنة والدين ، هذا إمام المسلمين ، هذا الذى كان يذب عن الشريعة ألسنة المخالفين ، هذا الذى صنف سبعين ألف ورقة ردًّا على الملحدين » . وقعد للعزاء ثلاثة أيام فلم يبرح ، وكان يزور تربته كل يوم جمعة فى الدار .

وكان يزورها أيضاً للترحم عليه أبو الفضل عبيد الله بن أحمد بن على المقرئ (٣٧٠—٤٥١) وأبو على الحسن بن أحمد بن إبراهيم بن شاذان (٣٣٩—٤٢٦) وأبو القاسم عبيد الله بن أحمد بن عثمان الصيرفى (٣٥٥ — ٤٣٥) .

وقد رثى الباقلانى بعض الشعراء فقال :

انظر إلى جبل تمشى الرجال به ... وانظر إلى القبر ما يحوى من الصَّلَفِ

وانظر إلى صارم الإسلام منغمداً ... وانظر إلى درة الإسلام فى الصَّدَف

كتاب إعجاز القرآن

وهو أول كتب الباقلانى نشراً ، وأشهرها ذكراً ، وهو أعظم كتاب ألف فى الإعجاز إلى اليوم ، وإن كره ذلك بعض المتعصبين على المعهد العتيق . ولقد حدثنى من أثق بصدق حديثه : أن داراً للنشر والطبع استشارت كبيراً منهم فى طبع هذا الكتاب بتحقيقى ، فكتب إليها بخط يده يقول : « أنا لا أنصح بطبع كتاب إعجاز القرآن للباقلانى ؛ لأنه ليس أنفس كتاب فى موضوعه » ! ! !

ولما لقيت كاتب هذا التقرير العجيب قذفت سامعتيه بهذا التحدى : دُلَّنى على كتاب واحد فى إعجاز القرآن تربو قيمته على كتاب الباقلانى أو تضارعه » !

فأبلس ولم يحر جواباً .

* * *

ذكر الباقلانى فى مقدمته أن الذين ألفوا فى « معانى القرآن » من علماء اللغة والكلام ، لم يبسطوا القول فى الإبانة عن وجه معجزته ، والدلالة على مكانه ؛ مع أن الحاجة إلى ذلك البيان أمس ، والاشتغال به أوجب ، فهو أحق بالتصنيف من الجزء والطفرة والأعراض وغريب النحو وبديع الإعراب . وأن ما صنفه العلماء فى هذا المعنى جاء غير كامل فى بابه ، قد أخل بتهذيبه وأهمل ترتيبه ، وقد التمس لبعضهم العذر فيما وقع منه من تفريط ؛ لأن بيان وجه الإعجاز « مما لا يمكن بيانه إلا بعد التقدم فى أمور عظيمة المقدار ، دقيقة المسلك ، لطيفة المأخذ » .

وقال : إن الجاحظ « صنف فى نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى » .

ثم قال : إن سائلا سأله أن يذكر جملة من القول جامعة ، تسقط الشبهات ، وتزيل الشكوك التى تعرض للجهال ، وتنتهى إلى ما يخطر لهم ، ويعرض لأفهامهم ،

من الطعن فى وجه المعجزة . فأجابه إلى ذلك ، وألف هذا الكتاب . وذكر أنه أشار إلى ما سبق بيانه من غيره ، ولم يبسط القول فيه ؛ لئلا يكون ما ألفه مكرراً ومقولاً وقال : إنه لا يزعم أنه يمكنه أن يبين ما رام بيانه ، وأراد شرحه وتفصيله، إلا لمن كان « من أهل صناعة العربية ، وقد وقف على جمل من محاسن الكلام ومتصرّفاته ومذاهبه ، وعرف جملة من طرق المتكلمين ، ونظر فى شىء من أصول الدين » .

ثم بين فى الفصل الأول أن نبوة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، مبنية على دلالة معجزة القرآن ، واستدل على ذلك بآيات كثيرة ، وقال: إنه ما من سورة من السور المفتتحة بذكر الحروف المقطّعة إلا وقد أشبع فيها بيان ذلك « وكثير من هذه السور إذا تأملته ، فهو من أوله إلى آخره مبنى على لزوم حجة القرآن ، والتنبيه على معجزته » .

وفصل القول فى نظم سورتى غافر وفصّلت ، و بين دلالته على ذلك .

وعقد الفصل الثانى ص ٢١ لبيان وجه دلالة معجزة القرآن على نبوة النبى ؛ و بنى ذلك على أصلين : أولهما : وقوع العلم الضرورى بأن القرآن المتلوّ المحفوظ المرسوم فى المصاحف هو الذى جاء به النبى من عند الله تعالى ، وأنه تلاه على من فى عصره ثلاثاً وعشرين سنة ، وقام به فى المواقف ، وكتب به إلى البلاد ، وتحمّله عنه إليها مَنْ تابعه ، حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشتبه . والأصل الثانى : أنه تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله ، وقرّعهم على ترك الإتيان طول تلك السنين فلم يأتوا بذلك ؛ واستدل على هذا الأصل بآيات كثيرة ، منها آية استدل بها على بطلان قول من زعم أن وحدانية الله لا تعلم إلا من جهة العقل ، ولا يمكن أن تعلم من القرآن ؛ وهى قوله تعالى :﴿ أم يقولون افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا

أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ﴾ . وقد عقّب عليها بقوله ص ٢٣ : « فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلا على أنه منـه ، ودليلا على وحدانيته » .

ثم كشف عن المعانى التى استقصى أهل العلم الكلام فيها قبله ، وما جاء به بعدهم ، وذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم عرف كون القرآن معجزاً حين أوحى إليه من قبل أن يقرأه على غيره أو يتحدى إليه سواه . وأفاض فى إبطال قول القائلين بالصرفة ، وقال : إن التوراة والإنجيل وغيرهما من كلام الله يشارك القرآن فى الإعجاز بما تضمّنه من الإخبار عن الغيوب ، و يباينه فى أنه ليس بمعجز فى النظم والتأليف ، لأن الله لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولم يقع به التحدى كما وقع بالقرآن ؛ ولأن الألسنة التى نزل بها لا يتأتى فيها من وجوه الفصاحة ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز . وقال : إن كتاب زرادشت وكتاب مانى ليس يقع فيهما إعجاز ، وإنه لا يوجد لابن المقفع كتاب يدعى مدع أنه عارض فيه القرآن .

والفصل الثالث ص ٤٨ فى جملة «وجوه إعجاز القرآن» وقد ذكر فى مستهله أن الأشاعرة وغيرهم ذكروا فى ذلك ثلاثة أوجه : أولها : ما تضمّنه القرآن من الإخبار عن الغيوب ، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه .

والوجه الثانى : أنه أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمّات السير من حين خلق الله آدم إلى مبعثه ، مع أنه كان أميًّا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، ولم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم .

والوجه الثالث « أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه » . وقال : إن الذى أطلقه العلماء فى هذا الوجه هو على هذه الجملة ، أما هو فقد كشف الجملة التى أطلقوها ، وفصّل ذلك بعض التفصيل ، حيث يقول ص ٥١ : « فالذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمّن للإعجاز وجوه :

منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرّف وجوهه ، وتباين مذاهبه ؛ خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ، و يتميز فى تصرّفه عن أساليب الكلام المعتاد » .

ومنها ص ٥٣ « أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هـذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة ؛ على هذا الطول ، وعلى هذا القدر... وهذا المعنى هو غير المعنى الأول ، فتأمله تعرف الفصل » .

والمعنى الثالث ص ٥٤ : أن عجيب نظمه ، و بديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها و يشتمل عليها « و إنما هو على حد واحد فى حسن النظم ، و بديع التأليف والرصف ، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا . وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لا يختلف . وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة ، تفاوتاً بيناً ، و يختلف اختلافاً كثيراً . ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة — فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ؛ بل هو على نهاية البلاغة ، وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر » .

والمعنى الرابع: أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيناً فى الفصل والوصل، والعلو والنزول ، والتقريب والتبعيد ، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ، و يتصرف فيه القول عند الضم والجمع. وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شىء إلى شىء ، والتحول من باب إلى باب . والقرآن على اختلاف فنونه ، وما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة ، والطرق المختلفة — يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر فى الأفراد إلى حد الآحاد . وهذا أمر عجيب، تبين به

الفصاحة وتظهر به البلاغة ، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف».

والمعنى الخامس : أن نظم القرآن وقع موقعاً فى البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن ، كما يخرج عن عادة كلام الإنس ، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا ، ويقصرون دونه كقصورنا » .

والمعنى السادس ص ٦٢ : « أن الذى ينقسم عليه الخطاب ، من البسط والاقتصار ، والجمع والتفريق ، والاستعاره والتصريح ، والتجوز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التى توجد فى كلامهم — موجود فى القرآن ، وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم فى الفصاحة والإبداع والبلاغة » .

والمعنى السابع ص ٦٣ : « أن المعانى التى تضمّنها فى أصل وضع الشريعة والأحكام والاحتجاجات فى أصل الدين ، والرد على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة مما يتعذر على البشر ويمتنع » .

والمعنى الثامن : أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته ، بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام ، أوتقذف ما بين شعر ، فتأخذها الأسماع ، وتتشوف إليها النفوس ، ويرى وجه رونقها بادياً ، غامراً سائر ما تقرن به ، كالدرة التى ترى فى سلك من خرز ، وكالياقوتة فى واسطة العقد . وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير ، وهى غرّة جميعه ، وواسطة عقده ، والمنادى على نفسه بتميزه ، وتخصصه برونقه وجماله ، واعتراضه فى حسنه ومائه » .

ثم قال فى ص ٦٤ : « ولولا هذه التى بيناها ، لم يتحير فيه أهل الفصاحة ، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة ، والتصنع للمعارضة ... فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك — علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور ، لعلمهم بعجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم دونه » .

والمعنى التاسع ص٦٦ : «أن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعةوعشرون

حرفاً ، وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمانية وعشرون سورة ؛ وجملة ما ذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة ، وهو أربعة عشر حرفاً ؛ ليدل بالمذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بها كلامهم » .

والمعنى العاشر : « أنه سهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشى المستكره والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلفة . وجعله قريباً إلى الأفهام ، يبادر معناه لفظَه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارتَه إلى النفس . وهو مع ذلك ممتنع المطلب ، عسير المتناول ، غير مطمع مع قربه فى نفسه ، ولا مُوهِم مع دنوه فى موقعه — أن يقدر عليه أو يظفر به » .

ثم قال فى ص ٧٠ : « وقد يمكن فى تفاصيل ما أوردنا من المعانى الزيادة والإفراد ؛ فإنا جمعنا بين أمور ، وذكرنا المزية المتعلقة بها . وكل واحد من تلك الأمور مما يمكن اعتماده فى إظهار الإعجاز فيه » .

ثم ختم كلامه فى هذا الفصل بالإجابة على سؤال هام أورده فى ص ٧١ ، وهو : « فإنه قيل : فهل تزعمون أنه معجز، لأنه حكاية لكلام القديم سبحانه ، أو لأنه عبارة عنه ، أو لأنه قديم فى نفسه ؟ » .

قيل : « لسنا نقول بأن الحروف قديمة ، فكيف يصح التركيب على الفاسد ؟ ولا نقول أيضاً : إن وجه الإعجاز فى نظم القرآن من أجل أنه حكاية عن كلام الله ؛ لأنه لو كان كذلك لكانت التوراة والإنجيل وغيرها من كتب الله عز وجل — معجزات فى النظم والتأليف . وقد بينا أن إعجازها فى غير ذلك . وكذلك يجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومنفردها . وقد ثبت خلاف ذلك » .

* * *

والفصل الرابع عقدة ص ٧٢ لشرح ما بيّنه من وجوه إعجاز القرآن الثلاثة السابقة ، وهى الإخبار عن الغيوب ، والإنباء عن قصص الأولين وسير المتقدمين ، و براعة النظم والتأليف والرصف .

والفصل الخامس ص ٧٦ مقصور على نفى الشعر من القرآن .

وأما الفصل السادس فقد عقده لنفى السجع من القرآن . وقد استهله بقوله :

« ذهب أصحابنا كلهم إلى نفى السجع من القرآن . وذكره الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى غير موضع من كتبه . وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع فى القرآن ؛ وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام ، وأنه من الأجناس التى يقع فيها التفاضل فى البيان والفصاحة ، كالتجنيس والالتفات ؛ وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة . وأقوى ما يستدلون به عليه : اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون ، عليهما السلام ، ولمكان السجع قيل فى موضع : « هارون وموسى » ولما كانت الفواصل فى موضع آخر بالواو والنون ؛ قيل : « موسى وهارون» .

ثم قال الباقلانى : « وهذا الذى يزعمونه غير صحيح . ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ؛ ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز . ولو جاز أن يقولوا : هو سجع معجز ، لجاز أن يقولوا : شعر معجز . وكيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر ؟ لأن الكهانة تنافى النبوات ، وليس كذلك الشعر . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للذين جاؤه وكلّموه فى شأن الجنين : كيف ندى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس دمه قد يُطلّ ؟ فقال : « أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ » وفى بعضها : « أسجعاً كسجع الكهان ؟ ». فرأى ذلك مذموماً لم يصح أن يكون فى دلالته .

والذى يقدّرونه أنه سجع فهو وهم ؛ لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ؛ لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع ؛ لأن اللفظ يقع فيه تالياً للمعنى » .

ثم قال : « ويقال لهم : لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعاً لكان مذموماً مرزولا ؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طرقه ؛ كان قبيحا من الكلام . وللسجع منهج مرتب محفوظ ، وطريق مضبوط متى أخل به المتكلم وقع الخلل فى كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة » .

ثم قال : « فلو رأوا أن ما تلى عليهم من القرآن سجعاً لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل ، فنزيد فى الفصاحة على طريقة القرآن ، ونتجاوز حده فى البراعة والحسن » .

ويقول ص ٩٠ : « ولو كان الكلام الذى هو فى صورة السجع منه لما تحيروا فيه ، ولكانت الطباع تدعو إلى المعارضة ؛ لأن السجع غير ممتنع عليهم ، بل هو فى عادتهم ، فكيف تنقض العادة بما هو نفس العادة ، وهو غير خارج عنها ولا متميز منها ؟ » .

ثم مضى فى حديثه عن السجع ، وذكر فيما ذكر اختلاف العلماء فى الشعر كيف اتفق للعرب قوله أولاً ؟ وهل كان اتفاقاً غير مقصود إليه ؟ أم تواضعوا على هذا الوجه من النظم ؟ وأن الله عرّفهم محاسن الكلام ، ودلّهم على كل طريقة عجيبة ، ثم أعلمهم عجزهم عن الإيتان بمثل القرآن « ووجدوا أن هذا لمّا تعذّر عليهم مع التحدى والتقريع الشديد والحاجة الماسة إليه ، مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر ، وتكامل أحوالهم فيه — دل على أنه اختص به ؛ ليكون دلالة على النبوة ، ومعجزة على الرسالة » .

وختم الباقلانى كلامه فى هذا الفصل بإلزام عجيب لمخالفيه حيث يقول فى ص ٩٩ :

« ولا بد لمن جوز السجع فيه وسلك ما سلكوه ؛ من أن يسلم ما ذهب إليه النّظّام ، وعبّاد بن سليمان ، وهشام القوطىّ ، ويذهب مذهبهم ، فى أنه ليس فى نظم القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته ؛ وإنما صرفوا عنه ضرباً من الصرف . ويتضمّن كلامه تسليم الخبط فى طريقة النظم ، وأنه منتظم من فرق شتّى ، ومن أنواع مختلفة ينقسم إليها خطابهم ولا يخرج عنها . ويستهين ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذى وقع التحدى إليه ! وكيف يعجزهم الخروج عن السجع والرجوع إليه ، وقد علمنا عادتهم فى خطبهم وكلامهم ، أنهم كانوا لا يلزمون أبداً طريقة السجع والوزن ، بل كانوا يتصرفون فى أنواع مختلفة . فإذا ادعوا على القرآن مثل ذلك ؛ لم يجدوا فاصلة بين نظمى الكلامين ! » .

هذا مجمل ما قاله الباقلانى فى هذا الفصل الذى عقده لبيان نفى السجع من القرآن ؛ وهو أخف فصول الكتاب وزناً ، وأقلها قدراً ، وأحفلها بالخطإ البين فى أصل الفكرة ، وفى كيفية نصرتها والدفاع عنها ، والحجاج دونها ، والرد على مخالفيها ؛ ومردّ ذلك — فيما يلوح لى — إلى أن الباقلانى قد اندفع فى كلامه بدافع المناصرة لمذهب الأشاعرة الذى كان يدين به .

والذى حدا بالأشاعرة إلى نفى السجع من القرآن أنهم ظنوا ، بل تيقنوا أن النبى صلى الله عليه وسلم قد ذمّ السجع فى حديث الجنين . ومن قصة هذا الحديث : أن حمل بن مالك بن النابغة كان قد تزوج بامرأتين ، يقال لإحداهما : مليكة بنت ساعدة ؛ وللأخرى : أم عفيفة بنت مسروح ؛ فتغايرتا كما هو الشأن دائما بين الضرتين ، فضربت أم عفيفة مليكة بمسطح بيتها أو بعمود فسطاطها ، وهى حامل فألقت جنينها ، ورفعت قضيتها إلى النبى فقضى على عاقلة الضار به بغُرّة : عبد أو أمة . فقال أخوها العلاء بن مسروح : يا رسول

الله ، أنغرم من لا أكل ولا شرب ولا نطق ولا استهل ، فمثل هذا يطل ؟ !
فقال عليه السلام : أسجع كسجع الجاهلية ؟ وقد روى قول النبي بعدة روايات ؛
منها : « أسجع كسجع الجاهليــة وكهانتها؟ » . ومنها : « دعنى من أراجيز
الأعراب » . ومنها : « أسجاعة بك ؟ » . ومنها : « أسجع كسجع الجاهلية ؟
قيل : يا رسول الله ، إنه شاعر » . ومنها : « لسنا من أساجيع الجاهلية فى شىء » .
ومنها : « إنما هذا من إخوان الـكهان » . ومنها : « إن هــذا ليقول بقول
شاعر ، بل فيــه — أى فى الجنين — غرّة » . ومنهـا : « أسجع كسجع
الأعراب ؟ » .

وقد فهم كثير من العلماء أن هذا الحديث إنما ورد فى ذم السجع والتنفير
منه . ولا شك أنهم واهمون فى ذلك . ولو كان النبى أراد إلى ذمــه لقال :
« أسجعاً » فقط . وإنما أراد النبى بقوله هذا ، كما يتضح من سياق الحديث ،
إنـكار تشادق هذا الساجع فى دفعه حقًّا وجب عليــه وعلى عاقلته ، وقعقعته
بالسجع على طريقة الـكهان فى الجاهلية .

وقد أغرب الباقلانى فى استنباطه من هذا الحديث ص ٨٨ : أن النبى صلى
الله عليه وسلم رأى أن السجع مذموم ، فلا يصح أن يكون فى دلالته على
نبوته ! وكيف يذم النبى السجع وكثير من كلامه مسجوع ؟ يقول : « أيهـا
الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس
نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » .

وقد أخطأ الباقلانى فى قوله : إن السجع من الـكلام يتبع المعنى فيه اللفظَ
الذى يؤدى السجع . فليس السجع كذلك على الإطلاق ، وإنما هذا نوع من
السجع ردىء لا يقع إلا فى كلام الضعفاء . ومنــه نوع آخر يقع فيه اللفظ
موقعه الرائع ، وهو مع ذلك تابع للمعانى . وهذا هو النوع المحمود منه الذى جاء

فى المأثور الصحيح عن بلغاء الجاهلية ، وفصحاء الإسلام ؛ وورد فى أحاديث الرسول على أكمل وجه وأتم نسق اتفق وجوده فى كلام البشر ؛ وإليه يُريغُ المثبتون للسجع فى القرآن ، القائلون بأن ما كان منه كذلك هو نهاية النهايات ، وأبعد الغايات فى البلاغة ، وقد بان بطلاوته وصفاء لفظه وتمكن معناه — عن جميع ما جرى هذا المجرى من كلام الخلق .

ولو قد تدبر الباقلانى ما حكاه من قول المثبتين للسجع فى القرآن : إنه مما يبين به فضل الكلام ، وإنه من الأجناس التى يقع فيها التفاضل فى البيان والفصاحة ، كالتجنيس والالتفات ، وما أشبه ذلك من الوجوه التى تعرف بها الفصاحة . لو تدبر هذا القول ، ولم يكن مدفوعاً إلى معارضته لمخالفته مذهب أصحابه ؛ لرآه قولاً وجيهاً ، ولما وجد بين السجع وبين أنواع البديع التى ذكرها من فرق ؛ ولقال عنه مثل قوله عن البديع ص ١٧٠ : « ولكن قد يمكن أن يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه إليهم : إن ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنس من أجناس البلاغة ؛ وإنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم ؛ وإذا أورد هذا المورد ، ووضع هذا الموضع ؛ كان جديراً » .

ولو صنع ذلك لاهتدى إلى سواء الصراط ، ولما ذهب يتمحل العلل الواهية لنفى السجع من القرآن ، كقوله : « لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعا لكان مذموماً مرذولا ؛ لأن السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طرقه — كان قبيحاً من الكلام ! وللسجع منهج مرتّب محفوظ ، وطريق مضبوط ، متى أخل به المتكلم وقع الخلل فى كلامه ، ونسب إلى الخروج عن الفصاحة . . . فلو كان ما تلى عليهم من القرآن سجعاً لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل ، فنزيد فى الفصاحة على طريقة القرآن ، ونتجاوز حدّه فى البراعة والحسن » .

وفوق ما فى كلامه هذا من خطأ وتهافت ، فإن فيــه هفوة أخرى ، إذ حكّم قواعد البلاغة فى القرآن ؛ مع أن القرآن هو الأساس الذى يجب أن تحاكم إليه قواعد البلاغة ، وأن تجرى على سننه ووفق أحكامه .

وكقوله : « ولا بد لمن جوز السجع فى القرآن وسلك ما سلـكوه ، من أن يسلم ماذهب إليه النظام وعبّاد وهشام ، ويذهب مذهبهم فى أنه ليس فى نظم القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته ، وإنما صرفوا عنه ضرباً من الصرف ! ويتضمن كلامه تسليم الخبط فى طريقة النظم ، وأنه منتظم من فرق شتى ، ومن أنواع مختلفة ينقسم إليها خطابهم ولا يخرج عنها ! ويستهين ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذى وقع التحدى إليه ! » .

وهذه إلزامات عجيبة لاتلزم المثبتين للسجع فى القرآن بحال من الأحوال ؛ لأنهم يرون أن السجع الرائع مظهر من مظاهر الاقتدار على البلاغة والامتلاك لزمام الفصاحة ؛ وأن السجع الـكثير فى القرآن قد جاء فى أرفع صور البيان ، وباين كل أسجاع الساجعين ؛ كما يؤمنون بأن سر إعجـاز القرآن نظمه البديع ، وبلاغته الرائعة المجاوزة لجميع بلاغات العرب .

وأى فارق بين مشاركة القرآن كله لغيره من الكلام فى كونه كلاماً عربياً مؤلفاً من ألفاظ فصيحة بليغة ، وبين مشاركة بعض آيه فى كونها جاءت مسجوعة ؟

وكيف يكون السجع المحمود من أمارات الفصاحة المعدودة ، التى يقصد إليها أعلام البلغاء فى بعض كلامهم لتوشيته وتزيينه ، وتحسينه بعقد المناسبة بين ألفاظه؛ ثم نجرد القرآن منه ، وننفيه عنه بزعمنا ؛ مع ادعائنا أنه قد اشتمل على أنواع البلاغة والفصاحة جميعاً ؟

ولئن قال الباقلانى : إن السجع عيب يجب نفيه عن القرآن ؛ فإنى أقول : إن السجع من الميزات البلاغية التى يجدر بنا أن ننزه القرآن عن خلوه منها .

والفصل السابع من فصول إعجاز القرآن ص١٠١ فى ذكر البديع من الكلام ، بدأه الباقلانى بقوله : « إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يعرف إعجاز القرآن من جهة تضمنه البديع ؟ قيل : ذكر أهل الصنعة ومن صنّف فى هذا المعنى من صفة البديع ألفاظاً نحن نذكرها ، ثم نبين ما سألوا عنه ؛ ليكون الكلام وارداً على أمر مبين ، وباب مقرر مصوّر » . ثم نقل جملة من بديع الشعر ، بعضها من كتابى البديع لابن المعتز ، ونقد الشعر لقدامة بن جعفر ؛ وقال ص ١٦٢ : « وقد قدّر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه . وليس كذلك عندنا ؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعوّد والتصنّع لها ، والوجوه التى نقول : إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها ، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال » . وختم كلامه فى هذا الفصل بقوله : إنا « لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصّة ، ووقفاً عليها ، ومضافاً إليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة ، آخذة بحظها من الحسن والبهجة ، متى وقعت فى الكلام على غير وجه التكلف المستبشع ، والتعمّل المستشنع » .

والفصل الثامن فى كيفية الوقوف على إعجاز القرآن ؛ وعنده أن إعجاز القرآن لا يخفى على العربى البليغ الذى قد تناهى فى معرفة اللسان العربى ، ووقف على طرقها ومذاهبها ، ولا يشتبه على ذى بصيرة ، ولا يخيل عند أخى معرفة . وأما من لم يبلغ فى الفصاحة الحد الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ، ووجوه تصرف اللغة ، فهو كالأعجمى فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن إلا بأن يعلم أن العرب قد عجزوا عنه ؛ وإذا عجز هؤلاء عنه فهو عنه أعجز .

ثم نقل الباقلانى نصوصاً من خطب النبى وكتبه ، وكلام أبى بكر وعمر وعثمان

وعلى وابن عباس وعبد الله بن مسعود ومعاوية وعمر بن عبد العزيز والحجاج وقس بن ساعدة وأبى طالب . وقد استغرقت هذه النصوص من ص ١٩٦ — إلى ص ٢٣٤ .

ثم قال : إنه نسخ لقارئ كتابه جملاً من كلام الصدر الأول ومحاوراتهم وخطبهم ، ليتأملها بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لُب ، وجمع عقل ؛ حتى يقع له الفصل بين كلام الآدميين ، و بين كلام رب العالمين ؛ و يعلم أن نظم القرآن يخالف نظمهم ، و يتبين الحد الذى يتفاوت بين كلام البليغين والخطيبين والشاعرين ، و بين نظم القرآن جملة .

ثم عقد باباً جليل الشأن عظيم الخطر ص ٢٣٦ ، لبيان أن نظم القرآن يزيد فى فصاحته على كل نظم ؛ قال فيه : « إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك ، فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة متفق على كبر محلها ، وصحة نظمها ، وجودة بلاغتها ، ورشاقة معانيها ، و إجماعهم على إبداع صاحبها فيها ؛ مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة ، والمعروفين بالحذق فى البراعة ؛ فنقفك على مواضع خللها ، وعلى تفاوت نظمها ، وعلى اختلاف فصولها ، وعلى كثرة فضولها ؛ وعلى شدة تعسفها ، و بعض تكلّفها ؛ وما تجمع من كلام رفيع ، يقرن بينه و بين كلام وضيع ؛ و بين لفظ سوقى ، يقرن بلفظ ملوكى » .

و بعد أن عرض لكلام مسيلمة ، رجع إلى ما ضمنه من الكلام على الأشعار المتفق على جودتها . فمهد لذلك بالكلام على جودة شعر امرئ القيس و براعته وفصاحته ، وما ابتدعه فى طرق الشعر ؛ ثم عرض لنقد معلقته حيث يقول ص ٢٤٣ : « ونظم القرآن جنس متميز ، وأسلوب متخصص ، وقبيل عن النظير متخلص ؛ فإذا شئت أن تعرف عظم شأنه ، فتأمل ما نقوله فى هذا الفصل لامرئ القيس فى أجود أشعاره ، وما نبين لك من عَوَاره ؛ على التفصيل » . ثم مضى

فى نقد المعلقة ، وانتهى منه فى ص ٢٧٧ ، بعد أن بين أن « هذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة ، وأبيات متوسطة ، وأبيات ضعيفة مرذولة ، وأبيات وحشية غامضة مستكرهة ، وأبيات معدودة بديعة ؛ وأن وحشيها مستنكر يروع السمع ، ويهول القلب ، ويكد اللسان ؛ ويعبس معناه فى وجه كل خاطر ، ويكفهر مطلعه على كل متأمل أوناظر؛ ولا يقع بمثله التمدُّح والتفاصح » .

ثم قال ص ٢٧٧ : « وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتاً بيناً فى الجودة والرداءة ، والسلاسة والانعقاد ، والسلامة والانحلال ، والتمكن والاستصعاب ، والتسهل والاسترسال ، والتوحش والاستكراه ؛ وله شركاء فى نظائرها ، ومنازعون فى محاسنها ، ومعارضون فى بدائعها . ولا سواء كلام ينحت من الصخر تارة ، ويذوب تارة ؛ ويتلون تلون الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ؛ ويكثر فى تصرفه اضطرابه ، وتتقاذف به أسبابه ؛ وبين قول يجرى فى سبكه على نظام ، وفى وصفه على منهاج ، وفى وضعه على حد ، وفى صفائه على باب ؛ وفى بهجته ورونقه على طريق ، مختلفه مؤتلف ، ومؤتلفه متحد ، ومتباعده متقارب ، وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرّفاته واحد ، لا يستصعب فى حال ، ولا يتعقّد فى شأن » .

ثم عرض لنظم القرآن ونهجه ، فقال : « فأما نهج القرآن ونظمه ، وتأليفه ورصفه ؛ فإن العقول تتيه فى جهته ، وتحار فى بحره ، وتضل دون وصفه . ونحن نذكر لك فى تفصيل هذا ما تستدل به على الغرض ، وتستولى به على الأمد ، وتصل به إلى المقصد ؛ وتتصوّر إعجازه كما تتصوّر الشمس، وتتيقن تناهى بلاغته كما تتيقن الفجر ؛ وأقرّب عليك الغامض ، وأسهل لك العسير » .

ثم ذكر آيات كثيره ، وبين أسرار إعجازها بياناً شافياً كافياً ، على نحو رائع جميل، كقوله فى ص٢٩٤ : « ما رأيك فى قوله تعالى : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض

وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم ؛ إنه كان من المفسدين ﴾ ؟ هذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤها وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ورونقها على ما تعاين ، وفصاحتها على ما تعرف . وهى تشتمل على جملة وتفصيل ، وجامعة وتفسير : ذكر العلو فى الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبى النساء ؛ و إذا تحكّم فى هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما ؟ ! لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لا تقر على هذا الجور . ثم ذكر الفاصلة التى أوغلت فى التأكيد ، وكفت فى التظليم ؛ وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ﴾ . وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المستأنس » .

وقد استغرق كلامه على تلك الآيات من ص ٢٨١ — إلى — ٣٢٢ ؛ ثم رجع إلى حديثه عن امرئ القيس وعمن عارض القرآن بشعره ؛ ثم قال ص٣٢٧ : « فإن قال قائل : أجدك تحاملت على امرئ القيس ، ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشراسة ، و بين اللطف والشكاسة ؛ و بين التوحش والاستئناس ، والتقارب والتباعد ؛ ورأيت الكلام الأعدل أفضل ، والنظام المستوثق أكمل ؛ وأنت تجد البحترى يسبق فى هذا الميدان ، و يفوت الغاية فى هذا الشأن ؛ وأنت ترى الكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ، و يقدمون رأيه فى البلاغة على كل رأى ؛ وكذلك تجد لأبى نواس من بهجة اللفظ ، ودقيق المعنى ؛ ما يتحير فيه أهل الفضل . . . فكيف يعرف فضل ما سواه عليه ؟ » .

ثم خلص من الإجابة على هذا السؤال ؛ وقال فى ص ٣٣٣ : « ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحترى فنتكلم عليها ، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس ؛ ليزداد الناظر فى كتابنا بصيرة ، و يستخلص من سر المعرفة سريرة ؛ و يعلم كيف

تكون الموازنة ، وكيف تقع المشابهة والمقاربة . ونجعل تلك القصيدة التى نذكرها أجود شعره » . وهى التى مطلعها :

أهلا بذلكم الخيال المقبل   فعل الذى نهواه أوْ لمْ يفعل

ثم أخذ فى نقدها حتى قال فى ص ٣٧٣ : « وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحترى؛ لأن الكتاب يفضلونه على أهل دهره ، ويقدمونه على من فى عصره . ومنهم من يدعى له الإعجاز غلوًّا ، ويزعم أنه يناغى النجم فى قوله علوًّا . . . فبينا قدر درجته ، وموضع رتبته ، وحد كلامه . وهيهات أن يكون المطموع فيه كالمأيوس منه ، وأن يكون الليل كالنهار ، والباطل كالحق ، وكلام رب العالمين ككلام البشر » .

والحق أن نقد الباقلانى لمعلقة امرئ القيس وقصيدة البحترى ، من نماذج النقد الأدبى الرائعة ، وصوره الرفيعة البارعة ؛ غير أنه شان حسنها ، وشاب صفاءها ، بتحامله عليهما ، وإسرافه فى نقد بعض أبياتهما ؛ كقوله فى نقد قول امرئ القيس ص ٢٥٣ :

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت لك الويلات إنك مرجلى

قوله : « دخلت الخدر خدر عنيزة » ذكره تكريراً لإقامة الوزن ، لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحة له ولا رونق ! وقوله : « فقالت لك الويلات إنك مرجلى » كلام مؤنث من كلام النساء ، نقله من جهته إلى شعره ! وليس فيه غير هذا ! ! » .

وكقوله ص ٣٣٥ فى نقد قول البحترى :

أهلاً بذلكم الخيال المقبل   فعل الذى نهواه أو لم يفعل
برْقٌ سرى فى بطن وجرة فاهتدت   بسناه أعناق الركاب الضُّلَّل

البيت الأول فى قوله : « ذلكم الخيال » ثقل روح وتطويل وحشو ، وغيره أصلح له . وأخف منه قول الصنوبرى :

أهلاً بذاكَ الزَّور من زَوْرِ   شمسٌ بدت فى فَلَك الدَّوْرِ

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف ، فيصير إلى الكزازة ، وتعود ملاحته بذلك ملوحة ، وفصاحته عيًّا ، وبراعته تكلفاً ، وسلاسته تعسفاً ، وملاسته تلوياً وتعقداً ، فهذا فصل . وفيه شىء آخر ، وهو : أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال إقباله ، فأما أن يحكى الحال التى كانت وسلفت على هذه العيادة ؛ ففيه عُهْدَةٌ ، وفى تركيب الكلام عن هذا المعنى عقدة . وهو — لبراعته وحذقه فى هذه الصنعة — يَعْلَقُ نحوَ هـذا الكلام ، ولا ينظر فى عواقبه ؛ لأن ملاحة قوله تغطى على عيون الناظرين فيه نَحْوَ هذه الأمور . ثم قوله « فعل الذى نهواه أو لم يفعل » ؛ ليست بكلمة رشيقة ، ولا لفظة ظريفة ؛ وإن كانت كسائر الكلام » .

ولست أشك فى أن الباقلانى قد حاد عن جادة الصواب عند ما حكم بأن بيت الصنوبرى أخف من بيت البحترى . وغنى عن البيان أن بيت الصنوبرى ثقيل بالغ الثقل ؛ وحسبه أن يجتمع فى شطره الأول « الزور من زور » ، وأن يكون فى شطره الثانى كلمة « الدَّوْر » ، ليأخذ سبيله إلى مستقره فى حضيض الشعر الأوهد .

وأما نقد الباقلانى لبيت البحترى الثانى ، فإنى أورده ليكون بياناً لمنهجه فى نقده ، ولأنه استطرد فيه إلى نقد امرئ القيس بنقد لطيف ذهب به ، ولم يسبقه أحد إليه . قال : « فأما بيته الثانى ، فهو عظيم الموقع فى البهجة ، وبديع المأخذ ، حسن الرَّواء ، أنيق المنظر والمسمع ، يملأ القلب والفهم ، ويفرح الخاطر ، وتسرى بشاشـته فى العروق . وكان البحترى يسمى نحو هذه الأبيات عروق الذهب ؛ وفى نحوه

ما يدل على براعته فى الصناعة ، وحذقه فى البلاغة . ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل ، مع الديباجة الحسنة ، والرونق المليح . وذلك أنه جعل الخيال كالبرق لإشراقه فى مسراه ؛ كما يقال : إنه يسرى كنسيم الصّبا ، فيطيِّب ما مرّ به ؛ كذلك يضىء ما مرّ حوله ، وينوّر ما مرّ به . وهـذا غلو فى الصنعة ، إلا أن ذكره « بطن وجرة » حشو ، وفى ذكره خلل ؛ لأن النور القليل يؤثر فى بطون الأرض وما اطمأن منها ، بخلاف ما يؤثر فى غيرها ؛ فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك ببطن وجرة . وتحديده المكان — على الحشو — أحمد من تحديد امرئ القيس من ذكر « سقط اللوى بين الدخول فحومل ، فتوضح فالمقراة » ؛ لم يقنع بذكر حد ، حتى حدّه بأربعة حدود ، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى إن أخل بحدّ أن يكون بيعه فاسداً أو شرطه باطلا !! فهذا باب . ثم إنما يذكر الخيال بخفاء الأثر ، ودقة المطلب ، ولطف المسلك . وهذا الذى ذكره يضادّ هذا الوجه ، ويخالف ما وضع عليه أصل الباب . ولا يجوز أن يقدر مقدر أن البحترى قطع الكلام الأول ، وابتدأ بذكر برقٍ لَمَعَ من ناحية حبيبه من جهة بطن وجرة ؛ لأن هذا القطع إن كان فعله ، كان خارجاً به عن النظم المحمود ، ولم يكن مبدعاً ؛ ثم كان لا تكون فيـه فائدة ؛ لأن كل برق شعل وتكرر وقع الاهتداء به فى الظلام؛ وكان لا يكون بما نظمه مفيداً ولا متقدماً . وهو على ما كان من مقصده ، فهو ذو لفظ محمود ، ومعنى مستجلب غير مقصود ، ويعلم بمثله أنه طلبَ العبارات ، وتعليق القول بالإشارات . وهذا من الشعر الحسن الذى يحلو لفظه، وتقل فوائده ».

ومن شواهد تجنى الباقلانى على البحترى قوله فى ص ٢٤٠ : « وأما قوله :

ما الحسن عندكِ يا سعاد بمحسنٍ فيما أتاه ولا الجمال بِمُجْمِلِ
عُذل المشوقُ وإن من سيما الهوى فى حيث يجهله لَجَاجُ العُذَّل

قوله فى البيت الأول : « عندك » حشو ، وليس بواقع ولا بديع ، وفيه كُلفة ، والمعنى الذى قصده، أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء . وفيه شيء آخر، لأنه يذكر أن حسنها لم يُحسن فى تهييج وجده . وتَهْييم قلبه ؛ وضدُّ هذا المعنى هو الذى يميل إليه أهل الهوى والحب . و بيت كشاجم أسلم من هذا ، وأبعد من الخلل ؛ وهو قوله :

بحياة حسنك أحسنى ، و بحق من   جعل الجمال عليك وقْفاً أجملى » .

ولست أرى رأى الباقلانى فى أن كلمة « عندك » قد وقعت حشواً متكلفاً ، ليست بواقعة ولا بديعة ؛ و إنما هى فى هذا المقام قد وقعت موقعها الطبيعى البديع ، ولم يجتلبها التكلف حشواً لا يغنى غناءه فى تأدية المعنى ، و إنما هى أصيلة فى أصل المعنى ، ولا يؤدى معناها غيرها . ولست أشك كذلك فى أن بيت البحترى أمثل من بيت كشاجم .

و يخيل إلىّ أن الباقلانى قد ضل عنه معنى بيت البحترى ؛ إذ فهم أنه « يذكر أن حسنها لم يحسن فى تهييج وجده وتهييم قلبه » . و إنى أفهم أن المعنى الذى أراغ إليه البحترى: أن حسنها لم يحسن إليه بما يود الحبيب من حبيبه أن يحسن إليه به ، مما يمتع نفسه ، و يروى ظمأ حبه ؛ وأن جمالها لم يجمل بإصفاء المودة ، و إنالة جنى الحب المشتهى . و بذلك يتسق معنى البيت ، مع المعنى الذى يميل إليه أهل الهوى والحب .

ولئن كان الباقلانى قد أخطأ فى نقد بيت البحترى الأول ، وضل عن معناه ؛ فإنه أصاب فى نقده للبيت الثانى ، حيث يقول : « وأما البيت الثانى فإن قوله : « فى حيث » ، حشا بقوله كلامه ، ووقع ذلك مستنكراً وحشيًّا ، نافراً عن طبعه ، جافياً فى وضعه ؛ فهو كرقعة من جلد فى ديباج حسن ! فهو يمحو حسنه ، و يأتى

على جماله . ثم فى المعنى شىء ؛ لأن لجاج العُذّل لا يدل على هوى مجهول ، ولو كان مجهولا لم يهتدوا للعذل عليه . فعلم أن المقصد استجلاب العبارات . ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن فى البيت معنى بديع ، ولا شىء يفوت قول الشعراء فى العذل ؛ فإن ذلك جملهم الذلول ، وقولهم المكرر المقول » .

* * *

ثم قال الباقلانى فى ص ٣٧٤ « وأما الغرض الذى صنفنا فيه ، فى التفصيل والكشف عن إعجاز القرآن ، فلم نجده على التقريب الذى قصدنا ، وقد رجونا أن يكون ذلك مغنياً ووافياً . . . وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ، ومهدنا الطريق . . » .

ثم عرض لنقد الجاحظ فى ص ٣٧٧ : بأن كلامه قريب ، ومنهاجه معيب ؛ ونطاق قوله ضيق . ومن أجل ذلك يستعين بكلام غيره ، ويفزع إلى ما يوشح به كلامه ، من بيت سائر ، ومثل نادر ؛ وحكمة منقولة ، وقصة مأثورة ؛ فإذا أطال ولم يستعن بكلام غيره ، كان كلامه ككلام غيره .

ثم زعم أن أبا الفضل بن العميد قد سلك مسلكه ، ونازعه طريقته ، فلم يقصّر عنه . ولعله قد بان تقدمه عليه ، لأنه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، ولا يقتصر على أن يأتى بالأسطر من نحو كلامه ؛ كما ترى الجاحظ يفعل فى كتبه ، متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقاً ؛ وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً » . وفى هذا الكلام حق كثير ، وظلم مبين ؛ وأين كلام ابن العميد من سحر الجاحظ ؟ هيهات هيهات أن يقارنه أو يقارب به .

* * *

ثم عقد فصلاً فى ص ٣٨٠ لبيان أن عجز سائر أهل الأعصار عن الإتيان بمثل القرآن ثابت ، كعجز أهل العصر الأول .

ثم أعقبه بفصل فى التحدى ووجه الحاجة إليه فى باب القرآن ص ٣٨٢ .

وتلاه بفصل فى قدر المعجز من القرآن عند الأشاعرة والمعتزلة ص ٣٨٦ : « فذهب عامة الأشاعرة إلى أن أقل مايعجز عنه من القرآن السورةُ ، قصيرةً كانت أو طويلة ، أو ما كان بقدرها . قال الأشعرى : فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة ، و إن كانت سورة الكوثر ، فذلك معجز ؛ ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر . وذهبت المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهى معجزة » .

و بعده فصل فى أنه هل يعلم إعجاز القرآن ضرورة ؟ ص٣٩٣ وقد ذهب إلى أن الأعجمى لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلا استدلالاً ، وكذلك غير البليغ من العرب ؛ فأما البليغ الذى أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة ، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه عن الإتيان بمثله ، و يعلم عجز غيره بمثل ما يعرف عجز نفسه .

وجعل الفصل الذى يليه ص ٣٩٤ فيما يتعلق به الإعجاز : أهو الحروف المنظومة ؟ أم الكلام القائم بالذات ؟ أم غير ذلك ؟ وذهب إلى أن التحدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة ، التى هى عبارة عن كلام الله تعالى ، فى نظمها وتأليفها ، وهى حكاية لكلامه ، ودلالات عليه ، وأمارات له ؛ على أن يكونوا مستأنفين لذلك ، لا حاكين بما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر فصلا فى وصف وجوه من البلاغة ، بدأه بقوله : « ذكر بعض أهل الأدب والكلام : أن البلاغة على عشرة أقسام . . » . وهذا البعض الذى لم يشأ أن يصرح باسمه ، هو معاصره أبو الحسن على بن عيسى الرمانى المعتزلى . وقد نقل الباقلانى هذا الفصل الطويل بأمثلة من كتابه : « النكت فى إعجاز القرآن » ؛

وعلق عليه تعليقات شتى . وقد ذيلت كل مثال نقله بما قاله الرمانى فيه ؛ لتتم فائدة القارئ ، وليستبين الفرق بين الرجلين .

ثم عقد الباقلانى فصلا فى حقيقة المعجز ص ٤٣٦ ، فبين معنى إعجازه على أصول الأشاعرة بأنه لا يقدر العباد عليه ، و إنما ينفرد الله بالقدرة عليه ؛ ولما لم يقدر عليه أحد شُبِّه بما يعجز عنه العاجز ؛ و إنما لا يقدر العباد على مثله لأنه لو صح أن يقدروا عليه بطلت دلالة المعجز ؛ وقد أجرى الله العادة بأن يتعذر فعل ذلك منهم وأن لا يقدروا عليه . ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله ، أو عرضوا عليه من كلام فصحائهم و بلغائهم ما يعارضه . فلما لم يشتغلوا بذلك علم أنهم فطنوا لخروج ذلك عن أوزان كلامهم ، وأساليب نظامهم ؛ وزالت أطماعهم عنه . وتعرض فى هذا الفصل لنظم القرآن ص ٤٣٩ ، وأن أصحابه قالوا فيه : إن الله يقدر على نظم هيئة أخرى تزيد فى الفصاحة عليه ، كما يقدر على مثله . وأما بلوغ بعض نظم القرآن الرتبة التى لا مزيد عليها ، فقد قال مخالفونا : إن هذا غير ممتنع . . . والذى نقوله : أنه لا يمتنع أن يقال : إنه يقدر الله تعالى على أن يأتى بنظم أبلغ وأبدع من القرآن كله . وأما قُدَر العباد فهى متناهية فى كل ما يقدرون عليه ، مما تصح قدرتهم عليه » .

وعقد بعد ذلك فصلا فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، وأمور تتصل بالإعجاز ، بين فيه أنه محال أن يكون القرآن من كلامه عليه السلام ، ورد فيه على قول من يقول : لولا أن كلامه معجز لم يشتبه على ابن مسعود الفصل بين المُعَوِّذتين ، و بين غيرهما من القرآن ؛ وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت فى أنه هل هو من القرآن أم لا .

وقال : إن هذا من تخليط الملحدين ، و إن الذى يروونه فى ذلك خبر واحد ، لا يسكن إليه فى مثل هذا ولا يعمل به . وقد جوّز أن يكون أبىّ قد كتب دعاء

القنوت على ظهر مصحفه لئلا ينساه ؛ كما جوز أن يكون ابن مسعود قد شذ عن مصحفه إثبات المعوذتين ، أو أن يكون الناقل اشتبه عليه الأمر ، لأن مصحفه مخالف فى النظم والترتيب مصحف عثمان . وقال: «ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادعوا ، لكانت الصحابة تناظره على ذلك ، وكان يظهر وينتشر ؛ فقد تناظروا فى أقل من هذا ؛ وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل ؛ فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه ! ؟ وقد علمنا إجماعهم على ما جمعوه فى المصحف ، فكيف يقدح بمثل هذه الحكايات الشاذة المولّدة فى الإجماع المتقرِّر ، والاتفاق المعروف ؟ ! » . ثم قال : « ولو كان القرآن من كلامه ، لكان البون بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبة وخطبة ينشئهما رجل واحد ؛ وكانوا يعارضونه ؛ لأنّا قد علمنا أن القدر الذى بين كلامهم وبين كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يخرج إلى حد الإعجاز ، ولا يتفاوت التفاوت الكثير ، ولا يخفى كلامه من جنس أوزان كلامهم ، وليس كذلك نظم القرآن ؛ لأنه خارج من جميع ذلك » .

ثم أجاب إجابة دقيقة موفقة على اعتراض أورده فى ص ٤٤٦ ؛ وهو :

« لو كان القرآن معجزاً لم يختلف أهل الملة فى وجه إعجازه ؟ » .

ثم أعقبه بفصل موجز لبيان أن من شرط المعجز أن يعلم أنه أتى به من ظهر عليه .

ثم ذكر الباقلانى الفصل الأخير من كتابه ، ص ٤٥٢ ، وقال فى مستهله : « قد ذكرنا فى الإبانة عن معجز القرآن وجيزاً من القول ، رجونا أن يكفى ، وأمّلنا أن يقنع ؛ والكلام فى أوصافه — إن استقصى — بعيد الأطراف ، واسع الأكناف ؛ لعلو شانه ، وشريف مكانه . والذى سطرناه فى الكتاب ، وإن كان موجزاً ، وما أمليناه فيه ، وإن كان خفيفاً — فإنه ينبه على الطريقة ، ويدل على الوجه ، ويهدى إلى الحجة ؛ ومتى عظم محل الشىء فقد يكون

الإسهاب فيه عيًّا، والإكثار فى وصفه تقصيراً . . . ولولا أن العقول تختلف، والأفهام تتباين، والمعارف تتفاضل — لم نحتج إلى ما تكلفنا؛ ولكن الناس يتفاوتون فى المعرفة، ولو اتفقوا فيها لم يجز أن يتفقوا فى معرفة هذا الفن، أو يجتمعوا فى الهداية إلى هذا العلم؛ لاتصاله بأسباب خفيَّة، وتعلقه بعلوم غامضة الغور، عميقة القعر، كثيرة المذاهب، قليلة الطلاب، ضعيفة الأصحاب، وبحسب تأتّى مواقعه تقع الأفهام دونه، وعلى قدر لطف مسالكه يكون القصور عنه . . . فإذا كان نقد الكلام كله صعباً، وتمييزه شديداً، والوقوع على اختلاف فنونه متعذِّراً؛ وهذا فى كلام الآدميين؛ فما ظنك بكلام رب العالمين؟ » .

ثم قال: « وقد بينا فى نظم القرآن أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة، والأسلوب يختص بمعنى آخر من الشرف » . وأطلق لقلمه العنان فى وصف القرآن وما اشتمل من جوامع المعانى . وعظيم البلاغة، وعجيب النظم المفارق لسائر النظوم؛ فأتى فى ذلك بما يلذ ويشوق . ويعجب ويطرب؛ ومن قوله فى هذا المعنى: « تجد فيه الحكمة وفصل الخطاب مجلوة عليك فى منظر بهيج، ونظم أنيق، ومعرض رشيق، غير مُعتاصٍ على الأسماع، ولا مغلق على الأفهام، ولا مستكره فى اللفظ، ولا مستوحش فى المنظر؛ غريب فى الجنس، غير غريب فى القبيل؛ ممتلىء ماء ونضارة، ولطفاً وغضارة؛ يسرى فى القلب كما يسرى السرور، ويمر إلى مواقعه كما يمر السهم، ويضىء كما يضىء الفجر، ويزخر كما يزخر البحر؛ طموح العباب، جموح على المتناول المنتاب؛ كالروح فى البدن، والنور المستطير فى الأفق، والغيث الشامل، والضياء الباهر، ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾؛ من توهم أن الشعر يلحق شأوه بَانَ ضَلاله، ووضح جهله، إذ الشعر سمت قد تناولته الألسن، وتداولته القلوب، وانثالت عليه الهواجس؛ وضرب الشيطان فيه بسهمه، وأخذ منه بحظه . وما دونه من

كلامهم ، فهو أدنى محلا ، وأقرب مأخذاً ، وأسهل مطلباً . . والقرآن كتاب دل على صدق متحمله ، ورسالة دلت على صحة قول المرسل بها ، و برهان شهد له براهين الأنبياء المتقدمين ، و بينة على طريقة ما سلف إلى الأولين . تحداهم به إذ كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، و بلغوا فيه الغاية ؛ فعرفوا عجزهم ، كما عرف قوم عيسى نقصانهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطب ؛ فجاءهم بما بهرهم من إحياء الموتى ، و إبراء الأكمه والأبرص ، وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما برعوا فيه من سحرهم ، وأتت على ما أجمعوا عليه من أمرهم ، وكما سخر لسليمان الريح والطير والجن حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة و بدائع اللطف . ثم كانت هذه المعجزة مما يقف عليه الأول والآخر وقوفاً واحداً ، و يبقى حكمها إلى يوم القيامة ... فتأمل ما عرفناك فى كتابنا ، وفرغ له قلبك . واجمع عليه لبك ؛ ثم اعتصم بالله يهدك ، وتوكل عليه يعنك و يجرك ، واسترشده يرشدك ، وهو حسبى وحسبك ، ونعم الوكيل .

* * *

رأى الرافعى فى إعجاز القرآن :

قال فى كتاب « تاريخ آداب العرب » ٢/١٥٣ : « وجاء القاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ فوضع كتابه المشهور « إعجاز القرآن » ، الذى أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب فى الإعجاز على حدة ؛ والغريب أنه لم يذكر فيه كتاب الواسطى ، ولا كتاب الرمانى ، ولا كتاب الخطابى الذى كان يعاصره ، وأومأ إلى كتاب الجاحظ بكلمتين لا خير فيهما ، فكأنه هو ابتدأ التأليف فى الإعجاز بما بسط فى كتابه واتسع ، وفى ذلك ما يثبت لنا أن عهد هذا التأليف

لا يرد فى نشأته إلى غير الجاحظ . على أن كتاب الباقلانى و إن كان فيه الجيد الكثير ؛ وكان الرجل قد هذبه وصفاه وتصنع له ؛ إلا أنه لم يملك فيه بادرة عابها هو من غيره ، ولم يتحاش وجهاً من التأليف لم يرضه من سواه ، وخرج كتابه كما قال هو فى كتاب الجاحظ : « لم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى » .

فإن مرجع الإعجاز فيه إلى الكلام ، و إلى شيء من المعارضة البيانية بين جنس وجنس من القول ، ونوع وآخر من فنونه ، وقد حشر إليه أمثلة من كل قبيل من النظم والنثر ؛ ذهبت بأكثره ، وغمرت جملته ؛ وعدها فى محاسنه وهى من عيوبه.

وكان الباقلانى ، رحمه الله وأثابه ، واسع الحيلة فى العبارة ، مبسوط اللسان إلى مدى بعيد ، يذهب فى ذلك مذهب الجاحظ ومذهب مقلده ابن العميد ؛ على بصر وتمكن وحسن تصرّف ؛ فجاء كتابه وكأنه فى غير ما وضع له ؛ لما فيه من الإغراق فى الحشد ، والمبالغة فى الاستعانة ، والاستراحة إلى النقل ؛ إذ كان أكبر غرضه فى هذا الكتاب أن «ينبه على الطريقة، و يدل على الوجه، و يهدى إلى الحجة» وهذه ثلاثة لو بُسطت لها كل علوم البلاغة وفنون الأدب — لوسعتها، وهى مع ذلك حشو ووصل .

على أن كتابه قد استبد بهذا الفرع من التصنيف فى الإعجاز ، واحتمل المؤنة فيه بجملتها من الكلام والعربية والبيان والنقد ، ووَفى بكثير مما قصد إليه من أمهات المسائل والأصول التى أوقع الكلام عليها ، حتى عدّوه الكتابَ وحده ، لا يُشرِكُ العلماء معه كتاباً آخر فى خطره ومنزلته ، و بُعد غوره ، و إحكام ترتيبه ، وقوة حجته ، و بسط عبارته ، وتوثيق سرده . فانظر ما عسى أن يكون غيره مما سبقه أو تلاه . وما زاد الباقلانى ، رحمه الله ، على أن ضمن كتابه روح عصره ، وعلى أن جعله فى هذا الباب كالمستحِثّ للخواطر الوانية ، والهمم المتثاقلة فى أهل التحصيل والاستيعاب الذين لم يذهبوا عن معرفة الأدب ، ولم يغفلوا عن وجه

اللسان ، ولم ينقطعوا دون محاسن الكلام وعيونه ، ولم يضلوا فى مذاهبه وفنونه ، حتى قال : « إن الناقص فى هذه الصنعة كالخارج عنها ، والشادى فيها كالبائن منها » . وقد كانت علوم البلاغة لم تهذب لعهده ، ولم يبلغ منها الاستنباطُ العلمى ، ولم تجرد فيها الأمهات والأصول، ككتب عبد القاهر ومن جاء بعده؛ فبسط الرجل من ذلك شيئاً ، وأجمل شيئاً ، وهذب شيئاً ، ونحا فى الانتقاد منحى الذين سبقوه من العلماء بالشعر وأهل الموازنة بين الشعراء ، وكانت تلك العصور بهم حفيلة . وبالجملة فقد وضع ما لم يكن يمكن أن يوضع أوفى منه فى عصره » .

* * *

وقد طبع كتاب « إعجاز القرآن » عدة طبعات : أولاها بمطبعة الإسلام بمصر فى سنة ١٣١٥ ، وثانيتها على هامش كتاب الإتقان للسيوطى المطبوع بالمطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٧ ، وثالثتها على هامشه كذلك فى المطبعة الأزهرية بالقاهرة سنة ١٣١٨ ، والطبعة الرابعة فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٩ ؛ وهى بتحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب . وقد عارضها بنسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية ، وصدرها بكلمة طيبة عن الباقلانى . ومع أن هذه الطبعة أحسن طبعات الكتاب جميعاً ، فإنها لم تخل من شوائب التصحيف والتحريف ، والنقص الكثير؛ وفيها ما هو أكثر من ذلك . فقد كرر فيها كلام الباقلانى من السطر الحادى عشر من صفحة ١٧ إلى السطر الأول من ص ١٩ ، فأعيد بنصه وفصه ابتداء من السطر الثانى والعشرين من صفحة ٢١٧ إلى السطر التاسع من صفحة ٢١٩ ، مع أنه مقحم فى هذا الموضع إقحاماً يأباه المقام .

ومن أمثلة النقص الواقع فيها : ما جاء فى ص ٤١ : « وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة . فرأيناه غير مختلف » وقد ورد هذا الكلام فى طبعتنا كاملا ص ٥٦ « ... عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً

بيناً ، ويختلف اختلافاً كبيراً . ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة فرأيناه غير مختلف » .

ومنها فى ص ٧٠ وكقول على « حين سئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : إنما قال ذلك والدين فى قل » . وهو فى طبعتنا : « حين سئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود — : إن النبى صلى الله عليه وسلم إنما قال ذلك والدين فى قل » .

ومنها ماجاء فى ص ٧٧ « ومن البليغ عندهم الغلو كقول النمر بن تولب » وهو فى طبعتنا : « ومن البليغ عندهم الغلو والإفراط فى الصفة ، كقول النمر بن تولب».

ومنها فى ٨٣ « إذا فريق منكم بربهم يشركون . ويعدون من البديع الموازنة » . وفى طبعتنا ص ١٣٣ « ... يشركون . ومن هذا الجنس قول هند بنت النعمان للمغيرة بن شعبة ، وقد أحسن إليها : برّتك يد نالتها خصاصة بعد ثروة ، وأغناك الله عن يد نالت ثروة بعد فاقة . ويعدون من البديع الموازنة » .

ومنها فى ص٨٧ « ونحوه صحة التفسير ، كقول القائل » . وفى طبعتنا ص١٤٣ « ونحوه صحة التفسير ، وهو أن توضع معان تحتاج إلى شرح أحوالها ، فإذا شرحت أثبتت تلك المعانى من غير عدول عنها ولا زيادة ولا نقصان ، كقول القائل » . وفى نفس الصفحة منها : «ومن البديع التكميل والتتميم ، كقول نافع بن خليفة ». وهو فى صفحتنا نفسها : « ومن البديع التكميل والتتميم وهو أن يأتى بالمعنى الذى بدأ به بجميع المعانى المصحة التمة لصحته ، المكملة لجودته ، من غير أن يخل ببعضها ، ولا أن يغادر شيئاً منها . كقول القائل : وما عسيت أن أشكرك عليه من مواعيد لم تشن بمطل ، ومرافد لم تشب بمن ، وبشر لم يمازجه ملق ، ولم يخالطه مذق . وكقول نافع بن خليفة » .

ومنها فى ص ٢٢٠ « وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت فى أنه هل هو من القرآن

أم ، ولا يجوز أن يخفى عليهم » وهو فى طبعتنا ص ٢٤٢ « ... هو من القرآن أم لا ، قيل : هذا من تخليط الملحدين ؛ لأن عندنا أن الصحابة لم يخف عليهم ما هو من القرآن ، ولا يجوز أن يخفى عليهم » .

وقد رمزت إلى طبعة السلفية برمز « س » ووضعت كل زيادة عليها بين هاتين العلامتين [ ] .

وأمثلة التحريف والتصحيف كثيرة مبينة فى أماكنها من الكتاب ، ولكننا نذكر منها :

جاء فى ص ٦٦ منها « وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعد ، و بنوا عليه وطلبوه ، ورتبوا فيه المحاسن التى يقع الاضطراب بوزنها ، وتهش النفوس إليها» . والصواب فى طبعتنا ص٩٧ « التى يقع الإطراب بوزنها » .

وجاء فى ص ٩٧ « كامرئ القيس ، وزهير ، والنابغة وإلى يومه ، ونحن نبين تميز كلامهم » . والصواب فى طبعتنا ص ١٦٧ « والنابغة ، وابن هرمة ، ونحن نبين تميز كلامهم » .

وجاء فى ص ١٣١ « وإنما قرع له الأصمعى إلى إفادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه » . والصواب فى طبعتنا ص٢٤٥ « وإنما فزع الأصمعى إلى إفادته هذه الفائدة خشية أن يعاب عليه .

وجاء فى ص ١١٤ « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، سهيل بن عمرو : اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشرين سنة يأمن فيه الناس » . والصواب فى طبعتنا ص ٢٠٥ « اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس » .

وجاء فى ص ١٣٠ فى كلام الباقلانى عن امرئ القيس : « ثم ترى أنفس

الشعراء تتشوق إلى معارضته ، وتساويه فى طريقته ، وربما عثرت فى وجهه على أشياء كثيرة ، وتقدمت عليه فى أسباب عجيبة » . والصواب فى طبعتنا ص ٢٤٢ « . وربما غَبَّرَتْ فى وجهه فى أشياء كثيرة . »

وجاء فى كلام الباقلانى على بيت امرئ القيس :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتّلِ

ص ١٣٨ « لأنه إن كان محتاجاً — على ما وصف به نفسه من الصبابة — فقلبه كله لها ، فكيف يكون بكاؤها هو الذى يخلص قلبه لها ؟ » .

والصواب كما فى طبعتنا ص ٢٦٠ « لأنه إن كان محبًّا — على ما وصف به نفسِهِ من الصبابة . . » .

ومن أجل ذلك وأمثاله رأيت أن أنشر الكتاب نشرة علمية قويمة ، تقوم أَوَدَه ، وتكمل نقصه ، وكان لى ما أرادت ، بحمد الله وتوفيقه .

* * *

وقد اعتمدت في نشره على أربع نسخ خطية :

فالنسخة الأولى : صورتها عن نسخة المتحف البريطاني رقم ٧٧٤٩ وعدد أوراقها ١٣٩ ورقة ، وخطها نسخ جميل ، وقد ضبطت كلماتها بالحركات . وكتب في آخرها بخط يخالف خطها : « هذا ما كتبه المؤلف لخزانة كتب عضد الدولة ، وطالع فيه الحسن ابن المؤلف ، سنة تسع وتسعين بعد الثلثمائة » . ولست أمترى في أن هذه العبارة مزورة ، قد كتبها كاتب ليضفي على النسخة قيمة تاريخية ليتسنى له بيعها بثمن مرتفع . و بعيد أن يكتب الباقلاني هذه النسخة لمكتبة عضد الدولة ، ويكون فيها : « خطبة لقس بن ساعدة الإيادي رضى الله عنه ! » ، ولا يعنى بتصحيحها . وهذه النسخة مترعة بالتحريف ، وتنقص بعض النصوص ، كما هو مبين في أماكنه من الكتاب . وقد رمزتُ إلى هذه النسخة بالرَّمز « م » .

والنسخة الثانية : صورتها عن نسخة مكتبة « كوبريلى » بالأستانة ، وهى تقع ١٠٤ ورقة ، ومقاسها ٢٥٫٥ × ١٦٫٨ وخطها نسخ مشكول بالحركات ، وهى مخرومة من وسطها ، وقد كتب في آخرها بخط ناسخها : « وكان الفرغ من نسخه سلخ الشهر المعظم رجب سنة ثمانية عشر وستمائة . علقه الشريف حسن بن الشريف محمد ، بن الشريف على ، بن الشريف حسين ، الحسينى ، السمرقندى الناسخ ، وصلوات على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً » وقد رمزت إليها بالحرف « ك » .

والنسخة الثالثة : مخطوطة خاصة مجهولة التاريخ ، وليس عليها ما يدل على اسم ناسخها ، وهى مكتوبة بخط مغربى دقيق ، غير مضبوطة وتقع في ١١٢ ورقة ، وقد فقدت منها الورقة الأولى ، وقد رمزت إليها بالحرف « ب » .

والنسخة الرابعة صورتها عن النسخة المحفوظة بمكتبة « الأسكوريال » بأسبانيا تحت رقم ١٤٣٥ وهى تقع في ١٢٥ ورقة ، وقد جاء في آخرها : « وكان

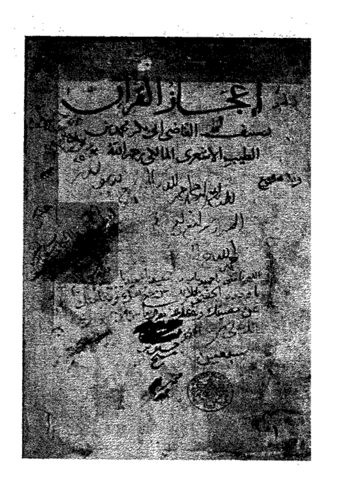
الفراغ منه فى غرّة ذى الحجة ، سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة . نسخته من أصل الفقيه الإمام أبى الحجاج يوسف بن عبد العزيز اللخمى ، الذى عليه خط شيخه عمدة أهل الحق ، أبى عبدالله التميمى . وأخبرنى أنه نسخها من نسخة صحيحة ، عليها مكتوب : فرغ من نسخها فى جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعمائة . وقال لى : توفى القاضى المؤلف ، رحمه الله ، سنة أربع وأربعمائة . وعارضت نسختى هذه بالأصل ، وقرأتها عليه وهو يمسك أصله ، والحمد لله رب العالمين » . وقد رمزت إلى هذه النسخة بحرف « ا » .

* * *

و بعد ، فإنى أحمد الله سبحانه أن وفقنى لإخراج الكتاب على هذا النحو ، فإن كنت أصبت فالخير أردت ، و إن تكن الأخرى فحسبى أنى بذلت فيه وسعى ، وفى لفتات النقاد ما يكمل النقص ويسد الخلل ، والله ولى التوفيق ؟

السيد أحمد صقر

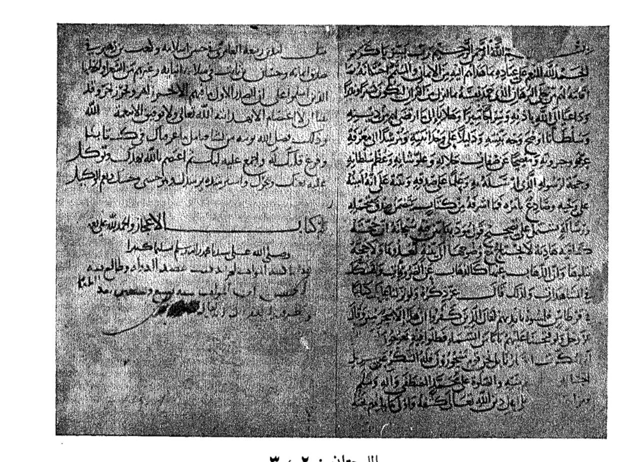
القاهرة يوم الخميس { ١٨ من المحرم سنة ١٣٧٤هـ
١٦ من سبتمبر سنة ١٩٥٤م



اللوحة رقم : ١

عنوان نسخة المتحف البريطاني

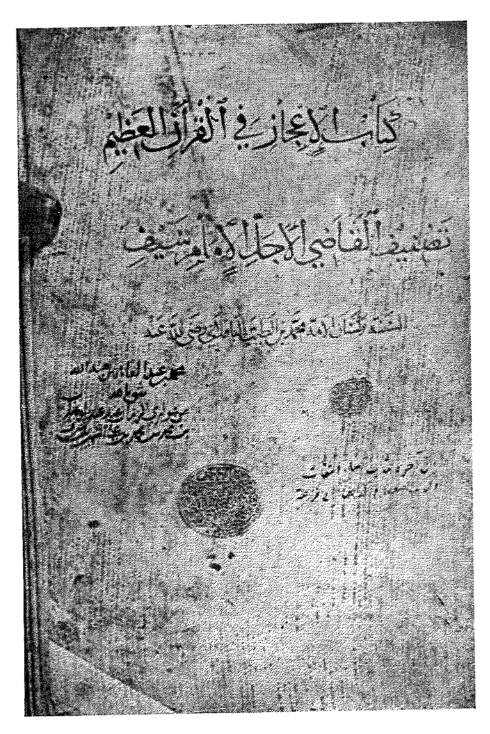
المرموز لها بحرف : م



اللوحتان : ٢ ، ٣

الصفحتان الأولى والأخيرة من نسخة المتحف البريطانى

المرموز لها بحرف : م



اللوحة : ٤

عنوان نسخة كوبريللى

المرموز لها بحرف : ك

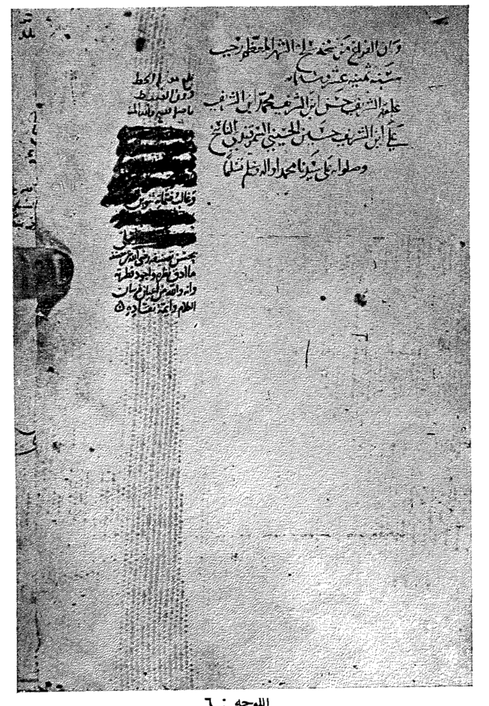
بسم الله الرحمن الرحيم الله الموفق

الحمد لله المنعم على عباده بما هداهم اليه من الايمان والمتمم لاحسانه
بما اقام لهم من جلي البرهان الذي حمد نفسه بما انزل من القرآن ليكون بشيرا
ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وهاديا الى ما ارتضى لهم من
دينه وسلطانا اوضح وجه تبيينه ودليلا على وحدانيته ومرشدا الى معرفة
عزته وجبروته ومفصحا عن صفات جلاله وعلو شانه وعظيم سلطانه
وجعله من سبيله الذي ارسله به وعلما على صدقه وحجة على انه امينه على
وحيه وصادع بامره فما اشرف به من كتاب تضمن صدق متحمله ورسالة
تشتمل على تصحيح قول مودّيها بين فيه سبحانه ان حجته كافية
هادية لا يحتاج مع وضوحها الى بينة تعدوها او حجة تتلوها وان الذهاب
عنها كالذهاب عن الضروريات والتشكك في المشاهدات ولذلك قال عز
ذكره ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين كفروا
ان هذا الا سحر مبين وقال عز وجل ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا
فيه يعرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون فله
الشكر على جزيل احسانه وعظيم منته والصلاة على محمد المصطفى
وآله وسلم ○ ومن اهم ما يجب على اهل دين
الله كشفه واولى ما يلزم بحثه ما كان لاصل دينهم قواما ولقاعدة
توحيدهم عمادا ونظاما وعلى صدق نبيهم صلى الله عليه وسلم برهانا
ولمعجزته ثبتا وحجة لا سيما والجهل ممدود الرواق شديد النفاق

اللوحة : ٥

الصفحة الأولى من نسخة كوبريللى

المرموز لها بحرف : ك



اللوحه : ٦

آخر صفحة من نسخة كوبريللى

المرموز لها بحرف : ك

اللوحة : ٧

الصفحة الأخيرة من نسخة الأسكوريال

المرموز لها بحرف : ا

إعجاز القرآن

للباقلاني

أبي بكر محمد بن الطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحمد لله المُنعم على عباده بما هداهم إليه من الإيمان ، والمُتمّم إحسانَهُ بما أقام لهم من جَلِيِّ البرهان ، الذى حمِد نفسَه بما[١] أنزل من القرآن ، ليكونَ بشيرًا ونذيرًا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرًا ، وهادياً إلى ما ارتضَى لهم من دينه ، وسلطاناً أوضح وجهَ تبْيينه[٢] ، ودليلاً على وحدانيّته ، ومُرشداً إلى معرفة عِزّته وجَبرُوته ، ومُفْصحاً عن صفات جلاله ، وعُلوِّ شأنه وعظيم[٣] سُلطانه ، وحُجةً لرسوله الذى أرسله به ، وعَلَماً على صِدقِه ، وبينةً على أنه أَمينُه على وَحيه ، وصادِعٌ بأمره .)

فما أَشرفَهُ من كتاب يَتضمَّنُ صدقَ مُتحمِّله ، ورسالةً تشتمل على قول مُؤَدِّيها . بَيَّن فيه سبحانه أن حُجَّته كافيةٌ هاديةٌ ، لا يُحتاجُ مع وضوحها إلى بيِّنة تَعدُوها ، أو[٤] حُجَّةٍ تتلُوها ، وأنَّ الذَّهابَ عنها كالذَّهاب عن الضَّرُوريَّات ، والتَّشكُّك فى المُشَاهدَات . ولذلك قال عزَّ ذكره : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ

---

(١) ا : « فيما »

(٢) م : « بينته »

(٣) م : « وعظم »

(٤) م : « ولا »

تكبرا وعنادا

لَقَالَ الذينَ كَفَرُوا إنْ هذا إلاَّ سِحرٌ مبين[١] ﴾ . وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيهم باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فيه يَعْرُجُون . لقالُوا إنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا ، بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُون[٢] ﴾ .

فله الشكر على جزيل إحسانِه وعَظِيم مِنَنِهِ . والصلاة على محمد المصطفى وآله ، وسلم .

ومن أهم ما يجب على أهل دين الله كَشْفُه ، وأَوْلَى ما يلزم بحثُه : ما كان لأصل دينهم قِوَاماً ، ولقاعدة توحيدهم عِمادًا[٣] ونِظاماً ، وعلى صِدْقِ نبيِّهم صلى الله عليه وسلم بُرهاناً ، ولمعجزته ثبتاً وحجة[٤] . ولا سيَّما أن الجهل ممدودُ الرِّواق ، شديدُ النَّفاق[٥] ، مُسْتَوْلٍ على الآفاق . والعلم إلى عَفاءٍ ودُرُوس ، وعلى خَفاءٍ وطُمُوس . وأَهلَه في جَفْوة الزمن البَهيم[٦] ، يُقَاسُون من عُبُوسه لِقاءَ الأسد الشَّتِيم[٧] ، حتى صار ما يكابدونه قاطعاً عن الواجب من سلوك مناهجه ، والأَخْذِ في سُبُله .

---

(١) سورة الأنعام — ٧

(٢) سورة الحجر — ١٥ . يعرجون : يصعدون . سكرت : صارت سكرى ، أي غشيهم ما غطى أبصارهم ، كما غشى السكران ما غطى عقله ، القرطبي ١٠/ ٨ — ٩

(٣) م : « عصاماً أو »

(٤) ا : « حجة وتبياناً » ، م : « وحجة لمعجزته وتبياناً »

(٥) الرِّواق : الفُسطاط . النَّفاق : الرّواج

(٦) البهيم : الأسود

(٧) في اللسان ١٥ / ٢١١ : « أسد شتيم : عابس »

فالناس بين رجلين : ذاهب عن الحق ذاهل عن الرُّشد ، وآخرَ مَصْدُود عن نُصرته ، مَكْدُود فى صنعته .

فقد أدَّى ذلك إلى خوض الملحدين ، فى أصول الدين ، وتشكيكهم أهلَ الضَّعف فى كلِّ يقين .

وقد قلَّ أنصارُه ، واشتغل عنه أعوانُه ، وأسلمه أهله . فصار عُرْضَةً لمن شاء أن يتعرَّض فيه ، حتى عاد مِثْلَ الأمرِ الأوَّل على ما خاضوا فيه عند ظهور أمره . فمن قائل قال : إنه سحر[1] ، وقائل يقول : إنه شعر[2] ، وآخر يقول : إنه أساطيرُ الأوَّلين[3] ، وقالوا : لو نشاء لقلنا مثل هذا[4] . إلى الوجوه التى حكى الله عز وجلَّ عنهم أنهم قالوا فيه ، وتكلموا به ، فصرفوه إليه .

وذكر لى عن بعض جُهَّالهم أنه جعل يَعْدِلُه ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضَى بذلك حتى يُفضِّله عليه !

وليس هذا ببديع من مُلْحِدة هذا العصر ، وقد سبقهم إلى عُظْمِ[5]

---

(١) قال تعالى فى سورة سبأ — : (وقال الذين كفروا الحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين)

(٢) قال تعالى فى سورة الأنبياء — ٥ : (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر) . وقال فى سورة الصافات — ٣٦ : (ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون)

(٣) قال تعالى فى سورة الفرقان — ٥ : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا)

(٤) قال تعالى فى سورة الأنفال — ٢١ : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين)

(٥) م : « أعظم »

ما يقولونه إخوانُهم من ملحدة قريش وغيرهم . إلا أن أكثر مَنْ كان طَعَن فيه فى أول أمره استبان رُشْدَه ، وأبصر قصدَه ، فتاب وأناب ، وعرف من[1] نفسه الحق بغريزة طبعه ، وقوّة إتقانه ، لا لتصرف لسانه ، بل لهداية[2] ربه وحسن توفيقه . والجهل فى هذا الوقت أغلب ، والملحدون[3] فيه عن الرشد أبعد ، وعن الواجب أذهب .

وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معاني القرآن ، وتكلم فى فوائده من أهل صنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام ، أن يَبْسُطوا القول فى الإبانة عن وجه معجزته ، والدلالة على مكانه . فهو أحقُّ بكثير مما صنّفوا فيه من القول فى الجزء [والطَّفرة][4] ، ودقيق الكلام فى الأعراض ، وكثيرٍ من بديع الإعراب وغامض النحو . فالحاجة إلى هذا أمسُّ ، والاشتغال به أوجب .

وقد قَصَّر بعضُهم فى هذه المسألة ، حتى أدَّى ذلك إلى تحول قوم منهم إلى مذاهب البَرَاهِمَة فيها ، ورأوا أنَّ عَجْزَ أصحابهم عن نصرة هذه المعجزة يوجب أن لا مُسْتَنْصَرَ[5] فيها ، ولا وجه لها ، حين رأوهم قد بَرَعُوا فى لطيف ما أبدعوا ، وانتهَوْا إلى الغاية فيما أحْدَثُوا

---

(١) ك : « على »
(٢) ا : « بهداية »
(٣) ك : « والملحد »
(٤) الزيادة من ا ، م
(٥) س : « أن لا يستنصر »

ووَضَعُوا . ثم رأوا ما صنَّفوه فى هذا المعنى غيرَ كامل فى بابه ، ولا مستوفًى فى وجهه ، قد أُخِلَّ بتهذيب طرقه ، وأُهْمِلَ ترتيبُ بيانه .

وقد يُعْذَر بعضُهم فى تفريطٍ يقع منه فيه ، وذهابٍ عنه ؛ لأن هذا الباب مما لا يمكن إحكامه إلا بعد[1] التقدُّم فى أمور شريفة المحل ، عظيمة المقدار ، دقيقة المَسْلَك ، لطيفة المَأْخَذ .

وإذا انتهينا إلى تفصيل القول فيها ، استبان ما قلناه من الحاجة إلى هذه المقدّمات ، حتى يمكن بعدها إحكامُ القول فى هذا الشأن .

وقد صنَّف الجاحظ فى نظم القرآن كتاباً ، لم يَزِدْ فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى.

* * *

وسألنا سائلٌ أن نذكر جملةً من القول جامعةً ، تُسْقِطُ الشبهات ، وتزيل الشكوك التى تعرض للجُهَّال ، وتنتهى إلى ما يَخْطُرُ لهم ، ويَعْرِض لأفهامهم ، من الطعن فى وجه المعجزة .

فأجبناه إلى ذلك ، متقرّبين إلى الله عزّ وجل ، ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومَعُونته .

ونحن نُبَيِّنُ ما سبق فيه البيانُ من غيرنا ، ونشير إليه ولا نبسط القول ، لئلاّ يكون ما ألَّفناه مكرَّرًا ومَقُولاً ، بل يكون مستفادًا من جهة هذا الكتاب خاصةً .

---

(١) س ، ك : « مما يمكن إحكامه بعد »

ونَصِفُ ما يجب وصفُه من القول فى تنزيل مُتَصَرَّفات الخطاب ، وترتيب وجوه الكلام ، وما تختلف فيه طرقُ البلاغة ، وتتفاوت من جهته سُبُل البراعة ، وما يشتبه له ظاهر الفصاحة ، ويختلف فيه المختلفون من أهل صناعة العربية ، والمعرفة بلسان العرب فى أصل الوضع .

ثم ما اختلفتْ به مذاهبُ مستعمليه فى فنون ما ينقسم إليه الكلامُ ، من شعر ورسائلَ وخُطَب ، وغير ذلك من مجارى الخطاب . وإن كانت هذه الوجوه الثلاثةُ أصولَ ما يبين فيه التفاصُح ، وتُقْصَدُ فيه البلاغة . لأن هذه أمور يُتَعَمَّل لها فى الأغلب ، ولا يُتَجَوَّز فيها .

ثم من بعد هذا[1] الكلامُ الدائر فى محاوراتهم . والتفاوتُ فيه أكثر ، لأن التعمُّل فيه أقلّ . إلا من غزارة طبعٍ ، أو فَطَانةِ تصنُّع وتكلُّف .

ونشير إلى ما يجب فى كل واحد من هذه الطرق ، ليُعْرَف عظيمُ محلِّ القرآن ، وليُعْلَم ارتفاعُه عن مواقع هذه الوجوه ، وتجاوزُه الحدَّ الذى يصح أو يجوز أن يوازن بينه وبينها ، أو يشتبه ذلك على متأمِّل .

ولسنا نزعم أنه يمكننا أن نبيِّن ما رُمْنا بيانَه ، وأردنا شرحه وتفصيله ، لمن كان عن معرفة الأدب ذاهباً[2] ؛ وعن وجه اللسان غافلاً ؛ لأن ذلك

---

(١) ب : « ثم من بعدها »

(٢) م : « ذاهلا »

مما لا سبيل إليه ، إلا أن يكون الناظر فيما نعرض عليه مما قصدنا إليه من أهل صناعة العربية قد وَقَف على جُمَل من محاسنِ الكلام ومُتَصَرَّفاته ومذاهبه ، وعرف جملةً من طرق المتكلمين ، ونظر فى شىء من أصول الدين .

وإنما ضَمن الله عز وجل فيه البيانَ لمثل من وصفناه ، فقال : ﴿ كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآ نًا عربيًّا لقوم يَعلمون[1] ﴾ . وقال : ﴿ إنَّا جعلناه قرآ نًا عَرَبيًّا لعلَّكم تَعقِلُون[2] ﴾ .

(١) سورة فصلت ـــ ٣

(٢) سورة الزخرف ـــ ٣

فصـــل

فى أن نبوة النبىّ صلى الله عليه وسلم معجزتُها القرآن

الذى يوجب الاهتمامَ التامَّ بمعرفة إعجاز القرآن ، أنّ نبوّة نبينا عليه السلام بُنِيت[1] على هذه المعجزة ، وإنْ كان قد أُيِّدَ بعد ذلك بمعجزاتٍ كثيرة . إلا أنّ تلك المعجزات قامتْ فى أوقات خاصة ، وأحوال خاصة ، وعلى أشخاصٍ خاصة . ونُقِل بعضُها نقلًا متواترًا يقع به العلم وجودًا . وبعضُها مما نُقِل نقلًا خاصًّا ، إلا أنه حُكى بمشهدٍ من الجمع العظيم وأنهم شاهدوه ، فلو كان الأمر على خلاف ما حُكى لأنكروه ، أو لأنكره بعضُهم ،فحَلَّ محلَّ المعنى الأول ، وإن لم يتواترْ أصلُ النقل فيه . وبعضُها مما نُقِل من جهة الآحاد ، وكان وقوعُه بين يدى الآحاد .

فأما دلالة القرآن فهى عن معجزة عامّة ، عَمَّتِ الثَّقَلَيْن ، وبقيتْ بقاءَ العَصْرَين . ولزومُ الحجة بها فى أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حدٍّ واحد ، وإن كان قد يُعْلَم بعجز أهل العصر الأوّل عن الإتيان بمثله وَجْهُ دلالته ، فيغنى ذلك عن نظرٍ مجدَّدٍ فى عجزِ أهل هذا العصر عن الإتيان[2] بمثله . وكذلك قد يغنى عجزُ أهل هذا العصر عن الإتيان

---

(١) م : « أثبتت »

(٢) س : « أول العصر عن مثله »

بمثله ، عن النظر فى حال أهل العصر الأوّل .

وإنما ذكرنا هـذا الفصل ، لما حُكِى عن بعضهم أنه زعم أنه وإن كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هـذا العصر بعاجزين عنه ، ويكفى عجزُ أهل العصر الأول فى الدلالة ، لأنهم خُصُّوا بالتَّحَدِّى[1] دون غيرهم .

ونحن نبين خطأ هـذا القول فى موضعه إن شاء الله .

فأما الذى يبيّن ما ذكرناه ، من أن الله تعالى حين ابتعثه جعل معجزته القرآن ، وبَنَى أمر نبوّته عليه ـ : سُوَرٌ كثيرة وآيات ، نذكر بعضَها ، وننبّه بالمذكور على غيره ، فليس يخفى بعد التنبيه على طريقه :

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ الٓر . كِتابٌ أَنزَلْناه إليكَ لتُخرِجَ الناسَ من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد[2] ﴾ .
فأخبر أنه أنزله ليقعَ الاهتداء به ، ولا يكون كذلك إلا وهو حجة ، ولا يكون حجةً إن لم يكُنْ معجزةً .

---

(١) ليس القرآن وإعجازه على ذلك ، فإن أهل العصر الأول لم يُخصّوا بالتحدى دون غيرهم ، وذلك لأن القرآن معجزة باقية على الزمن ، فالتحدى باق معها على الزمن ، فهو تحد لأهل كلّ عصر كما كان لأهل العصر الأول ، وقد حبا الله هذا الرسول العربى الكريم بالرسالة « مؤيداً بدلالة على الأيام باقية ، وعلى الدهور والأزمان ثابتة ، وعلى ممر الشهور والسنين دائمة . يزداد ضياؤها على كر الدهور إشراقاً ، وعلى مرّ الليالى والأيام ائتلاقاً » كما قال الطبرى فى مقدمة تفسيره ١ / ٣ . فالإعجاز فيها واقع فى كل عصر ، والتحدى بها لازم لأهل كل زمان .

(٢) سورة إبرهيم — ١

وقال عز وجل : ﴿ وإنْ أحَدٌ من المشركين اسْتجارك فأجرْه حتى يَسمعَ كلامَ الله(١) ﴾ . فلولا أن سماعَه إياه حجةٌ عليه لم يقف أمره على سماعه ، ولا يكون حجةً إلا وهو معجزةٌ .

وقال عز وجل : ﴿ وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين ، نَزَل به الروحُ الأمين ، على قلبك لتكونَ من المنذرين ﴾ . وهذا بَيّنٌ جدًّا فيما قلناه ، من أنه جعله سبباً لكونه منذرًا . ثم أوضح ذلك بأن قال : ﴿ بلسان عربى مبين(٢) ﴾ . فلولا أنّ كونه بهذا اللسان حجةً لم يُعقِبْ كلامَه الأوَّلَ به .

وما من سورة افتُتِحَتْ بذكر الحروف المقطَّعة إلا وقد أُشْبِع فيها بيانُ ما قلناه . ونحن نذكر بعضَها لتستدل بذلك على ما بعده .

وكثيرٌ من هذه السور إذا تأملتَه فهو من أوّله إلى آخره مبنيٌّ على لزوم حجة القرآن ، والتنبيه على وجه معجزته .

فمن ذلك سورة المؤمن(٣)، قوله عز وجل : ﴿ حمٓ . تنزيلُ الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ . ثم وصف نفسَه بما هو أهله من قوله تعالى : ﴿ غافرِ الذنب ، وقابلِ التَّوب ، شديدِ العقاب ذى الطَّوْل ، لا إله إلا هو ، إليه المصير . ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يَغْرُرْكَ

---

(١) سورة التوبة — ٦

(٢) سورة الشعراء — ١٩٢ — ١٩٥

(٣) هى سورة غافر

تقلُّبُهم فى البلاد ﴾ . فدل على أن الجدال فى تنزيله كفرٌ وإلحاد .

ثم أخبر بما وقع[١] من تكذيب الأمم برسلهم ، بقوله عز وجل : ﴿ كذَّبت قبلَهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدهم، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ . فتوعَّدهم بأنه آخِذُهم فى الدنيا بذنبهم فى تكذيب الأنبياء .

وردَّ براهينَهم ، فقال تعالى : ﴿ فأخذتُهم فكيف كان عقاب ﴾ .

ثم توعّدهم بالنار ، فقال تعالى : ﴿ وكذلك حَقَّتْ كلمةُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ .

ثم عظَّم شأنَ المؤمنين بهذه الحجة ، بما أخبر من استغفار الملائكة لهم ، وما وعدهم عليه من المغفرة ، فقال تعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومَن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا : ربنا وَسِعْتَ كلَّ شىء رحمةً وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتّبعوا سبيلك وقِهِمْ عذابَ الجحيم ﴾ . فلولا أنه برهان قاهر لم يَذُمَّ الكفار على العدول عنه ، ولم يحمد المؤمنين على المصير إليه .

ثم ذكر تمام الآيات فى دعاء الملائكة للمؤمنين ، ثم عطَف على وعيد الكافرين ، فذكر آيات ثم قال : ﴿ هو الذى يُريكم آياته ﴾ . فأمر بالنظر فى آياته وبراهينه ، إلى أن قال : ﴿ رفيعُ الدرجاتِ ذو العرش ، يُلقِى الرُّوحَ من أمره على من يشاء من عباده ، لينذرَ يومَ التَّلاقِ ﴾ .

---

(١) ا : « ما وقع » م : « عما وقع »

فجعل القرآن والوحيَ به كالرُّوح ؛ لأنه يؤدّى إلى حياة الأبد ، ولأنه لا فائدة للجسد من دون الروح . فجعل هذا الروح سبباً[1] للإنذار ، وعَلَماً عليه ، وطريقاً إليه . ولولا أن ذلك برهانٌ بنفسه لم يصحَّ أن يقع به الإنذار والإخبار عما يقع عند مخالفته ، ولم يكن الخبرُ عن الواقع فى الآخرة عند ردّهم دلالتَه[2] من الوعيد حجةً ولا معلوماً صدقُه ، فكان لا يلزمهم قبوله .

فلما خلص من الآيات فى ذكر الوعيد على ترك القبول ، ضَرب لهم المثَل بمن خالف الآيات وجحد الدلالات والمعجزات ، فقال : ﴿ أوَلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبةُ الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشدَّ منهم قوةً وآثارًا فى الأرض ، فأخذهم الله بذُنوبهم ، وما كان لهم من الله من واقٍ ﴾ .

ثم بيّن أن عاقبتَهم صارتْ إلى السُّوآى ، بأنّ رُسُلهم كانت تأتيهم بالبينات ، وكانوا لا يقبلونها منهم . فعلم أن ما قدّم ذكره فى السور بيّنةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر قصة موسى ويوسف عليهما السلام ، ومجيئهما بالبينات ، ومخالفتهم حكمها ، إلى أن قال تعالى : ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطانٍ أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ، كذلك يطبع الله

---

(١) م « سبيلا »

(٢) م : « دلالة »

على كل قلب متكبر جبار ﴾ . فأخبر أن جِدَالهم فى هذه الآيات لا يقع بحجة ، وإنما يقع عن جهل ، وأن الله يطبعُ على قلوبهم ، ويصرفُهم عن تفهُّم وجه البرهان ، لجحودهم وعنادهم واستكبارهم .

ثم ذكر كثيرًا من الاحتجاج على التوحيد ، ثم قال تعالى : ﴿ ألم ترَ إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنَّى يُصرفون ﴾ .

ثم بين هذه الجملة ، وأن من آياته الكتاب ، فقال : ﴿ الذين كذَّبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رُسُلنا فسوف يعلمون ﴾ . إلى أن قال : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾ .

فدل على أن الآياتِ على ضربين : أحدهما كالمعجزات التى هى أدلة[1] فى دار التكليف . والثانى الآيات التى ينقطع عندها العذرُ ، ويقعُ عندها العلمُ الضرورى ، وأنها إذا جاءت ارتفع التكليفُ ، ووجب الإهلاكُ . إلى أن قال تعالى : ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانُهم لمّا رأوا بأسَنا ﴾ . فأعلمنا أنه قادر على هذه الآيات ، ولكنه إذا أقامها زال التكليف ، وحَقَّتِ العقوبةُ على الجاحدين .

وكذلك ذكر فى ﴿ حم ﴾ السجدة[2] على هذا المنهاج الذى شرحنا ، فقال عز وجل : ﴿ حم . تنزيلٌ من الرحمن الرحيم . كتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون . بشيرًا ونذيرًا ﴾ . فلولا أنه جعله

---

(١) ا ، م : « الأدلة »

(٢) هى سورة : فصلت

برهاناً لم يكن بشيراً ولا نذيراً . ولم يَخْتَلِفْ بأن يكون عربيًا مفصَّلا أو بخلاف[1] ذلك .

ثم أخبر عن جحودهم وقلة قبولهم ، بقوله تعالى : ﴿ فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسمعون ﴾ . ولولا أنه حجة لم يضرَّهم الإعراض عنه .

وليس لقائل أن يقول : قد يكون حجةً ولكن[2] يحتاج فى كونه حجةً إلى دلالة أخرى ، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم حجة ، ولكنه يحتاج إلى دلالة على صدقه وصحة نبوّته .

وذلك : أنه إنما احتَجَّ عليهم بنفس هذا التنزيل ، ولم يذكر حجةً غيرَه .

ويبين ذلك : أنه قال عقيب هذا : ﴿ قل إنما أنا بَشرٌ مثلكم يُوحَىٰ إلىّ) . فأخبر أنه مثلُهم لولا الوحى .

ثم عطف عليه بحمد المؤمنين به المصدّقين له ، فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ . ومعناه الذين آمنوا بهذا الوحى والتنزيل وعرفوا هذه الحجةَ .

ثم تصرّف فى الاحتجاج على الوحدانية والقدرة ، إلى أن قال : ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود ﴾ . فتوعّدهم بما أصاب مَن قبلَهم من المكذِّبين بآيات الله من قوم عاد .

---

(١) ا م : « خلاف »

(٢) س : « ويحتاج »

وتعود فى الدنيا . ثم توعَّدهم بأمر الآخرة ،فقال: ﴿ ويوم يُحْشَرُ أعداءُ اللّٰه إلى النار فهم يُوزَعُون ﴾ ، إلى انتهاء ما ذكره فيه .

ثم رجع إلى ذكر القرآن فقال : ﴿ وقال الذين كفروا لا تَسْمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه لعلكم تَغلِبون ﴾ .

ثم أثنى بعد ذلك على من تلقاه بالقبول ، فقال : ﴿ إنَّ الذين قالوا ربُّنا اللّٰهُ ثم استقاموا تَتنزَّلُ عليهم الملائكةُ ألَّا تخافوا ولا تحزَنوا وأَبْشِرُوا ﴾ . ثم قال : ﴿ وإمَّا يَنزَغَنَّكَ من الشيطان نَزْغ فاستعذ باللّٰه إنَّه هو السَّميع العَلِيم ﴾ .

وهذا ينبه على أن النبي صلى الله عليه وسلم يعرف إعجاز القرآن ، وأنه دلالة له على جهة الاستدلال ؛ لأن الضروريَّات لا يقع فيها نزغُ الشيطان . ونحن نبين ما يتعلق بهذا الفصل فى موضعه .

ثم قال : ﴿ إنّ الذين يُلْحِدُون فى آياتنا ﴾ ، إلى أن قال : (إنّ الذين كفروا بالذِّكْر لمَّا جاءهم ، وإنَّه لَكتابٌ عزيزٌ ، لا يأتيه الباطلُ مِنْ بينِ يَدَيْه ولا مِن خَلْفِه ﴾ . وهذا وإن كان متأوَّلًا على أنه لا يوجد فيه غيرُ الحق مما يتضمَّنه من أقاصيص الأوّلين وأخبار المرسلين ، وكذلك لا يوجد خُلْفٌ فيما يتضمنه[1] من الأخبار عن الغيوب وعن الحوادث التى أَنْبأَ أنها تقع فى الآتى — : فلا يخرج عن أن يكون متأوَّلًا على ما يقتضيه نظام الخطاب ، من أنه لا يأتيه ما يبطله من شبهة سابقة

---

(١) م : « تضمنه »

تَقْدَحُ فى معجزته أو تُعارِضه فى طريقه . وكذلك لا يأتيه من بعده قَطُّ أمرٌ يُشكِّكُ فى وجه دلالته [وإعجازه] . وهذا أشبهُ بسياق الكلام ونظامه .

ثم قال : ﴿ ولو جَعَلْناهُ قرآناً أَعْجَمِيًّا لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياتُه ، أَأَعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ[1] ﴾ . فأخبر أنه لو كان أعجميًّا لكانوا يحتجّون فى ردّه : إمَّا بأن ذلك خارج عن عرف خطابهم ، أو كانوا يعتذرون بذهابهم عن معرفة معناه ، وبأنهم لا يبين[2] لهم وجه الإعجاز فيه ، لأنه ليس من شأنهم ولا من لسانهم ، أو بغير ذلك من الأمور ، وأنه إذا تحدّاهم إلى ما هو من لسانهم وشأنهم فعجزوا عنه ، وجبت الحجةُ عليهم به ، على ما نبينه فى وجه هذا الفصل . إلى أن قال : ﴿ قل أرأيتُم إنْ كان مِنْ عند الله ثم كفرتُم به ، مَن أضلُّ ممن هو فى شِقاق بَعيد ﴾ .

والذى ذكرناه من نظم هاتين السورتين ينبه على غيرهما من السُّوَر ، فكرهنا سَرْدَ القول فيها . فليتأمل المتأمل ما دللناه عليه يَجِدْه كذلك .

ثم مما يدل على هذا قوله عز وجل : ﴿ وقالوا لولا أُنزِلَ عليه آياتٌ من ربِّه ، قل إنما الآياتُ عند الله ، وإنما أنا نذيرٌ مُبين . أوَلَم يَكْفِهِمْ أنّا أنزَلْنا عليكَ الكتاب يُتلَى عليهم[3] ﴾ . فأخبر أن الكتاب آيةٌ من

---

(١) سورة فصلت — ٤٤

(٢) م : « وبأنه لا يتبين »

(٣) سورة العنكبوت — ٥٠ و ٥١

آياته ، وعَلَم من أعلامه ، وأن ذلك يكفى فى الدلالة ، ويقوم مُقام معجزاتِ غيرِه وآياتِ سواه من الأنبياء ، صلوات الله عليهم .

ويدلُّ عليه قوله عز وجل : ﴿ تبارك الذى نزّل الفُرْقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا ، الذى له مُلْكُ السموات والأرض ﴾[١] .

ويدل عليه قوله : ﴿ أم يقولون افْتَرَى على الله كَذِبًا ، فإنْ يشإ اللهُ يَخْتِمْ على قلبك ، ويَمْحُو اللهُ الباطلَ ويُحِقُّ الحقَّ بكلماته ﴾[٢] .

فدل على أنه جعل قلبه مُستودَعًا لوَحْيه ، ومستنزَلاً لكتابه ، وأنه لو شاء صرف ذلك [عنه] إلى غيره . وكان له حكم دلالته على تحقيق الحقّ وإبطال الباطل مع صرفه عنه . ولذلك أشباهٌ كثيرةٌ تدل على نحو الدلالة التى وصفناها .

فبان بهذا وبنظائره[٣] ما قلناه ، من أن بناء نبوّته صلى الله عليه وسلم على دلالة القرآن ومعجزته ، وصار له من الحكم فى دلالته على نفسه وصدقه أنه يمكن أن يعلم أنه كلام الله تعالى ، وفارق حكمُه حكمَ غيره من الكتب المنزلة على الأنبياء ؛ لأنها لا تدل على أنفسها إلا بأمر زائد عليها ، ووصفٍ مُنْضَاف[٤] إليها ؛ لأن نظمها ليس معجزًا[٥] ، وإن

---

(١) سورة الفرقان — ١ و٢

(٢) سورة الشورى — ٢٤

(٣) ا : « بها وبنظائرها »

(٤) س : « مضاف »

(٥) م : « بمعجز »

كان ما تتضمنه[١] من الأخبار عن الغيوب[٢] معجزاً .

وليس كذلك القرآن ؛ لأنه يشاركها فى هذه الدلالة ، ويزيد عليها فى أن نظمه معجز ، فيمكن أن يستدل به عليه ، وحلَّ فى هذا من وجهٍ محلَّ سماعِ الكلام من القديم سبحانه وتعالى ؛ لأن موسى عليه السلام لما سمع كلامَه علم أنه فى الحقيقة كلامُه .

وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله ، وإن اختلف الحالُ فى ذلك من بعض الوجوه ؛ لأن موسى عليه السلام سمعه من الله عز وجل ، وأسمعه نفسَه متكلماً ، وليس كذلك الواحد منَّا . وكذلك قد يختلفان فى غير هذا الوجه ، وليس ذلك قَصْدَنا بالكلام فى هذا الفصل .

والذى نرومه الآن ما بيَّنَّاه من اتِّفاقهما فى المعنى الذى وصفنا ، وهو : أنه عليه السلام يعلم أن ما يسمعه كلامُ الله من جهة الاستدلال ، وكذلك نحن نعلم ما نقرؤه[٣] من هذا على جهة الاستدلال .

---

(١) س : « يتضمنه »
(٢) م : « عن الغائبات والغيوب »
(٣) ا ، م : « ما نعلمه »

فصـــل

فى [بيان وجه] الدلالة على أن القرآن معجزٌ

قد ثبت بما بيّنا فى الفصل الأوّل أن نبوّة نبينا صلى الله عليه وسلم مبنيةٌ على دلالة معجزة القرآن، فيجب أن نبين وجه الدلالة من ذلك :

قد ذكر العلماء أن الأصل فى هذا : هو أن يُعلم أن القرآن، الذى هو متلوٌّ محفوظ مرسومٌ فى المصاحف، هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم، وأنه هو الذى تلاه على من فى عصره ثلاثًا وعشرين سنة .

والطريق إلى معرفة ذلك هو النقل المتواتر ، الذى يقع عنده العلم الضرورى به .

وذلك أنه قام به فى المواقف ، وكَتَب به إلى البلاد ، وتحمَّله عنه إليها مَن تابعه ، وأورده على غيره ممن لم يتابعه . حتى ظهر فيهم الظهورَ الذى لا يَشْتبه على أحدٍ ولا يخيل أنه قد خرج من أتى بقرآن يتلوه ويأخذه على غيره ويأخذ غيره على الناس ، حتى انتشر ذلك فى أرض العرب كلها ، وتعدَّى إلى الملوك المُصَاقِبَة لهم ، كملك الروم والعجم والقبط والحبش ، وغيرهم من ملوك الأطراف .

ولما ورد ذلك مضادًّا لأديان أهل ذلك العصر كلهم ، ومخالفًا لوجوه اعتقاداتهم المختلفة فى الكفر ؛ وقَف جميعُ أهل الخلاف على جملته ، ووقف جميع أهل دينه الذين أكرمهم الله بالإيمان على جملته

وتفاصيله، وتَظاهَرَ بينهم، حتى حفظه الرجال، وتنقّلت به الرِّحال، وتعلّمه الكبير والصغير. إذْ كان عمدةَ دينهم، وعَلَماً عليه، والمفروضَ تلاوتُه فى صلواتهم، والواجبَ استعمالُه فى أحكامهم.

ثم تناقله خلفٌ عن سلف هم[1] مثلهم فى كثرتهم وتوفُّر دواعيهم على نقله، حتى انتهى إلينا، على ما وصفناه من حاله.

فلن يتشكَّك أحدٌ، ولا يجوز أن يتشكك، مع وجود هذه الأسباب، فى أنه أَتَى بهذا القرآن من عند الله تعالى. فهذا أَصْلٌ.

وإذا ثبت هذا الأصل وجودًا، فإنا نقول: إنه تحدَّاهم إلى[2] أن يأتوا بمثله، وقرَّعهم على ترك الإتيان به، طولَ السنين التى وصفناها، فلم يأتوا بذلك. [وهذا أصلٌ ثانٍ].

والذى يدل على هذا الأصل: أنّا قد علمنا أن ذلك مذكور فى القرآن فى المواضع الكثيرة، كقوله: ﴿وإن كنتم فى رَيْبٍ مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ مِن مِثْله، وادْعوا شُهداءكم مِنْ دون الله إن كنتم صادقين. فإنْ لم تَفْعَلُوا ولن تفعلوا فاتّقوا النارَ التى وَقُودُها الناسُ والحجارةُ أُعِدَّتْ للكافرين﴾[3].

وكقوله: ﴿أم يقولون افْتَرَاه، قل فأْتوا بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه مُفْتَرَياتٍ، وادْعُوا مَن استطعتم من دونِ الله إن كنتم صادقين. فإن

---

(١) ا: «عن سلفهم»

(٢) ا: «على»

(٣) سورة البقرة — ٢٣ و ٢٤

لم يَسْتجيبوا لـكم فاعلموا أنمـا أُنزل بِعِلْم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مُسلمون ﴾[1].

فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلًا على أنه منه ، ودليلًا على وحدانيته .

وذلك يدل عندنا على بطلان قول من زعم أنه لا يمكن أن تُعلم بالقرآنِ الوحدانيةُ ، وزعم أنّ ذلك مما لا سبيل إليه إلا من جهة العقل ؛ لأن القرآنَ كلام الله عز وجل ، ولا يصح أن يُعلم الكلامُ حتى يُعلمَ المتكلمُ أوّلاً .

فقلنا : إذا ثبت بما نبيِّنُه إعجازُه ، وأن الخلق لا يقدرون عليه ، ثبت أن الذى أتَى به غيرهم ، وأنه إنما يختصُّ بالقدرة عليه من يختصُّ بالقدرة عليهم ، وأنه صدقٌ . وإذا كان كذلك كان ما يتضمنه صدقاً ، وليس إذا أمكن معرفتُه من جهة العقل امتنع أن يُعرف من [طريق القرآن ، بل يمكن عندنا أن يُعرف من] الوجهين .

وليس الغرضُ تحقيقَ القول فى هذا الفصل ؛ لأنه خارج عن مقصود كلامنا ، ولكنّا ذكرناه من جهة دلالة الآية عليه .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ قل لئن اجتمعَتِ الإنْسُ والجنُّ على أن يأتوا بمِثل هـــذا القرآن لا يأتونَ بمِثْله ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظَهِيرًا ﴾[2] . وقوله : (أمْ يقولون تَقَوَّلَه ، بل لا يؤمنون . فليأتوا

(١) سورة هود — ١٣و ١٤

(٢) سورة الإسراء — ٨٨

بحديثٍ مثلِه إن كانوا صادقين(١) ﴾ . فقد ثبت بما بيَّنّاه أنه تحدَّاهم إليه ، ولم يأتوا بمثله .

وفى هذا أمران : أحدُهما التحدّى إليه . والآخرُ أنهم لم يأتوا له بمثل(٢) . والذى يدل على ذلك النقلُ المتواتر الذى يقعُ به العلمُ الضرورىّ ، فلا يمكن جحودُ واحدٍ من هذين الأمرين .

وإن قال قائل : لعله لم يقرأ عليهم الآيات التى فيها ذكرُ التحدّى ، وإنما قرأ عليهم ما سِوَى ذلك من القرآن — : كان ذلك قولًا باطلًا ، يُعلم بطلانُه بمثل(٣) ما يُعلم به بطلانُ قول من زعم أن القرآن أضعافُ هذا ! وهو يبلغ حِمْل جَمَل ! وأنه كُتِم ، وسيُظْهِره المهدى ! !

أو يدّعى أن هذا القرآن ليس هو الذى جاء به النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو شىء وضَعه عمرُ أو عثمانُ ، رضى الله عنهما ، حيث وُضِع(٤) المصحفُ .

أو يدّعى فيه زيادة أو نقصانًا .

وقد ضَمِنَ اللهُ حفظَ كتابه أن يأتيَه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، ووَعْدُه الحقّ .

وحكاية قول من قال ذلك يغنى عن الردّ عليه ، لأن العَدَد الذين

---

(١) سورة الطور — ٣٣ و ٣٤
(٢) ا ، م : « يأتوا بمثله »
(٣) س : « مثل »
(٤) ا ، م : « وضعا »

أخذوا القرآن فى الأمصار وفى البوادى ، وفى الأسفار والحضر ، وضبطوه حفظاً ، من بين صغيرٍ وكبير ، وعرفوه حتى صار لا يشتبهُ على أحدٍ منهم حرف — : لا يجوز عليهم السهوُ والنسيانُ ، ولا التخليطُ فيه والكتمانُ .

ولو زادوا ونقصوا أو غيَّروا لَظَهر . وقد علمت أن شعر امرئ القيس وغيره — على أنه لا يجوز أن يظهر ظهور القرآن ، ولا أن يُحفظ كحفظه ، ولا أن يُضْبط كضبطه ، ولا أن تَمَسَّ الحاجةُ إليه إمساسها[1] إلى القرآن — لو زِيدَ فيه بيتٌ ، أو نُقِص منه بيت ، لا ، بل لو غُيِّر فيه لفظ ، لتبرَّأ منه أصحابُه ، وأنكره أربابُه .

فإذا كان ذلك مما لا يمكن [أن يكون] فى شعر امرئ القيس ونظرائه ، مع أن الحاجة إليه تقع لحفظ العربية ، فكيف يجوز أو يمكن ما ذكروه فى القرآن ، مع شدة الحاجة إليه فى [الصلاة التى هى] أصل الدين ، ثم فى الأحكام والشرائع ، واشتمال الهمم المختلفة على ضبطه :

فمنهم من يضبطه لإحكام قراءته ومعرفة وجوهها وصحة أدائها .

ومنهم من يحفظه للشرائع والفقه .

ومنهم من يضبطه ليعرف تفسيره ومعانيه .

ومنهم من يقصد بحفظه الفصاحة والبلاغة .

---

(١) س : « مساسها »

ومن الملحدين من يُحصِّله لينظر فى عجيب شأنه .

وكيف يجوز على أهل هذه الهمم المختلفة والآراء المتباينة ، على كثرة أعدادهم ، واختلاف بلادهم ، وتفاوت أغراضهم — : أن يجتمعوا على التغيير والتبديل والكتمان ؟ !

ويبين ذلك : أنك إذا تأملتَ ما ذُكر فى أكثر السور مما بينّا ، ومن نظائره فى رد قومه عليه ورد غيرهم ، وقولهم ﴿ لو نَشاء لَقُلْنا مِثْلَ هذا[1] ﴾ ، [وقول بعضهم إن ذلك سحر] ، وقول بعضهم ﴿ ما سَمِعْنا بهذا فى المِلّة الآخرة ، إنْ هذا إلا اُخْتِلاق ﴾[2] ، إلى الوجوه التى يصرف إليها قولهم فى الطعن عليه .

فمنهم من يستهين بها[3] ويجعل ذلك سبباً لتركه الإتيان بمثله .

ومنهم من يزعم أنه مُفْتَرًى ، فلذلك لا يأتى بمثله .

ومنهم من يزعم أنه دَارَسَ وأنه أساطير الأولين .

وكرهنا أن نذكر كل آية تدل على تحدّيه لئلا يقع التطويل .

ولو جاز أن يكون بعضه مكتوماً لجاز على كله . ولو جاز أن يكون بعضه موضوعاً لجاز ذلك فى كله .

فثبت بما بيّنّاه أنه تحدَّاهم به ، وأنهم لم يأتوا بمثله[4] ، وهذا الفصل قد بينّا أن الجميع قد ذكروه وبنَوْا عليه .

---

(١) سورة الأنفال — ٣١

(٢) سورة ص — ٧

(٣) ا ، م : « به »

(٤) س : « تحدى إليه . . . له بمثل »

فإذا ثبت هذا وجب أن يُعلم بعدَه أنّ تركهم للإتيان بمثله كان لعجزهم عنه .

والذى يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن : أنه تحدّاهم إليه حتى طال التحدّى ، وجعله دلالةً على صدقه ونبوّته ، وضمّن[1] أحكامه استباحةَ دمائهم وأموالهم وسَبْى ذريتهم ، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا ، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه ، بأمر قريب ، هو عادتُهم فى لسانهم ، ومألوف من خطابهم ، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال ، وإكثار المِراء والجدال ، وعن الجلاء عن الأوطان ، وعن تسليم الأهل والذرية للسبى . فلما لم تحصل هناك معارضةٌ منهم ، عُلِمَ أنهم عاجزون عنها .

يُبيِّنُ ذلك أن العدوَّ يقصد لدفع قول[2] عدوّه بكل ما قدر عليه من المكايد ، لا سيما مع استعظامه ما بَدَهه بالمجىء من[3] خلع آلهته ، وتسفيه رأيه فى ديانته ، وتضليل آبائه ، والتغريب عليه بما جاء به ، وإظهار أمر يوجب الانقيادَ لطاعته ، والتصرفَ على حكم إرادته ، والعدولَ عن إلفه وعادته ، والانخراطَ فى سلك الأتباع بعد أن كان متبوعاً ، والتشييع بعد أن كان مُشيَّعاً ، وتحكيم الغير فى ماله ، وتسليطه إياه على جملة أحواله ، والدخول تحت تكاليفَ شاقة ،

---

(١) س : « وتضمن »

(٢) ا : « لقول »

(٣) ا : « مع »

وعباداتٍ مُتْعِبة ، بقوله . وقد علم أن بعض هذه الأحوال مما يدعو إلى سلب النفوس دونه .

هذا ، والحَمِيَّةُ حَمِيَّتُهم ، والهمم الكبيرة هممهم ، وقد بذلوا له السيف فأَخْطَرُوا[١] بنفوسهم وأموالهم . فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم ، وما يمكن تناولُه من غير أن يعرقَ فيه[٢] جبين، [أو ينقطعَ دونَه وَتِينٌ] ، أو يشتغل به خاطر ، وهو لسانهم الذى يتخاطبون به ، مع بلوغهم فى الفصاحة النهاية التى ليس وراءها مُتَطَلَّع ، والرتبةَ التى ليس فوقها[٣] مَنْزَع ؟ !

ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحدَّاهم إليه لكان فيه توهينُ أمره ، وتكذيبُ قوله ، وتفريقُ جمعه ، وتشتيتُ أسبابه ، وكان من صدَّق به يرجع على أعقابه ، ويعود فى مذهب أصحابه .

فلما لم يفعلوا شيئاً من ذلك ، مع طول المدة ، ووقوع الفُسْحَة ، وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً ، ويعلو شيئاً فشيئاً ، وهم على العجز عن القدح فى آيته ، والطعن [بما يؤثر] فى دلالته — : عُلِمَ مما[٤] بيَّنَّا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته ، ولا على توهين حجته .

---

(١) س : « وأخطروا »
(٢) ا ، م : « له »
(٣) س : « مطلع . . . وراءها »
(٤) ا ، م « بما »

وقد أخـــبر الله تعالى عنهم أنهم ﴿قوم خَصِمون﴾[١] ، وقال : ﴿وتُنْذِرَ به قوماً لُدًّا﴾[٢] ، وقال : ﴿خلَقَ الإنسانَ من نُطْفَة فإذا هو خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾[٣] .

وعلم أيضاً ما كانوا[٤] يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن ، مما حَكَى الله عز وجل عنهم من قولهم : ﴿لو نَشاء لقلنا مِثْلَ هذا ، إنْ هذا إلاَّ أساطِيرُ الأوَّلِين﴾[٥] ، وقولهم : ﴿ما هذا إلا سحْرٌ مُفْتَرًى ، وما سَمِعْنا بهذا فى آبائنا الأوَّلين﴾[٦] ، وقالوا : ﴿يا أيها الذى نُزِّل عليه الذِّكْرُ إنَّكَ لَمَجْنُون﴾[٧] ، وقالوا : ﴿أَفتأتُونَ السِّحرَ وأنتم تُبْصِرُون﴾[٨] ، وقالوا : ﴿أَئِنَّا لَتارِكُو آلهتنا لشاعِرٍ مجنون﴾[٩] ، وقال : ﴿وقال الذين كفروا : إنْ هذا إلَّا إفْكٌ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظُلْماً وزُوراً ، وقالوا : أساطيرُ الأولين اكْتَتَبَها فهى تُمْلَى عليه بُكْرَةً

---

(١) سورة الزخرف — ٥٨
(٢) سورة مريم — ٩٧
(٣) سورة النحل — ٤
(٤) س : « أن ما كانوا »
(٥) سورة الأنفال — ٣١
(٦) سورة القصص — ٣٦
(٧) سورة الحجر — ٦
(٨) سورة الأنبياء — ٣
(٩) سورة الصافات — ٣٦

وأَصِيلاً ﴾[١] ، ﴿ وقال الظالمون : إنْ تَتَّبِعُون إلّا رجلاً مَسْحُوراً ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ الذين جَعَلوا القرآن عِضِينَ ﴾[٣] .

إلى آيات كثيرة فى نحو هذا ، تدل على أنهم كانوا متحيّرين فى أمرهم ، متعجّبين من عجزهم ، يفزعون إلى نحو هذه الأمور : من تعليلٍ وتعذيرٍ ، ومدافعةٍ بما وقع التحدّى إليه ، ووجد[٤] الحثُّ عليه .

وقد علم منهم أنهم ناصَبوه الحربَ ، وجَاهَدُوه[٥] ونابذوه ، وقطعوا الأرحام ، وأخطروا بأنفسهم ، وطالبوه بالآيات والإتيان [بالملائكة] وغير ذلك من المعجزات ، يريدون تعجيزه ليَظْهَرُوا عليه بوجهٍ من الوجوه .

فكيف يجوز أن يقدروا على معارضته القريبة السهلة عليهم — وذلك يَدْحَضُ حجتَه ، ويفسد دلالته ، ويبطل أمره — : فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه من الأمور التى ليس عليها مزيد فى المنابذة والمعاداة ، ويتركون الأمر الخفيف ؟!

هذا مما يمتنع وقوعه فى العادات، ولا يجوز اتفاقه[٦] من العقلاء .

وإلى هذا [الموضع] قد استقصى أهلُ العلم الكلام ، وأكثروا فى هذا المعنى وأحكموه .

---

(١) سورة الفرقان — ٤ و ٥

(٢) سورة الفرقان — ٨

(٣) سورة الحجر — ٩١

(٤) س : « وعرف »

(٥) س : « وجاهروه »

(٦) س : « اتقانه »

ويمكن أن يقال : إنهم لو كانوا قادرين على معارضته والإتيان بمثل ما أتى به ، لم يجز أن يتفق منهم تركُ المعارضة ، وهم على ما هم عليه من الذَّرابة والسَّلاقة[١] ، والمعرفة بوجوه الفصاحة ، وهو يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن مباراته ، وأنهم يَضْعُفُون عن مجاراته ، ويكرر[٢] فيما جاء به ذكرَ عجزهم عن مثل ما يأتى به ، ويقرّعهم ويؤنّبهم عليه ، ويُدرِكُ آماله فيهم ، وينجح ما سعى له فى تركهم[٣] المعارضة .

وهو يذكر فيما يتلوه تعظيمَ شأنه ، وتفخيمَ أمره ، حتى يتلو قوله تعالى : ﴿ قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضُهم لبعض ظهيرًا ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ يُنزِّلُ الملائكةَ بالرُّوح مِنْ أَمْرِه على مَن يَشاءِ مِنْ عباده أَنْ أَنذِروا أنه لا إلهَ إلَّا أنا فاتَّقون ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ ولقد آتيناك سَبْعاً من المَثَانِى والقرآنَ العظيم ﴾[٦] ، وقوله : ﴿ إنا نحن نزَّلنا الذِّكْر وإنّا له

(١) فى اللسان ١٢ — ٢٥ : « وسلقه بلسانه يسلقه سلقاً : أسمعه ما يكره فأكثر ، وسلقه بالكلام سلقاً : إذا آذاه ، وهو شدة القول باللسان ، وفى التنزيل : سلقوكم بألسنة حداد : أى بالغوا فيكم بالكلام وخاصموكم فى الغنيمة أشدّ مخاصمة وأبلغها »

(٢) ا ، م « وتكرر »

(٣) س : « ما يسعى له بتركهم »

(٤) سورة الإسراء — ٨٨

(٥) سورة النحل — ٢

(٦) سورة الحجر — ٨٨

لَحَافِظُون ﴾[١]، وقوله: ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لك ولِقَوْمك وسوف تُسْئلون﴾[٢]، وقوله : ﴿ هُدًى للمتّقين ﴾[٣]، وقوله : ﴿ اللهُ نزّل أحسنَ الحديثِ كتاباً مُتشابهاً مَثانِىَ تَقْشَعِرُّ منه جُلُودُ الذين يَخْشَوْن ربَّهم، ثم تَلِينُ جلودُهم وقلوبهم إلى ذِكْر الله ﴾[٤].

إلى غير ذلك من الآيات التى تتضمن تعظيم شأن القرآن . فنها ما يتكرر فى السورة فى مواضع منها، ومنها ما ينفرد فيها . وذلك مما يدعوهم إلى المباراة، ويحضُّهم على المعارضة، وإن لم يكن متحدِّياً إليه.

ألَا تَرى أنهم قد ينافرُ شعراؤُهم بعضهم بعضاً ؟ ولهم فى ذلك مواقفُ معروفة، وأخبارٌ مشهورة، وآثارٌ منقولة مذكورة[٥].

وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذَّلَاقة، ويتبجحون بذلك، ويتفاخرون بينهم . فلن يجوزَ والحال هذه أن يتغافلوا عن معارضته لو كانوا قادرين عليها، تحدَّاهم أو لم يتحدَّهم إليها .

ولو كان هذا القبيل مما يَقْدر عليه البشرُ، لوجب فى ذلك أمرٌ آخر، وهو أنه لو كان مقدوراً للعباد لكان قد اتَّفق إلى وقت مبعثه من هذا القبيل ما كان يمكنُهم أن يعارضوه به، وكانوا لا يفتقرون إلى تكلُّف وضعه، وتَعَمُّل نظمِه فى الحال .

---

(١) سورة الحجر — ٩

(٢) سورة الزخرف — ٤٤

(٣) سورة البقرة

(٤) سورة الزمر — ٢٣

(٥) س : «وأيام منقولة وكانوا»

فلما لم نرهم احتجّوا عليه بكلام سابق ، وخطبة متقدمة ، ورسالة سالفة ، ونظم بديع ، ولا عارضوه به فقالوا : هذا أفصحُ مما جئت به وأغرب منه أو هو مثلُه — : عُلِم أنه لم يكن إلى ذلك سبيل ، وأنه لم يوجد له نظير .

ولو كان وجد له مِثْلٌ لكان يُنقل إلينا ، ولَعرفناه . كما نُقل إلينا أشعارُ أهل الجاهلية وكلامُ الفصحاء والحكماء من العرب ، وأُدِّىَ إلينا كلامُ الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع بلاغاتهم وصنوف فصاحاتهم .

فإن قيل : الذى بُنِى عليه الأمر فى تثبيت معجزة القرآن : أنه وقع التحدّى إلى الإتيان بمثله ، وأنهم عجزوا عنه بعد التحدّى إليه . فإذا نَظر الناظر وعَرف وجهَ النقل المتواتر فى هذا الباب ، وجب له العلم بأنهم كانوا عاجزين عنه . وما ذكرتم يوجبُ سقوطَ تأثير التحدّى ، وأن ما أَتى به قد عُرف العجزُ عنه بكل حال .

قيل : إنما احتيج إلى التحدّى لإقامة الحجة وإظهار وجه البرهان [على الكافة] ، لأن المعجزة إذا ظهرتْ فإنما تكون حجةً بأن يدعيها من ظهرتْ عليه ، ولا تظهر على مدّعٍ لها إلا وهى معلومة أنها من عند الله . فإذا كان يظهر وجه الإعجاز فيها للكافة بالتحدّى وجب فيها التحدّى ، لأنه تزول بذلك الشبهة عن الكل ، وينكشف للجميع أن

العجز واقع عن المعارضة . وإلا كان[١] مقتضى ما قدّمناه من الفصل أنّ من كان يعرف وجوهَ الخطاب ، ويَفْتَنُّ فى مصارف[٢] الكلام ، وكان كاملًا فى فصاحته ، جامعاً للمعرفة بوجوه الصناعة — : لو أنه احتُجّ عليه بالقرآن ، وقيل له : إن الدلالة على النبوّة والآيةَ للرسالة ما تلوتُه عليك[٣] منه ، لكان ذلك بالغاً[٤] فى إيجاب الحجة [عليه] ، وتاماً فى إلزامه فرضَ المصير إليه .

ومما يؤكد هذا : أن النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا الآحاد إلى الإسلام ، محتجًّا عليهم بالقرآن . لأنا نعلم ضرورةً] أنه لم يُلزمهم تصديقَه تقليدًا ، ونعلم أن السابقين الأوّلين إلى الإسلام لم يقلدوه ، وإنما دخلوا على بصيرة . ولم نعلمه قال لهم : ارجعوا إلى جميع الفصحاء فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فقد ثبتتْ حجتى .

بل لما رآهم يعلمون إعجازه ، ألزمهم حكمه : فقبلوه ، وتابعوا الحق وبادروا إليه مستسلمين ، ولم يشكّوا فى صدقه ، ولم يرتابوا فى وجه دلالته .

فمن كانت بصيرتُه أقوى ، ومعرفتُه أبلغ ، كان إلى القبول منه

---

(١) س : « وإلا فإن »
(٢) س : « ويتقن مصارف »
(٣) س : « على الرسالة ما أتلوه »
(٤) س : « بلاغاً »

أسبق . ومن اشتَبه عليه وجهُ الإعجاز ، أو خفى[(١)] عليه بعضُ شروط المعجزات وأدلة النبوّات ، كان أبطأ إلى القَبول ، حتى تكاملتْ أسبابُه ، واجتمعتْ له بصيرتُه ، وترادفتْ عليه موادُّه .

وهذا فصل يجب أن يتمَّ القول فيه [من] بعد ، فليس هــذا بموضعٍ له .

ويبين ما قلناه : أن هذه الآية علمٌ يلزمُ الكلَّ قبولُه والانقيادُ له ؛ وقد علمنا تفاوت الناس فى إدراكه ، ومعرفة وجه دلالته . لأن الأعجمى لا يعلم أنه معجز إلا بأن يعلم عَجْزَ العرب عنه ، وهو يحتاج فى معرفة ذلك إلى أمور لا يحتاج إليها من كان من أهل صنعة الفصاحة . فإذا عَرف عجزَ أهل الصنعة حلَّ محلهم وجرى مجراهم فى[(٢)] توجّه الحجة عليه .

وكذلك لا يعرف المتوسط من أهل اللسان ، من هذا الشأن ، ما يعرفه العالى فى هذه الصنعة . فربما حل فى ذلك محل الأعجمى ، فى أن لا تتوجه عليه الحجة حتى يعرف عجزَ المتناهى فى الصنعة عنه .

وكذلك لا يعرف المتناهى فى معرفة الشعر وحدَه ، أو الغايةُ فى معرفة الخطب أو الرسائل وحدها — [من] غوْرِ هذا الشأن — ما يَعرف من استكمل معرفةَ جميع تصاريفِ الخطاب ووجوهِ

---

(١) س : « واشتبه »

(٢) ا : « من »

الكلام وطرقِ البراعة . فلا تكونُ الحجةُ قائمةً على المختصّ ببعض هذه العلوم بانفرادها : دون تحققه لِعجز[1] البارع فى هـذه العلوم كلها عنه .

فأما مَن كان متناهياً فى معرفة وجوه الخطاب وطرق البلاغة والفنونِ التى يمكن فيها إظهارُ الفصاحة ، فهو مَتَى سمع القرآنَ عرف إعجازَه . وإن لم تقل ذلك أدّى هذا القول إلى أن يقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف إعجاز القرآن حين أُوحى إليه ، حتى سبر الحال بعجز أهل اللسان عنه ! وهذا خطأ من القول .

فصح من هذا الوجه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين أُوحى إليه القرآن عرف كونه معجزًا ، أو عرف — بأن[2] قيل له : إنه دلالة وعَلَم على نبوّتك . — أنه كذلك ، من قبل أن يقرأه على غيره أو يتحدَّى إليه سواه .

ولذلك قلنا : إن المتناهى فى الفصاحة والعلم بالأساليب التى يقع فيها التفاصح ، متى سمع القرآن عرف أنه معجز . لأنه يعرف من حال نفسه أنه لا يقدر عليه ، وهو يعرف من حال غيره مثل ما يعرف من حال نفسه ، فيعلم أن عجز غيره كعجزه هو . وإن كان يحتاج بعد هذا إلى

---

(١) س : « بعجز »
(٢) س : « معجزاً ، وبأن قيل »

استدلال آخر على أنه علم على نبوته ، ودلالة على رسالته[1] بأن يقال له : إن هذه آية لنبيّ ، وإنّها[2] ظهرت عليه ، وادّعاها معجزةً له ، وبرهاناً على صدقه .

فإن قيل : فإن من الفصحاء من يعلم عجز نفسه عن قول الشعر ، ولا يعلم مع ذلك عجز غيره عنه . فكذلك البليغ ، وإن علم عجز نفسه عن مثل القرآن ، فهو قد يخفى عليه عجز غيره .

قيل : هو مع مستقرّ العادة . وإن عجز عن قول الشعر ، وعلم أنه مفحَم ، فإنه يعلم أن الناس لا ينفكون من وجود الشعراء فيهم .

ومتى علم البليغ المتناهى فى صنوف البلاغات عجزه عن القرآن ، علم عجز غيره عنه ، وأنه كَهُوَ . لأَنّهُ[3] يَعلمُ أنّ حاله وحال غيره فى هذا الباب سواء . إذ ليس فى العادة مثل للقرآن يجوز أن[4] يعلم قدرة أحد من البلغاء عليه . فإذا لم يكن لذلك مثل فى العادة — وعرَف هذا الناظر جميع أساليب الكلام ، وأنواع الخطاب ، ووجد القرآن مبايناً لها — علم خروجه عن العادة ، وجرى مجرى ما يعلم أن إخراج اليد البيضاء من الجيب خارج عن العادات ، فهو لا يجوّزه من نفسه ، وكذلك لا يجوّز وقوعه من غيره ، إلا على وجه نقض العادة ، بل يرى وقوعه

---

(١) س : « على نبوة . . . على رسالة »

(٢) س : « لنبيّه وإنما »

(٣) س : « غيره لأنه كهو لأنه »

(٤) س : « للقرآن يجوز أو »

موقع المعجزة . وهـذا وإن كان يفارق فلق البحر ، وإخراج اليد البيضاء ، ونحو ذلك من وجه ، فهو[1] أنه يستوى الناس فى معرفة عجزهم عنه ، بكونِه[2] ناقضاً للعادة ، من غير تأملٍ شديدٍ ولا نظرٍ بعيد . فإن النظر فى معرفة إعجاز القرآن يحتاج إلى تأمل ، ويفتقر إلى مراعاةِ مقدّمات، والكشف عن أمور نحن ذاكروها بعد هذا الموضع. فكل واحد منهما[3] يؤول إلى مثل حكم صاحبه ، فى الجمع الذى قدمناه .

ومما يبين ما قلناه — : من أن البليغ المتناهى فى وجوه الفصاحة يعرف إعجاز القرآن ، وتكون معرفته حجة عليه ، إذا تُحُدّى إليه وعجز عن مثله ، وإن لم ينتظر وقوع التحدّى فى غيره ، وما الذى يصنع ذلك بالغير . — فهو ما روى فى الحديث أن جُبَير بن مُطْعِم ورد على النبى صلى الله عليه وسلم فى مُعَنًّى حليف له ، أراد أن يفاديه ، فدخل والنبى صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ فى صلاة الفجر ، قال : فلما انتهى إلى قوله : ﴿ إن عذابَ ربِّك لواقعٌ ، ما لَهُ من دافعٍ ﴾ ، قال : خشيت أن يدركنى العذاب . فأسلم .

وفى حديث آخر : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه سمع سورة ﴿ طه ﴾ فأسلم .

---

(١) س : « وهو أنه »

(٢) س : « فكونه »

(٣) س : « منها »

وقد روى أن قوله عز وجلّ فى أوّل ﴿ حمٓ ﴾ السجدة إلى قوله : ﴿ فأعرضَ أكثرُهم فهم لا يسْمَعون ﴾[١] نزلت فى شيبة وعتبة ابنى ربيعة ، وأبى سفيان بن حرب ، وأبى جهل . وذكر أنهم بعثوا هم وغيرهم من وجوه قريش ، بعتبة بن ربيعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ليكلمه ، وكان حسن الحديث ، عجيب البيان[٢] ، بليغ الكلام ، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده ، فقرأ النبى صلى الله عليه وسلم سورة ﴿حمٓ﴾ السجدة ، من أولها حتى انتهى إلى قوله : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتُكم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وثمود ﴾ ، فوثب مخافة العذاب ، فاستحكوه ما سمع ، فذكر أنه لم يفهم[٣] منه كلمة واحدة ، ولا اهتدى لجوابه . ولو كان ذلك من جنس كلامهم لم يخف عليه وجه الاحتجاج والرد . فقال له عثمان بن مظعون : لتعلموا أنه من عند الله ، إذ لم يهتد لجوابه .

وأبين من ذلك قول الله عزَّ وجلّ : ﴿ وإنْ أحَدٌ من المُشركين استجارَكَ فأَجِرْه ، حتى يسمعَ كلامَ الله ، ثم أبلِغه مَأْمَنهُ ﴾[٤]. فجعل سماعه حجةً عليه بنفسه ، فدل على أن فيهم من يكون سماعه إياه حجة عليه .

فإن قيل : لو كان [كذلك] على ما قلتم ، لوجب أن يكون حال

---

(١) سورة فصّلت ٤
(٢) س : « عجيب الشأن »
(٣) س : « لم يسمع »
(٤) سورة التوبة ٦

الفصحاء الذين كانوا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم على طريقة واحدة فى إسلامهم عند سماعه .

قيل له : لا يجب ذلك ؛ لأن صَوَارِفَهم كانت كثيرة ، منها أنهم كانوا يشكّون : ففيهم[1] من يشك فى إثبات الصانع ، وفيهم من يشك فى التوحيد ، وفيهم من يشك فى النبوّة . ألا ترى أن أبا سفيان بن حرب ، لما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلم عام الفتح ، قال له النبي عليه السلام : أما آن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : بلى . فشهد . قال : أما آن لك أن تشهد أنى رسول الله ؟ قال : أما هـذه ففى النفس منها شىء ؟! .

فكانت وجوه شكوكهم مختلفة ، وطرق شبههم متباينة : فمنهم من قلّت شبهه ، وتأمل الحجة حتى تأملها ولم يستكبر ، فأسلم . ومنهم من كثرت شبهه ، أو أعرض[2] عن تأمل الحجة حتى تأملها ، أولم يكن فى البلاغة على حدود النهاية ، فتطاول عليه الزمان إلى أن نظر واستبصر ، وراعى واعتبر ، واحتاج إلى أن يتأمل[3] عَجْزَ غيرِه عن الإتيان بمثله ، فلذلك وقف أمره .

ولو كانوا فى الفصاحة على مرتبة واحدة ، وكانت صوارفهم وأسبابهم متفقة — : لتوافوا إلى القبول جملة واحدة .

---

(١) س : « يشكون منهم »
(٢) م ، س : « وأعرض »
(٣) م : « إلى تأمل »

فإن قيل : فكيف يَعرف البليغ الذى وصفتموه إعجاز القرآن ؟ وما الوجه الذى يتطرق به إليه ، والمنهاج الذى يسلكه ، حتى يقف به على جلية الأمر فيه ؟ قيل : هذا سبيله أن يفرد له فصل .

* * *

فإن قيل : فلم زعمتم أن البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات ، وتصرفهم فى أجناس الفصاحات ؟ وهلّا قلتم : إن من قدر على جميع هذه الوجوه البديعة بوجه[1] من هذه الطرق الغريبة ، كان على مثل نظم القرآن قادرًا ، وإنما يصرفه الله عنه ضربًا من الصرف ، أو يمنعه من الإتيان بمثله ضربًا من المنع ، أو تقصر دواعيه [إليه] دونه ، مع قدرته عليه ، ليتكامل ما أراده الله من الدلالة ، ويحصل ما قصده من إيجاب الحجة ، لأن من قدر على نظم كلمتين بديعتين ، لم يعجز عن نظم مثلهما ، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى ، وكذلك الثالثة ، حتى يتكامل قدر الآية والسورة ؟

فالجواب أنه لو صح ذلك لصحّ لكل من أمكنه نظم ربع بيت ، أو مصراع من بيت ، أن ينظم القصائد ويقول الأشعار ، وصَحَّ لكل ناطق ، قد يتفق فى كلامه الكلمةُ البديعة ، نظم الخطب البليغة والرسائل العجيبة ! ومعلوم أن ذلك غير سائغ ولا ممكن .

على أن ذلك لو لم يكن معجزًا على ما وصفناه من جهة نظمه

---

(١) س : « وتوجه »

المتنع ، لكان مهما حط من رتبة البلاغة فيه ، ومنع[1] من مقدار الفصاحة فى نظمه ، [كان] أبلغ فى الأعجوبة[2] ، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله ، ومنعوا من[3] معارضته ، وعدلت دواعيهم عنه ، فكان يستغنى عن إنزاله على النظم البديع ، وإخراجه فى[4] المعرض الفصيح العجيب .

على أنه لو كانوا صُرفوا على ما ادعاه ، لم يكن مَن قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الرصف ، لأنهم لم يتحدّوا إليه ، ولم تلزمهم حجته .

فلمّا لم يوجد فى كلام من قبله مثله ، علم أن ما ادّعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان .

وفيه معنى آخر : وهو أن أهل الصنعة فى هذا الشأن إذا سمعوا كلاماً مطمعاً ، لم يخفَ عليهم ولم يشتبه لديهم .

ومن كان متناهياً فى فصاحته لم يجز أن يطمع فى مثل هذا القرآن بحال .

فإن قال صاحب السؤال : إنه قد يطمع فى ذلك . قيل له : أنت تزيد على هذا فتزعم أن كلام الآدمى قد يضارع القرآن ، وقد يزيد

---

(١) س : « ووضع »
(٢) م : « فى العجوبة »
(٣) س : « عن »
(٤) م : « على »

عليه فى الفصاحة ولا يتحاشاه، ويحسب أن ما ألفه[١] فى الجزء والطفرة هو أبدع وأغرب من القرآن لفظاً ومعنًى ! ولكن ليس الكلام على ما يقدّره مقدّر فى نفسه، ويحسبه ظانّ من أمره، والمرجوع فى هذا إلى جملة الفصحاء دون الآحاد. ونحن نبين بعد هذا وجه امتناعه عن الفصيح البليغ، ونميزه فى ذلك عن سائر أجناس الخطاب، ليعلم أنْ ما يقدّره من مساواة كلام الناس به تقدير ظاهر الخطأ بيّن الغلط، وأن هذا التقدير من جنس من حكى الله تعالى قوله فى محكم كتابه : ﴿ إنه فكَّر وقدَّر، فقُتِل كيف قدَّر، ثُمّ قُتِل كيف قدَّر، ثُمّ نَظَر، ثُمّ عَبَس وبَسَر، ثُمّ أدْبَرَ واستكبر، فقال إنْ هذَا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر، إنْ هذَا إلّا قولُ البشَر ﴾[٢]. فهم يعبرون عن دعواهم — أنهم يمكنهم أن يقولوا مثله — وأن[٣] ذلك من قول البشر، لأن ما كان من قولهم فليس يقع فيه التفاضل إلى الحد الذى يتجاوز إمكان معارضته.

ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصَّرْفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة — وإنما مَنَع منها الصرفة — لم يكن الكلام معجزًا، وإنما ون المنع هو المعجز[٤]، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره فى نفسه.

---

(١) م : « أن ما قد ألفه »
(٢) سورة المدثر ١٨ — ٢٥
(٣) س : « بأن »
(٤) س : « المنع معجزاً »

وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم : أن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما يتأخرون عنه لعدم العلم بوجه ترتيبٍ لو تعلموه لوصلوا إليه به .

ولا بأعجب من قول فريق منهم : إنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله تعالى فى هذا الباب ، وإنه يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد .

* * *

فإن قيل : فهل تقولون بأن غير القرآن من كلام الله عز وجلّ معجز ، كالتوراة والإنجيل والصحف ؟

قيل : ليس شىء من ذلك بمعجز[1] فى النظم والتأليف ، وإن كان معجزًا كالقرآن فيما يتضمن من الإخبار عن الغيوب[2] .

وإنما لم يكن معجزًا لأن الله تعالى لم يصفه بما وصف به القرآن ، ولأنا قد علمنا أنه لم يقع التحدّى إليه كما وقع التحدّى إلى القرآن .

ولمعنى آخر : وهو أن ذلك اللسان لا يتأتى فيه من وجوه الفصاحة ، ما يقع به التفاضل الذى ينتهى إلى حد الإعجاز ، ولكنه يتقارب . وقد رأيت أصحابنا يذكرون هذا فى سائر الألسنة ، ويقولون : ليس

---

(١) م : « معجز »

(٢) س : « الإخبار بالغيوب »

يقع فيها من التفاوت ما يتضمن التقديم العجيب . ويمكن بيان ذلك بأنا[١] لا نجد فى القدْر الذى نعرفه من الألسنة ، للشىء الواحد ، من الأسماء ما نعرف من اللغة ، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناوله العربية ، وكذلك التصرف فى الاستعارات والإشارات ، ووجوه الاستعمالات البديعة ، التى يجىء تفصيلها بعد هذا .

ويشهد لذلك من القرآن ، أن الله تعالى وصفه بأنه ﴿ بلسانٍ عربىّ مُبين ﴾[٢] ، وكرر ذلك فى مواضع كثيرة ، وبيَّن أنه رفعه عن أن يجعله أعجميًّا .

فلو كان يمكن فى لسان العجم إيراد مثل فصاحته ، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة . وإنه وإن كان يمكن أن يكون من فائدة قوله إنه عربى مبين ، أنه مما يفهمونه ولا يفتقرون فيه إلى الرجوع إلى غيرهم ، ولا يحتاجون فى تفسيره إلى سواهم[٣] ، فلا يمتنع أن يفيد ما قلناه أيضاً ، كما أفاد بظاهره ما قدّمناه .

ويبين ذلك أن كثيرًا من المسلمين قد عرفوا تلك الألسنة ، وهم من أهل البراعة فيها ، وفى العربية ، فقد وقفوا على أنه ليس يقع فيها ،

---

(١) م : « فإنا »

(٢) سورة الشعراء ١٩٥

(٣) س : « إلى من »

من التفاضل والفصاحة ، ما يقع فى العربية . ومعنى آخر ، وهو أنا لم نجد أهل التوراة والإنجيل ادّعوا الإعجاز لـكتابهم ، ولا ادّعى لهم المسلمون . فعلم أن الإعجاز مما يختص به القرآن .

ويبين هذا أن الشعر لا يتأتى فى تلك الألسنة ، على ما قد اتفق فى العربية . وإن كان قد يتفق منها صنف أو أصناف ضيقة ، لم يتفق فيها من البديع ما يُمكن ويَتأتَّى فى العربيـــة . وكذلك لا يتأتى فى الفارسية جميع الوجوه التى تتبين فيها الفصاحة ، على ما يتأتى فى العربية .

فإن قيل : فإن المجوس تزعم أن كتاب زرادشت ، وكتاب مانى معجزان ؟

قيل : الذى يتضمنه كتاب مانى ، من طريق النيرنجات ، وضروب من الشعوذة ، ليس يقع فيها إعجاز . ويزعمون أن فى الـكتاب الحِـكَم ، وهى حكم منقولة ، متداولة على الألسن[1] ، لا تختص بها أمة دون أمة ، وإن كان بعضهم أكثر اهتماماً بها ، وتحصيلًا لها ، وجمعاً لأبوابها .

وقد ادّعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ، وإنما فزعوا إلى الدرّة واليتيمة . وهما كتابان : أحدهما يتضمن حكماً منقولة ، توجـــد عند

---

(١) م « الألسن التى »

حكماء كل أمة مذكورة بالفضل . فليس فيها[1] شيء بديع من لفظ ولا معنى .

والآخر في شيء من الديانات ، وقد تهوَّس فيه بما لا يخفى على متأمل .

وكتابه الذي بيناه في الحِكَم ، منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة ، فأي صنع له في ذلك ؟ وأي فضيلة حازها فيما جاء به ؟

وبعدُ ، فليس يوجد له كتاب يدَّعي مدع أنه عارض فيه القرآن ، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ، ثم مزق ما جمع ، واستحيا لنفسه من إظهاره . فإن كان كذلك ، فقد أصاب وأبصر القصد ، ولا يمتنع أن يشتبه عليه الحال في الابتداء ، ثم يلوح له رشده ، ويتبين له أمره ، وينكشف له عجزه . ولو كان بقي على اشتباه الحال عليه ، لم يخف علينا موضع غفلته ، ولم يشتبه لدينا وجه شبهته .

ومتى أمكن أن تدعي الفرس في شيء من كتبها أنه معجز في حسن تأليفه وعجيب نظمه ؟

---

(١) م : « فليس في هذا منها شيء »

(٤) م

فصـــل

﴿ فى جملة وجوه إعجاز القرآن ﴾

ذكر أصحابنا وغيرهم فى ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز :

أحدها : يتضمن الإخبار عن الغيوب ، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليـــه . فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه ، عليه السلام ، أنه سيظهر دينه على الأديان ، بقوله عز وجل : ﴿ هُوَ الذي أرسلَ رَسُولَه بالهدى ودينِ الحقّ ، لِيُظْهِرَهُ على الدّينِ كلّه ، ولو كَرِه المُشرِكون ﴾[1] ، ففعل ذلك .

وكان أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، إذا أغزى جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله ، من إظهار دينـــه ، ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح .

وكان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، يفعل كذلك فى أيامه ، حتى وقَفَ أصحابُ جيوشه عليه ، فكان سعد بن أبى وقاص ، رحمه الله ، وغيره من أمراء الجيوش ، من جهته ، يذكر ذلك لأصحابه ، ويحرّضهم

---

(١) سورة التوبة ٣٣

به ، ويوثق لهم ؛ وكانوا يُلَقَّون الظفر فى مُتَوَجَّهَاتِهم[١] ، حتى فُتِحَ إلى آخر أيام عمر ، رضى الله عنه ، إلى بَلْخ ، وبلاد الهند ، وفتح فى أيامه مرو الشاهجان ، ومرو الرُّوذ ، ومَنعهم من العبور إلى جيحون[٢] ، وكذلك فُتح فى أيامه فارس إلى إصْطَخر[٣] ، وكَرْمان ، ومَكْران ، وسِجستان ، وجميع ما كان من مملكة كسرى ، وكل ما كان يملكه ملوك فارس ، بين البحرين من الفرات إلى جيحون ، وأزال ملك ملوك الفرس ، فلم يعد إلى اليوم ، ولا يعود أبدًا ، إن شاء الله تعالى ، ثم إلى حدود إرْمِينيةَ ، وإلى باب الأبواب . وفتح أيضاً ناحية الشام ، والأُرْدُنّ ، وفلسطين ، وفسطاط مصر ، وأزال ملك قيصر عنها ، وذلك من الفرات إلى بحر مصر ، وهو ملك قيصر . وغزت الخيول فى أيامه إلى عَمّورية ، فأخذ الضواحى كلها ، ولم يبق منها[٤] إلا ما حَجَزَ دونه بحر ، أو حال عنه جبل منيع ، أو أرض خشنة ، أو بادية غير مسلوكة .

وقال الله عز وجل : ﴿ قل للذين كفروا ستُغْلَبون وتُحشرون إلى جهنم وبئس المِهاد[٥] ﴾ ، فصدق فيه .

---

(١) س : « فى موجهاتهم »
(٢) س : « بجيحون »
(٣) ا : « إلى الاصطخر »
(٤) س : « دونها »
(٥) سورة آل عمران ١٢

وقال فى أهل بدر : ﴿وإذ يَعِدُكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم﴾[١].
ووفى لهم بما وعد .

وجميع الآيات التى يتضمنها القرآن ، من الإخبار عن الغيوب ، يكثر جدًا ، وإنما أردنا أن ننبه بالبعض على الكل .

* * *

والوجه الثانى : أنه كان معلوماً من حال النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه كان أميًا لا يكتب ، ولا يحسن أن يقرأ .

وكذلك كان معروفًا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين ، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم . ثم أتى بجمل ما وقع وحدث ، من عظيمات الأمور ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم عليه السلام ، إلى حين مبعثه ، فذكر فى الكتاب ، الذى جاء به معجزة له : قصةَ آدم عليه السلام ، وابتداء خلقه ، وما صار أمره إليه من الخروج من الجنة ، ثم جُملًا من أمر ولده وأحواله وتوبته ، ثم ذكر قصة نوح عليه السلام ، وما كان بينه وبين قومه ، وما انتهى إليه أمرهم[٢] ؛ وكذلك أمر إبراهيم عليه السلام ، إلى ذكر سائر الأنبياء المذكورين فى القرآن ، والملوك والفراعنة الذين كانوا فى أيام الأنبياء ، صلوات الله عليهم .

---

(١) سورة الأنفال ٧

(٢) س ، م : « إليه أمره »

ونحن نعلم ضرورةً أن هذا مما لا سبيل إليه ، إلا عن تعلم ؛ وإذ كان معروفاً أنه لم يكن مُلابِساً لأهل الآثار وحملة الأخبار ، ولا مترددًا إلى التعلم منهم ، ولا كان ممن يقرأ ، فيجوزَ أن يقع إليه كتاب فيأخذَ منه ، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحى . ولذلك قال عز وجل : ﴿ وما كنت تتلو مِن قبله مِن كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذًا لارتاب المُبْطلون ﴾[١] وقال : ﴿ وكذلك نُصَرِّف الآيات ، وليقولوا دَرَست[٢] ﴾ . وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم ، ويشتغل بملابسة أهل صنعة ، لم يخف على الناس أمره ، ولم يشتبه[٣] عندهم مذهبه ، وقد كان يعرف فيهم من يحسن هذا العلم ، وإن كان نادرًا ، وكذلك كان يعرف من يختلف إليه لِلتَّعلُّم ، وليس يخفى فى العرف عالم كل صنعة ومتعلمها ، فلو كان منهم لم يخف أمره .

والوجه الثالث : أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناهٍ فى البلاغة إلى الحد الذى يُعلم عجز الخلق عنه . والذى أطلقه العلماء هو على هذه الجملة ، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التى أطلقوها .

فالذى يشتمل عليه بديع نظمه ، المتضمن للإعجاز وجوه :

منها ما يرجع إلى الجملة ، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه ،

(١) سورة العنكبوت ٤٨

(٢) سورة الأنعام ١٠٥

(٣) س : « ولم يختلف »

وتباين[1] مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد . وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر ، على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ، ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالاً ، فتطلب فيه الإصابة والإفادة ، وإفهام المعانى المعترضة على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلاً فى وزنه ، وذلك شبيه[2] بجملة الكلام الذى لا يتعمل [فيه] ، ولا يتصنع له . وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه ، ومباين لهذه الطرق . ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ، ولا فيه شىء منه ، وكذلك ليس من قَبِيل الشعر ، لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع ، ومنهم من يدعى[3] فيه شعراً كثيراً ، والكلام عليهم يذكر بعد هذا الموضع .

فهذا إذا تأمله المتأمل تبين — بخروجه عن أصناف كلامهم ، وأساليب خطابهم — أنه خارج عن العادة ، وأنه معجز ، وهذه خَصوصية ترجع إلى جملة القرآن ، وتَميُّز حاصل فى جميعه .

---

(١) س : « واختلاف »

(٢) م : « يشتبه »

(٣) س : « أن فيه »

* * *

ومنها أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة ، والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة ، على هذا الطول ، وعلى هذا القدر . وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم[١] قصائد محصورة ، يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال ، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف ، ويشملها[٢] ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوّز والتعسف . وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسباً فى الفصاحة ، على ما وصفه الله تعالى به ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ اللهُ نزَّلَ أَحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهاً ، مَثانِيَ تقشَعِرُّ منه جلودُ الذين يخشونَ ربَّهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذِكْرِ الله[٣] ﴾ وقوله : ﴿ ولو كان من عندِ غير الله لوَجدوا فيه اختلافاً كثيراً[٤] ﴾ . فأخبر سبحانه أن كلام الآدمى إن امتد وقع فيه التفاوت ، وبان عليه الاختلال .

وهذا المعنى هو غير المعنى الأول الذى بدأنا بذكره ، فتأمله تعرف الفصْل[٥] .

---

(١) م : « شاعر »
(٢) س : « ويقع فيها »
(٣) سورة الزمر ٢٣
(٤) سورة النساء ٨٢
(٥) س : « الفضل »

* * *

وفى ذلك معنى ثالث : وهو أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها ، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج ، وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد ، وتبشير وتخويف ، وأوصاف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وشيم رفيعة ، وسير مأثورة ، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها . ونجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور .

فمن الشعراء من يجوّد فى المدح دون الهجو .

ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح .

ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين .

ومنهم من يجود فى التأبين دون التقريظ .

ومنهم من يغرب فى وصف الإبل أو الخيل ، أو سير الليل ، أو وصف الحرب ، أو وصف الروض ، أو وصف الخمر ، أو الغزل ، أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعر ويتناوله[1] الكلام ، ولذلك ضرب المَثَل بامرئ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وبزهير إذا رغب . ومثل ذلك يختلف فى الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام .

ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ ، رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأحوال التى يتصرف فيها ، فيأتى بالغاية فى البراعة فى معنى ،

(١) س : « ويتداوله »

فإذا جاء إلى غيره قصر عنه ، ووقف دونه ، وبان الاختلاف على شعره ؛ ولذلك ضرب المثل بالذين سميتُهم ، لأنه لا خلاف فى تقدّمهم[١] فى صنعة الشعر ، ولا شك فى تبريزهم فى مذهب النظم . فإذا كان الاختلال يتأتى فى شعرهم ، لاختلاف ما يتصرفون فيه ، استغنينا عن ذكر من هو دونهم ، وكذلك يستغنى به عن تفصيل نحو هذا فى الخطب والرسائل ونحوها . ثم نجد من الشعراء من يجوّد فى الرجز ، ولا يمكنه نظم القصيد أصلا ، ومنهم من ينظم القصيد ، ولكن يقصر [تقصيرًا عجيبًا[٢] ، ويقع ذلك من رجزه موقعاً بعيدًا . ومنهم من يبلغ فى القصيد الرتبة العالية ، ولا ينظم الرجز ، أو يقصر] فيه مهما تكلفه أو تعمله[٣] .

ومن الناس من يجود فى الكلام المرسل ، فإذا أتى بالموزون قصر ونقص نقصانًا بيّنًا[٤] ، ومنهم من يوجد بضد ذلك .

وقد تأملنا نظم القرآن ، فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه التى قدّمنا ذكرها ، على حدّ واحد ، فى حسن النظم ، وبديع التأليف والرصف ، لا تفاوت[٥] فيه ، ولا انحطاط عن المنزلة العليا ، ولا

---

(١) م : « فى تقديمهم »
(٢) س : « بينا »
(٣) س : « عمله »
(٤) س : « عجيبا »
(٥) م : « لايتفاوت »

إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا ، وكذلك قد تأملنا ما يتصرف إليه وجوه الخطاب ، من الآيات الطويلة والقصيرة ، فرأينا الإعجاز فى جميعها على حدّ واحد لا يختلف . وكذلك قد يتفاوت كلام الناس عند إعادة ذكر القصة الواحدة [تفاوتاً بيّناً ، ويختلف اختلافاً كبيرًا . ونظرنا القرآن فيما يعاد ذكره من القصة الواحدة] فرأيناه غير مختلف ولا متفاوت ، بل هو على نهاية البلاغة وغاية البراعة ، فعلمنا بذلك أنه مما لا يقدر عليه البشر ، لأن الذى يقدرون عليه قد بيّنا فيه التفاوت الكثير ، عند التكرار وعند تباين الوجوه ، واختلاف الأسباب التى يتضمن .

* * *

ومعنى رابع : وهو أن كلام الفصحاء يتفاوت تفاوتاً بيّناً فى الفصل والوصل ، والعلوّ والنزول ، والتقريب والتبعيد ، وغير ذلك مما ينقسم إليه الخطاب عند النظم ، ويتصرف فيه القول عند الضم والجمع .

ألا ترى أن كثيرًا من الشعراء قد وصف بالنقص عند التنقل من معنى إلى غيره ، والخروج من باب إلى سواه . حتى إن أهل الصنعة قد اتفقوا على تقصير البحترى ، مع جودة نظمه ، وحسن وصفه — فى الخروج من النسيب إلى المديح . وأطبقوا على أنه لا يحسنه ، ولا يأتى فيه بشىء ، وإنما اتفق له — فى[1] مواضع معدودة — خروج يرتضى ، وتنقل يستحسن .

---

(١) م : « فى قوله مواضع »

وكذلك يختلف سبيل غيره عند الخروج من شىء إلى شىء، والتحوّل من باب إلى باب. ونحن نفصل بعد هذا، ونفسر هذه الجملة، ونبين[1] أن القرآن — على اختلاف [فنونه و] ما يتصرف فيه من الوجوه الكثيرة والطرق المختلفة — يجعل المختلف كالمؤتلف، والمتباين كالمتناسب، والمتنافر فى الأفراد إلى حد الآحاد، وهذا أمر عجيب، تبين به الفصاحة، وتظهر به البلاغة، ويخرج معه الكلام عن حد العادة، ويتجاوز العرف

* * *

ومعنى خامس: وهو أن نظم القرآن وقع موقعاً فى البلاغة يخرج عن عادة كلام[2] [الجن، كما يخرج عن عادة كلام الإنس]، فهم يعجزون عن الإتيان بمثله كعجزنا، ويقصرون دونه كقصورنا، وقد قال الله عز وجل: ﴿قل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، لا يأتون بمثله، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيرًا﴾[3]

فإن قيل: هذه دعوى منكم، وذلك أنه لا سبيل لنا إلى أن نعلم عجز الجن عن [الإتيان] بمثله، وقد يجوز أن يكونوا قادرين على الإتيان بمثله، وإن كنا عاجزين، كما أنهم قد يقدرون على أمور لطيفة،

(١) س: «على أن»
(٢) س: «كلام الإنس والجن. فهم يعجزون»
(٣) سورة الإسراء ٨٨

وأسباب غامضة دقيقة ، لا نقدر نحن عليها ، ولا سبيل لنا للطفها إليها ، وإذا كان كذلك ، لم يكن إلى علم ما ادعيتم سبيل .

قيل : قد يمكن أن نعرف ذلك بخبر الله عز وجل ، وقد يمكن أن يقال إن هذا الكلام خرج على ما كانت العرب تعتقده من مخاطبة الجن ، وما يروون لهم من الشعر ، ويحكون عنهم من الكلام ، وقد علمنا أن ذلك محفوظ عندهم منقول عنهم . والقدر الذى نقلوه [من ذلك] قد تأملناه ، فهو فى الفصاحة لا يتجاوز حد فصاحة الإنس ؛ ولعله يقصر عنها ، ولا يمتنع أن يسمع الناس كلامهم ، ويقع بينهم وبينهم محاورات فى عهد الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، وذلك الزمان مما لا يمتنع فيه وجود ما ينقض العادات ؛ على أن القوم إلى الآن يعتقدون مخاطبة الغيلان ، ولهم أشعار محفوظة مدونة[1] فى دواوينهم . قال تأبط شرًّا[2] :

وأدهمَ قد جُبْتُ جِلْبابه كما اجتابت الكاعبُ الخَيْعَلا[3]

إلى أن حدا الصبحُ أثناءه ومزّق جلبابه الأَلْيَلا[4]

---

(١) س : « مروية »

(٢) ترجمته فى الشعر والشعراء ١ / ٢٧١ ، والأبيات فى حماسة ابن الشجرى ص ٤٧

(٣) الأدهم هنا : الليل . اجتابت : لبست . الخيعل : ثوب تبتذله المرأة . والبيت فى اللسان ١٣ / ٢٢٣ . وقد نسبه ابن برى لحاجز السروى

(٤) حدا : ساق . أثناء الليل : أوقاته وقطعه . الأليل : الشديد الظلمة .

على شَيْم نار تَنَوَّرتُهــــا ... فبتُّ لها مُدبِرًا مُقبِــلا[١]

فأصبحت والغــول لى جارة ... فيا جارتا أنتِ ما أهــولا

وطالبتهـــا بضْعها ، فالتوت ... بوجه تهوّلَ واســتغولا[٢]

فمن سال أين ثوت جارتى ... فإن لهـــا باللوى مــنزلا

وكنتُ إذا ما هممت اعتزمـ ... ـت وأحْرِ إذا قلت أن أفعــلا

وقال آخر[٣] :

عَشَوْا نارى فقلت منون أنتم ... فقالوا الجنُّ قلت عموا ظلاما[٤]

فقلت إلى الطعام فقـال منهم ... زعيم يحسد الإنس الطعاما[٥]

ويذكرون لامرئ القيس قصيدة مع عمر والجنى ، وأشعارًا لهما ، كرهنا نقلها[٦] لطولها . وقال عُبيد بن أيوب :

---

(١) الشيم : النظر إلى النار ، وفى حماسية ابن الشجرى : « على ضوء » . تنورتها : تبصرتها

(٢) البضع : الفرج ، تهوّل : صار هُولة ، من الهول : أى كريه المنظر يفزع منه . واستغول : تلوّن

(٣) هو شُمير بن الحارث الضبى كما فى نوادر أبى زيد ص ١٢٣ . راجع خزانة الأدب ٣ / ٣ والحيوان ٤ / ٤٨٢ ، ٦ / ١٩٧ ومعنى عشوا نارى : رأوها ليلا على بعد فقصدوها مستضئين بها . وفى نوادر أبى زيد : أتوا نارى فقلت منون قالوا سراة الجن . . .

(٥) س : « فقمت إلى »

(٦) س : « ذكرها »

فلله درُّ الغــــول أى رفيقة لصاحب قفر خائف مُتَقَفِّرِ[1]
أرنَّت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالىَّ نيرانًا تَلُوحُ وتزهر[2]

وقال ذو الرمة[3] بعد قوله :

قد أعْسِفُ النازحَ المجهولَ معْسِفُه فى ظِلِّ أخضرَ يدعو هامَهُ البومُ[4]
للجنّ بالليـلِ فى حافاتها زَجَلٌ كما تَنَاوحَ يومَ الرّيحِ عَيْشُومُ[5]
دَوِّيَّة ودُجَىٰ ليـلٍ كأنهما يَم تراطنُ فى حافاته الرومُ[6]

وقال أيضاً :

وكم عرَّستْ بعد السرى من معرَّس به من كلام الجن أصوات سَامِرِ[7]

---

(١) س : « يتقفر » . وفى الحيوان ٦/١٦٥ « متقتر » ، وفى منتهى الطلب « يتقترُ » .

(٢) أرنت : صوّتت . وفى منتهى الطلب : « تعنت »، وفى س والحيوان ٤ / ٤٨٢ ، ٥ / ١٢٣ : « تبوخ وتزهر »

(٣) ديوانه ص ٥٧٤ والحيوان ٦ / ١٧٥

(٤) أعسف : أسير على غير هداية . النازح : البعيد . والأخضر هنا : الأسود ، والمراد به الليل . وفى الديوان : « أغضف» أى أسود ، والهام : ذكر البوم ، وأنثاه الصدى .

(٥) حافاتها : جوانبها . زجل : صوت . عيشوم : من ضروب النبت يتخشخش إذا هبت عليه الريح

(٦) م : « فى حافاتها » . والدوية : الفلاة ، واليم : البحر . الدجى : الليل . والرطانة : كلام العجم والروم وما ليس بعربى من اللغات . حافاته : جوانبه . شبه البرية وما تراكم عليها من سواد الليل بالبحر وأمواجه .

(٧) ديوانه ص ٢٩٢ والحيوان ٦ / ١٧٦ والتعريس : النزول آخر الليل للنوم والاستراحة . سامر : الذين يتحدثون بالليل .

وقال :

ورملٍ عزيفُ الجن فى عَقَباته هَزيزٌ كتَضْرابِ المُغَنِّين بالطبل(١)

وإذا كان القوم يعتقدون كلام الجن ومخاطباتهم ، ويحكون عنهم ، وذلك القدر المحكى لا يزيد أمره على فصاحة العرب ، صح ما وصف عندهم من عجزهم عنه كعجز الإنس .

ويبين ذلك من القرآن : أن الله تعالى حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال : ﴿ وإذ صرفنا إليكَ نفرًا من الجنّ يستمعون القرآنَ ، فلمّا حضروه قالوا أَنصِتوا ، فلما قُضِىَ وَلَّوْا إلى قومِهم مُنْذِرِين ﴾(٢) ، إلى آخر ما حكى عنهم فيما يتلوه .

فإذا ثبت أنه وصف كلامهم ، ووافق ما يعتقدونه من نقل خطابهم ، صح أن يوصف الشىء المألوف بأنه ينحط عن درجة القرآن فى الفصاحة .

وهذان الجوابان أسدُّ عندى من جواب بعض المتكلمين عنه ، بأن عجز الإنس(٣) عن القرآن يثبت له حكم الإعجاز ، فلا يعتبر غيره .

---

(١) ديوانه ص ٤٨٨ والحيوان ٦ / ١٧٦ . وفى الديوان : « فى عقداته هدوءاً » . وعزيف الجن : صوت يسمع بين الرمال . وعقدات الرمل : ما انعقد منه . هدوءاً : أى بعد ساعة من الليل . هزيز : صوت ، يعنى صوت الرحى وما أشبهها .

(٢) سورة الأحقاف ٢٩

(٣) م : « الإنسان »

ألا ترى أنه لو عرفنا من طريق المشاهدة عجز الجن عنه ، فقال لنا قائل : فدُلّوا على أن الملائكة تعجز عن الإتيان بمثله ، لم يكن لنا فى الجواب غير هذه الطريقة التى قد بيناها .

وإنما ضعَّفنا هذا الجواب ، لأن الذى حُكى وذكر عجزُ الجن والإنس[1] عن الإتيان بمثله ، فيجب أن نعلم عجز الجن عنه ، كما علمنا عجز الإنس عنه . ولو كان وصف عجز الملائكة عنه ، لوجب أن نعرف ذلك أيضاً بطريقه .

فإن قيل : أنتم[2] قد انتهيتم إلى ذكر الإعجاز فى التفاصيل ، وهذا الفصل إنما يدل على الإعجاز فى الجملة ؟

قيل : هذا كما أنه يدل على الجملة ، فإنه يدل على التفصيل أيضاً ، فصح[3] أن يَلحق هذا القبيل ، كما كان يصح أن يُلحق بباب الجمل .

* * *

ومعنى سادس : وهو أن الذى ينقسم عليه الخطاب ، من البسط والاقتصار ، والجمع والتفريق ، والاستعارة والتصريح ، والتجوّز والتحقيق ، ونحو ذلك من الوجوه التى توجد فى كلامهم ، موجود فى القرآن . وكل ذلك مما يتجاوز حدود كلامهم المعتاد بينهم ، فى الفصاحة

(١) م : « والإنس أنهم عجزوا عن »

(٢) م : « إنه قد »

(٣) م : « فيصح »

والإبداع والبلاغة وقد ضمنا بيان ذلك [من] بعدُ ، لأن الوجه ههنا ذكر المقدّمات ، دون البسط والتفصيل .

* * *

ومعنى سابع : وهو أن المعانى التى تضمنها[1] ، فى أصل وضع الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات فى أصل الدين ، والردّ على الملحدين ، على تلك الألفاظ البديعة ، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ويمتنع . وذلك[2] أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداوله المألوفة ، والأسباب الدائرة بين الناس ، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعانٍ مبتكرة ، وأسباب مؤسسة مستحدثة . فإذا برع اللفظ فى المعنى البارع ، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول المتكرّر ، والأمر المتقرّر المتصوّر ، ثم انضاف إلى ذلك التصرُف البديع فى الوجوه التى تتضمن تأييد ما يبتدأ تأسيسه ، ويراد تحقيقه ، بان التفاضلُ فى البراعة والفصاحة ، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعنى ، والمعانى وفقها ، لا يفضل أحدهما على الآخر ، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم .

* * *

ومعنى ثامن : وهو أن الكلام يتبين فضله ورجحان فصاحته

---

(١) س : « تتضمن »

(٢) س : « ويمنع ذلك »

بأن تذكر منه الكلمة فى تضاعيف كلام ، أو تقذف ما بين شعر ، فتأخذها[1] الأسماع ، وتتشوّف إليها النفوس ، ويرى وجه رونقها باديًا غامرًا سائر ما تُقْرَنُ[1] به ، كالدرّة التى ترى فى سلك من خرز ، وكالياقوتة فى واسطة العقد .

وأنت ترى الكلمة من القرآن يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير ، وهى غرّة جميعه ، وواسطة عقده ، والمنادى على نفسه بتميزه وتخصصه ، برونقه وجماله ، واعتراضه فى حسنه[2] ومائه ، وهذا الفصل أيضاً مما يحتاج فيه إلى تفصيل وشرح ونص ، ليتحقق ما ادّعيناه منه .

ولولا هذه الوجوه التى بيناها ، لم يتحير فيه أهل الفصاحة ، ولكانوا يفزعون إلى التعمل للمقابلة ، والتصنع للمعارضة ، وكانوا ينظرون فى أمرهم ، ويراجعون أنفسهم ، أو كان يراجع بعضهم بعضاً فى معارضته ويتوقفون لها .

فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، علم أن أهل المعرفة منهم بالصنعة إنما عدلوا عن هذه الأمور ، لعلمهم بعجزهم عنه ، وقصور فصاحتهم دونه .

ولا يمتنع أن يلتبس — على من لم يكن بارعاً فيهم ، ولا متقدماً فى الفصاحة منهم — هذا الحال حتى لا يعلم إلا بعد نظر وتأمل ، وحتى

---

(١) س : « فتأخذه . . . إليه النفوس . . . وجه رونقه . . . ما يقرن »

(٢) س : « فى جنسه »

يعرف حال عجز غيره . إلا أنا رأينا صناديدهم وأعيانهم ووجوههم سلموا ولم يشتغلوا بذلك ، تحققاً بظهور العجز وتبيناً له . وأما قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾[١] فقد يمكن أن يكونوا كاذبين فيما أخبروا به عن أنفسهم، [وقد يمكن أن يكون قاله منهم أهل الضعف فى هذه الصناعة دون المتقدمين فيها] ، وقد يمكن أن يكون هذا الكلام إنما خرج منهم ، وهو يدل على عجزهم . ولذلك أورده الله مورد تقريعهم ، لأنه لو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم لكانوا يتجاوزون الوعد إلى الإنجاز ، والضمان إلى الوفاء ؛ فلما لم يفعلوا[٢] ذلك — مع استمرار التحدّى وتطاول زمان الفسحة فى إقامة الحجة عليهم بعجزهم عنه — علم عجزهم، إذ لو كانوا قادرين على ذلك لم يقتصروا على الدعوى فقط .

ومعلوم من حالهم وحَمِيّتهم أن الواحد منهم يقول فى الحشرات والهوام والحيّات وفى وصف الأزمّة والأنساع والأمور التى لا يؤبه لها ولا يحتاج إليها ، ويتنافسون فى ذلك أشد التنافس ، ويتبجحون به أشد التبجح. فكيف يجوز أن تمكنهم معارضته فى هذه المعانى الفسيحة ، والعبارات الفصيحة، مع تضمن المعارضة لتكذيبه ، والذب عن أديانهم القديمة ، وإخراجهم أنفسهم من تسفيهه رأيهم، وتضليله إياهم، والتخلص من منازعته ، ثم من محاربته ومقارعته . ثم لا يفعلون شيئاً من ذلك ،

(١) سورة الأنفال ٣١

(٢) س : « لم يستعملوا »

وإنما يُحيلون أنفسهم على التماليل ، ويمّلونها بالأباطيل . [هذا محال] .

ومعنى تاسع ، وهو : أن الحروف التى بنى عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً ، وعدد السور التى افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة ، وجملة ما ذكر من هذه الحروف فى أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة ، وهو أربعة عشر حرفاً ، ليدل بالمذكور على غيره ، وليعرفوا أن هذا الكلام منتظم من الحروف التى ينظمون بها كلامهم .

والذى تنقسم إليه هذه الحروف على ما قسمه أهل العربية وبَنَوْا عليها وجوهها أقسام ، نحن ذاكروها :

فمن ذلك أنهم قسموها إلى حروف مهموسة ، وأخرى مجهورة .

فالمهموسة منها عشرة : وهى الحاء ، والهاء ، والخاء ، والكاف ، والشين ، والثاء ، والفاء ، والتاء ، والصاد ، والسين .

وما سوى ذلك من الحروف فهى مجهورة .

وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة فى جملة الحروف المذكورة فى أوائل السور .

وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء ، لا زيادة ولا نقصان .

« والمجهور » معناه : أنه حرف أشبع الاعتماد فى موضعه ومنع أن يجرى معه [النفس] حتى ينقضى الاعتماد ويجرى الصوت .

« والمهموس » كل حرف أضعف الاعتماد فى موضعه حتى جرى معه النفَس. وذلك مما يحتاج إلى معرفته لتُبنى[1] عليه أصول العربية .

وكذلك مما يقسمون إليه الحروف ، يقولون : إنها على ضربين: أحدهما حروف الحلق ، وهى ستة أحرف : العين، والحاء ، والهمزة ، والهاء ، والخاء ، والغين.

والنصف[الآخر]من هذه الحروف مذكور فى جملة الحروف التى تشتمل عليها الحروف المثبتة[2] فى أوائل السور ، وكذلك النصف من الحروف التي ليست بحروف الحلق.

وكذلك تنقسم هذه الحروف إلى قسمين آخرين : أحدهما حروف غير شديدة، وإلى الحروف الشديدة ، وهى التي تمنع الصوت أن يجرى فيه ، وهى الهمزة ، والقاف ، والكاف ، والجيم ، والظاء ، والدال ، والطاء ، والباء[3] .

وقد علمنا أن نصف هذه الحروف أيضاً هى مذكورة فى جملة تلك الحروف التى بنى عليها تلك السور .

ومن ذلك الحروف المُطْبَقَة ، وهى أربعة أحرف ، وما سواها منفتحة . فالمطبقة : الطاء ، والظاء ، والصاد ، والضاد .

---

(١) س : « لتبتنى »
(٢) س : « المبينة »
(٣) م : « والتاء »

وقد علمنا أن نصف هذه [الحروف] فى جملة الحروف المبدوء بها فى أوائل السور .

وإذا كان القوم — الذين قسموا فى الحروف هذه الأقسام لأغراض لهم فى ترتيب العربية وتنزيلها بعد الزمان الطويل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، رأوا مبانى اللسان على هذه الجهة ، وقد نبه بما ذكر فى أوائل السور على ما لم يذكر ، على حد التنصيف الذى وصفنا — دل على أن وقوعها الموقع الذى يقع التواضع عليه ، بعد العهد الطويل ، لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجلّ ، لأن ذلك يجرى مجرى علم الغيوب .

وإن كان إنما تنبهوا على ما بنى عليه اللسان فى أصله ولم يكن لهم فى التقسيم[1] شيء ، وإنما التأثير لمن وضع أصل اللسان . فذلك أيضاً من البديع الذى يدل على أن أصل وضعه وقع موقع الحكمة التى يقصر عنها اللسان .

فإن كان أصل اللغة توقيفاً فالأمر فى ذلك أبين ، وإن كان على سبيل التواضع فهو عجيب أيضاً ؛ لأنه لا يصح أن تجتمع هممهم المختلفة على نحو هذا إلا بأمر من عند الله تعالى . وكل ذلك يوجب إثبات الحكمة فى ذكر هذه الحروف على حد يتعلق به الإعجاز من وجه .

وقد يمكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة[2] تخصها فى النظم ، إذا كانت حروفاً ، كنحو ﴿ الٓمٓ ﴾ ، لأن الألف المبدوء بها هى أقصاها

(١) م : « فلم . . . فى الذى قسم شيء »
(٢) م : « سوة فائده »

مَطْلَماً ، واللام متوسطة ، والميم متطرفة ، لأنها تأخذ فى الشفة ، فنبه بذكرها على غيرها من الحروف ، وبين أنه إنما أتاهم بكلام منظوم مما يتعارفون من الحروف التى تتردَّد بين هذين الطرفين .

ويشبه أن يكون التنصيف وقع فى هذه الحروف دون الألف ، لأن الألف قد تلغى ، وقد تقع الهمزة وهى موقعاً واحدًا .

* * *

ومعنى ماشرَّ ، وهو : أنه سَّهل سبيله ، فهو خارج عن الوحشىّ المستكرَه ، والغريب المستنكر ، وعن الصنعة المتكلَّفة . وجعله قريباً إلى الأفهام ، يبادِرُ معناه لفظَه إلى القلب ، ويسابق المغزى منه عبارتَه إلى النفس . وهو مع ذلك ممتنع المَطْلَب ، عسير المتناوَل ، غير مُطمِع مع قربه فى نفسه ، ولا مُوهِمٍ مع دنوّه فى موقعه أن يُقْدَر عليه أو يُظفر به .

فأما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذَل ، والقول المسفسف ، فليس يصحُّ أن تقع فيه فصاحةٌ أو بلاغة ، فيطلب فيه الممتنع[1] ، أو يوضع فيه الإعجاز .

ولكن لو وضع فى وحشىّ مستكرَه ، أو غُمر بوجوه الصنعة ، وأطبق بأبواب التعسف والتكلف — : لكان لقائلٍ أن يقول فيه ويعتذر ، أو يعيب ويقرع .

ولكنه أوضح مناره ، وقَرَّب منهاجَه ، وسَّهل سبيله ، وجعله فى ذلك متشابهاً متماثلاً ، وبيَّن مع ذلك إعجازهم فيه .

---

(١) س : « التمنع »

وقد علمت أن كلام فصحائهم وشعر بلغائهم لا ينفك من تصرف فى غريب مستنكر ، أو وحشى مستكره ، ومعان مستبعدة . ثم عدولهم إلى كلام مبتذَل وضيع لا يوجد دونه فى الرتبة ، ثم تحوّلهم إلى كلام معتدل بين الأمرين ، متصرف بين المنزلتين .

فمن شاء أن يتحقق هذا نظر فى قصيدة امرئ القيس :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

ونحن نذكر بعد هذا على التفصيـل ما تتصرف إليه هذه القصيدة ونظائرها ومنزلتها من البلاغة ، ونذكر وجه فوت نظم القرآن محلها ، على وجه يُؤخذ باليد ، ويُتناول من كَثَب ، ويُتَصَوَّر فى النفس كتصور الأشكال . ليتبين ما ادعيناه من الفصاحة العجيبة للقرآن .

واعلم أن من قال من أصحابنا : إن الأحكام معللة بعلل موافقة لمقتضى العقل ، جعل هذا وجهاً من وجوه الإعجاز ، وجعل هذه الطريقة دلالة فيه ، كنحو ما يعللون به الصلاة ومعظم الفروض وأصولها . ولهم فى كثير من تلك العلل طرق قريبة ، ووجوه تستحسن .

وأصحابنا من أهل خراسان يولَعون بذلك ، ولكن الأصل الذى يبنون عليه ، عندنا غير مستقيم . وفى ذلك كلام يأتى فى كتابنا فى الأصول .

وقد يمكن فى تفاصيل ما أوردنا من المعانى الزيادة والإفراد ، فإنا جمعنا بين أمور ، وذكرنا المزية المتعلقة بها . وكل واحد من تلك

الأمور مما قد يمكن اعتماده فى إظهار الإعجاز فيه .

فإن قيل : فهل تزعمون أنه معجز ، لأنه حكاية لـكلام القديم سبحانه ، أو لأنه عبارة عنه ، أو لأنه قديم فى نفسه ؟

قيل : لسنا نقول بأن الحروف قديمة ، فكيف يصح التركيب على الفاسد ؟ ولا نقول أيضاً : إن وجه الإعجاز فى نظم القرآن [من أجل] أنه حكاية عن كلام الله[1] ، لأنه لو كان كذلك لـكانت التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله عز وجلّ معجزات فى النظم والتأليف . وقد بيّنّا أن إعجازها فى غير ذلك ، وكذلك كان يجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها ومنفردها ، وقد ثبت خلاف ذلك .

(١) س : « عن الكلام القديم »

فصـــــل

﴿ فى شرح ما بيَّنا من وجوه إعجاز القرآن ﴾

فأما الفصل الذى بدأنا بذكره من الإخبار عن الغيوب ، والصدق والإصابة فى ذلك كله .

فهو كقوله تعالى : ﴿ قل للمُخَلَّفين من الأعراب ستُدْعَون إلى قوم أُولى بأس شديدٍ تُقاتلونهم أو يُسْلِمون[1] ﴾ . فأغزاهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، إلى قتال العرب والفرس والروم .

وكقوله : ﴿ الٓم . غُلِبتِ الرُّوم فى أدنى الأرض وهم من بعدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون فى بِضْع سِنِين[2] ﴾ . وراهن أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى ذلك، وصَدَق الله وعده .

وكقوله فى قصة أهل بدر: [﴿ وإذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحدى الطائفتين أنها لكم[3] ﴾] .

[وكقوله] : ﴿ سيُهْزَمُ الجَمْعُ ويُوَلّون الدُّبُرَ[4] ﴾

وكقوله : ﴿ لقد صدق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق لتَدْخُلُنَّ المسْجِدَ الحرامَ إن شاء اللهُ آمنين مُحَلِّقِين رُؤُسَكم ومُقصِّرين لا تخافون[5] ﴾.

---

(١) سورة الفتح ١٦
(٢) سورة الروم ١ — ٤
(٣) سورة الأنفال ٧
(٤) سورة القمر ٤٥
(٥) سورة الفتح ٤٥

وكقوله : ﴿ وعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ ليَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استخلَف الذين من قبلهم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهُمُ الذى ارتضَى لهم وليُبدِّلَنّهم من بَعْدِ خوفِهم أمْناً[1] ﴾ . وصَدَق الله تعالى وعده فى ذلك كله .

وقال فى قصة المُخَلَّفِينَ عنه فى غزوته : ﴿ لن تَخرجوا معىَ أبدًا ولن تقاتلوا معىَ عدوًّا[2] ﴾ . فخفى ذلك كله وصدق ، ولم يخرج من المنافقين[3] الذين خوطبوا بذلك معه أحدٌ .

وكقوله : ﴿ لِيُظْهِرَه على الدين كله[4] ﴾ .

وكقوله : ﴿ فقلْ تعالَوْا نَدْعُ أبناءَنا وأبناءَكم ونساءَنا ونساءَكم وأنفُسَنا وأنفسَكم ، ثم نَبْتَهِلْ فنجعلْ لعنةَ الله على الكاذبين[5] ﴾ . فامتنعوا من المُبَاهَلة ، ولو أجابوا إليها اضطرمت عليهم الأودية نارًا ، على ما ذُكر فى الخبر .

وكقوله : ﴿ قل إن كانت لكم الدارُ الآخرةُ عند الله خالصةً من دون الناس فتمنَّوُا الموتَ إن كنتم صادقين . ولن يتمنَّوْه أبدًا بما قدَّمَتْ أيديهم[6] ﴾ . ولو تمنَّوْه لوقع بهم . فهذا وما أشبهه فصل .

---

(١) سورة النور ٥٥
(٢) سورة التوبة ٨٣
(٣) س: « المخالفين »
(٤) سورة التوبة ٢٣
(٥) سورة آل عمران ٦٠
(٦) سورة البقرة ٩٤ — ٩٥

* * *

وأما الوجه الثانى الذى ذكرناه ، من إخباره عن قصص الأوّلين وسير المتقدمين، فمن العجيب الممتنع على من لم يقف على الأخبار ، ولم يشتغل بدرس الآثار[١] . وقد حكى فى القرآن تلك الأمور حكايَة من شهدها وحضَرها .

ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وما كنتَ تَتْلُو من قبله من كتابٍ ولا تخطُّه بيمينكَ ، إذًا لارتاب المُبْطِلون ﴾[٢] .

وقال : ﴿ وما كنتَ بجانبِ الغَرْبِىِّ إذْ قضينا إلى موسى الأمرَ وما كنتَ من الشاهدين ﴾[٣] .

وقال : ﴿ وما كُنتَ بجانب الطُّورِ إذْ نادَيْنا ، ولكن رحمةً من ربك ، لتنذرَ قوماً ما أتاهم مِنْ نذيرٍ من قبلك ﴾[٤]. فبيَّن وجه دلالته من إخباره بهذه الأمور الغائبة السالفة .

---

(١) قال المؤلف فى كتاب « التمهيد » : ص ١٣٠ « والوجه الآخر : ما انطوى عليه القرآن من قصص الأولين وسير الماضين ، وأحاديث المتقدمين ، وذكر ما شَجَرَ بينهم وكان فى أعصارهم ، مما لا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السير ، ودرسه لها وعنايته بها ، ومجالسته لأهلها ، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها ، مع العلم بأن النبى ، صلى الله عليه ، لم يكن يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه ، وأنه لم يكن ممن يُعرَفُ بدراسة الكتب ومجالسة أهل السير والأخذ عنهم ، ولا لقى إلا من لقوه ، ولا عرف إلا من عرفوه ، وأنهم يعرفون دأبه وديدنه ، ومنشأه وتصرفه، فى حال إقامته بينهم وظعنه عنهم ؛ فدلَّ ذلك على أن المخبر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه علام الغيوب »

(٢) سورة العنكبوت ٤٨

(٣) سورة القصص ٤٤

(٤) سورة القصص ٤٦

وقال : ﴿ تلك من أنباء الغيب نُوحِيها إليكَ ، ما كنتَ تعلَمُها أنتَ ولا قومك من قبلِ هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين﴾[1] .

• • •

فأما الكلام فى الوجه الثالث ، وهو الذى بيناه من الإعجاز الواقع فى النظم والتأليف والرَّصْف ، فقد ذكَرْنا من هذا الوجه وجوهاً :

منها : أنّا قلنا : إنه نظم خارجٌ عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلامهم ، ومباينٌ لأساليب خطابهم .

ومن ادّعى ذلك لم يكن له بدّ من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ، ولا السجع ، ولا الكلام الموزون غير المقفّى . لأن قوماً من كفار قريش ادَّعَوْا أنه شعر .

ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعرًا .

ومن أهل الملة من يقول : إنه كلام مسجَّع ، إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم .

ومنهم من يدّعى أنه كلام موزون .

فلا يخرج بذلك عن أصناف ما يتعارفونه من الخطاب .

(١) سورة هود ٤٩

فصـــل

﴿ في نفي الشعر من القرآن ﴾

قد علمنا أن الله تعالى نَفَى الشعر عن القرآن وعن النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : ﴿ وما علَّمناه الشعرَ وما ينبغي له ، إنْ هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين(١) ﴾ . وقال في ذم الشعراء : ﴿ والشعراء يتَّبعهم الغاوون . ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون(٢) ﴾ . إلى آخر ما وصفهم به في هذه الآيات . وقال : ﴿ وما هو بقول شاعر(٣) ﴾ .

وهذا يدل على أن ماحكاه عن الكفار — من قولهم: إنه شاعر، وإن هذا شعر . — لا بد من أن يكون محمولًا على أنهم نسبوه [إلى أنه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام، لا أنهم نسبوه] في القرآن إلى أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة .

أو يكون محمولًا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام وطرق لهم في المنطق . وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب شعرٌ على الحقيقة .

---

(١) سورة يس ٦٩

(٢) سورة الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٥

(٣) سورة الحاقة ٤١

أو يكون محمولًا على أنه أطلقه[١] بعض الضعفاء منهم فى معرفة أوزان الشعر ، وهذا أبعد الاحتمالات .

فإن حمل على الوجهين الأولين كان ما أطلقوه صحيحاً ، وذلك أن الشاعر يفطن لما لا يفطن له غيره ، وإذا قدر على صنعة الشعر كان على ما دونه — فى رأيهم وعندهم — أقدرَ ، فنسبوه إلى ذلك لهذا السبب.

فإن زعم زاعم أنه قد وَجَدَ فى القرآن شعرًا كثيرًا ، فمن ذلك ما يزعمون أنه بيت تامّ أو أبيات تامة ، ومنه ما يزعمون أنه مصراع ، كقول القائل :

قد قلت لما حاولوا سلوتى ﴿هيهات هيهات لما توعدون[٢]﴾

ومما يزعمون أنه بيت ، قوله : ﴿ وجِفَانٍ كالجَوابِ وقُدُورٍ راسيات[٣] ﴾ . قالوا : هو من الرَّمَل ، من البحر الذى قيل فيه :

سا كِنُ الريح نَطو فُ المزنِ مُنْحَلُّ العَزَالى[٤]

---

(١) س : « أطلق عن بعض »

(٢) سورة المؤمنون ٣٦

(٣) سورة سبأ ١٣

(٤) يصف يوماً مطيراً . والنطوف : القطور ، وليلة نطوف : قاطرة تمطر حتى الصباح . المزن: السحاب . والعزالى، بكسر اللام : جمع عزلاء، وهى مصب الماء من الرواية والقربة فى أسفلها حيث يستفرغ ما فيها من الماء . يقال للسحابة إذا انهمرت بالمطر : قد حلت عزاليها ، على تشبيه اتساع المطر واندفاقه بالذى يخرج من فم المزادة .

وقوله : ﴿من تزكّى فإنما يتزكّى لنفسِه[١]﴾ . كقول الشاعر من بحر الخفيف :

كل يوم بشمسهِ وغدٌ مثل أمسهِ

وكقوله عز وجلّ : ﴿ومن يتّق الله يجعلْ له مَخرجاً ويرزقه من حيثُ لا يحتسب[٢]﴾ . قالوا هو من المتقارب .

وكقوله: ﴿ ودانيةً عليهم ظلالُها وذُلِّلت قُطوفُها تذليلاً[٣] ﴾ . ويشبعون حركةَ الميم ، فيزعمون أنه من الرَّجَز .

وذكر عن أبى نُوَاسٍ أنه ضمن ذلك شعراً ، وهو قوله[٤] :

وفتيةٍ فى مجلس وجوههم ريحانهم قد عدموا التثقيلا
دانية عليهمُ ظلالها وذللت قطوفها تذليـــلا

وقوله عز وجل : ﴿ ويُخزِهم ويَنصرْكم عليهم ويَشْفِ صدورَ قومٍ مؤمنين[٥] ﴾ . زعموا أنه من الوافر ، كقول الشاعر[٦] :

لنا غنم نُسَوِّقها غِزارٌ كأنَّ قرونَ جِلَّتِها عِصِىُّ[٧]

وكقوله عز وجل : ﴿ أرأيتَ الذى يكذّب بالدين . فذلك الذى

---

(١) سورة فاطر ١٨

(٢) سورة الطلاق ٢ — ٣

(٣) سورة الإنسان ١٤

(٤) أخبار أبى نواس ٥/٥٣

(٥) سورة التوبة ١٤

(٦) امرؤ القيس كما فى اللسان ١٢ — ٣٢ والديوان ص ١٩٢

(٧) نسوّقها : نسوقها . غزار : كثيرة . جلّتها : جمع جليل ، وهى الغنم الكبيرة المسنة .

يَدُعُّ اليتيمَ[١]﴾ ضمنه أبو نواس فى شعره ففصل، وقال: «فذاك الذى»، وشعره :

وقرا معلنا ليصدع قلبى والهوى يصدع الفؤاد السقيما[٢]
أرأيت الذى يكذّب بالدي ن فذاك الذى يدعُّ اليتيما

وهذا من الخفيف . كقول الشاعر :

وفؤادى كعهده بسليمى بهوًى لم يحُلْ ولم يتغيَّرْ

وكما ضمنه فى شعره من قوله :

سبحان (من) سخَّر هذا لنا (حقًّا) وما كنا له مُقْرنينْ[٣]

فزاد فيه حتى انتظم له الشعر .

وكما يقولونه فى قوله عز وجل : ﴿ والعادياتِ ضَبْحًا ، فالموريات قَدْحًا[٤] ﴾ .

ونحو ذلك فى القرآن كثير ، كقوله : ﴿ والذارياتِ ذَرْوًا . فالحاملاتِ وِقْرًا . فالجارياتِ يُسْرًا[٥] ﴾ وهو عندهم شعر من بحر البسيط .

والجواب عن هذه الدعوى التى ادَّعَوْها ، من وجوه :

---

(١) سورة الماعون ١٤

(٢) أخبار أبي نواس ٢/٥٣ وقد ذكرهما المؤلف فى كتاب التمهيد ص ١٢٨ ولم ينسبهما .

(٣) أخبار أبي نواس ٢/٥٥ وفى ا : «لنا هذا». قال تعالى فى سورة الزخرف ١٣ : ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ .

(٤) سورة العاديات ١ ـ ٢

(٥) سورة الذاريات ١ ـ ٣

أولها : أن الفصحاء منهم حين أورد عليهم القرآن، لو كانوا يعتقدونه شعرًا ، ولم يروه خارجًا عن أساليب كلامهم — : لبادروا إلى معارضته، لأن الشعر مسخَّر لهم مسهَّل عليهم ، ولهم فيه ما علمتَ من التصرف العجيب ، والاقتدار اللطيف . فلما لم نرهم اشتغلوا بذلك ، ولا عوّلوا عليه — : عُلم أنهم لم يعتقدوا فيه شيئاً مما يقدره الضعفاء فى الصنعة ، والمُرْمِدون فى هذا الشأن . وإن استدراكَ من يجىء الآن على فصحاء قريش وشعراء العرب قاطبة فى ذلك الزمان وبلغائهم وخطبائهم ، وزعمه أنه قد ظفر بشعر فى القرآن [وقد] ذهب أولئك النفر عنه وخفى عليهم مع شدة حاجتهم [1] [عندهم] إلى الطعن في القرآن والغض منه والتوصيل إلى تكذيبه بكل ما قدروا عليه — فلن يجوز أن يخفى على أولئك ، وأن يجهلوه ، ويعرفه من جاء الآن ، وهو بالجهل حقيق !

إذا كان كذلك ، عُلم أن الذى أجاب به العلماء عن هذا السؤال سديد، وهو أنهم قالوا : إن البيت الواحد وما كان على وزنه لا يكون شعرًا ، وأقل الشعر بيتان فصاعدًا . وإلى ذلك ذهب أكثر أهل صناعة العربية من أهل الإسلام .

وقالوا أيضاً : إن ما كان على وزن بيتين ، إلا أنه يختلف وزنهما أو قافيتهما [2]، فليس بشعر .

---

(١) ب : « حاجته عندهم »
(٢) س : « يختلف رويهما وقافيتهما »

ثم منهم من قال : إن الرجز ليس بشعر أصلًا ، لا سيما إذا كان مشطورًا أو منهوكاً . وكذلك ما كان يقاربه[١] فى قلة الأجزاء . وعلى هذا يسقط السؤال .

ثم يقولون : إن الشعر إنما يطلق ، متى قَصَد القاصدُ إليه — على الطريق الذى يتعمد ويسلك ، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء ، دون ما يستوى فيه العامىّ والجاهل ، والعالم بالشعر واللسان وتصرفه وما يتفق من كل واحد ، فليس يكتسب اسمَ الشعر ولا صاحبُه اسمَ شاعر . لأنه لو صح أن يسمَّى كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تَتَّزن بوزن الشعر ، أو تنتظم انتظامَ بعض الأعاريض —: كان الناسُ كلهم شعراء . لأن كل متكلم لا ينفكّ من أن يَعْرِض فى جملة كلام كثير يقوله ، ما قد يتَّزن بوزن الشعر وينتظمُ انتظامه .

ألا تَرَى أن العامى قد يقول لصاحبه : « أغلق الباب وائتنى بالطمام » . ويقول الرجل لأصحابه « أكرموا من لقيتم من تميم » ؟ ومتى تتبع الإنسان هذا [النحو] عرف أنه يَكْثُر فى تضاعيف الكلام مثلُه وأكثر منه[٢] .

---

(١) س : « يقارنه »

(٢) قال الجاحظ فى البيان والتبيين ١ — ٢٨٨ :

« ويدخل على من طعن فى قوله (تبت يدا أبى لهب) وزعم أنه شعر لأنه فى تقدير مستفعلن مفاعلن. . . فيقال له: اعلم أنك لو اعترضت أحاديث الناس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل مستفعلن مستفعلن كثيراً، ومستفعلن مفاعلن. وليس أحد فى الأرض يجعل ذلك المقدار شعراً . ولو أن رجلا من الباعة صاح :

وهذا القدر الذى يصح فيه التوارد، ليس يعدُّه أهل الصناعة سرقة، إذا لم تعلم فيه حقيقةُ الأخذ. كقول امرئ القيس:

وقوفاً بها صحبى علىَّ مطيهم　　يقولون لا تَهْلِكْ أسًى وتجَمَّلِ[1]

وكقول طَرَفة:

وقوفاً بها صحبى علىّ مطيهم　　يقولون لا تهلك أسًى وتجلَّدِ[2]

ومثل هذا كثير.

فإذا صح مثل ذلك فى بعض البيت ولم يمتنع التوارد فيه، فكذلك لا يمتنع وقوعه فى الكلام المنثور اتفاقاً غير مقصود إليه، فإذا اتفق لم يكن ذلك شعرًا.

وكذلك يمتنع التوارد على بيتين، وكذلك يمتنع فى الكلام المنثور وقوع البيتين ونحوهما.

فثبت بهذا أن ما وقع هذا الموقع لم يُعَدَّ شعرًا، وإنما يُعدُّ شعرًا ما إذا قصده صاحبه: تأَتَّى له ولم يمتنع عليه.

من يشترى باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام فى وزن مستفعلن مفعولات! وكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ فى جميع الكلام. وإذا جاء المقدار الذى يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعراً. وسمعت غلاماً لصديق لى، وكان قد سقى بطنُه، وهو يقول لغلمان مولاه: اذهبوا إلى الطبيب وقولوا: قد اكتوى. وهذا الكلام يخرج وزنه على خروج فاعلاتن مفاعلن. فاعلاتن مفاعلن. مرتين. وقد علمت أن هذا الغلام لم يخطر على باله قط أن يقول بيت شعر أبداً، ومثل هذا كثير، ولو تتبعته فى كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته».

(١) ديوانه ص ١٢٥

(٢) ديوانه ص ٢١

فإذا كان هو مع قصده لا يتأتّى له ، وإنما يَعْرِض فى كلامه عن غير قصد إليه — : لم يصحّ أن يقال : إنه شعر ، ولا إن صاحبه شاعر ، ولا يصح أن يقال : إن هذا يوجب أن مثل هذا لو اتفق من شاعر فيجب أن يكون شعرًا ، لأنه لو قصده لكان يتأتّى له[1] .

وإنما لم يصح ذلك ، لأن ما ليس بشعر فلا يجوز أن يكون شعرًا من أحد ، وما كان شعرًا من أحد من الناس كان شعرًا من كل أحد[2] . ألا ترى أن السُّوقى[3] قد يقول : « اسقنى الماء ياغلامُ سريعاً » ، وقد يتفق ذلك من الساهى ومَن لا يقصد النظم .

فأما الشعر[4] إذا بلغ الحدّ الذى بيّنّا ، فلا يصح أن يقع إلا من قاصد إليه .

وأمّا الرجز فإنه يعرض فى كلام العوامّ كثيرًا ، فإذا كان بيتًا واحدًا فليس ذلك بشعر .

وقد قيل : إن أقل ما يكون منه شعرًا أربعةُ أبيات ، بعد أن تتفق قوافيها ، ولم يتفق ذلك فى القرآن بحال . فأما دون أربعة أبيات منه أو ما يجرى مجراه فى قلة الكلمات ، فليس بشعر .

وما اتفق فى ذلك من القرآن مختلفُ الرَّوِىّ ، ويقولون : إنه

---

(١) س : « منه »
(٢) م : « من واحد . . . كل أحد من الناس »
(٣) م : « أن المفحم إن أخذ السوقة »
(٤) م : « فأما النظم »

متى اختلف الروىّ خرج عن أن يكون شعرًا .

وهذه الطرق التى سلكوها فى الجواب ، معتمدَةٌ أو أكثرها .

ولو كان ذلك شعرًا لكانت النفوس تتشوّف إلى معارضته ، لأن طريق الشعر غير مستصعَب على أهل الزمان الواحد ، وأهله يتقاربون فيه ، أو يَضْربون فيه بسهم .

• • •

فإن قيل : فى القرآن كلام موزون كوزن الشعر ، وإن كان غير مقفًّى ، بل هو مُزَاوَجٌ متساوِى الضروب ، وذلك أحد[1] أقسام كلام العرب .

قيل : من سبيل الموزون من الكلام أن تتساوى أجزاؤه فى الطول والقصر ، والسواكن والحركات . فإن خرج عن ذلك لم يكن موزونًا ، كقوله :

رب أخٍ كنتُ به مغتبطا ... أشدُّ كفِّى بِعُرَا صحبتِهِ
تمسكاً منِّىَ بالودّ ولا ... أحسبه يزهد فى ذى أمل[2]
تمسكاً منىَ بالود ولا ... أحسبه يغير العهد ولا
يحول عنـــه أبدا ... فخاب فيـــه أملى

وقد علمنا أن القرآن ليس من هذا القبيل ، بل هذا قبيل غير ممدوح ،

---

(١) س : « وذلك آخر »
(٢) م ، ا : « أحسبنى أزهد »

ولا مقصود من جملة الفصيح ، وربما كان عندهم مستنكرًا ، بل أكثره على ذلك .

وكذلك[1] ليس فى القرآن من الموزون الذى وصفناه أولًا ، وهو الذى شرطنا فيه التعادل والتساوى فى الأجزاء ، غير الاختلاف الواقع فى التقفية . ويبيّن[2] ذلك أن القرآن خارج عن الوزن الذي بينّا ، وتتم فائدته بالخروج منه . وأما الكلام الموزون فإن فائدته تتم بوزنه .

---

(١) م : « وليس »
(٢) م : « وبين »

فصـــل

﴿ في نَفْي السجع من القرآن ﴾

ذهب أَصحابُنا كلهم إلى نفي السجع من القرآن ، وذكره [الشيخ] أبو الحسن الأشعري [رضي الله عنه] في غير موضع من كتبه .

وذهب كثير ممن يخالفهم إلى إثبات السجع في القرآن ، وزعموا أن ذلك مما يبين به فضل الكلام ، وأنه من الأجناس التي يقع فيها التفاضلُ في البيان والفصاحة ، كالتجنيس والالتفات ، وما أشبه ذلك من الوجوه التي تُعرف بها الفصاحة .

وأقوى ما يستدلون به عليه : اتفاقُ الكل على أن موسى أفضلُ من هرون عليهما السلام ، ولمكان[1] السجع قيل في موضعٍ : ﴿ هرون وموسى ﴾ . ولمّا كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون ، قيل : ﴿ موسى وهرون ﴾ .

قالوا : وهذا يفارق أمر الشعر ، لأنه لا يجوز أن يقع في الخطاب إلا مقصودًا إليه ، وإذا وقع غير مقصود إليه كان دون القدر الذي نسميه[2] شعرًا ، وذلك القدر ما يتفق وجوده من المُفْحَم ، كما يتفق

---

(١) م : « ولكان »

(٢) س : « يسمى »

وجوده من الشاعر . وأما ما فى القرآن من السجع فهو كثير ، لا يصح أن يتفق كله غيرَ مقصود إليه .

ويبنون الأمر فى ذلك على تحديد معنى السجع . قال أهل اللغة : هو موالاة الكلام على وزن واحد . وقال ابن دريد : « سجعت الحمامة» معناه : ردَّدَتْ صوتَها . وأنشد :

طربتَ فأبكتك الحمامُ السواجعُ   تَميل بها ضَحْوًا غصونٌ نوائع

النوائع : الموائل ، من قولهم : جائع نائع ، أي متمايل ضعفاً [١] .

وهذا الذى يزعمونه غير صحيح ، ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز . ولو جاز أن يقولوا : هو سجع معجز ، لجاز لهم أن يقولوا : شعر معجز .

وكيف والسجع مما كان يألفه الكهّان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدرُ بأن يكون حجةً من نفى الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوّات ، وليس كذلك الشعر .

وقد رُوى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للذين جاؤه وكلَّموه فى شأن الجنين : كيف نَدِى من لا شَرِبَ ولا أَكَل [٢] ، ولا صاح فاستهلّ ، أليس دَمُه قد يُطلّ ؟ فقال : « أسجاعةً كسجاعة الجاهلية؟ » ،

---

(١) نقل المؤلف هذا النص من كتاب الجمهرة لابن دريد ٢ — ٩٣

(٢) فى الأصول : « من لا أكل ولا شرب » راجع البيان والتبيين ١ / ٢٨٧ — ٢٨٨

وفى بعضها : « أسَجْعاً كسجع الكهّان » ؟ فرأى[١] ذلك مذموماً لم يصح أن يكون فى دلالته .

والذى يقدّرونه[٢] أنه سجع فهو وهم ، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع وإن لم يكن سجعاً ، لأن ما يكون به الكلام سجعاً يختص ببعض الوجوه دون بعض ، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى السجع . وليس كذلك ما اتفق مما هو فى تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى . وفصل بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ، ومتى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت إفادةُ السجع كإفادة غيره ، ومتى انتظم[٣] المعنى بنفسه دون السجع ، كان مستجلباً لتحسين[٤] الكلام دون تصحيح المعنى .

فإن قيل : فقد يتفق فى القرآن ما يكون من القبيلين جميعاً ، فيجب أن تُسَمُّوا أحدهما سجعاً .

قيل : الكلام فى تفصيل هذا خارجٌ عن غرض كتابنا ، وإلّا كنّا نأتى على فصلٍ فصلٍ من أوّل القرآن إلى آخره ، ونبين فى الموضع الذى يدّعون الاستغناء عن السجع من الفوائد ما لا يخفى ، ولكنه

---

(١) م : « فرأى أن ذلك »
(٢) م : « تقررونه »
(٣) س : « ومتى ارتبط »
(٤) س : « مستجلباً لتجنيس »

خارج عن غرض كتابنا . وهذا القدر يحقق الفرق بين الموضعين .

ثم إن سَلَّم لهم مُسَلِّمٌ موضعاً أو مواضعَ معدودة ، وزعم أن وقوع ذلك موقع[١] الاستراحة فى الخطاب إلى الفواصل لتحسين الكلام بها ، وهى الطريقة التى يباين القرآن بها سائرَ الكلام ، وزعم أن الوجه فى ذلك أنه من الفواصل ، أو زَعم أن ذلك وقع غير مقصود إليه —: فإن[٢] ذلك إذا اعترض فى الخطاب لم يُعَدَّ سجعاً ، على ما قد بينا فى القليل من الشعر ، كالبيت الواحد ، والمصراع ، والبيتين من الرجز ، ونحو ذلك يعرض فيه ، فلا يقال إنه شعر ، لأنه لا يقع مقصودًا إليه ، وإنما يقع مغمورًا فى الخطاب ، وكذلك حال السجع الذى يزعمونه ويقدّرونه .

ويقال لهم : لو كان الذى فى القرآن على ما تقدرونه سجعاً : لكان مذموماً مرذولاً ، لأنَّ السجع إذا تفاوتت أوزانه ، واختلفت طرقه ، كان قبيحاً من الكلام ، وللسجع منهج مرتَّب محفوظ، وطريق مضبوط[٣] ، متى أَخلّ به المتكلم وقع[٤] الخلل فى كلامه ، ونُسب إلى الخروج عن الفصاحة . كما أن الشاعر إذا خرج عن الوزن المعهود كان مخطئاً ، وكان شعره مرذولاً ، وربما أخرجه عن كونه شعرًا .

---

(١) م : « وقوع »
(٢) س : « وأن »
(٣) م : « والسجع منهج قريب . . . . وطريقة مضبوطة »
(٤) س : « أوقع »

وقد علمنا أن بعض ما يدَّعونه سجعاً متقاربُ[١] الفواصل، متدانى المقاطع ، وبعضها مما يمتدّ حتى يتضاعف طوله عليه ، وتَرِد الفاصلة على ذلك الوزن الأوّل بعد كلام كثير ، وهذا فى السجع غير مرضيّ ولا محمود .

فإن قيل: متى خرج السجع [من] المعتدل إلى نحو ما ذكرتموه ، خرج من أن يكون سجعاً ، وليس على المتكلم أن يلتزم أن يكون كلامه كله سجعاً ، بل يأتى به طوراً ثم يعدل عنه إلى غيره ، ثم قد يرجع إليه .

قيل : متى وقع أحد مِصراعَى البيت[٢] مخالفاً للآخر ، كان تخليطاً وخَبْطاً ، وكذلك متى اضطرب أحد مصراعَى الكلام المسجَّع وتفاوتَ كان خبطاً .

[وقد] عُلِمَ أن فصاحة القرآن غير مذمومة فى الأصل ، فلا يجوز أن يقع فيها نحو هذا الوجه من الاضطراب[٣] .

ولو كان الكلام الذى هو فى صورة السجع منه لما تحيَّروا فيه، ولكانت الطباع تدعو إلى المعارضة ؛ لأن السجع غير ممتنع عليهم ، بل هو عادتهم ، فكيف تُنْقَضُ العادة بما هو نَفْسُ العادة ، وهو غير خارج عنها ولا مُتَمَيِّز[٤] منها ؟ وقد يتفق فى الشعر كلام [متزن] على منهاج السجع ،

---

(١) م : « متفاوت »
(٢) م : « الشعر »
(٣) م : « من الاختلال »
(٤) س : « مميز »

وليس بسجع عندهم . وذلك نحو قول البحترى :

تَشَكَّى الوجىٰ ؛ والليلُ ملتبسُ الدُّجَا

غُرَيْرِيَّةُ الأنسابِ مَرْتٌ بَقِيعُها[١]

وقوله[٢] :

قريب المَدَى ، حتى يكون إلى النَّدَى ،

عدوّ البُنَى ، حتى تكون مَعالِى[٣]

ورأيتُ بعضَهم يرتكب هذا ، فيزعم[٤] أنه سجع مداخل !

ونظيره من القرآن قوله تعالى : ﴿ ثم يومَ القيامة يُخْزِيهمْ ، ويقولُ أين شُرَكائىَ الذين كنتم تُشَاقُّون فيهم[٥] ﴾ . وقوله : ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفيها فَفَسقوا فيها[٦] ﴾ وقوله : ﴿ أَحَبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه[٧] ، وجهادٍ فى

---

(١) ديوانه ١ — ٥ والوجى : أن يشتكى البعير باطن خفّه . الغرير : فحل من الإبل ، والإبل الغريرية : منسوبة إليه . ومكان مرت : قفر لا نبات فيه . والبقيع من الأرض : المكان المتسع فيه أروم شجر من ضروب شتى . وفى س : « نقيعها »

(٢) ديوانه ٢ — ٧٨٥ يمدح به محمد بن عمر .

(٣) س ، م : « يكون » وفى م بعد البيت : « وقوله غريرية الأنساب مرت بقيعها ، ورأيت » إلخ .

(٤) م : « حتى يزعم »

(٥) سورة النحل ٢٧

(٦) سورة الإسراء ١٦

(٧) سورة التوبة ٢٤

سبيله[١]﴾ . وقوله : ﴿والتوراةَ والإنجيلَ ، ورسولاً إلى بنى إسرائيل[٢]﴾ .
وقوله : ﴿ إنى وَهَن العظمُ منّى[٣] ﴾ .

ولو كان ذلك عندهم سجعاً لم يتحيّروا فيه ذلك التحيُّر ، حتى سماه بعضهم سِحْرًا ، وتصرفوا فيما كانوا يسمّونه به ويصرفونه إليه ويتوهمونه فيه . وهم فى الجملة عارفون بعجزهم عن طريقه ، وليس القوم بعاجزين عن تلك الأساليب المعتادة عندهم ، المألوفة لديهم .

والذى تكلمنا به فى هذا[٤] الفصل كلام على جملة دون التفصيل .

ونحن نذكر بعد هذا فى التفصيل ، ما يكشف عن مُباينة ذلك وجوهَ السجع .

ومن جنس السجع المعتاد عندهم ، قولُ أبى طالب[٥] لسيف بن ذى يَزَن : « أنبتكَ مَنْبِتاً طابت أرومَتُه ، وعَزَّت جُرْثومته ، وثَبَت أصله ، وبَسَق فرعُه ، ونبت زَرْعه ، فى أكرم مَوْطِن ، وأطيب مَعْدِن » . وما يجرى هذا المجرى من الكلام .

والقرآن مخالف لهذه[٦] الطريقة مخالفتَه للشعر وسائرِ أصناف كلامهم الدائر بينهم .

---

(١) سورة آل عمران ٤٨ — ٤٩
(٢) سورة مريم ٤
(٣) م : « على هذا »
(٤) فى دلائل النبوة ١ / ٢٤ : « قول عبد المطلب » مع اختلاف فى الرواية قليل .
(٥) م : « منبتك منبت »
(٦) س : « لنحو هذه »

ولا معنى لقولهم: إن ذلك مشتق من ترديد الحمامة صوتَها على نسَقٍ واحد ورويّ غير مختلف ، لأن ما جرى هذا المجرى لا يُبْنَى على الاشتقاق وحدَه ؛ ولو بُنِيَ عليه لكان الشعر سجعاً ، لأن رويّه يتفق ولا يختلف ، وتتردّد القوافى على طريقة واحدة .

وأما الأمور التى يستريح إليها الكلام ، فإنها تختلف : فربما كان ذلك يسمى[١] قافية ، وذلك إنما يكون فى الشعر ، وربما كان ما ينفصل عنده الكلامان[٢] مقاطع السجع ، وربما سمى[٣] ذلك فواصل . وفواصل القرآن — مما هو مختص بها[٤] — لا شركة بينه وبين سائر الكلام فيها ولا تناسب .

وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام فى موضع وتأخيره عنه فى موضع لمكان السجع وتساوى مقاطع الكلام ، فليس بصحيح ، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه . وهى[٥] : أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة ، تؤدى معنى واحدًا ، من الأمر الصعب ، الذى تظهر به الفصاحة ، وتتبين به البلاغة[٦] . وأعيد كثير من القصَص فى مواضع [كثيرة] مختلفة ، على ترتيبات

(١) ا ، ب : « مسمى »
(٢) س : « عنده »
(٣) هكذا فى ا ، ب ، م
(٤) م : « يسمى »
(٥) م : « مما يختص بها »
(٦) م : « وهو »

متفاوتة ، ونُبِّهُوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأً به ومكرَّرًا .

ولو كان فيهم تَمَكُّنٌ من المعارضة لقصدوا تلك القصة وعبّروا عنها بألفاظٍ لهم تؤدى تلك المعانى ونحوها[١] ، وجعلوها بإزاء ما جاء به ، وتوصَّلوا بذلك إلى تكذيبه ، وإلى مساواته فيما [حكى و] جاء به . وكيف وقد قال لهم : ﴿ فليأتُوا بحديثٍ مثلهِ إن كانوا صادقين[٢] ﴾. فعلى هذا يكون المقصدُ — بتقديم بعض الكلمات[٣] وتأخيرها — إظهارَ الإعجاز[٤] على الطريقين جميعاً ، دون السجع[٥] الذى توهموه .

فإن قال قائل : القرآن مختلط من أوزان كلام العرب ، ففيه من جنس خطبهم ، ورسائلهم [وشعرهم] وسجعهم ، وموزون كلامهم الذى هو غير مقفًّى ، ولكنه أبدَعَ فيه ضرباً من الإبداع ، لبراعته وفصاحته .

قيل : قد علمنا أن كلامهم ينقسم إلى نظم ونثر ، وكلام مقفًّى غير موزون ، [وكلام موزون غير مقفًّى[٦]] ، ونظم موزون ليس بمقفًّى ، كالخطب والسجع ، ونظم مقفًّى موزون له روىّ[٧] .

---

(١) س : « فيه »
(٢) س : « وتحويها »
(٣) سورة الطور ٣٤
(٤) م : « الكلام »
(٥) م : « إظهاراً للإعجاز »
(٦) س : « التسجيع »
(٧) ما بين الرقمين ساقط من م

ومن هذه الأقسام ما هو سجيّةُ الأغلب من الناس . فتناوُلُهُ أقربُ، وسلوكه لا يتعذر . ومنه ما هو أصعب تناولًا ، كالموزون عند بعضهم ، والشعر عند الآخرين[١] .

وكل هذه الوجوه لا تخرج عن أن تقع لهم بأحد أمرين : إما بتعمّل وتكلّف وتعلم[٢] وتصنع ، أو باتفاق من الطبع وقذفٍ من النفس على اللسان للحاجة إليه .

ولو كان ذلك مما يجوز اتفاقه من الطبائع ، لم ينفكّ العالمَ من قوم يتفق ذلك منهم ، ويعرض[٣] على ألسنتهم ، وتجيش به خواطرهم ، ولا ينصرف[٤] عنه الكلّ ، مع شدّة الدواعى إليه .

ولو كان طريقَه التعلُّمُ لتصنَّعوه ولتعلموه[٥] ، والمُهْلة لهم فسيحة، والأمَدُ واسع .

* * *

وقد اختلفوا فى الشعر كيف اتّفق لهم ؟ فقد قيل : إنه اتفق فى الأصل غيرَ مقصود إليــه ، على ما يعرض من أصناف النظام فى تضاعيف الكلام ، ثم لما استحسنوه واستطابوه ورأوا أنه قد تألَّفَه

---

(١) س : « أوالشعر عند الآخرين »

(٢) سقطت هذه الكلمة من م

(٣) ا : « ويعترض » س « ويتعرض »

(٤) م : « ولا يتصرف »

(٥) م : « طريقهُ التعمل لتصنعوا فيه وتعلموه »

الأسماع وتقبلُه النفوس ، تتبّعوه(١) من بعدُ وتعلّموه . وحكى لى بعضهم عن أبى عمر غُلَامِ ثعلب عن ثعلب : أن العرب تعلّم أولادها قولَ الشعر بوضعٍ غير معقول ، يوضَع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزنِ :

* قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

ويسمُّون ذلك الوضع « المتير(٢) » واشتقاقه من المتر ، وهو الجذب أو القطع ، يقال : مترت الحبل ، أى(٣) قطعته أو جذبته . ولم يذكر هذه الحكاية عنهم غيره ، فيحتمل ما قاله(٤) .

وأمّا ما وقع السَّبْق إليه فيُشبه أن يكون على ما قدّمنا ذكرَه أولاً .

وقد يحتمل — على قول مَنْ قال : إن اللغة اصطلاح — أنهم تواضعوا على هذا الوجه من النظم .

وقد يمكن أن يقال مثلُه على المذهب الآخر ، وأنهم وقفوا على ما يتصرّف إليه القول من وجوه التفاصح ، وتَوَاقفُوا(٥) بينهم على ذلك .

---

(١) م : « فتتبعوه . . . وتعلموه »
(٢) م : « المُمْتَر»
(٣) س : « بمعنى »
(٤) م: « فحمل ما قالوه »
(٥) س : « أو تواقفوهم »

ويمكن أن يقال : إن التواضع وقع على أصل الباب ، وكذلك التوقيف ، ولم يقع على فنون تصرف الخطاب ، وإن الله تعالى أجْرَى على لسان بعضهم من النظم ما أجرى ، وفطنوا لحسنه فتتبعوه من بعدُ ، وبَنَوْا عليه وطلبوه ، ورتّبوا فيه المحاسن التى يقع الإطْرابُ[1] بوزنها ، وتَهَشُّ النفوس إليها ، وجَمَعَ دواعيَهم وخواطرهم على استحسان وجوهٍ من ترتيبها ، واختيارِ طرُقٍ من تنزيلها ، وعرَّفَهم محاسن الكلام ، ودلَّهم على كل طريقة عجيبة ، ثم أعلمهم عجزهم عن الإتيان [بمثل[2]] القرآن ، [وأن] القدر الذى تتناهى إليه قُدَرُهم هو مالم يخرج عن لغتهم[3] ، ولم يشذّ من جميع كلامهم ، بل قد عرض فى خطابهم ، ووجدوا أن هذا لمّا تمذر[4] عليهم مع التحدىّ والتقريع الشديد والحاجة الماسّة إليه ، مع علمهم بطريق وضع النظم والنثر ، وتكامل أحوالهم فيه — : دل على أنّه اختصّ به ليكون دلالةً على النبوّة ومعجزةً على الرسالة . ولولا ذلك لكان القوم إذا اهتدوا فى الابتداء إلى وضع هذه الوجوه التى يتصرف إليها الخطاب على براعته وحسن انتظامه ، فَلَأَنْ يقدروا بعدَ التنبيه على وجهه والتحدّى إليه : أولى أن يبادروا إليه ، لو كان لهم إليه سبيل .

---

(١) س : « الاضطراب بوزنها » !

(٢) س : « الإتيان بالقرآن »

(٣) ا ، م : « هو ما لم يفتهم »

(٤) س : « إنما تعذر »

ولو كان الأمر على ماذكره السائل : لوجب أن لايتحيّروا فى أمرم، ولا تدخل عليهم شبهة فيما نابهم[١] ، ولـكانوا يسرعون إلى الجواب ويبادرون إلى المعارضة .

ومعلوم من حالهم أن الواحد منهم يقصد إلى الأمور البعيدة عن الوهم ، والأسباب التى لا يحتاج إليها ، فيكثر فيها من شعر ورجز ؛ ونجد من يعينه على نقله عنه ، على ما قدمنا ذكره من وصف الإبل ونتاجها ؛ وكثيرٌ من أمرها لا فائدة فى الاشتغال به فى دين ولا دنيا .

ثم كانوا يتفاخرون باللَّسَنِ والذَّلاقة والفصاحة والذَّرَابَة[٢] ، ويتنافرون فيه ، وتجرى بينهم فيه الأسباب المنقولة فى الآثار ، على ما لا يخفى على أهله .

فاستدللنا بتحيّرهم فى أمر[٣] القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ، ووقوعه موقعاً يخرق العادات . وهذه سبيل المعجزات .

فبان بما قلنا أن الحروف التى وقعت فى الفواصل متناسبةً موقعَ النظائر التى تقع فى الأسجاع ، لا يخرجها عن حدّها ، ولا يدخلها فى باب السجع .

وقد بينّا أنهم يذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء ، فكان

---

(١) م : « عليهم فيه شبهة فيما يأتيهم »
(٢) س : « والدارية »
(٣) م : « فى القرآن »

بعضُ مَصَاريعه[١] كلمتين ، وبعضُها أربع[٢] كلمات ، ولا يرون فى ذلك فصاحةً ، بل يرونه عجزًا .

فلو رأوا أن ما تلى عليهم من القرآن سجعًا لقالوا : نحن نعارضه بسجع معتدل ، فنزيد فى الفصاحة على طريقة القرآن ، ونتجاوز حده فى البراعة والحسن .

ولا معنى لقول من قدّر أنه ترك السجع تارة إلى غيره ثم رجع إليه ؛ لأن ما تخلل بين الأمرين يؤذن بأن وضع الكلام غير ما قدَّروه من التسجيع[٣] ، لأنه لو كان من باب السجع لكان أرفعَ نهاياته وأبعد غاياته[٤] .

ولا بد لمن جوَّز السجع فيه وسلك ما سلكوه من أن يُسَلِّم ما ذهب إليه[٥] النَظَّام ، وعبّاد بن سليمان ، وهشام الفُوَطِىّ ، ويذهب مذهبهم ، فى أنه ليس فى نظم القرآن وتأليفه إعجاز ، وأنه يمكن معارضته ، وإنما صُرِفُوا عنه ضربًا من الصَّرْف[٦] .

---

(١) م : « مصراعيه »
(٢) س : « تبلغ كلمات »
(٣) م : « من السجع »
(٤) م : « أرفع نهاية وأبعد غاية »
(٥) م : « مذهب النظام »
(٦) قال أبو الحسن الأشعرى فى كتابه « مقالات الإسلاميين » ص ٢٢٥ : « واختلفوا فى نظم القرآن، هل هو معجز أم لا؟ على ثلاثة أقاويل : فقالت المعتزلة — إلا النظام وهشاما الفوطى وعباد بن سليمان — : تأليف القرآن ونظمه معجز ، محال وقوعه منهم كاستحالة إحياء الموتى منهم ، وأنه علم لرسول الله صلى الله عليه وسلم . .. .

ويتضمن كلامه تسليم الخبط فى طريقة النظم ، وأنه منتظم من فرق شتى ، ومن أنواع مختلفة ينقسم إليها خطابهم ولا يخرج عنها ، ويستهين ببديع نظمه وعجيب تأليفه الذى وقع التحدى إليه . وكيف يُعجزهم الخروجُ عن السجع والرجوعُ إليه ، وقد علمنا عادتَهم فى خطبهم وكلامهم أنهم كانوا لا يلزمون أبدًا طريقة السجع والوزن ، بل كانوا يتصرفون فى أنواع مختلفة ، فإذا ادَّعَوْا على القرآن مثل ذلك لم يجدوا فاصلةً بين نظمى الكلامين .

وقال النظام : الآية والأعجوبة فى القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب ، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد ، لولا أن الله منعهم بمنع وعجزٍ أحدثهما فيهم .

وقال هشام وعباد : لا نقول : إن شيئاً من الأعراض يدل على الله سبحانه، ولا نقول أيضاً : إن عرضاً يدل على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يجعل القرآن علماً للنبى صلى الله عليه وسلم . وزعما أن القرآن أعراض » .

٦ هـ

فصـــل

﴿ فى ذكر البديع من الكلام ﴾

إن سأل سائل فقال : هل يمكن أن يُعرف إعجاز القرآن من جهة ما تضمنه[1] من البديع ؟

قيل : ذكر أهلُ الصنعة ومَن صنَّف فى هذا المعنى من صفة البديع ألفاظاً نحن نذكرها ، ثم نبين ما سألوا عنه ، ليكون الكلام وارداً على أمر مبيَّن ، وباب مقرَّر مصوَّر[2] .

ذكروا : أن من البديع فى القرآن قوله عز ذكره : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ[3] ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ[4] ﴾ .

وقوله : ﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً[5] ﴾ وقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ[6] ﴾ . وقوله : ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ[7] ﴾ . وقوله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ[8] ﴾ .

---

(١) س : « ما يتضمنه »
(٢) س : « مبين مقرر وباب مصور »
(٣) سورة الإسراء ٢٤
(٤) سورة الزخرف ٤
(٥) سورة مريم ٤
(٦) سورة يس ٣٧
(٧) سورة الحج ٥٥
(٨) سورة النور ٣٥

وقد يكون البديع في الكلمات الجامعة الحكيمة ، كقوله : ﴿ ولكم في القِصاص حَياةٌ[١] ﴾ .

وفى الألفاظ الفصيحة ، كقوله : ﴿ فلما اسْتَيْأَسُوا منهُ خَلَصُوا نَجِيًّا[٢] ﴾ .

وفى الألفاظ الإلهية ، كقوله : ﴿ وله كُلُّ شيء[٣] ﴾ . وقوله : ﴿ وما بكم من نِعْمةٍ فمِنَ اللهِ[٤] ﴾ . وقوله : ﴿ لِمَنِ المُلْكُ اليومَ ؟ للهِ الواحدِ القَهَّار[٥] ﴾ .

* * *

ويذكرون من البديع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « خيرُ الناسِ رَجُلٌ مُمْسِكٌ بِعِنانِ فَرَسِهِ في سبيل الله ، كلما سَمِع هَيْعَةً طار إليها[٦] » .

وقوله : « ربَّنا تقبَّلْ تَوْبتى ، واغسلْ حَوْبَتِى[٧] » .

---

(١) سورة البقرة ١٧٩

(٢) سورة يوسف ٨٠

(٣) سورة النمل ٩١

(٤) سورة النحل ٥٣

(٥) سورة غافر ١٦

(٦) فى الفائق للزمخشرى ٣ / ٢٢٣ « الهيعة : الصيحة التى يفزع منها وأصلها من هاع يهيع إذا جبن » .

(٧) الفائق ١ / ٣٠٦ وقال الشريف الرضى فى المجازات النبوية ص ٢٠٢ : « وهذه استعارة ، والحوبة والحوب : المأثم ، والمراد احطط عنى وزرى وتغمد ذنبى وخطيئتى ، ولكن المعصية لما كانت كالدَّرن الذى يصيب الإنسان فيفحش أثره ، ويقبح منظره ؛ أقام عليه الصلاة والسلام إماطة وزرها ،

وقوله : « غَلَبَ عليكم داءُ الأمم قبلكم : الحسدُ والبغضاءُ ، وهى حالقة الدِّين ، لا حالقة الشَّعَر[(١)] » .

وقوله : « الناس كإبلٍ مائةٍ ، لا تجد فيها راحلةً[(٢)] » .

وقوله : « وهَلْ يَكُبُّ الناسَ على مَناخرهم فى نار جهنَّم إلاَّ حصائدُ ألسِنَتِهم[(٣)] » .

وقوله : « إنَّ ممَّا يُنبِتُ الرَّبيعُ ما يَقْتُل حَبَطاً أو يُلِمُّ[(٤)] » .

وكقول أبى بكر الصدِّيق رضى الله عنه ، فى كلام له قد نقلناه

وإسقاط إثمها مقام غسل الأدران وإماطة الأدناس ؛ لأن الإنسان بعدها يعود نقى الأثواب طاهراً من العاب . وهذا الدعاء من النبى على وجه التعبد والخضوع والتطامن والخشوع ، لا أن له حوبة يستحط وزرها ويستغسل درنها ، أو يكون ذلك على طريق التعليم لأمته . . . » .

(١) فى الفائق ١ / ٢٩٠ « هى قطيعة الرحم والتظالم لأنها تجتاح الناس وتهلكهم ، كما يحلق الشعر ، يقال : وقعت فيهم حالقة لا تدع شيئاً إلا أهلكته» .

(٢) البيان والتبيين ٢ / ٢٠ وفى اللسان ١٣ / ٢٩٤ ، ٢٩٥ « الراحلة كل بعير نجيب قوى على الأسفار والأحمال تام الخلق حسن المنظر . . . أراد صلى الله عليه وسلم أن الكامل فى الخير والزهد فى الدنيا مع رغبته فى الآخرة والعمل لها قليل ، كما أن الراحلة النجيبة نادرة فى الإبل الكثيرة » .

(٣) الفائق ١ / ٢٦١ والمجازات النبوية ١٢١ — ١٢٢ وفى اللسان ٤ / ١٣٠ عن الأزهرى : « أى ما قالته الألسنة وهو ما يقتطعونه من الكلام الذى لا خير فيه ، واحدتها حصيدة ، تشبيهاً بما يحصد من الزرع إذا جذّ ، وتشبيهاً للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذى يحصد به » .

(٤) فى اللسان ٩ / ١٤٠ « الحبط : أن تأكل الماشية فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها ولا يخرج عنها ما فيها » . وفيه ١٦ / ٢٣ « أو يلم ، قال أبو عبيد: معناه أو يقرب من القتل » وفيه ٩ / ١٣٩ « قال الأزهرى : فأما قوله صلى الله عليه وسلم : وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا ، فهو مثل الحريص والمفرط فى الجمع والمنع ، وذلك أن الربيع ينبت أحرار العشب التى تحلَوْليها الماشية

بعد هذا على وجهه ، وقوله لخالد بن الوليد رضى الله عنه : « احرصْ على الموت تُوهَبْ لك الحياة » . وقوله : « فِرَّ من الشَّرف يتبَعْك الشرف » .

وكقول علىّ بن أبى طالب فى كتابه إلى ابن عباس . وهو عاملُه على البصرة : « أَرْغِبْ راغِبَهم،واحلُلْ عُقْدَةَ الخوفِ عنهم » . وقوله رضى الله عنه ، حين سئل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم: [غيِّروا الشيب ولا تَشَبَّهوا باليهود — : إن النبى صلى الله عليه وسلم] إنما قال ذلك والدِّينُ فى قُلٍّ ، فأما وقد اتَّسع نِطاق الإسلام ، فكل امرئٍ ومَا اختار[١] » .

وسأل علىٌّ رضى الله عنه بعضَ كبراء فارس ، عن أحمدِ ملوكِهم عندهم ؟ فقال : لأَرْدَشِيرَ فضيلةُ السَّبْق ، غير أن أحمدَهم أَنُوشِرْوان . قال : فأىُّ أخلاقه كان أغلبَ عليه ؟ قال : الحلم والأناة ، فقال على رضى الله عنه : « هما تَوْأمان يُنْتِجُهُما علوّ الهمة[٢] » .

وقال : « قِيمةُ كل امرئٍ ما يُحْسِن » .

وقال : « العلم قُفْل ، ومِفتاحه المسئلة[٣] » .

وكتب خالد بن الوليد إلى مَرَازِبَةِ فارس : « أما بعد ، فالحمد لله

فتستكثر منها حتى تنتفخ بطونها وتهلك ، كذلك الذى يجمع الدنيا ويحرص عليها ويشحّ على ما جمع حتى يمنع ذا الحق حقه منها يهلك فى الآخرة بدخول النار واستيجاب العذاب » .

(١) البديع لابن المعتز ص٢٠

(٢) البديع ٢١

(٣) البديع ٢١ والصناعتين ٢١٣

الذى فَضَّ خَدَمتكم ، وفرّق كلمتكم » . والخَدَمة : الحَلْقَةُ المستديرة ، ولذلك قيل للخلاخيل : خِدَام»[١] .

وقال الحجاج : « دلُّونى على رجل سَمِين الأمانة[٢] » .

ولما عُقدت الرئاسة لعبد الله بن وَهْبٍ الرّاسِبِىّ[٣] على الخوارج ، أرادوه على الكلام ، فقال : « لا خيرَ فى الرأى الفَطِير[٤] » ، وقال : « دَعُوا الرأىَ يَغِبُّ[٥] » .

وقال أعرابى فى شكر نعمة[٦] : « ذاك عُنْوان نِعمة الله عز وجل » .

---

(١) نقل المؤلف هذا النص بشرحه من كتاب البديع ص ٢١ وفى اللسان ١٥ / ٥٨ « فضّ الله خدمتهم : أى فرق جماعتهم ، والخدمة بالتحريك : سير غليظ مضفور مثل الحلقة ، يشد فى رسغ البعير ، ثم يشد إليها سرائح نعله ، فإذا انفضت الخدمة انحلت السرائح وسقطت النعل ، فضرب ذلك مثلا لذهاب ما كانوا عليه وتفرّقه ، وشبه اجتماع أمر العجم واتساقه بالحلقة المستديرة ، فلهذا قال : فض الله خدمتكم : أى فرقها بعد اجتماعها . . . » .

(٢) البديع ٢٢ وفى الصناعتين ٢١٤ بعد ذلك : « أعجف الخيانة » .

(٣) خرج عبد الله بن وهب هذا على علىّ فى أربعة آلاف ، فبايعه الخوارج لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ راجع الطبرى ٦ / ٤٢

(٤) الفطير : ما أعجل عن إدراكه وإنضاجه ، وفى البديع بعد ذلك « والكلام القضيب ، فلما فرغوا من البيعة له قال : دعوا الرأى » إلخ وكذلك فى البيان والتبين ١ / ٢٠٥ والصناعتين ٢١٤

(٥) فى البيان والتبيين والصناعتين بعدذلك : « فإن غبوبه يكشف لكم عن محضه » . وفى البديع : « عن فصه » .

(٦) فى البديع ٢٣ والصناعتين ٢١٤ « وقيل لأعرابى : إنك لحسن الكدنة فقال : ذاك عنوان، إلخ . والكدنة : كثرة الشحم واللحم ، كما فى اللسان ١٧/٢٣٦

ووصف أعرابيٌّ قوماً فقال : « إذا اصْطَفُّوا سَفَرت بينهم السهام ، وإذا تصافحوا بالسيوف قعَدا لِحمام[1] » .

وسئل أعرابي عن رجل ؟ فقال : « صَفِرت عِيابُ الوُدِّ بيني وبينه بعد امتلائها ، واكفهَرَّت وجوهٌ كانت بمائها[2] » .

وقال آخر : « من ركب ظَهْرَ الباطل نَزَل دارَ النَّدامة[3] » .

وقيل لِرُؤْبَةَ[4] : كيف خلَّفْتَ ما وراءك ؟ فقال : « الترابُ يابِس ، والمالُ عابس[5] » .

* * *

ومن البديع في الشعر طرق كثيرة ، قد نقلنا منها جملةً ، لتستدل بها على ما بعدها :

فمن ذلك قول امرئ القيس :

وقد أغتدِي والطيرُ في وُكُناتها ... بمنجَرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكلِ[6]

(١) كذا في سائر الأصول ، والصواب : « وإذا تصافحوا بالسيوف فغر فمه الحمام » . كما في زهر الآداب ٢ / ١١٩ وفي البديع « فغر الحمام » . وفي أمالي القالي ١ / ١٣٩ والصناعتين ٢١٦ « كانوا والله إذا اصطفوا تحت القتام ، خطرت بينهم السهام بوفود الحمام ؛ وإذا تصافحوا فغرت المنايا أفواهها . . . » . وكذلك العقد الفريد ٣ / ٤٤٦ ومعنى فغرت : فتحت .

(٢) البديع ٢٤ وزهر الآداب ٢ / ١٢٠ ، وصفرت : خلت ، والعياب : جمع عيبة وهي ما تحفظ فيه الثياب ، والمراد بها هنا الصدور .

(٣) البديع ٢٤

(٤) القائل هو عتبة بن هارون كما في البيان والتبيين ٢ / ٩٧

(٥) الصناعتين ٢١٤ والبديع ٢٤ وفي البيان « والمرعى عابس »

(٦) ديوانه ص ١٠١ الوكنات : الأوكار ، المنجرد الفرس القصير الشعر . والأوابد : جمع آبدة ، وهي التي قد توحشت ونفرت من الإنس . والهيكل : العظيم الخلق .

قوله : « قيد الأوابد » عندهم من البديع ومن الاستعارة، ويرونه من الألفاظ الشريفة[1] ، وعَنَى بذلك أنه إذا أرسل هذا الفرسَ على الصيْد صار قيدًا لها ، وكانت بحالة المقيَّد من جهة سرعة إحْضَارِه .

واقتدى به الناس، واتبعه الشعراء ، فقيل : « قيدُ النواظر » و« قيد الألحاظ » و « قيد الكلام » و « قيد الحديث » و « قيد الرهان » .

وقال الأسود بن يَعْفُر :

بمُقلّصٍ عَتَدٍ جَهيزٍ شَدُّهُ ... قَيْدِ الأوابِدِ والرِّهَانِ جَوَادِ[2]

وقال أبو تمام :

لها مَنْظرٌ قَيْدُ الأوابدِ لم يَزَل ... يَرُوحُ ويَغْدُو فى خَفَارَتِه الحُبُّ[3]

---

(١) فى الصناعتين ٢٠٧ : « والحقيقة : مانع الأوابد من الذهاب والإفلات . والاستعارة أبلغ ؛ لأن القيد من أعلا مراتب المنع عن التصرف ، لأنك تشاهد ما فى القيد من المنع فلست تشك فيه » .

وقال قدامة فى نقد الشعر ص ٥٨ : « فإنما أراد أن يصف هذا الفرس بالسرعة وأنه جواد ، فلم يتكلم باللفظ بعينه ، ولكن بأردافه ولواحقه التابعة له ، وذلك أن سرعة إحضار الفرس يتبعها أن تكون الأوابد — وهى الوحش — كالمقيدة له إذا نجا فى طلبها . والناس يستجيدون لامرئ القيس هذه اللفظة فيقولون : هو أول من قيد الأوابد ، وإنما عنى بها الدلالة على جودة الفرس وسرعة إحضاره ، فلو قال ذلك بلفظه لم يكن عند الناس من الاستجادة ما جاء من إتيانه بالردف له . وفى هذا برهان على أن وضعنا الإرداف من أوصاف الشعر ونعوته واقع بالصواب » .

(٢) فرس مقلص : طويل القوائم ، وفى المفضليات ٢ / ١٩ « بمشمر » وهى بمعناها . وعتد : قوى سريع الوثبة معد للجرى . جهيز شده : سريع عدوه . الرهان : المراهنة ، يعنى أنه إذا دخل السباق حبس الرهن فلا يناله غيره . الجواد : القوى السابق البعيد الجرى .

(٣) ديوانه ١ / ١٧ « قيد النواظر » .

وقال آخر :

أَلحاظه قيدُ عيونِ الوَرَى   فليس طَرْفٌ يَتَعَــدّاه

وقال آخر :

* قَيَّدَ الحُسْنُ عليه الحَدَقَا *

وذكر الأصمعي وأبو عُبيدة وحمّاد ، وقبلهم أبو عمرو . أنه أحسن في هذه اللفظة ، وأنه اتُّبع فلم يُلحق، وذكروه في باب الاستعارة البليغة .

وسماها بعضُ أهل الصنعة[1] باسم آخر ، وجعلوها من باب الإرداف ، وهو : أن يريد الشاعر دلالةً على معنى فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى ، بل بلفظ هو تابع له وردْف[2] .

قالوا : ومثله قوله[3] :

* نَؤُوم الضُّحى لم تنتَطِقْ عن تَفَضُّلِ *

وإنما أراد ترفُّهها بقوله : « نؤُوم الضحى[4] » .

---

(١) يقصد المؤلف قدامة بن جعفر ، فإنه هو الذى وضع الإرداف من أوصاف الشعر ونعوته ، راجع نقد الشعر ٥٧ — ٥٨

(٢) فى نقد الشعر ٥٧ بعد ذلك : « فإذا دل على التابع أبان عن المتبوع ».

(٣) يريد امرأ القيس ، وصدر البيت :

* ويضحى فتيت المسك فوق فراشها *

(٤) قال قدامة فى نقد الشعر ص ٥٧ : « وإنما أراد امرؤ القيس أن يذكر ترفه هذه المرأة وأن لها من يكفيها فقال : نؤوم الضحى ، وإن فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها ، وكذلك سائر البيت ، أى هى لا تنتطق لتخدم، ولكنها فى بيتها متفضلة . ومعنى عن فى هذا البيت معنى بعد » . راجع الصناعتين ٢٧٦ والعمدة ٢ / ٢٨٢

ومن هذا الباب قول الشاعر (١) :

بعيدةُ مَهْوَى القُرْطِ إمّا لِنَوْفَلٍ ... أبوها، وإمّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ

وإنما أراد أن يصف طول جيدها ، فأتى بردفه (٢) .

ومن ذلك قول امرئ القيس :

* وليلٍ كموج البحر أُرخىٰ سُدُولَهُ (٣) *

وذلك من الاستعارة المليحة .

ويجعلون من هذا القبيل ما قدمنا ذكره (٤) من القرآن : ﴿واشتعل الرأسُ شيباً﴾ ، ﴿واخْفِضْ لهما جناحَ الذلّ من الرحمة﴾ .

* * *

ومما يَعُدّونه من البديع التشبيهُ الحسن ، كقول امرئ القيس :

كأنّ عيونَ الوحشِ حولَ خِبائنا ... وأرحُلِنا الجزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ (٥)

(١) هو عمر بن أبي ربيعة كما في ديوانه ص ٢٠٠

(٢) قال قدامة : « وإنما أراد الشاعر أن يصف طول الجيد، فلم يذكره بلفظه الخاص به ، بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد ، وهو بعد مهوى القرط » . راجع العمدة ٢/٢٨٢ ، والصناعتين ٦ ٢ .

(٣) وعجزه كما في ديوانه ص ١٠٠ :

* عليّ بأنواع الهموم ليبتلى *

راجع البديع ص ٢٤

(٤) راجع ص ١٠١

(٥) الصناعتين ص١٨٥ والكامل٧٤١ وفى اللسان ٩ / ٣٩٨ : « والجزع الخرز اليمانى ، وهو الذى فيه بياض وسواد ، واحدته جزْعة ، قال ابن برى : سمى جزْعاً لأنه مجزع ، أى مقطع بألوان مختلفة ، أى قطع سواده بياضه » .

وقوله :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْباً ويابساً
لدى وَكْرِ ها العُنَّابُ والحَشَفُ البالِى[١]

واستبدعوا تشبيه شيئين بشيئين على حسن تقسيم ، ويزعمون أن أحسن ما وُجد فى هذا للمُحْدَثين[٢] قولُ بَشّار :

كأنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوقَ رؤُوسِهم وأسْيافَنا ليلٌ تَهاوَى كواكبُهْ[٣]

وقد سبق امرؤ القيس إلى صحة التقسيم فى التشبيه ، ولم يتمكن بشّار إلّا من تشبيه إحدى الجملتين بالأخرى ، دون صحة التقسيم والتفصيل .

وكَذلك عَدُّوا[٤] من البديع قولَ امرئ القيس فى أُذُنَىِ الفرس :

---

(١) البديع ص ١٢٢ وسر الفصاحة ٢٣٧ وأخبار أبى تمام ١٧ والصناعتين ص ١٨٥ ، ١٨٩ وأسرار البلاغة ص ١٦٨ والعمدة ١ / ٢٦٠ وقال المبرد فى الكامل ص ٧٤٠ : « فإن اعترض معترض فقال : فهلا فصل فقال : كأنه رطبا العناب ، وكأنه يابسا الحشف ؟ قيل له : العربى الفصيح الفطن اللقن يرمى بالقول مفهوماً ، ويرى ما بعد ذلك من التكرير عيًّا » .

(٢) م : « ما وجد للمحدثين فى نحو هذا » .

(٣) س : « رؤوسنا » م : « ليل تهاوت » والبيت فى ديوانه ١ / ٣١٨ والصناعتين ص١٨٩ والعمدة ١ / ٢٦٠ وأسرار البلاغة ص ١٥١ .

(٤) م : « وكذلك عدوا من البديع قول طرفة بن العبد فى أذنى ناقته :

مؤللتان يعرف العتق فيهما كسامعتى شاة بحومل مفرد

مذعورة أم فرقد ، ومثله قول امرئ القيس فى وصف الفرس :

وعينـــان كالمـــاويتين ومحجر إلى سنبك مثل الصفيح المنصّب

وسَامِعَتَان يُعْرَف العِتْقُ فيهما

كَسَامِعَتَىْ مَذْعُورةٍ وسطَ رَبْرَبِ[1]

واتّبعه طَرَفَةُ ، فقال فيه :

وسامِعَتَان يُعرَف العِتْقُ فيهما

كسامِعَتَىْ شاةٍ بحوملَ مُفْرَدِ[2]

ومثله قول امرئ القيس في وصف الفرس :

وَعيْنان كالمَاوِيَّتَيْنِ ومَحْجِر إلى سَنَدٍ مثلِ الصَّفِيحِ المُنَصَّبِ[3]

وقال طَرَفة في وصف عيني ناقته :

وعينان كالماوِيَّتيْن استَكَنَّتَا

بِكَهْفَىْ حِجَاجَىْ صخرةٍ قَلْتِ مَوْرِدِ[4]

---

(١) لم يرد هذا البيت في ديوان امرئ القيس ، وورد في ديوان علقمة ص ٢٤ . والسامعتان : الأذنان . المذعورة : المفزعة ، يعني بقرة الوحش ذعرت فنصبت أذنيها وحددتهما ، الربرب : جماعة بقر الوحش .

(٢) البيت في اللسان ١٠ / ٢٦ وروايته الأولى : « ومؤللتان » وفي ١٣ / ٢٤ : « وألّلت الشيء تأليلاً : أي حددت طرفه ، ومنه قول طرفة بن العبد يصف أذن ناقته بالحدة والانتصاب : مؤللتان ... إلخ

(٣) م : « إلى سنبك » والسند : الخد . وفي اللسان ٢٠ / ١٦٨ : « الماوية : المرآة كأنها نسبت إلى الماء لصفائها وأن الصورة ترى فيها كما ترى في الماء الصافي ، والميم أصلية فيها ، وقيل : الماوية : حجر البلّور » ومحجرُ العين : ما دار بها من العظم الذي في أسفل الجفن .

(٤) في اللسان ٣ / ٥٢ : « الحجاج : العظم النابت عليه الحاجب » والقلت : النقرة في الجبل تمسك الماء . وقلت العين : نقرتها .

ومن البديع فى التشبيه قول امرئ القيس :

له أَيْطَلَا ظَبْيٍ وساقَا نَعامةٍ
وإرْخَاء سِرْحانٍ وتقرِيبُ تَتْفُلِ[١]

وذلك فى تشبيه أربعة أشياء بأربعة أشياء ، أحسن فيها .

* * *

ومن التشبيه الحسن فى القرآن قوله تعالى : ﴿ولهُ الجَوارِ المنشآتُ فى البحر كالأعلام[٢]﴾ . وقوله تعالى : ﴿كأنّهنّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ[٣]﴾ .

ومواضع نذكرها بعد هذا .

ومن البديع فى الاستعارة قول امرئ القيس :

وَليلٍ كموج البحرِ أرخَى سُدُولَه
عليَّ بأنواعِ الهُمُوم ليبتلى[٤]

فقلت له لما تَمَطَّى بصُلبِه
وأردف أعجازًا وناء بكلْكلِ

---

(١) ديوانه ص ١٠٢ ونقد الشعر ص ٣٨ والصناعتين ص ١٨٩ والعمدة ١ / ٢٥٩ والأمالى ٢ / ٢٥٠ . والأيطل : الخاصرة . والإرخاء : شدة العدو . شبه خاصرتيه بخاصرتى الظبي فى دقتهما ، وشبه ساقيه بساقى النعامة فى قصرهما . ويستحب ذلك مع طول الوظيف ، وفى شدتهما ، لأن ساق النعامة ظمياء ليست برهلة ، كما قال البكرى فى شرح الأمالى ٢/٨٧٨ . والسرحان الذئب . والتقريب : رفع اليدين معاً و وضعهما معاً فى العدو ، ويقال : إن الذئب أحسن الدّواب تقريباً . والتتفل : ولد الثعلب .

(٢) سورة الرحمن ٢٤

(٣) سورة الصافات ٤٩

(٤) ديوانه ص ١٠٠ والبديع ص ٢٤ ، ٢٥ والصناعتين ص ٢١٧ والموازنة ص ١١ والموشح ص ٣١ ودلائل الإعجاز ٦٢ وطبقات الشعراء ٧١ السدول : الستور . يبتلى : ينظر ما عندى من صبر أو جزع . تمطى : امتد . صلبه : وسطه . أردف : أتبع . أعجازه : مآخيره . ناء : نهض . الكلكل : الصدر .

وهذه كلها استعارات أتى بها فى ذكر طول الليل .

ومن ذلك قول النابغة :

وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ هَمِّه تضاعَفَ فيه الحزنُ من كل جانبِ[1]

فاستعاره من إراحة الراعى إبله إلى مواضعها التى تأوى إليها بالليل .

وأخذ منه ابنُ الدُّمَيْنة فقال :

أُقضِّى نَهارى بالحديث وبالمُنَى ويجمعنى والهمَّ بالليـــلِ جامعُ[2]

ومن ذلك قول زُهير :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطلُهْ وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبا ورَواحِلُه[3]

ومن ذلك قول امرئ القيس :

سَمَوْتُ إليها بعدَ ما نام أهلها سُمُوَّ حَبَاب الماء حالًا على حالِ[4]

---

(١) ديوانه ص ٩ والبديع ص ٢٦ : والصناعتين ص ٢١٧ وفى الموشح ص ٣١ « قال الصولى . . . جعل صدره مألفاً للهموم ، وجعلها كالنعم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه ، كما تريح الرعاة السائمة بالليل إلى أماكنها . وهو أول من وصف أن الهموم متزايدة بالليل . . . »

(٢) البيت لابن الدمينة فى ديوانه ص ١٧ والأغانى ١٥ / ١٥٤ والموشح ص ٣٢ وصدره هناك :

* أظل نهارى فيكم متعللا *

وقد ورد منسوباً لقيس ابن ذريح فى الأمالى ٢ / ٣١٦ والأغانى ٩ / ٢١٨ وإلى مجنون ليلى فى مصارع العشاق ص٢٤٨ والأغانى ٢ / ٤٥ وقد صحح أبو الفرج نسبته إلى ابن الدمينة راجع الأغانى ٩ / ٢١٨ .

(٣) البديع ص ٢٦ والموازنة ص ١١ والصناعتين ٢١٧ ومعاهد التنصيص ٢٦٠ وديوانه ص ٤٢ وفى س : « عن ليلى » .

(٤) ديوانه ص ١٠٨

وأخذه أبو تمام فقال :

* سُمُوَّ عُبابِ الماءِ جاشتْ غوارِبُهْ[١] *

وإنما أراد امرؤ القيس إخفاء شخصه .

ومن ذلك قوله :

* كأنى وأصحابى على قَرْنِ أعْفَرا[٢] *

يريد أنهم غير مطمئنين .

ومن ذلك ما كَتَبَ إلىّ الحسنُ بن عبد الله بن سعيد ، قال : أخبرنى أبى ، قال : أخبرنا عَسَلُ بن ذَكْوان ، أخبرنا[٣] أبو عثمان المازنى ، قال : سمعت الأصمعىَّ يقول : أجمع أصحابُنا أنه لم يُقَل أحسنُ ولا أجمعُ من قول النابغة :

فإنك كالليلِ الذى هو مُدْرِكِى ... وإن خِلْتُ أنّ المُنْتَأَى عنكَ واسعُ[٤]

قال الحسن بن عبد الله : وأخبرنا محمد بن يحيى ، أخبرنا عَوْن بن

---

(١) وصدره كما فى ديوانه ص ٤٥ :

* سما للعلى من جانبيها كليهما *

وهو فى مدح أبى دلف العجلى

(٢) وصدره كما فى ديوان امرئ القيس ص ٥١

* ولا مثل يوم فى قذاران ظلتُه *

وقذاران : اسم موضع . والأعفر . الظبى الذى تعلو بياضه حمرة . جاء فى اللسان ٦ / ٢٦١ : « ويقال : رمانى عن قرن أعفر ، أى رمانى بداهية . . . وذلك أنهم كانوا يتخذون القرون مكان الأسنة ، فصار مثلا عندهم فى الشدة تنزل بهم . ويقال للرجل إذا بات ليلته فى شدة تقلقه : كنتَ على قرن أعفر ، ومنه قول امرئ القيس . . . »

(٣) م : « قال لنا »

(٤) ديوانه ص ٤١

محمد الكِنْدى ، أخبرنا قَعْنَبُ بن مُحْرِز، قال[١] : سمعت الأصمعى يقول : سمعت أبا عمرو يقول : كان زهير يمدح السُّوقَ ، ولو ضرب على أسفل قدميه مِئتا دَقَل صينىّ[٢] على أن يقول كقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مُدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

— : لما قال ؛ يريد أن سلطانه كالليل يصل إلى كل مكان .

واتَّبعه الفرزدق فقال :

ولو حَملتنى الريح ثم طلبتَنى لكنتُ كشىءٍ أدْركتْنى مَقادِرُهْ[٣]

فلم يأت بالمعنى ولا اللفظ على ما سبق إليه النابغة .

ثم أخذه الأخطل فقال :

وإن أميرَ المؤمنين وفعلَه لكالدهر لا عارٌ بما فعل الدهر[٤]

وقد روى نحو هذا عن النبى صلى الله عليه وسلم : « نصرتُ بالرُّعب ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وليدخلن هذا الدينُ على ما دخل عليه الليل » .

---

(١) سقط هذا الخبر من م

(٢) فى اللسان ١٣ / ٢٦٢ : « الدقل : ضرب من النخل، وخشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع ، وتسميه البحرية الصارى »

(٣) م : « كسيل » والبيت فى ديوان الفرزدق ص ٣١٣ وروايته : « وأن لو ركبت الريح . . . كشىء أدركته » وقبله :

فأيقنت أنى إن نأيتك لم يرد بى النأى إلا كل شىء أحاذره

وفى زهر الآداب ٤ / ١٧٩ « لكنت كمود »

(٤) لا يوجد فى ديوانه .

وأخذه عليّ بن جبَلة[1] فقال :

وما لامرئ حاولتَه منك مهرَبٌ ولو رفعتْه في السماء المطالعُ[2]

بلَى ، هاربٌ لا يهتَدِي لمكانه ظلامٌ ولاضوءٌ من الصبح ساطعُ[3]

ومثله قول سَلْم الخاسر :

فأنت كالدهر مبثوثاً حبائلُه والدهر لا ملجأٌ منه ولا هربُ[4]

ولو ملكتُ عِنَانَ الريح أَصرفه في كل ناحية ما فاتك الطلبُ

فأخذه البحترى فقال :

ولوأنهم ركبوا الكواكب لم يكن ينجيهم عن خوف بأسك مهرب[5]

ومن بديع الاستعارة قول زهير :

فلما وَرَدْنَ الماء زُرْقاً جِمامُه وَضَعْن عِصِيَّ الحاضر المُتَخَيِّمِ[6]

وقول الأعشى :

وإن عِتاقَ العِيس سوف يَزُورُكم ثناءٌ على أعجازهن مُعَلَّقُ[7]

---

(١) ك : «على بن أبي طالب» !

(٢) معاهد التنصيص ١٤٩ وزهر الآداب ٤ / ١٨٠ وفى س ، ك :
«عنــك مهرب ولو كان فى جوف السماء»

(٣) س ، ك : «طالع»

(٤) معاهد التنصيص ص ١٤٩

(٥) ديوانه ٢ / ١٨٩ وزهر الآداب ٤ / ١٨٠

(٦) ديوانه ص ١٣

(٧) ديوانه ص ١٤٩

ومنه أخذ نُصَيْب فقال :

فماجُوا فأثنَوْا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ(١)

ومن ذلك قول تأبَّطَ شَرًّا :

تخالَط سهلَ الأرض لم يَكْدَحِ الصفا به كَدْحةً والموت خزيانُ ينظر (٢)

ومن الاستعارة فى القرآن كثير ، كقوله : ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لكَ وَلِقَوْمِكَ(٣) ﴾ يريد ما يكون الذِّكر عنه شرفاً .

وقوله : ﴿ صِبغَةَ الله ومَنْ أحسنُ من الله صبغة(٤) ﴾ . قيل : دينَ الله أراد .

وقوله : ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى ، فما رَبِحَتْ تجارَتُهُم(٥) ﴾ .

* * *

ومن البديع عندهم [الغُلُوُّ والإفراط فى الصفة] ، كقول النمر بن تَوْلب :

---

(١) نقد الشعر ٢٧ والشعر والشعراء ١ / ٣٧٢ والأغانى ١ / ٣٣٧

(٢) الأغانى ١٨ / ٢١٥ وشرح الحماسة للتبريزى ١ / ٨٠ وقال المرزوقى فى شرحه ١ / ٨٢ : « ويقول : أسهلت ولم يؤثر الصّفا فى صدرى أثراً ، لا خدشاً ولا خمشاً ، والموت كان طمع فىَّ ، فلما رآنى وقد تخلصت بقى مستحيياً ينظر ويتحير . والواو من قوله : « والموت » واو الحال . وهذا من فصيح الكلام ، ومن الاستعارات المليحة »

(٣) سورة الزخرف ٤٤

(٤) سورة البقرة ١٣٨

(٥) سورة البقرة ١٦

أبقى الحوادثُ والأيّامُ من نَمِرٍ   أَسْبادَ سيف قديم أثْرُه بادى(١)

تظل تحفِرُ عنه إن ضربت به   بَعْدَ الذِّراعين والقيدين والهادِى(٢)

وكقول النابغة :

تقدُّ السَّلُوقىَّ المُضَاعفَ نَسْجُه   ويوقِدْنَ بالصُّفّاح نارَ الحُباحِبِ(٣)

وكقول عنترة :

فازْوَرَّ مِنْ وقْع القَنَا بِلَبَانهِ   وشكا إلىّ بعــــبرة وتَحَمْحُمِ(٤)

وكقول أبى تمام :

لو يعلم الركنُ من قد جاء يلثَمه   لخرّ يلثَم منه موطئَ القدم(٥)

وكقول البحترى :

ولو أن مشتاقاً تكلّف فوق ما   فى وسعه ، لمشى إليك المنبر(٦)

ومن هذا الجنس فى القرآن : ﴿يوم تقولُ لجهنم هل امتلأْتِ وتقولُ هَلْ مِنْ مَزِيد(٧)﴾ .

---

(١) نقد الشعر ١٧ والموشح ٧٨ والعمدة ٢ / ٥٨ والوساطة ٤٣٥ والصناعتين ٢٨٣ والأغانى ١٩ / ١٦٢ والشعر والشعراء ١ / ٢٧٠

(٢) يريد بعد قطع الهادى والذراعين والساقين

(٣) ديوانه ص ٤٤ وفيه : « وتوقد » والعمدة ٢ / ٥٩ ، ٢٨٥ وتأويل مشكل القرآن ١٣١

(٤) شرح القصائد العشر ص ٢٠٤

(٥) غير موجود فى ديوانه

(٦) ديوانه ١/١٨ والصناعتين ٢٨٦ والموازنة ١ / ٢٩٦

(٧) سورة ق ٣٠

وقوله : ﴿ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا[١] ﴾ .
وقوله : ﴿ تكاد تميز من الغيظ[٢] ﴾ .

* * *

٤ ومما يعدّونه من البديع المماثلة ، وهو ضرب من الاستعارة ، [سمّاه قُدامةُ التمثيلَ ، وهو على العكس من الإرداف ؛ لأن الإرداف مبنيّ على الإسهاب والبسط ، وهو مبنى على الإيجاز والجمع[٣]] .

وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنًى ، فيضع ألفاظاً تدل عليه ؛ وذلك المعنى بألفاظه مثال للمعنى الذى قصد الإشارة إليه .

نظيره من المنثور : أنَّ يزيد بن الوليد بلغه أن مروان بن محمد يتلكأُ عن بيعته ، فكتب إليه : « أما بعد ، فإنى أراك تقدم رجلًا وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيتهما شئتَ[٤] » .

وكنحو ما كتب به الحجاج إلى المهلَّب[٥] : « فإنْ أنت فعلتَ ذاك ؛ وإلا أَشْرَعْتُ إليك الرمح » . فأجابه المهلب : « فإن أشرع الأمير الرمحَ ، قلبتُ إليه ظَهْرَ المِجَنّ » .

---

(١) سورة الفرقان ١٢
(٢) سورة الملك ٨
(٣) الزيادة من م
(٤) سر الفصاحة ص ٢٢٢
(٥) فى سر الفصاحة بعد ذلك : « حين حضه على قتال الأزارقة وتوعده له . . . »

وكقول زهير :

ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاج فإنه ... يُطيعُ العَوالِيَ رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ (١)

وكقول امرئ القيس :

وما ذَرَفت عيناكِ إلا لتضربى ... بسهميكِ فى أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ (٢)

وكقول عمرو بن مَعْدِى كَرِب :

فلو أنَّ قومى أنطقتْنى رماحُهم ... نطقْتُ ولكنَّ الرماح أَجَرَّتِ (٣)

---

(١) ديوانه ص ٣١ الزِّجاج : جمع زج وهو الحديدة التى تركب فى أسفل الرمح ، والسنان يركب عاليته ، والزج تركز به الرمح فى الأرض ، والسنان يطعن به . قال أبو عبيدة : هذا مثل ، يقول : إن الزج ليس يطعن به ، إنما الطعن بالسنان ، فمن أبى الصلح وهو الزج الذى لا طعن به أعطى العوالى وهى التى بها الطعن . راجع اللسان ٣/١١٠ والصناعتين ص٢٧٩ وسر الفصاحة ص ٢٢١

(٢) ديوانه ص ٩٧ والصناعتين ص ٢٧٩ والعمدة ١ / ٢٤٧ والميسر والقداح ص ١٢٢ وفى اللسان ٦/٢٤٩ : « أراد بقوله : بسهميك ههنا : سهمى قداح الميسر ، وهما المعلى والرّقيب ، فللمعلى سبعة أنصباء ، وللرقيب ثلاثة ، فإذا فاز الرجل بهما غلب على جزور الميسر كلها ، ولم يطمع غيره فى شىء منها ، وهى تقسم على عشرة أجزاء . فالمعنى : أنها ضربت بسهامها على قلبه فخرج لها السهمان ، فغلبته على قلبه كله وفتنته فملكته . . . وهذا التفسير فى هذا البيت هو الصحيح . ومقتل : مذلل » .

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ١ / ١٦٠ والبيان والتبيين ١ / ٢١٤ واللسان ٥ / ١٩٦ وقال المرزوقى فى شرح الحماسة ١ / ١٦٢ : « يقول لو أن قومى أبلوا فى الحرب واجتهدوا لافتخرت بهم وذكرت بلاءهم ، ولكن رماحهم أجرّت لسانى ، كما يجر لسان الفصيل . وجعل الفعلين للرماح لأن المراد مفهوم فى أنّ التقصير كان منهم لا منها . والإجرار : أن يشق لسانُ الفصيل للرماح فيجعل فيه عويدٌ لئلا يرضع أمه » .

وكقول القائل[١] :

بنى عمنا لا تذكروا الشعرَ بعدما ... دفنتمْ بصحراء الغُمَيْرِ القوافيا[٢]

وكقول الآخر[٣] :

أقول وقد شدوا لسانى بِنِسْعَةٍ ... أمعشرَ تَيْمٍ أَطْلِقوا عن لسانيا

ومن هذا الباب[٤] فى القرآن قوله : ﴿ فما أَصْبَرَهُم على النار[٥] ﴾ .

وكقوله : ﴿ وثِيابَكَ فَطَهِّرْ[٦] ﴾ . قال الأصمعى : أراد البدن ، قال :

---

(١) هو الشميذر الحارثى ، أو سويد بن صُمَيع المرْثَدِىّ ، وكان قُتل أخوه غيلة ، فقتل قاتل أخيه نهاراً فى بعض الأسواق من الحضر. كما فى شرح الحماسة للمرزوقى ١ / ١٢٤ والتبريزى ١ / ١١٩ .

(٢) قال المرزوقى : « يقول : دعوا التفاخر فى الشعر وبالشعر ، فإنكم قصرتم بصحراء الغُمير ولم تبلوا فيها ، فتنطلق ألسنتكم لدى المساجلة ، وتستجيب قوافى الشعر لكم ، إذا أردتم نظمها وإنشادها عند المنافرة والمحاكمة ، لأنكم أمتم قوافى الشعر ودفنتموها ، فكما أن الميت لا يجيب إذا دُعى ، كذلك لا يجيبكم الشعر إذا أردتموه ، مع سوء بلائكم وقبح آثاركم » .

(٣) هو عبد يغوث بن وقاص الحارثى ، كما فى المفضليات ١ / ١٥٥ وشرح الحماسة للمرزوقى ١/١٦٣ وذيل الأمالى ١٣٢ والأغانى ١٥ / ٧٣ ، ٧٦ والبيان والتبيين ٢ / ٢٦٨ وفى ذيل الأمالى : « قوله : وقد شدوا لسانى بنسعة : هذا مثل ، لأن اللسان لا يشد بنسعة . وإنما أراد : افعلوا بى خيراً ينطلق لسانى بشكركم ، فإن لم تفعلوا فلسانى مشدود لا يقدر على مدحكم ويروى : معاشرتيم أطلقوا لى لسانيا » .

(٤) م : « هذا المعنى »

(٥) سورة البقرة ١٧٥

(٦) سورة المدثر ٤

وتقول العرب : « فِدًى لك ثوبایَ » . يريد[1] نفسه . وأنشد :

أَلَا أَبلغْ أَبا حفصٍ رسولًا   فِدًى لك من أخی ثقةٍ إزاری[2]

ويرون من البديع أيضاً ما يسمونه « المطابقة » ، وأكثرهم على أن معناها أن يذكر الشیء وضدّه ، كالليل والنهار ، والسواد والبياض . وإليه ذهب الخليل بن أحمد والأصمعی ، ومن المتأخرين عبد الله ابن المعتزّ .

وذكر ابن المعتزّ من نظائره من المنثور ما قاله بعضهم[3] : « أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع ، فأدخلتنا فی ضيق الضمان » .

ونظيره من القرآن : ﴿ ولكم فی القِصَاص حياة[4] ﴾ .

وقوله : ﴿ يُخرج الحَیَّ من الميت ويُخْرِجُ المَيّتَ مِنَ الحَیّ[5] ﴾ .

وقوله : ﴿ يُولِجُ الليلَ فی النهار ويُولِجُ النهارَ فی الليل[6] ﴾ . ومثله كثير جدًّا .

---

(١) م « يريدون » .

(٢) البيت من قصيدة كتب بها إلى عمر بن الخطاب ، أبو المنهال بُقَيْلَةُ الأكبر الأشجعی ، فی شأن واليهم الغزل جعدة بن عبد الله السلمی ، الذی كان يخرج الجواری إلى سلع عند خروج أزواجهن إلى الغزو فيعقلهن ويقول : لا يمشی فی العقال إلا الحصان . فربما وقعت فتكشفت . . . راجع اللسان ٥ / ٧٥ والمؤتلف والمختلف للآمدی ص ٦٣ وتأويل مشكل القرآن ص ٢٠٥ .

(٣) كتاب البديع ص ٧٤

(٤) سورة البقرة ١٧٩

(٥) سورة الروم ١٩

(٦) سورة الحج ٦١

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : « إنكم تكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع[1] » .

وقال آخرون : بل المطابقة أن يشترك معنيان بلفظة واحدة وإليه ذهب قدامة بن جعفر الكاتب[2] .

فمن ذلك قول الأفوه الأودى :

وأقطعُ الهَوْجلَ مُسْتَأْنساً ... بِهَوْجَلٍ مُسْتأنسٍ عَنْتَرِيس[3]

عَنَى بالهوجل الأول : الأرض ، وبالثانى : الناقة[4] .

ومثله قول زيادٍ الأَعْجَم :

ونُبِّئْتُهم يَسْتَنْصِرُونَ بكاهل ... ولِلُّؤْم فيهم كاهلٌ وسَنامُ[5]

---

(١) البديع ص ٧٤

(٢) راجع نقد الشعر ص ٦٠

(٣) ديوانه ص١٦ « بهوجل عيرانة » وسر الفصاحة ص ١٨٥ ونقد الشعر ٦٠ والعمدة ١ / ٢٩٠. والعيرانة كما فى اللسان ٦ / ٣٠١ « الناقة الصلبة ، تشبيهاً بعير الوحش ، والألف والنون زائدتان » . والعنتريس كما فى اللسان ٨ / ٤ « الناقة الصّلبة الوثيقة الشديدة الكثيرة اللحم الجواد الجريئة » .

(٤) فى اللسان ٢١٤/١٤ « الهوجل : المفازة البعيدة التى ليست بها أعلام ، والأرض التى لا معالم بها . والهوجل : الناقة السريعة الذاهبة فى سيرها ، وقيل : هى الناقة التى كأن بها هوجاً من سرعتها » .

(٥) البديع ص ٥٨ ونقد الشعر ٦٠ وسر الفصاحة ص ١٨٤ وفى م و ك : « يستنظرون » وفى الأغانى ١١ / ١٧١ « أتت بنو يشكر سويد بن أبى كاهل ليهجو زياداً الأعجم فأبى عليهم ، فقال : زياد :

« وأنبئتهم يستصرخون ابن كاهل » »

ومثله قول أبى دُوَاد :

عهدتُ لها منزلًا داثراً وآلًا على الماء يَحْمِلْنَ آلَا[1]

فالآل الأول : أعمدة الخيام تُنصب على البئر للسقى ، والآل الثانى : السراب[2] .

وليس عنده قول من قال : المطابقة إنما تكون باجتماع الشيء وضده — : بشيء .

ومن المعنى الأوّل قول الشاعر :

أهين لهم نفسى لأ كرِمَها بهم ولن تُكرم النَّفْسُ التى لا تُهينها[3]

ومثله قول امرئ القيس :

وتَرْدِى على صُمٍّ صِلابٍ مَلاطِسٍ شديداتِ عَقْدٍ لَيِّناتٍ مِتانِ[4]

---

(١) نقد الشعر ص ٦٠ واللسان ١٣ / ٣٩

(٢) فى العمدة ١ / ٢٨٨ « . . . هكذا فسروه منهم قدامة ، والذى قال الحذاق : يعنى أعمدة تحمل أعمدة مثلها ذكره أبو حنيفة . وقوله على الماء : يعنى الماء العد الذى هو المحضر يرجعون إليه بعد تبديهم وانقطاع ماء السماء . وقد أخبرك الشاعر على القول الأول أنهم يحملون أعمدة الأخبية والبيوت » .

(٣) البيت لأعرابى حجب عن باب السلطان ، كما فى البيان والتبيين ٢ / ١٨٩ وأمالى المرتضى ١ / ٢٠٥ والصناعتين ص ٢٤٠

(٤) ديوانه ص ١٤٥ وفى اللسان ١٩ / ٣٣ : « ردَت الخيلُ ردْياً ورديانا : رجمت الأرض بحوافرها فى سيرها وعدوها » .

والملاطس : جمع ملطس ، وهو المعول الذى يكسر به الصخر .

وفى م : « مثانى » .

وكقول النابغة :

ولا يحسبون الخيرَ لا شرَّ بعده ... ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازبِ[١]

وكقول زهير ، وقد جمع فيه طِبَاقَيْن :

بِعَزمة مأمور مُطيعٍ وآمرٍ ... مطاعٍ ، فلا يُلفَى لحزمهمُ مِثْلُ[٢]

وكقول الفرزدق :

والشيبُ يَنْهَضُ فى الشباب كأنه ... ليلٌ يصيح بجانبيه نهـــار[٣]

ومما قيل فيه ثلاث تطبيقات قولُ جرير :

وباسط خيرٍ فيكمُ بيمينه ... وقابض شرٍ عنكمُ بشماليا[٤]

وكقول رجل من بَلْعَنْبَر[٥] :

يَجْزُون مِن ظُلمِ أهلِ الظلم مغفرةً ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا[٦]

---

(١) ديوانه ص ٤٥ والصناعتين ٢٤٣ وفى اللسان ٢/ ٢٣٤ : « واللازب : الثابت ، وصار الشيء ضربة لازب ، أى لازماً . هذه اللغة الجيدة ، وقد قالوها بالميم ، والأول أفصح » .

(٢) ديوانه ص ١٠٨ م « لعزمة » . و ك و س « فلا يلقى » .

(٣) ديوانه ص ٤٦٧ والكامل ١ / ١٨ والصناعتين ص ٢٤٣ وفى ا « فى السواد » والأغانى ١٩ / ١٦ والموشح ١٠٣

(٤) ديوانه ص ٦٠٥ والصناعتين ٢٤٤ والوساطة ص٢٩ وسر الفصاحة ص ١٩١

(٥) هو قريط بين أُنيف ، كما فى شرح الحماسة للتبريزى ص٨ : « والعرب تقول : بلعنبر ، وبنو العنبر ، وكذلك يفعلون فيما فيه ألف ولام إذا لم يكن ثَمّ إدغام » .

(٦) شرح المرزوقى ١ / ٣١

وروى عن الحسن[1] بن علىّ رضى الله عنهما أنه تمثل بقول القائل :

فلا الجود يُفنى المال والجدُّ مقبلٌ ... ولا البخلُ يُبقى المال والجدُّ مدبرُ[2]

وكقول الآخر :

فَسِرّى كإعلانى وتلك سَجِيّتِى ... وظُلمةُ ليلى مثلُ ضوء نهاريا[2]

وكقول قيس بن الخَطِيم :

إذا أنت لم تنفع فضُرَّ، فإنما ... يُرَجَّى الفتى كيما يضرّ وينفعا[3]

وكقول السموأل :

وما ضرّنا أنا قليلٌ وجارُنا ... عزيز وجار الأكثرين ذليل[4]

فهذا باب يرونه من البديع .

٦

وباب آخر وهو « التَّجْنِيس » الجناس * . ومعنى ذلك : أن تأتى بكلمتين متجانستين :

فمنه ما تكون الكلمة تجانس الأخرى فى تأليف حروفها [ومعناها[5]] . وإليه ذهب الخليل[6] .

---

(١) م « أن الحسين »

(٢) البيت غير منسوب فى الصناعتين ص ٢٤٤

(٣) ديوانه ص ٤٤ والصناعتين ص ٢٤٥ وقد نسبه الصولى فى أخبار أبى تمام ص ٢٨ لعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر .

وقد سقط هذا البيت من م

(٤) شرح الحماسة للتبريزى ١ / ١١٠ والمرزوقى ١ / ١١٢ .

(٥) الزيادة من م

(٦) البديع ص ٥٥

ومنهم من زعم أن المجانسة أن تشترك اللفظتان على جهة الاشتقاق[١].

كقوله عز وجل: ﴿ فأقِمْ وجْهَكَ للدِّين القيِّم[٢] ﴾.

وكقوله: ﴿ وأسْلَمْتُ مع سليمان[٣] ﴾.

وكقوله: ﴿ يا أسَفا على يُوسفَ[٤] ﴾.

وكقوله: ﴿ الذين آمنوا ولم يَلبِسُوا إيمانَهم بظُلم أولئك لهم الأمْنُ وهم مُهْتَدُون[٥] ﴾.

وكقوله: ﴿ وهم يَنْهَوْن عنه ويَنْأَون عنه[٦] ﴾.

وكقول النبي صلى الله عليه وسلم: « أسلمُ سالمها الله، وغِفَارٌ غفر الله لهـا، وعُصَيَّة عَصَتِ اللهَ ورسوله، [وتُجيبٌ أجابت الله ورسوله[٧]] ».

وكقوله: « الظلم ظلماتٌ يوم القيامة[٨] »

وقوله: « لا يكون ذو الوجهين وجيهاً عند الله[٩] ».

---

(١) نقد الشعر ص ٦١ و م « على وجه »

(٢) سورة الروم ٤٢

(٣) سورة النمل ٤٤

(٤) سورة يوسف ٨٤

(٥) سورة الأنعام ٨٢

(٦) سورة الأنعام ٢٦

(٧) الزياده من م والحديث في البديع ص ٥٦ والصناعتين ٢٥١

(٨) الصناعتين ص ٢٥١ والبديع ص ٥٦

(٩) الصناعتين ٢٥٢

وكتب بعض الكتّاب : «العذر مع التّعذُّر واجب ، فرأيك فيه[١]» .

وقال معاوية لابن عباس : ما لكم يا بنى هاشم تُصابون فى أبصاركم ؟ فقال : كما تصابون فى بصائركم[٢] .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هاجِروا ولا تهَجَّرُوا[٣] » .

ومن ذلك قول قيس بن عاصم :

ونحن حفَزْنا الحوْفزَانَ بطعنةٍ كَسَتْهُ نَجيعاً من دم الجوف أشْكَلا[٤]

وقال آخر[٥] :

* أملَّ عليها بالبِلَى المَلَوَانِ[٦] *

---

(١) الصناعتين ٢٥٢

(٢) البديع ص ٥٦ والصناعتين ٢٥٢

(٣) الصناعتين ٢٥٢ : والبديع ص ٥٦ وفى اللسان ٧ / ١١١ « قال أبو عبيد : يقول : أخلصوا الهجرة لله ، ولا تشبهوا بالمهاجرين على غير صحة منكم فهذا هو التهجر » .

(٤) حفزته بالرمح : طعنته. والبيت لسوّار بن حبان المنقرى ، يفتخر بطعن « الحوفزان » واسمه الحارث بن شريك الشيبانى ، ولم يكن سوار الحافز له ، وإنما الحافز له قيس بن عاصم المنقرى فى يوم جدود ، كما قال ابن السيد البطليوسى فى الاقتضاب ص٣١٦، ١٢٣. والنجيع : الدم الطرى ، وقيل : النجيع دم الجوف خاصة . والأشكل : الذى يخالطه بياض من الزبد . راجع الأغانى ١٢ / ١٥٣ واللسان ٧ / ٢٠٣ وأمالى المرتضى ١ / ٧٧ والنقائض ص ١٤٦ وفيها « تمج نجيعاً » وص ٣٢٨ : « سقته » وكذلك فى اللسان ١٣ / ٣٨١ والبيت منسوب فى الصناعتين ص ٢٥٤ كما هنا لقيس بن عاصم .

(٥) هو تميم بن أبىّ بن مقبل ، كما فى الاقتضاب ص ٤٧٢ والجواليقى ص ٤٠٣ والأمالى ١ / ٢٣٣ واللسان ٢٠ / ١٦٠

(٦) وصدره :

* ألا يا ديار الحى بالسبعان *

والملوان : الليل والنهار . وجعلهما ابن مقبل الغداة والعشى .

وقال الآخر[١] :

وذاكُمُ أن ذلّ الجارِ حالَفَكم وأن أنْفَكُمُ لاتعرف الأَنَفَا[٢]

وكتب إلىّ بعض مشايخنا ، قال : أنشدنا الأخفش عن المُبَرِّد عن التَّوَّزِى[٣] :

وقالوا[٤] : حماماتٌ فَحُمّ لقاؤُها وطَلْحٌ فَزِيرَت والمطىُّ طُلُوحُ[٥]

عُقابٌ بأعْقَابٍ من النأى بعدما جَرَتْ نيةٌ تنسى المحبَّ طَرُوحُ[٦]

وقال صحابى : هدهُدٌ فوق بانةٍ هُدًى وبيانٌ بالنجاح يَلُوحُ[٧]

وقالوا : دَمٌ دامت مواثيقُ عهده ودام لنا حسن الصفاء صريحُ[٨]

---

(١) م : « الآخر أظنه التوزى »

(٢) البيت لرجل من بنى عبس فى البديع ص ٥٨ والموازنة ٢٤٩/١ والصناعتين ٢٥٥ ونقد الشعر ٦١ وصدره فيه تحريف . وسر الفصاحة ص ١٨٤ والعمدة ١ / ٢٩٢ وفيه : « وذلكم » كما فى م

(٣) م « عن التنوخى » ا « التوجى » ك « الثورى »

(٤) الشعر لأبى حيّة النميرى كما فى أمالى القالى ١ / ٧٠ وزهر الآداب ٢ / ١٦٧ ونسب للراعى فى الزهرة ص ٢٤٧

(٥) م : « وطلح قريب » وهو تحريف ، وفى زهر الآداب : « وطلح فنيلت » ، وطليح : أجهدها السير وهزلها .

(٦) قال البكرى فى شرح الأمالى ١ / ٢٤٤ : « بإعقاب بالكسر بخط أبى على » . وفى ك ، س : « من النأى » وفى الأمالى « تسلى المحب » وفى زهر الآداب « بعد ما نأت نأية بالظاعنين طريح »

(٧) فى الزهرة « وقالوا : نراه هدهداً . . وبيان والطريق تلوح »

(٨) فى الزهرة : « دامت مودة بيننا . . . صفوصفاه صريح » وفى الأمالى وفى زهر الآداب « مواثيق بيننا . . حلو الصفاء » وقال البكرى : « وقوله حلو الصفاء : هو نعت لشىء محذوف ، ولولا ذلك ما نعته بعد بصريح كأنّه عهد حلو الصفاء أوودّ »

وقال آخر[1] :

• أقبلْنَ من مِصْرَ يُبَارِينَ البُرَى[2] •

وقال القُطَامِىّ :

ولما ردَّها فى الشَّوْلِ شَالَتْ بِذَيَّال يَكونُ لها لِفَاعا[3]

وقد[4] يكون التجنيس بزيادة حرف [أو بنقصان حرف[5]] أو ما يقارب ذلك ، كقول البحترى :

هل لما فات من تَلاقٍ تَلافِ أمْ لشاكٍ من الصَّبابة شافِ[6]

(١) هو جليح بن شميذ كما فى ديوان الشماخ ص ١٠٥ وكان من حديثه أنه أقبل من مصر مع جماعة من الشعراء منهم الشماخ ، فكان الرجل منهم ينزل فيسوق بأصحابه ويرتجز . وقد ارتجز الجليح بالقوم فقال قصيدة مطلعها : « طاف الخيال من سليمى فاعترى » وهى مثبتة فى ديوان الشماخ ص ١٠٥ — ١٠٨

(٢) وقبله : « له علامات على حدّ الصُّوى » وبعده : « يشكون قرْحاً بالدفوف والكُلَى » الصوى : حجارة تجعل علامة فى الطريق . والضمير فى « أقبلن » للمطايا . يبارين : من المباراة ، وهى المعارضة فى السير . والبرى : جمع برة بالضم ، وهى حلقة تجعل فى أنف البعير . والدفوف جمع دف ، وهو الجنب . وقد ورد منسوباً فى الصناعتين ص٢٥٥ لجليح بن سويد ، وفيه « من مضر » وهو تحريف .

(٣) ديوانه ص ٤٣ والصناعتين ص ٢٥٦ والبديع ص ٥٦ والموازنة ١ / ١١ ، ٢٤٩ والشول : طروقة الفحل . ردّها لأنه ظن أنها لم تحمل فشالت بذنبها لأنها لاقح ، وذّيال : ذنب طويل . ولفاع : ثوب نلتفع به .

(٤) م : « قال القاضى الجليل رحمه الله : وقد يكون إلخ »

(٥) الزيادة من ا ، ب ، م

(٦) ديوانه ١ / ٣٦٦ « ألِمسَافات من تلاق » وس ، ك : « من تلاف »

وقال ابن مُقْبِل :

يَمْشِينَ هَيْلَ النَّقَا مالت جوانبُه ينهالُ حيناً وينهاهُ الثَّرى حينا[١]

وقال زهير :

هم يَضرِبُون حَبِيكَ البَيْض إذْلَحِقُوا لا يَنْكُلُونَ إذاما اُسْتُلْحِمُوا وَحِمُوا[٢]

ومن ذلك قول أبي تمام :

يمدُّون من أيدٍ عَوَاصٍ عَوَاصمٍ تصولُ بأسياف قَواضٍ قواضِبِ[٣]

وأبو نواس يقصد في مصراعَيْ مقدّمات شعره هـــذا الباب[٤] ، كقوله :

ألا دارِها بالماء حتى تُلينَها فلن تكرم الصهباء حتى تُهِينَها

وكذلك قوله :

ديارُ نَوَارٍ ما ديارُ نَوَارِ كَسَوْنكَ شَجْواً هُنَّ منه عَوَارِ[٥]

وكقول ابن المعتز :

سأثْنِي على عهد المَطِيرة والقَصْرِ وأدعو لها بالسّاكنين وبالقطر[٦]

---

(١) حماسة ابن الشجرى ١٨٨ وجمهرة أشعار العرب ص ١٦٢ ، والهيل : من الرمل : الذى لا يثبت مكانه حتى ينهال فيسقط ، كما فى اللسان ١٤/١٣٩ ، والنقا : كما فى اللسان ٢٠ — ٢٣١ : « الكثيب من الرمل » وفى م : « مثل النقا »

(٢) ديوانه ص ١٥٩ والصناعتين ٢٦٠ ، استُلْحِمُوا : أُدْرِكُوا ، وحِمُوا : غضبوا

(٣) ديوانه ص ٤٢ والصناعتين ٢٦١

(٤) م : « هذا الباب كله »

(٥) ديوانه ٧٢

(٦) ديوانه ٣٥

وكقوله أيضاً :

هى الدار إلا أنها منهمُ قفرُ وأنّى بها ثاوٍ وأنهمُ سَفْرُ[١]

وكقوله :

للأمانى حديثٌ [قد] يقر ويسوء الدهر من قد يسر[٢]

وكقول المتنبى :

وقدأرانى الشبابُ الرُّوحَ فى بدنى وقدأرانى المشيبُ الرُّوحَ فى بدلى[٣]

وقد قيل : إن من هذا القبيل قوله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ، سأُرِيكُمْ آياتى فَلَا تَسْتَعْجِلُون[٤] ﴾، وقوله: ﴿ قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لهُ دِينِى، فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ[٥] ﴾ .

* * *

ويَعُدُّون من البديع « المُقَابَلَة » ، وهى أن يوفق بين معان ونظائرها والمضاد بضده، وذلك مثل قول النابغة الجَعْدى :

فتى تَمَّ فيـــه ما يسرُّ صديقَهُ على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا[٦]

(١) ديوانه ص ٤٢

(٢) م « حديث يعز» ديوانه ٤٤ « قد يغر ويسر الدهر »

(٣) ديوانه ٢/ ٦٦ « يقول : إنه إنما كان حياً حين كان شاباً ، فلما شاب صار كأنه قد مات وانتقل روحه إلى غيره . والبدل فى هذا البيت : الولد » .

(٤) سورة الأنبياء ٣٧

(٥) سورة الزمر ١٤ ، ١٥

(٦) الصناعتين ٢٦٥ والأمالى ٢ / ٢ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ والعمدة ٢ / ١٥ ، ٤٦ والشعر والشعراء ١ / ٢٥٢ وشرح الحماسة للتبريزى ٣ / ٨٣ وقد عاد أبو هلال العسكرى فنسبه إلى جندل بن جابر الفزارى فى ص ٣٢٤ وهو وهم لا شك فيه .

وقال تأبط شرًّا :

أهزُّ به فى ندوة الحىّ عِطفَهُ كما هزَّ عِطفِى بالهِجَان الأوارِكِ[1]

وكقول الآخر :

وإذا حديثٌ ساءنى لم أكْتئِبْ وإذا حديثٌ سرّنى لم أشرر[2]

وكقول الآخر :

وذى إخوة قَطَّعْتُ أرحامَ بينهم كما تركونى واحدًا لا أخاليا[3]

ونظيره من القرآن : ﴿ ثُمَّ إذَا مَسَّكُمْ الضُّرُّ فَإليْهِ تجْأَرُونَ . ثُمَّ إذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُون[4] ﴾ .

[ومن هذا الجنس قول هند بنت النعمان للمغيرة بن شُعْبة ، وقد أحسن إليها : بَرَّتْكَ يدٌ نالتها خَصاصة بعد ثروة ، وأغناك الله عن يد نالتْ ثروةً بعد فاقةٍ[5]] .

---

(١) الصناعتين ٢٦٤ وشرح الحماسة للتبريزى ١ / ٩١ والمرزوقى ١ / ٩٤ عطفه : جانبه . والهجان : الإبل البيض الكرام ، والأوارك : التى ترعى الأراك . يقول : أحرك بالثناء جانبه كما حرّك جانبى بعطيته ، أى أسرّه بذلك حتى يرتاح ويطرب كما سرّنى حتى اهتززت »

(٢) الصناعتين ٢٦٦ ونقد الشعر ٤٧ وفى حماسة البحترى ص ١١٩ « قال عبد الله بن سليم الأزدى : وإذا حديث . . . لم أبشر ، وبعده :

أخشى الفواحش منهما كلتيهما ورعيت نفسى ناشئاً للمكبر

وفى س ، م « لم أسرر » والأشر : المرح .

(٣) س ، ك والصناعتين ٢٦٦ : « أقران بينهم »

(٤) سورة النحل ٥٣ ، ٥٤

(٥) الزيادة من م ، وكلام هند مع بعض التغيير فى سر الفصاحة ص ٢٥٢

. . .

ويعدون من البديع « الموازنة » ، وذلك كقول بعضهم : أصبر على حرّ اللقاء ، ومضض النزال ، وشدّة المِصَاع[1] .

وكقول امرئ القيس :

سلِيمُ الشَّظَا عَبْلُ الشَّوَى شَنِجُ النَّسَا

[له حَجَباتٌ مُشْرِفَاتٌ على الفَالِ[2]]

ونظيره من القرآن : ﴿ والسَّماءِ ذَاتِ البُرُوجِ . وَالْيَوْمِ المَوْعُودِ وشاهِدٍ ومَشْهُودٍ[3] ﴾ .

. . .

ويعدون من البديع « المساواة » ، وهى أن يكون اللفظ مساوياً

---

(١) كذا فى ا ، ب ، م ، ك وفى س : « المصارع » وهو تحريف . والمصارع كما فى اللسان ١٠ / ٢١٤ « المقاتلة والمجالدة بالسيوف » .

(٢) الزيادة من م والبيت فى ديوانه ص ١١١ والصناعتين ٢٩٦ والشظى كما فى اللسان ١٩ / ١٦٢ : عظم ملزق بالذراع فإذا تحرك من موضعه قيل : قد شظى الفرس بالكسر . والشظى : انشقاق العصب . » وفى اللسان ١٣ / ٤٤٦ « وفرس عبل الشوى : أى غليظ القوائم » والنسا : من الورك إلى الكعب كما فى ٢٠ / ١٩٣ وفى ٣ / ١٣٤ : « وفرس شنج النسا : متقبّضه ، وهو مدح له ؛ لأنه إذا تقبض نساهُ وشنج لم تسترخ رجلاه . وفى ١ / ٢٩٠ : « الحجبة : بالتحريك : رأس عظم الورك » وفى ١٤ / ٥٢ : « على الفال : أراد على الفائل فقلب ، وهو عرق فى الفخذين يكون فى خرْبة الورك ينحدر فى الرّجل »

(٣) سورة البروج ١ — ٣

للمعنى ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه ، وذلك يُعدُّ من البلاغة ، وذلك كقول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تُعلمِ (١)

وكقول جرير :

فلو شاء قومى كان حلمِىَ فيهمُ   وكان على جُهَّال أعدائهم جَهْلِى (٢)

وكقول الآخر (٣) :

إذا أنت لم تُقْصِرْ عن الجهل والخنا   أصبتَ حليماً أو أصابكَ جاهلُ

وكقول الهذلى (٤) :

فلا تجزَعَنْ من سُنَّةٍ أنتَ سِرْتَها   وأوّلُ راضٍ سنةً من يَسِيرُها (٥)

وكقول الآخر (٦) :

فإن هم طاوعوك فطاوعيهم   وإن عاصوك فاعصى مَنْ عصَاكِ

---

(١) ديوانه ٣٢ ونقد الشعر ص ٥٥ وسر الفصاحة ص ٢٠٦

(٢) ديوانه ص ٤٦٢ وفى ا ، ك : « على أعداء جهالهم » وصوابه من ب ، م

(٣) هو زهير كما فى ديوانه ص٣٠٠ وسر الفصاحة ص ٢٠٦ ونقد الشعر ص ٥٥ وفيه « لم ترحل عن »

(٤) هو خالد بن محرث بن أخت أبي ذؤيب ، كما فى ديوان أبي ذؤيب ص ١٥٦ ، ١٥٧ وفى نقد الشعر ص ٥٥ هو خالد بن زهير بن أخى أبى ذؤيب الهذلى .

(٥) كذا فى م ، ا ونقد الشعر وفى س ، ك : « راض سيرة »

(٦) البيت لخليد مولى العباس بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس كما فى شرح الحماسة للتبريزى ٣ / ٣١٥ وغير منسوب فى اللسان ١٩ / ١٣٩ والأغانى ١٥ / ١٥٧ ونسب فى الزهرة ص ١٢٢ لبعض الأعراب ، وفى معجم البلدان ٨ / ٣٠٠ لأبى العميثل .

ونظير ذلك فى القرآن كثير .

* * *

ومما يعدّونه من البديع « الإشارة » ، وهو اشتمال اللفظ القليل على المعانى الكثيرة . وقال بعضهم فى وصف البلاغة : [البلاغة] لمحة دالة(١) .

ومن ذلك قول طَرَفة :

فظلّ لنا يومٌ لذيذٌ بنعمةٍ   فَقُلْ فى مَقِيلٍ نحسهُ مُتَغيّبِ(٢)

وكقول زيد الخيل :

فَخَيْبَةُ مَنْ يَخِيبُ على غَنِيّ   وباهلةَ بن أعْصُرَ والرّبابِ(٣)

(١) هو خلف الأحمر ، كما فى العمدة ١ / ٢١٣

(٢) لا يوجد هذا البيت فى ديوان طرفة ، وهو لامرئ القيس كما فى ديوانه ص ٢٠ ونقد الشعر ص ٥٧ وأما البيت الذى يصلح أن يكون شاهداً للإشارة من شعر طرفة فهو قوله :

مرفوعها زَوْلٌ وموضوعها   كمرّ غيثٍ لجبٍ وسط ريح

فقوله « زول » مشار به إلى معان كثيرة ، وهو شبيه بما يقول الناس فى إجمال نعت الشىء ، واختصاره عجب ، راجع نقد الشعر ص ٥٦ والبيت محرف فيه وهو على الصواب فى اللسان ٩ / ٤٨٩ ، ١٠ / ٢٧٩

(٣) البيت له فى الأغانى ١٦ / ٥٢ وفيه : « وخيبة من تجيب . . . بن أعصر والكلاب » والشعر والشعراء ١ / ٢٤٦ وفيه « فخيبة من يغير . . . والركاب » وهو غير منسوب فى أمالى المرتضى ١ / ٢٠٨ وفيه : « وباهلة بن يعصر » وفى الإصابة ١ /٥٥٥ والشعر والشعراء ١ / ٢٤٦ والمعانى الكبير ٥٧٦ وقد شرحه ابن قتيبة بقوله : « يقول من غزا فخاب فإنه يكر على غنى وباهلة فيغنم ؛ لأنهم لا يمتنعون ممن أرادهم ، كالركاب ، وهى الإبل ؛ لأنها لا تمتنع على من أرادها . ابن الأعرابى : يقول : من صار فى يده أسير من غنى وباهلة فقد خاب لقلة فدائه ، والدليل على ذلك قوله :

وأدى الغنم من أدى قُشيرا   ومن كانت له أسرى كلاب

ونظيره من القرآن : ﴿ ولو أنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ به الجبالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ بهِ الموتَى بل للهِ الأمرُ جميعًا[١] ﴾ ، ومواضع كثيرة .

* * *

ويعدّون من البديع « المبالغة » ، و « الغلو » .

والمبالغة : تأكيد معانى القول ، وذلك كقول[٢] الشاعر :

ونكرِمُ جارنا ما كان فينا وُنتبعه الكرامةَ حيث مَالَا[٣]

ومن ذلك قول الآخر[٤] :

وهم تركوكَ أسلَحَ من حُبارَى رأتْ صقرًا وأشْرَدَ من نَعَامِ

والدليل على التفسير الأول قول الفرزدق يهجو أصم باهلة :

أأجعل دارماً كابنى دخان وكانا فى الغنيمة كالركاب

ابنا دخان : غنى وباهلة ، وكانوا يسبون بذلك فى الجاهلية ، كالركاب ، أى لا امتناع بهم كما لا تمتنع الركاب ، وكان الرجل منهم فى الجاهلية إذا قتل رجلا من أفناء العرب لم يكن فى دمه وفاء منه حتى يزاد عشرا من الإبل أو نحوها ، وهذا قول أبى عبيدة ، وذكر أن الأشعث الكندى قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أتكافأ دماؤنا يا رسول الله ؟ قال : نعم ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك به »

(١) سورة الرعد ٣١

(٢) م : « القول كقول »

(٣) البيت لعمير بن الأيهم كما فى نقد الشعر ص ٥٠ وفيه « حيث سارا » ولعمرو بن الأيهم التغلبى فى العمدة ٢ / ٥٢ وفيه « حيث كانا » ولعميرة بن الأهتم التغلبى فى الصناعتين ٢٨٨ ولأعشى تغلب ص ٢٧١

(٤) هو أوس بن غَلْفَاء يخاطب يزيد بن عمرو بن الصّعق ، كما فى الكامل ٢ / ٤٢٢ والنقائض ص ٩٣٣ والخزانة ٣ / ١٣٩ واللسان ١١ / ٢٣١ ونقد الشعر ص ٥١ والصناعتين ص ٢٨٩ .

فقوله : « رأيتُ صقرًا » مبالغة .

ومن الغلو قول أبى نُوَاس :

تَوَهَّمْتُهـا فى كأسها فكأنما توهمتُ شيئاً ليس يُدْرِكُه العقلُ

فما يرتقى التكييفُ فيها إلى مدى يحدّ به إلا ومن قبلـه قَبْلُ[١]

وقول زهير :

لو كان يَقْعد فوقَ الشمس من كرم قومٌ بأوّلهم أو مجدهم قَعَدُوا[٢]

وكقول النابغة :

بلغنا السماءَ مجدُنا وسناؤُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرَا[٣]

وكقول الخنساء :

وما بلغتْ كفُّ امرئٍ متناول بها المجد إلا حيثما نلت أطْولُ[٤]

وما بلغ المُهْدُونَ فى القول مِدْحةً وإنْ أطنبوا إلا الذى فيك أفْضَلُ[٥]

---

(١) م : « فما يرجع »

(٢) ديوانه ص ٢٨٢ وقد نسبه أبو تمام فى الوحشيات لأبى الجويرة : عيسى بن أوس ، وترجمته فى المؤتلف ص ٧٩ ومعجم الشعراء ص ٢٥٨ وفى ا : « فوق النجم »

(٣) فى الأغانى ٤ / ١٣٠ قال النابغة الجعدى : « أنشدت النبى صلى الله عليه وسلم هذا الشعر فأعجب به :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنبغى فوق ذلك مظهرا

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فأين المظهر يا أبا ليلى ؟ فقلت الجنة . فقال : «قل إن شاء الله . فقلت : إن شاء الله » والبيت فى الشعر والشعراء ١ /٢٤٧ وفى اللسان ٦ / ٢٠٢ . والمظهر : المصْعد

(٤) ديوانها ص ١٨٤ من قصيدة فى أخيها صخر . وفى م : « كف امرى متطاول من المجد »

(٥) م : «مدحة وإن ظنوا إلا الذى» وفى الديوان «مدحة ولا صفة إلا الذى »

وقول الآخر[١] :

له هِمَمٌ لا مُنتَهَى لِكبارِها ... وهمتُه الصغرى أجلُّ من الدهر

له راحة لو أنَّ معشار جودها ... على البرِّ صار البرُّ أندى من البحر

* * *

ويرون من البديع « الإيغال » في الشعر خاصة ، فلا يُطلب مثله في القرآن إلا في الفواصل ، كقول امرئ القيس :

كأَنَّ عُيونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبائنا ... وأرحلنا الجَزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ[٢]

فقد أوغل بالقافية في الوصف وأكد التشبيه بها ، والمعنى قد يستقل دونها .

* * *

ومن البديع عندهم « التوشيح » . وهو أن يشهد[٣] أول البيت بقافيته وأول الكلام بآخره ، كقول البحترى :

---

(١) زعم صاحب معاهد التنصيص ١/ ٢٠٨ أنه لحسان بن ثابت ، وذكر بعضهم أنه لبكر بن النطاح فى أبى دلف

(٢) البيت منسوب لعلقمة الفحل فى ديوانه ص ٢٨ وديوان امرئ القيس ص ٢٧ ولأمرئ القيس فى الصناعتين ص ٣٠١ والعمدة ٢ / ٥٥ وسر الفصاحة ١٤٨ وفى نقد الشعر ص ٦٣ : « فقد أتى امرؤ القيس على التشبيه كاملا قبل القافية ، وذلك أن عيون الوحش شبيهة به ، ثم لما جاء بالقافية أوغل بها فى الوصف ووكده وهو قوله : الذى لم يثقب ، فإن عيون الوحش غير مثقبة وهى بالجزع الذى لم يثقب أدخل فى التشبيه »

(٣) س : « أن يشيد »

فَلَيْسَ الذى حَلَّلْتِه بمحلل وليس الذى حرّمته بحرام[١]

ومثله فى القرآن : ﴿ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عليه إنَّ اللهَ غفورٌ رَحِيم[٢] ﴾.

* * *

ومن ذلك « رَدُّ عَجُز الـكلام على صدره » . كقول الله عز وجل : ﴿ أُنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ، ولَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وأَكْبَرُ تَفْضِيلًا[٣] ﴾ .

وكقوله : ﴿ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِباً فيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ، وقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى[٤] ﴾ .

ومن هذا الباب قول القائل[٥] :

وإن لم يكن إلا تعلّل ساعةٍ قليلًا فإنى نافعٌ لى قليلُها

وكقول جرير :

---

(١) ديوانه ص ١٠ وفى الصناعتين ص ٣٠٣ « وذلك أن من سمع النصف الأول عرف الأخير بكماله »

(٢) سورة المائدة ٣٩

(٣) سورة الإسراء ٢١

(٤) سورة طه ٦١ وفى مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص ٢٢٤ : « السُّحْتُ : القشر الذى يستأصل »

(٥) هو ذو الرّمة ، كما فى ديوانه ص ٥٥٠ وفى نوادر القالى ص ٢١٦ : « إلا معرس ساعة قليل »

سقى الرَّمْلَ جَوْنٌ مُسْتَهِلٌ غَمامُه　　　وماذاك إلا حُبُّ مَنْ حَلَّ بالرمل[١]

وكقول الآخر[٢] :

يَوَدُّ الفتى طُولَ السلامةِ والغِنى　　　فكيفَ يرى طُولَ السَّلامةِ يفعلُ

وكقول أبى صخر الهُذَلى :

عجبتُ لسعى الدّهرِ بينى وبينها　　　فلما انقضى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ[٣]

وكقول الآخر :

أصدُّ بأيدى العِيسِ عن قَصْدِ أَرْضِها　　　وقلبى إليها بالمودّة قاصِدُ[٤]

وكقول عمرو بن معدى كرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدَعْه　　　وجاوزْه إلى ما تستطيعُ[٥]

* * *

١٥

ومن البديع «صحة التقسيم» : ومن ذلك قول نُصَيْب :

---

(١) ديوانه ص ٤٦٠ : «مستهل ربابه» وكذلك فى البديع ص ٩٥ والصناعتين ص ٣٠٦ والعمدة ٢ / ٤

(٢) هو النمر بن تولب كما فى الأغانى ١٩ / ١٥٩ والصناعتين ١٢٧ ، ٣٠٧ وجمهرة أشعار العرب ١١٠ وشرح شواهد المغنى ٢١٥

(٣) شرح الحماسة للتبريزى ٣ / ٢٠٨ والأغانى ٢١ / ١٤٩ والشعر والشعراء ٢ / ٥٤٦

(٤) الصناعتين ٣٠٦ «قصد دارها»

(٥) الشعر والشعراء ١ / ٣٣٥ والأصمعيات ص ٤٥ والصناعتين ص ٣٠٦ والأغانى ١٤ / ٣٣ ومعاهد التنصيص ٢ / ٢٣٦ وحماسة البحترى ٢٣٦

فقال فريقُ القوم: لا، وفريقُهم: نعم، وفريقٌ قال: ويحكَ ما ندرِى[1]

وليس فى أقسام الجواب أكثر من هذا .

وكقول الآخر[2] :

فكأنها فيه نهارٌ ساطع وكأنه ليلٌ عليها مظلمُ[3]

وقول المقنَّع الكِنْدِى :

وإن يأكلوا لحمى وفرْتُ لحومَهم وإن يهدموا مجدى بنيتُ لهم مجدَا[4]

وإن ضيَّعوا غيبى حفظتُ غيوبهم وإن همْ هوَوْا غَيِّى هوَيْتُ لهم رُشْدَا

وإن زجَروا طيراً بنحسٍ تمرُّ بى زجرتُ لهم طيراً تمر بهم سعدا

وكقول عروة بن حِزام :

بمن لو أراه عانياً لفديته ومن لو رآنى عانياً لفدانى[5]

ونحوه قول الله عز وجل : ﴿ اللهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُمْ مِنَ

---

(١) العمدة ٢ / ٢٠ وسر الفصاحة ٢٢٤ وس ، ك « ما يدرى » ونقد الشعر ص ٤٦ « لا أدرى » وفى الصناعتين : « وفريق لا يمن الله ما ندرى » وفى اللسان ١٧ / ٣٥٤ :

فقال فريق القوم لما نشدتهم نعم وفريق ليمُنُ الله ما ندرى

(٢) هو بكر بن النطاح ، كما فى الأمالى ١ / ٢٢٧ وقبله :

بيضاء تسحب من قيام فرْعها وتغيب فيه وهو وحفٌ أسحمُ

(٣) س ، ك « فكأنما »

(٤) الأمالى ١ / ٢٨١ وفى الأغانى ١٥ / ١٥٧ والشعر والشعراء ٢ / ٧١٦ « إذا أكلوا لحمى وفرت لحومهم » وحماسة البحترى ٢٤٠

(٥) الأغانى ٢٠ / ١٥٥ وفى س ، ك : « لو أراه غائباً . . . رآنى غائبا »

الظُّلُمَات إِلَى النُّور ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ، يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾[١] .

* * *

ونحوه « صحة التفسير » . [وهو أن توضع معان تحتاج إلى شرح أحوالها ، فإذا شرحت أثبتت تلك المعانى من غير عدول عنها ولا زيادة ولا نقصان[٢]] . كقول القائل[٣] :

ولى فرسٌ للحلم بالحلم مُلْجَمٌ ‏ ‏ ‏ ‏ ولى فرسٌ للجهل بالجهل مُسْرَجُ

* * *

ومن البديع « التكميل والتتميم » .

[وهو أن يأتى بالمعنى الذى بدأ به بجميع المعانى المصححة المتممة لصحته ، المكملة لجودته ، من غير أن يخل ببعضها ، ولا أن يغادر شيئاً منها . كقول القائل : وما عسيت أن أشكرك عليه من مواعيد لم تُشَن بمطل ، ومَرَافِدَ لم تُشَب بِمَنّ ، وبشر لم يمازجه ملق ، ولم يخالطه مذق[٤] .]

---

(١) سورة البقرة ٢٥٧

(٢) الزيادة من م

(٣) هو محمد بن وهيب كما فى عيون الأخبار ١ / ٢٨٩ أو محمد بن حازم الباهلى كما فى معجم الشعراء ص ٤٢٩ أو صالح بن جناح اللخمى كما فى نقد الشعر ص ٤٩ والصناعتين ص ٢٧٢

(٤) الزيادة من م

وكقول نافع بن خليفة :

رجالٌ إذا لم يقبلوا الحقَّ منهم ويُعْطَوْه عادُوا بالسيوف القواطعِ[١]

وإنما تم جودة المعنى بقوله : « ويُعطَوْه » .

وذلك كقول الله عز وجل : ﴿ إنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعةِ ﴾ إلى آخر الآية . ثم قال : ﴿ إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبير ﴾[٢] .

* * *

ومن البديع « التَّرْصِيعُ » . وذلك على ألوانٍ[٣]

منها قول امرئ القيس :

مِخَشٍّ مِجَشٍّ مُقْبِلٍ مُدبرٍ معاً كَتَيْسِ ظباء الحُلَّب العَدَوانِ[٤]

ومن ذلك كثير من مقدمات أبي نواس :

يا مِنَّةً أمْتَنَّها السُّكْرُ ما ينقضي مِنِّي لها الشكرُ[٥]

وكقوله ، وقد ذكرناه قبل هذا[٦] :

---

(١) نقد الشعر ص ٤٩ وفى العمدة ٢/٤٩ والصناعتين ص ٣٠٩ وسر الفصاحة ٢٥٥ « بالسيوف القواضب »

(٢) سورة لقمان ٣٤

(٣) س ، ك : « من ألوان »

(٤) ديوانه ص١٤٥ونقد الشعر ١١والصناعتين ٢٩٦ وانظر اللسان ١/٣٢٣

(٥) ديوانه ص ١٠١

(٦) راجع ص ١٣١

ديارُ نوارٍ ما ديارُ نوارِ كسونك شجواً هُنَّ منه عَوارِ

* * *

ومن ذلك « الترصيع مع التجنيس » ، كقول ابن المعتزّ:

ألم تجزع على الربع المُحيلِ وأطلالٍ وآثارٍ مُحُولِ[١]

ونظيره من القرآن كقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ، وإخوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيّ ثُمَّ لا يُقْصِرُونَ ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ ما أَنْتَ بنعْمَةِ رَبِكَ بِمَجْنُونٍ ، وإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾[٣] .

وكقوله : ﴿ وإِنَّهُ عَلَى ذلك لشَهِيدٌ ، وإِنَّه لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾[٤] .

وكقوله: ﴿ والطُّورِ . وكتابٍ مَسْطُورٍ ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ والسَّابِحَاتِ سَبْحاً . فالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ﴾[٦] .

وقد أولع الشعراء بنحو هذا ، فأكثروا فيه ، ومنهم من اقتنع

---

(١) ديوانه ٥٩
(٢) سورة الأعراف ٢٠١ — ٢٠٢
(٣) سورة القلم ٢ — ٣
(٤) سورة العاديات ٧ — ٨
(٥) سورة الطور ١ — ٢
(٦) سورة النازعات ٣ — ٤

بالتَّرْصِيع فى بعض أطراف الـكلام ، ومنهم من بَنَى كلامه [كله][1] عليه ، كقول ابن الرومى :

أبدانُهــنَّ وما لَبِسْـ ـنَ من الحرير معاً حرير[2]
أرْدانُهُنَّ وما مسـ ـنَ من العَبِيرِ معاً عبير[3]

وكقوله :

فلِرَاهِبٍ أن لا يريث مكانه ولراغِبٍ أن لا يريث نجاحه[4]

ومما يقارب الترصيع ضرب يسمى « المُضَارَعَة » . وذلك كقول الخنساء :

حامى الحقيقة محمود الخليقة مـ ـدىّ الطريقة نَفّاع وضَرّار[5]
جوّابُ قاصيــةٍ جزَّازُ ناصِيــةٍ عقّادُ أَلْوِيَة للخيــل جَرَّار[6]

* * *

ومن البديع باب « التـكافؤ » . وذلك قريب من « المطابقة »

---

(١) الزيادة من ا ، م
(٢) ديوانه ص ٢٨٠ وفيه « أبشارهن وما ادّرعهن »
(٣) فى الديوان : « ونسيمهن وما »
(٤) ديوانه ٢ / ٧٨ وفى س ، ك ، ا : « ألا يريب أمانه »
(٥) لا يوجد هذا البيت فى ديوانها ، وهو لها فى الصناعتين ص ٢٩٨ ، والحقيقة : ما يحق عليه أن يحميه . وفى س : « الحقيبة »
(٦) م « حوال قاصية . . . الونه » ك : « جزار ناصية » والذى فى ديوانها :

حمال ألوية هباط أودية شهّاد أندية للجيش جرار

كقول المنصور: لا تخرجوا من عز الطاعة، إلى ذل المعصية[١] . وقول عمر بن ذر[٢] : إنّا لم نجد لك إذْ عصيتَ الله فينا خيرًا من أن نطيع الله فيك[٣] .

ومنه قول بشار :

إذا أيقظتك حروب العِدَا ... فنبِّه لها عُمرًا ثمّ نَمْ[٤]

[ومنه قول أعرابى يذم قومه : ألسن عامرة من الوعد ، وقلوب خربة من العزم . وقال آخر : وساع فى الهوى ، وطرب فى الحاجة][٥] .

ومن البديع باب « التعطف » . كقول امرئ القيس[٦] :

﴿عَوْدٌ عَلَى عَوْدٍ عَلَى عَوْدٍ خَلَقْ[٧]﴾

---

(١) الصناعتين ص ٢٤١

(٢) فى البيان والتبيين ١ / ٢٦٠ « مر عمر بن ذر بعبد الله بن عياش المنتوف ، وقد كان سفه عليه فأعرض عنه ، فتعلق بثوبه ثم قال له : يا هناه إنا لم نجد إلخ »

(٣) قال الجاحظ : « وهذا كلام أخذه عمر بن ذرّ عن عمر بن الخطاب قال عمر . . . وإنك والله ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه »

(٤) نقد الشعر ص ٥٣ وفى الأغانى ٣ / ١٩٣ « إذا دهمتك عظام الأمور » والبيت فى مدح الجواد الشجاع عمر بن العلاء .

(٥) الزيادة من م وفى الصناعتين ص ٢٤١ « ووصف أعرابى غلاماً فقال : ساع فى الهرب قطوف فى الحاجة »

(٦) م « باب العطف كقول رويه »

(٧) الصناعتين ص ٣٣٥ وفى اللسان ٤ / ٣١٧ « العود الأول : رجل مسن ، والعود الثانى : جمل مسن ، والعود الثالث : طريق قديم » وهو غير موجود فى ديوان امرئ القيس .

وقد تقدم مثاله[١] .

* * *

ومن البديع « السلب والإيجاب » ، كقول القائل :

ونكر إِن شئنا عَلَى الناس قولَهم ولا ينكرون القول حين نقول[٢]

* * *

ومن البديع « الكناية والتعريض » . كقول القائل :

وأحمر كالديباج ، أمّا سماؤه فريّا ، وأما أرضُه فمحولُ[٣]

ومن هذا الباب « لحن القول » .

* * *

ومن ذلك « العكس والتبديل » . كقول الحسن[٤] : « إن من خوّفك لتأمَنَ خيرٌ ممن أمَّنك لتخاف » . وكقوله : « اللهم أغننى

(١) راجع ص ١٢٣

(٢) الصناعتين ص ٣٢٢ وشرح الحماسة للتبريزى ١ / ١١٦ وشرح المرزوقى ١/١٢٠

(٣) قال ابن السيد البطليوسى فى الاقتضاب ص ٣٣٥ « هذا البيت ينسب إلى طفيل الغنوى ، ولم أجده فى ديوان شعره ، يصف فرساً أحمر وشبهه بالديباج فى حسن لونه وملاسة جلده ، وأراد بسمائه أعاليه ، وبأرضه : قوائمه ، وشبه قوائمه لقلة لحمها بالأرض المحل التى لا نبات فيها » والبيت لطفيل فى اللسان ١٩ / ١٢٤ والجواليق ٢١١ والمعانى الكبير ١٥٥ وغير منسوب فى ديوان المعانى ٢ / ١٠٦ وأمالى المرتضى ٤ / ٧٥ وأساس البلاغة ١ / ٤٦٠

(٤) فى البديع ص ٧٦ : « وقال الحسن وقد أنكر عليه الإفراط فى تخويف الناس : إن الخ والصناعتين ص ٢٣٩

بالفقر إليك ، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك »[١] . وكقوله : « بع دنياك بآخرتك ، تَرْبَحْهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، فتخْسَرَهما جميعاً »[٢] .

وكقول القائل :

وإذا الدرُّ زان حُسْنَ وجوهٍ كانَ للدرِّ حُسْنُ وجهك زَيْنَا[٣]

وقد يدخل فى هذا الباب قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ ويُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ[٤] ﴾ .

* * *

ومن البديع « الالتفات » ، فمن ذلك ما كتب إلىَّ الحسن بن عبد الله العسكرى ، أخبرنا محمد بن يحيي[٥] الصُّولى ، [قال] : حدثنى يحيي بن على المنجّم ، عن أبيه ، عن إسحاق بن إبراهيم ، قال : قال لى الأصمعى : أتعرف التفاتات جرير ؟ قلت : لا ، فما هى ؟ قال :

أتنسَى إذْ تودّعنا سُلَيْمَى بفرع بَشَامَةٍ ؟ سُقِىَ البَشَام[٦]

---

(١) الصناعتين ص ٢٩٣

(٢) البيان والتبيين ٣ / ١٣٢

(٣) البيت لمالك بن أسماء بن خارجة كما فى أمالى المرتضى ٢ / ٩١ والموشح ص ٢٢٠ وهو غير منسوب فى البيان والتبيين ١ / ١٩٥

(٤) سورة الحج ٦١

(٥) س ، ك « محمد بن عبد الله الصولى »

(٦) ديوانه ص ٥١٢ والبديع ص ١٠٧ والصناعتين ص ٣١١ واللسان ١٤ / ٣١٧ والعمدة ٢ / ٤٤ والبشام كما فى اللسان ١٤ / ٣١٦ « شجر طيب الريح والطعم يستاك به »

ومثل ذلك لجرير :

متى كان الخيام بذى طُلُوح ـ سُقيتِ الغيثَ ـ أيتُها الخيامُ؟[١]

ومعنى الالتفاتات أنه اعترض في الكلام[٢] قوله: «سُقيتِ الغيثَ» ، ولو لم يعترض لم يكن ذلك التفاتاً . وكان الكلام منتظماً ، وكان يقول : « متى كان الخيام بذى طلوح أيتها الخيام » ؟ فمتى خرج عن الكلام الأول ثم رجع إليه على وجه يلطف ، كان ذلك التفاتاً .

ومثله قول النابغة الجعدى :

ألا زَعَمَتْ بنو سعدٍ بأنّى ـ ألا كَذَبوا ـ كبيرُ السنّ فانِى[٣]

ومنه قول كُثَيِّر :

لَوَ انَّ الباذلينَ ، وأنتِ منهم ، رأوْكِ ، تعلَّموا منكِ المِطَالَا[٤]

ومثله قول أبى تمام :

---

(١) ديوانه ص ٥١٢ والبديع ص١٠٧ واللسان ١٩ / ٦٨ وذو طلوح : اسم موضع .

(٢) قال ابن المعتز فى البديع ص ١٠٦ « الالتفات هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة . . . »

(٣) البديع ١٠٨ والصناعتين ٣١٢ والمعمرين ص ٦٤ وفيه « بنو كعب» والعمدة ٢ / ٤٣ وفى م « ألا كذبت »

(٤) ديوانه ص ١٥٠ ويروى « الباخلين . . . العطايا » وفى الصناعتين ٣٦ ، ٣١٢ والبديع ١٠٨ « ولو أن الباخلين . . . المطالا » وفى م « ولو أن الماطلين »

وأنجدتمُ من بعد إتْهام دارِكم فيا دَمْعُ أنجدْنى على ساكنى نجد[١]

وكقول جرير :

طَرِبَ الحَمَامُ بذى الأراك فشاقنى لا زلتِ فى غَلَلٍ وأَيْكٍ ناضرِ[٢]

التفت إلى الحمام فدعا لها .

ومثله قول حسان :

إن التى ناولْتَنى فرددتُها قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتِها لم تُقْتَلِ[٣]

ومنه قول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر :

وأجْمِلْ إذا ما كنتَ لا بُدَّ مانعاً وقد يَمنع الشيءَ الفتى وهو مُجمل[٤]

وكقول ابن ميَّادة :

فَلَا صَرْمُه يَبْدو وفى اليأس راحةٌ ولا وَصْلُه يَصْفُو لنا فنكارمه[٥]

ونظير ذلك من القرآن ماحكى الله تعالى عن إبراهيم الخليل من قوله : ﴿ اُعْبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

(١) ديوانه ص ٦٣ والبديع ١٠٧

(٢) ديوانه ٣٠٤ وفيه « الأراك فهاجنى » والبديع ص ١٠٧ والعمدة ٢ / ٤٢ والصناعتين ٣١١

(٣) ديوانه ٣١١ والصناعتين ص ٣١١ وفى اللسان ١٤ / ٦٨ « وقتل الخمر قتلا : مزجها فأزال بذلك حدتها قال حسان : إن التى عاطيتنى . . . قوله قتلت دعاء عليه ، أى قتلك الله لم مزجتها ؟ »

(٤) نقد الشعر ٥٣ والصناعتين ص ٣١١

(٥) نقد الشعر ٥٣ وفى الصناعتين ص ٣١٢ : « ولاودّه يصفو . . . كأنه يقول : وفى اليأس راحة ، والتفت إلى المعنى لتقديره أن معارضاً يقول له : وما تصنع بصرمه ؟ فيقول : لأنه يؤدى إلى اليأس ، وفى اليأس راحة » .

إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقونَ إِفْكًا[١] ﴾ إلى قوله : ﴿ فما كانَ جَوَابَ قَوْمِهِ[٢] ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ إِنْ يَشأْ يُذهِبْكُمْ وَيأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ . وبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعاً[٣] ﴾ .

ومثله قوله : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فى الفُلْكِ وجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بها جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ، وجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مكانٍ ، وظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِم ، دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ[٤] ﴾ .

ومثله قوله : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الغَاوِينَ . وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ولَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُه كَمَثَلِ الْكَلْبِ ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ[٥] ﴾ .

ومثله قوله : ﴿ والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بما كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ ، واللهُ عزيزٌ حكيمٌ . فَمَنْ تَابَ مِنْ بعْدِ ظُلْمِهِ[٦] ﴾ .

---

(١) سورة العنكبوت ١٦ — ١٧
(٢) آية ٢٤
(٣) سورة إبراهيم ١٩ — ٢١
(٤) سورة يونس ٢٢
(٥) سورة الأعراف ١٧٥ — ١٧٦
(٦) سورة المائدة ٣٨ — ٣٩

* * *

ومنهم من لا يَعُدُّ الاعتراضَ والرجوع[(١)] من هذا الباب ، ومنهم من يفرده عنه ، كقول زهير :

قِفْ بالديار التى لم يَعْفُها القِدَمُ نَعَمْ ، وغيَّرها الأَرْواحُ والدِّيَمُ[(٢)]

وكقول الأعرابى :

أَلَيْس قليلًا نَظْرَةٌ إِنْ نَظَرْتُها إليكِ ، وكلَّا ليس منكِ قليلُ[(٣)]

وكقول ابن هَرْمة :

ليتَ حظِّى كلَحْظَةِ العينِ منها وكثيرٌ منها القليلُ المهَنَّا[(٤)]

* * *

ومن الرجوع قول القائل :

بكلٍّ تداوينا فلم يُشْفَ ما بنا على أنّ قُرْبَ الدّارِ خيرٌ من البُعْدِ[(٥)]

وقال الأعشى :

---

(١) فى البديع ص ١٠٨ « ومن محاسن الكلام أيضاً والشعر اعتراض كلام فى كلام لم يتمم معناه ، ثم يعود إليه فيتتممه فى بيت واحد ... ومنها الرجوع وهو أن يقول شيئاً ويرجع عنه ... »

(٢) العمدة ٢ / ٤٤ ديوانه ص ١٤٥

(٣) البيت ليزيد بن الطثرية كما فى شرح حماسة أبى تمام ٣/٢٨٩ والأمالى ١ / ١٩٦ وغير منسوب فى البديع ص ١٠٩ والصناعتين ٣١٣

(٤) الصناعتين ص ٣١٣

(٥) البيت لابن الدمينة كما فى ديوانه ص ٢٨ وحماسة أبى تمام ٣ / ٢٥٧

صَرَمْتُ ولم أَصْرِمْـكُمُ وكَصَارِمٍ
أَخٌ قَدْ طَوَى كَشْحًا وأَبَّ لِيَذْهَبَا[1]

وكقول بشّار :

لى حيلة فيمن ينـ ـمُ وليس فى الـكذّاب حيلَهْ[2]
مَنْ كانَ يَخْلُقُ ما يقو لُ فحيلتى فيه قليلَهْ[3]

وقال آخر :

وما بى انتصار إن عَدا الدَّهْر ظالمًا على، بلى إن كان من عندك النصر[4]

---

(١) ديوانه ص ٨٩ وفى اللسان ١/١٩٩ « أب للسير : تهيأ للذهاب وتجهز ، قال الأعشى . . . أى صرمتكم فى تَهَيُّئٍ لمفارقتكم ، ومن تهيأ للمفارقة فهو كمن صرم » وفى ٣ / ٤٠٧ « ويقال : طوى فلان كشحه : إذا قطعك وعاداك ، ومنه قول الأعشى : وكان طوى كشحا وأب ليذهبا »

(٢) فى الكامل ٢/١٧ لبعض المحدثين ، وطبقات الشافعية ٢/٣٢٠ لأبى الحسن التميمى ، منصور بن إسماعيل ، وقد أنشدهما القاضى ابن قريعة كما فى المنتظم ٧/٩٢ ونسبهما المرزبانى فى معجم الشعراء ص ٥٠٢ لإبى مروان يحيى بن مروان . وفى الوشح ص ٣٥٠ عن الصولى قال : « أنشدنا أبو العباس المبرد لمحمود بن مروان بن أبى حفصة : لى حيلة . . . قال المبرد: وقد ناقض هذا الشاعر ؛ لأنه قال : « وليس فى الكذاب حيلة » ثم قال : « فحيلتى فيه قليلة » ثم أنشدنا لنفسه :

إن النموم أغطى دونه خبرى وليس لى حيلة فى مفترى الكذب »

وهما من غير نسبة فى غرر الخصائص ٤٩ والذخائر والأعلاق ١٠٦

(٣) م « يكذب » وفى المرشح ومعجم الشعراء : « يكذب ما يريد »

(٤) البيت لأبى البيداء الرياحى كما فى خزانة الأدب لابن حجة الحموى ص ٤٤٩ وفى س ، ك والصناعتين ص ٣١٤ « إن غدا الدهر ظالمى »

* * *

وباب آخر من البديع يسمى « التَّذْييل » . وهو ضرب من التأكيد ، وهو ضد ما قدمنا ذكره من الإشارة[١] ، كقول أبي دُوَاد :

إذا ما عَقَدْنَا له ذِمَّةً ... شَدَدْنا العِنَاجَ وعقد الكَرَبْ[٢]

وأخذه الحطيئة فقال :

[قومٌ إذا عقَدُوا عقداً لجارهمُ

شدُّوا العِنَاجَ وشَدُّوا فوقه الكَرَبا[٣]

---

(١) فى الصناعتين ص ٢٩٤ « فأما التذييل فهو إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى بعينه حتى يظهر لمن لم يفهمه ويتوكد عند من نهمه ، وهو ضد الإشارة والتعريض . . . » .

(٢) فى اللسان ٣ / ١٥٤ « العناج : خيط أو سير يشد فى أسفل الدلو ، ثم يشد فى عروتها أو عرقوتها ، وربما شد فى إحدى آذانها » والكرب كما فى اللسان ٢ / ٢٠٨ « الحبل الذى يشد على الدلو بعد المنين وهو الحبل الأول ، فإذا انقطع المنين بقى الكرب »

(٣) البيت فى اللسان ٢ / ٢٠٩ ، ٣ / ١٥٤ وفى ديوان الحطيئة ص ٧ ونظام الغريب ص ١٩٩ ومبادئ اللغة ص ٢١ وشرح أدب الكاتب للجواليقى ص ٢٤٠ وقال ابن قتيبة فى أدب الكاتب ص ١٩٢ : « والخشبتان اللتان تعترضان على الدلو كالصليب هما « العرقوتان » والسيور التى بين آذان الدلو والعراقى هى « الوذم » ، « العناج » فى الدلو الثقيلة : حبل أو بطان يشد تحتها ، ثم يشد إلى العراقى ، فيكون عوناً للوذم ؛ فإن كانت الدلو خفيفة شد خيط فى إحدى آذانها إلى العرقو ، و « الكرب » أن يشد الحبل إلى العراقى ، قال الحطيئة : قوم إلخ وقال ابن السيد فى الاقتضاب ص٣٥١ « وأراد الحطيئة : أنهم إذا عقدوا عقداً أحكموه وأوثقوه كإحكام عقد الدلو إذا شد عليها العناج والكرب ، وليس هناك عناج ولا كرب فى الحقيقة وإنما هو مثل »

وكقول الآخر[1]] :

فدعَوْا نَزَالِ فكنتُ أوّلَ نازلٍ   وعلامَ أركبُهُ إذا لم أنزلِ ؟[2]

وكقول جرير :

لقد كُنْتَ فيها يا فرزدقُ تابعاً   وريشُ الذُّنابَى تابعٌ للقوادم[3]

ومثله قوله عز وجل : ﴿ إنَّ فِرْعَونَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً . يَسْتَضْعِفُ طائفةً منهم يُذَبِّحُ أَبْنَاءهم ويَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ ، إنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِين . ونُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ ونَجْعَلَهمْ أئمةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ كانُوا خاطِئِين[4] ﴾ .

* * *

٥ — [وباب من البديع يسمى «الاستطراد[5]»]. فمن ذلك ما كتب إلىَّ الحسن بن عبد الله قال : أنشدنى أبو بكر بن دُرَيْد ، قال : أنشدنا أبو حاتم ، عن أبي عُبيدة ، لحسان بن ثابت ، رضى الله تعالى عنه :

---

(١) الزيادة من م .

(٢) البيت غير منسوب فى الصناعتين ص ٢٩٥ واللسان ١٤ / ١٨١ وهو لربيعة بن مقروم الضبى كما فى الأغانى ١٩ / ٩٣ وفى اللسان « وصف فرسه بحسن الطِّراد فقال : وعلام أركبه إذا لم أنازل الأبطال عليه»

(٣) ديوانه ص ٥٦١

(٤) سورة القصص ٤ — ٨ .

(٥) فى الصناعتين ص ٣١٦ « وهو أن يأخذ المتكلم فى معنى ، فبينا يمر فيه يأخذ فى معنى آخر وقد جعل الأول سببا إليه » .

إنْ كنتِ كاذِبةَ الذى حَدَّثْتِنِى ... فنجوتِ مَنْجَى الحارث بن هشام[١]
ترك الأحبَّة أن يقاتل دونهم ... ونجا برأس طِمِرَّةٍ ولجام[٢]

وكقول السموأل :

وإنا لقوم لا نَرَى القتل سُبّةً ... إذا ما رأتْه عامرٌ وسَلول[٣]

وكقول الآخر :

خليليّ من كعب أَعِينا أخا كما ... على دهره ، إنَّ الكريم مُعِينُ[٤]
ولا تبخلا بُخْلَ ابن قَزْعَةَ ، إنه ... مخافةَ أن يُرْجى نداه حزينُ

وكقول الآخر :

فما ذرَّ قَرْنُ الشّمسِ حتّى كأننا ... من العِىِّ نحكى أحمد بن هشام[٥]

---

(١) ديوانه ص ٣٦٣ والصناعتين ص ٣١٦ وفى س ، ك : « كاذبة التى » ويشير حسان إلى فرار الحارث بن هشام عن أخيه أبى جهل يوم بدر

(٢) س ، ك « لم يقاتل دونهم ورَى برأس » وفى اللسان ٦ / ١٧٤ « الطمر : الفرس الجواد ، وقيل : المستعد للعدو والأنثى طمرّة »

(٣) الصناعتين ص ٣١٧ والبديع ص ١١٠ والعمدة ٢ / ٣٧ وشرح الحماسة للتبريزى ١ / ١١١ والمرزوقى ١ / ١١٤ وزهر الآداب ٤ / ١٦٣

(٤) الشعر لبشار كما فى البديع لابن المعتز ص ١٠٩ والصناعتين ص ٣١٨ والعمدة ٢ / ٣٨ وفى الكامل ١ / ٢٣٣ « وقال بشار بن برد يذكر عبيد الله بن قزعة » وفى س ، ك « نراه حزين »

(٥) البيت لإسحق بن إبراهيم الموصلى يصف السكر ، كما فى البديع لابن المعتز ص ١١١ وحماسة ابن الشجرى ص ٢٥٩ وغير منسوب فى الصناعتين ص ٣١٨ والبيان والتبيين ١/٤٠٢ وجاء فى خاص الخاص ص٦٠ : « ولما بلغ أحمد بن هشام قول إسحاق الموصلى — قال : يا أبا محمد لم هجوتنى؟ قال : لأنك قعدت على طريق القافية » !

وكقول زهير :

إن البخيل ملوم حيث كان ولٰـ ـكنّ الجوادَ على عِلّاتِهِ هَرِمُ[١]

وفيما[٢] كتب إلىّ الحسن بن عبد الله ، قال : أخبرنى محمد بن يحيى [قال] : حدثنى محمد بن علىّ الأنبارى[٣] ، قال : سمعت البحترى يقول : أنشدنى أبو تمام لنفسه :

وسابحٍ هَطِلِ التَّعْداءِ هَتَّانِ على الجِراءِ أمينٍ غيرِ خَوَّانِ[٤]

أَظْمَى الفصوص ولم تَظْمأْ قوائمُهُ فَخَلِّ عينيك فى ريان ظمآن[٥]

ولو تَرَاهُ مُشيحاً والحصى فِلَق بين السنابك من مَثْنى ووُحْدَان[٦]

أيقنتَ —إن لم تَثَبَّتْ— أنّ حافره من صخر تَدْمُرَ أو من وجه عثمان[٧]

وقال لى : ماهذا من الشعر ؟ قلت لا أدرى . قال : هذا المستطرد ، أو قال : الاستطراد ، قلت : وما معنى ذلك ؟ قال : يُرِى أنه يصف الفرس ، ويريد هجاء عثمان[٨] .

---

(١) البديع ص ١١٠ والصناعتين ٣١٧ والعمدة ٢ / ٣٨ وديوانه ص ١٥٢ . على علاته : على عسره ويسره

(٢) م : « ومما »

(٣) فى أخبار أبى تمام ص ٦٨ « حدثنى أبو الحسن على بن محمد الأنبارى »

(٤) الصناعتين ٣١٧ وأخبار أبى تمام ص ٦٨ والعمدة ٢ / ٣٨ وديوانه ص ٢٠١ وفيه « أمون » وزهر الآداب ٤ / ١٦٢ وديوان المعانى ١ / ١٩٨ ومعجم الأدباء ١٩ / ٢٥٠

(٥) س ، ك « فجل عينك »

(٦) فى الديوان والصناعتين «تحت السنابك »

(٧) فى الديوان « حلفت إن لم » . ويريد بعثمان : عثمان بن إدريس السامى

(٨) س ، ك : « فقال وقال »

وقال البحترى :

ما إنْ يَعافُ قَذًى ولو أوْرَدْتَهُ يوماً خلائق حَمْدَوَيْهِ الأَحْولِ[١]

قال : فقيل للبحترى : إنك أخذت هذا من أبى تمام ، فقال : ما يعاب عَلَيَّ أن آخذ منه وأَتْبَعَه فيما يقول.

ومن هذا الباب قول أبى تمام :

صُبَّ الفراقُ علينا صُبَّ من كَثَبٍ عليه إسحقُ يوم الرَّوع منتقماً[٢]

ومنه قول السرى الرفَّاء :

نزع الوشاة لنـــا بسهم قطيعةٍ يُرْمى بسهم الحَيْن من يرمى به[٣]

ليت الزمان أصاب حبّ قلوبهم بقَنَا ابن عبد الله أو بحـرابه

ونظيره من القرآن : (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ، وَلِلهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ[٤] .)

---

(١) ديوانه ٢ / ٢١٨ والصناعتين ٣١٨ وزهر الآداب ٤ / ١٦٢ ومعجم الأدباء ١٩/ ٢٥٠

(٢) ديوانه ص ٣٠٢ والصناعتين ٣٦٤ وفى س « صب من كتبا » ب « صبا من كثب » ويعنى بإسحاق: إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، والى بغداد الذى كان يطلب العلماء ويمتحنهم بأمر المأمون فى فتنة خلق القرآن ، ويقال : إنه ما كان أحد أشغف بشعر أبى تمام منه ، وكان يعطيه عطاء كثيراً . وكانت وفاة إسحاق فى سنة ٢٣٥

(٣) ديوانه ص ٢١ وفيه : « ترمى بسهم قطيعة ترمى به »

(٤) سورة النحل ٤٨ — ٤٩

كأنه كان المراد أن يجرى بالقول الأول إلى الإخبار عن أن كل شىء يسجد لله عز وجل ، وإن كان ابتداء الكلام فى أمر خاصٍّ .

* * *

ومن البديع عندهم « التكرار » . كقول الشاعر :

هلَّا سألت جمــوعَ كِنْـ ـدةَ يوم ولَّوْا أَيْنَ أَيْنَا ؟[1]

وكقول الآخر :

وكانت فَزارة تَصــلَى بنا فأَوْلَى فزارةُ أَولَى فَزَارَا[2]

ونظيره من القرآن [كثير ، كقوله تعالى][3] : ﴿ فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً . إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً[4] ﴾

وكالتكرار فى قوله : ﴿ قُلْ يا أيّها الكافِرُون[5] ﴾ . وهذا فيه معنى زائد على التكرار ؛ لأنه يفيد الإخبار عن الغيب .

* * *

ومن البديع عندهم ضرب من « الاستثناء » . كقول النابغة :

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص كما فى ديوانه ص ٢٨ ومختارات ابن الشجرى ٢ / ٣٩ والصناعتين ١٤٤ وتأويل مشكل القرآن ص ١٤٣ ، ١٨٣

(٢) البيت لعوف بن عطية بن الخرع الرّبابى كما فى المفضليات ٢ / ٢١٦ وفيها « فكادبت فزارة » وفى س ، ك « أولى لها » وهو فى الصاحبى ص ١٩٤ وسيبويه ١ / ٣٣١ وتأويل مشكل القرآن ص ١٨٣

(٣) الزيادة من ا وفى م « ومن التكرار فى القرآن كثير كقوله تعالى »

(٤) سورة الانشراح ٥ — ٦

(٥) سورة الكافرون : ١

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سُيوفهم ... بهنَّ فُلولٌ من قِرَاعِ الكتائب[1]

وكقول النابغة الجعدى :

فتًى كملت أخــلاقه غير أنه ... جوادٌ فلا يُبقى من المال باقياً[2]

فتى تمّ فيــه ما يَسُرُّ صديقَه ... على أنَّ فيــه ما يسوء الأعاديَا

وكقول الآخر :

حليمٌ إذا ما الحلم زَيَّنَ أهــلَه ... معَ الحلم فى عين العدو مَهِيبُ[3]

وكقول أبى تمام[4] :

تَنصَّل ربُّها من غير جُرم ... إليكَ سِوَى النصيحة والوِدادِ[5]

* * *

ووجوه البديع كثيرة جدًّا ، فاقتصرنا على ذكر بعضها ، ونبهنا بذلك على ما لم نذكر ، كراهة التطويل ، فليس الغرض ذكر جميع أبواب البديع .

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ٤٤ والصناعتين ص ٣٢٤ والبديع ص ١١١ والعمدة ٢ / ٤٥

(٢) الأمالى ٢ / ٢ وفيه : « كملت خيراته » والشعر والشعراء ١ / ٢٥٢ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ وشرح الحماسة للتبريزى ٣ / ١٩ والبديع ص ١١١ والصناعتين ص ٣٢٤ والعمدة ٢ / ٤٦.

(٣) البيت لعريقة بن مسافع العبسى ، كما فى الأصمعيات ص ١٥ والأمالى ٢ / ١٤٩

(٤) م « كقول أبى التمام »

(٥) ديوانه ص ٨١ يعتذر إلى أحمد بن أبى دؤاد والموازنة ص ٣١٥

* * *

وقد قدر مقدرون أنه يمكن استفادةُ إعجاز القرآن من هذه الأبواب التى نقلناها ، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه .

وليس كذلك عندنا ؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعوّد والتصنع لها ، وذلك كالشعر الذى إذا عرف الإنسان طريقَه صح منه التعمُّل له وأمكنه نظمه .

والوجوه التى نقول : إن إعجاز القرآن يمكن أن يُعلم منها ؛ فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال . ويبين ما قلنا : أن كثيراً من المُحْدَثين[1] قد تصنّع لأبواب الصنعة ، حتى حَشَى جميع شعره منها ، واجتهد أن لا يفوته بيت إلّا وهو يملؤه من الصنعة ، كما صنع أبو تمام فى لاميّته :

متى أنتَ عن ذُهْلِيَّةِ الحىِّ ذَاهِلُ ... وصدرُك منها مدةَ الدهر آهلُ[2]

تُطِلُّ الطلولُ الدّمعَ فى كلِّ موقفٍ ... وتَمْثُلُ بالصبرِ الدِّيارُ المَوَاثِلُ[3]

دوارِسُ لم يَجْفُ الرَّبيعُ رُبُوعَها ... ولا مرَّ فى أَغْفَالِهَا وهو غافل[4]

---

(١) م « قد تصنعوا لأبواب الصنعة حتى حشى بعضهم شعره جميعاً منها ، واجتهد ألا يعن له بيت إلا وهو مملوء من الصنعة . . . فى كلمته »

(٢) ديوانه ص ٢٥٥ وفيه «وقلبك منها» . وذهلية : منسوبة إلى قبيلة ذهل

(٣) س « تطل طلول » ب « ويمثل »

(٤) فى اللسان ١٤ / ١١ « وكل ما لا علامة فيه ولا أثر عمارة من الأرضين والطرق ونحوها : غفل ، والجمع أغفال »

فقد سحَبتْ فيها السحابُ ذُيولَها ... وقد أخْمَلَت بالنَّور تلك الخمائل (١)
تَعَفَّيْنَ من زَادِ العُفاةِ إذا انتَحى ... على الحَىّ صَرْفُ الأزمة المتماحل (٢)
لهم سَلَفٌ سُمْرُ العَوَالِى وسَامِرٌ ... وفيهم جمالٌ لا يَغيضُ وجَامِلُ (٣)
ليـالى أضللتَ العزاء وخزّلت ... بعقلك آرَامُ الخُدُور العقائل (٤)
مِنَ الهيفِ لو أنّ الخلاخيل صُيِّرَتْ ... لها وُشُحاً جالَتْ عليه الخلاخِل (٥)
مَهَى الوحْشِ إلا أنَّ هاتا أوانسٌ ... قَنَا الخَطِّ إلا أن تلك ذوابل (٦)
هوى كان خَلْساً إنّ من أطيب الهوى ... هوى جُلْتَ فى أفْيائِه وهو خامل (٧)

ومن الأدباء من عاب عليه هذه الأبيات ونحوها على ماقد تكلف (٨) فيها من البديع، وتعمَّل من الصنعة، فقال : قد أذهب ماء هذا الشعر

---

(١) فى الديوان « فيها السحائب ذيلها . . . منها الخمائل » وم « فيها الخمائل » .

(٢) م « من دار العفاة » والديوان : « المتحامل »

(٣) سمر العوالى : الرماح . وفى اللسان ١٣ / ١٣١ « الجامل : قطيع من الابل معها رعيانها وأربابها ، قال الحطيئة :

فإن تلك ذا مال كثير فإنهم ... لهم جامل ما يهدأ الليل سامره »

(٤) س و ك « وخذلت » م « وحولت » ا « وجولت » .

(٥) راجع الموازنة ١ / ١٣٠ .

(٦) راجع الموازنة ١ / ١٤٠ .

(٧) م « فى أثنائه » والديوان « إن من أحسن الهوى » .

(٨) م « على ما تكلف » .

ورونقه وفائدته ، اشتغالًا بطلب التطبيق وسائر ما جمع فيه[١] .

وقد تعصب عليه أحمد بن عُبَيْدِ الله بن عمّار[٢] ، وأسرف حتى تجاوز إلى الغض من محاسنه .

وَلِمَا قد أُولع به من الصنعة رُبَّمَا غُطِّى على بصره حتى يُبْدع فى القبيح ، وهو يريد أن يبدع فى الحسن . كقوله فى قصيدة له أولها :

سَرتْ تَسْتَجيرُ الدَّمعَ خَوْفَ نَوَى غَدِ　　وعادَ قَتادًا عِنْدَها كلُّ مَرْقَدِ[٣]

فقال فيها :

ليعمرى لقد حُرِّرت يوم لقيته　　لو أُن القضاءَ وحدَه لم يُبَرِّدِ[٤]

وكقوله :

لو لم تدارك مُسنّ المجد مذ زمن　　بالجودوالبأس كان المجدُقد خَرِفَا[٥]

فهذا من الاستعارات القبيحة ، والبديع المقيت[٦] ! !

---

(١) فى الموازنة ص ١٣ « روى أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح قال : حدثنى محمد بن القاسم بن مهرويه قال : سمعت أبى يقول : أول من أفسد الشعر مسلم بن الوليد ، ثم اتبعه أبو تمام ، واستحسن مذهبه وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من بعض هذه الأصناف ، فسلك طريقاً وعراً ، واستكره الألفاظ والمعانى ، ففسد شعره ، وذهبت طلاوته ، ونشف ماؤه »

(٢) م « ابن عبد الله » وهو خطأ .

(٣) ديوانه ص ١٠١ وفيه « غدت تسجير »

(٤) م « لقد حردت ... لم يجرد » الموازنة ٢٥٩ الوساطة ٦٨ الموشح ٣٠٨

(٥) ديوانه ص ٢٠٤ وفيه : « لو لم تفت . . . كان الجود » الوساطة ٦٩ الموشح ٣٠٨ الصناعتين ٢٣٦ الموازنة ٢٣١

(٦) م « المعيب »

وكقوله :

تسعون ألفاً كآساد الشَّرَى نَضِجَتْ أعمارُهم قبْلَ نُضْج التِّين والعِنَبِ[١]

وكقوله :

لو لم يَمُتْ بين أطراف الرِّماح إذًا لمات، إذْ لم يمت، مِنْ شدَّة الحزن[٢]

وكقوله :

* خشنتِ عليه أختَ بنى خشين[٣] *

وكقوله :

ألا لا يمدّ الدهر كفًّا بِسَيِّءٍ إلى مجتدى نصر فتقطعْ من الزَّنْدِ[٤]

وقال فى وصف المطايا :

---

(١) ديوانه ص ١١ والموشح ٣٠٨ ، ٣٢٢ وأخبار أبى تمام ص ٣٠

(٢) ديوانه ص ٣٨٨ والوساطة ص ٦٩ وفى الموشح ص ٣٠٩ « فكأنه لو نصر أيضاً وظفر كان يموت من الغم حيث لم ينصر ويقتل ، فهذا معنى لم يسبقه أحد إلى الخطأ فى مثله » ! !

(٣) هذا الشطر مطلع قصيدة له ، وعجزه كما فى ديوانه ص ٣٢١ * وأنجح فيك قول العاذلين * وقد ورد فى الصناعتين ص ٢٦٢ والموشح ص ٣٢٤ وفى ص ٣١٠ « وهذا الكلام لا يشبه خطاب النساء فى مغازلتهن ، وإنما أوقعه فى ذلك محبته ها هنا للتجنيس ، وهو بهجاء النساء أولى » ! وفى الموازنة ص ٤٣٧ « فأما قوله : خشنت عليه ، فهو لعمرى من تجنيساته القبيحة ، وعهدت مُجّان البغداديين يقولون فيه : قليل نورة . يذهب بالخشونة »

(٤) ديوانه ص ١١٥ من قصيدة يمدح بها أبا العباس نصر بن منصور ابن بسام ، وفيه « فتقطع للزند » والبيت فى الصناعتين ٢٣٦ والوساطة ٦٨ والموازنة ص ٢٢٩ والموشح ص ٣١١

لو كان كلَّفها عبيد حاجةً ... يوماً لزَنَّى شَدْقَماً وجَدِيلا[١]

وكقوله :

فضربتَ الشتاءَ فى أَخْدَعَيْهِ ... ضَرْبة غادَرَتْهُ عَودًا رَكُوبًا[٢]

فهذا وما أشبهه إنما يحدث من غلوّه فى محبة الصنعة ، حتى يعميه عن وجه الصواب . وربما أسرف فى المطابَق والمجانَس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها ، حتى استُثْقِل نظمُه ، واستُوخِمَ رَصْفُه ، وكان التكلُّف[٣] باردًا ، والتصرف جامدًا . وربما اتفق مع ذلك فى كلامه النادر المليح ، كما يتفق البارد القبيح .

* * *

وأما البحترى فإنه لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام ، ويقلُّ التصنع له . فإذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسناً رشيقاً ، وظريفاً جميلًا . وتصنعه للمطابق كثير حسن ، وتعمُّقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة ، والرغبة فى السلاسة . فلذلك يخرج سليماً من العيب فى الأكثر .

---

(١) ديوانه ص ٢٤٣ وفيه « لأنسى شدقماً » والوساطة ص ٦٥ وفى الموشح ص ٣١١ ما أخس قوله : « لزنى شدقما وجديلا ، وما معنى تزنيته ناقة أو بهيمة »؟ وفى اللسان ١٣ / ١١٢ « وجديل وشدقم : فحلان من الإبل كانا للنعمان بن المنذر » . ويشير أبو تمام إلى قول عبيد الراعى النميرى :

شم الحوارك جنحا أعضادها ... صهباً تناسب شدقما وجديلا

(٢) ديوانه ص ٢٧ وفيه « غادرته قوداً » والوساطة ص ٦٨ والصناعيتين ص ٢٣٦ والموشح ص ٣١٣ . والقود ، والعود : البعير المسن .

(٣) س : « واستوخم رصعه وكان التكليف » .

وأما وقوف الألفاظ به عن تمام الحُسْنَى ، وقعود العبارات عن الغاية القصوى ، فشيء لا بدّ منه ، وأمر لا محيص عنه كيف وقد وقف على من هو أجل منه وأعظم قدرًا فى هذه الصنعة ، وأكبر فى الطبقة ، كامرئ القيس ، وزُهير ، والنابغة ، وابن هَرْمَة[١] . ونحن نبين تَميُّز كلامهم ، وانحطاطَ درجة قولهم ، ونزولَ طبقة نظمهم عن بديع نظم القرآن ، فى باب مفرد ، يتصوَّر به ذو الصنعة ما يجب تصوره ، ويتحقق[٢] وجهُ الإعجاز فيه ، بمشيئة الله وعونه .

---

(١) فى جميع الطبعات السابقة « والنابغة وإلى يومه ونحن نبين » ! ! !

(٢) م « ويتيقن » .

* * *

ثم رجع الكلام بنا إلى ما قدمناه، من أنه لا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن من البديع الذى ادَّعَوْه فى الشعر ووصفوه فيه .

وذلك : أن هـذا الفن ليس فيه ما يخرق العادة ، ويخرج عن العرف ، بل يمكن استدراكه بالتعلم والتدرب به والتصنع له ، كقول الشعر ، ورصف الخطب ، وصناعة الرسالة ، والحذق فى البلاغة . وله طريق يُسْلك ، ووجه يُقْصد ، وسُلَّم يُرتقى فيه إليه ، ومثال قد يقع طالبه عليه . فربَّ إنسان يتعود أن ينظم جميع كلامه شعرًا ، وآخر يتعود[١] أن يكون جميع خطابه سجعاً ، أو صنعةً متصلة ، لا يُسقط من كلامه حرفاً[٢] ، وقد يتأتّى له لما قد تعوّده[٢] . وأنت ترى أدباء زماننا يضعون[٣] المحاسن فى جزء . وكذلك يؤلفون أنواع البارع ، ثم ينظرون فيه إذا أرادوا إنشاء قصيدة أو خطبة فيحسنون[٤] به كلامهم . ومَنْ كان قد تدرَّب وتقدّم فى حفظ ذلك ، استغنى[٥] عن هـذا التصنيف ، ولم يَحْتَجْ إلى تكلف هذا التأليف ، وكان ما أشرف عليه من هذا الشأن باسطاً من باع كلامه ، وموشحاً بأنواع البديع ما يحاوله من قوله .

---

(١) س ، ك « شعرا أو يتعود » .
(٢) س ، ك « حرف وقد يباده به ما قد » .
(٣) س ، ك « يضيفون » .
(٤) س ، ك « فيحشون » .
(٥) س ، ك « اشتغل » .

وهذا طريق لا يتعذر ، وباب لا يمتنع ، وكل يأخذ فيه مأخذًا ، ويقف منه موقفاً [١] ، على قدر ما معه من المعرفة ، وبحسب ما يمدّه من الطبع .

فأما شأوُ نظم القرآن ، فليس له مثال يُحتذى عليه [٢] ، ولا إمام يُقتدى به ، ولا يصح وقوع مثله اتفاقاً ، كما يتفق للشاعر البيت النادر ، والكلمة الشَّارِدَة ، والمعنى الفذّ الغريب ، والشيء القليل العجيب ، وكما يلحق من كلامه [٣] بالوحشيات ، ويضاف من قوله إلى الأوَابِدِ . لأن ما جرى هذا المجرى ووقع هذا الموقع ، فإنما يتفق للشاعر في لمع من شعره ، وللكاتب في قليل من رسائله ، وللخطيب في يسير من خطبه . ولو كان كلّ شعره نادرًا ، ومثلاً سائرًا ، ومعنًى بديعاً ، ولفظاً رشيقاً ، وكلّ كلامه مملوءًا من رَوْنَقه ومائه ، ومحلًّى [٤] ببهجته وحسن رُوائه ، ولم يقع فيه المتوسط بين الكلامَيْن ، والمتردّد بين الطرفين ، ولا البارد [٥] المستثقَل ، والغثُّ المستنكَر — : لم يَبِنِ الإعجازُ في الكلام ، ولم يظهر [٦] التفاوت العجيب بين النظام والنظام .

---

(١) س ، ك « ويقف فيه » .
(٢) س ، ك « يحتذى إليه » .
(٣) س « بكلامه بالوحشيات » .
(٤) س ، ك « ومملا » .
(٥) م « ولا يشاركه البارد » .
(٦) س ، ك « ولم يبن » .

وهذه جملة تحتاج إلى تفصيل[١] ، ومُبْهَمٌ قد يحتاج فى بعضه إلى تفسير[١] . وسنذكر ذلك بمشيئة الله وعونه .

ولكن قد يمكن أن يقال فى البديع الذى حكيناه وأضفناه إليهم : إن ذلك باب من أبواب البراعة ، وجنسٌ من أجناس البلاغة ، وإنه لا ينفك القرآن عن فنّ من فنون بلاغاتهم ، ولا وجه من وجوه فصاحاتهم ، وإذا[٢] أورد هـذا المورد ، ووضع هذا الموضع ، كان جديراً[٢] .

وإنما لم نطلق القول إطلاقاً ، لأنا لا نجعل الإعجاز متعلقاً بهذه الوجوه الخاصّة ، ووقفاً عليها ، ومضافاً إليها ، وإن صح أن تكون هذه الوجوه مؤثرة فى الجملة ، آخذة بحظها من الحسن والبهجة ، متى وقعت فى الكلام على غير وجه التكلف المُسْتَبْشَع ، والتعمُّل المُسْتَشْنَع .

---

(١) م « إلى التفصيل ومنهم من يضطر فى بعضه إلى التفسير »

(٢) م « فإذا ورد . . . جديراً به » .

فصـــل

فى كيفية الوقوف على إعجاز القرآن

قد بينا أنه لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية ، من العجَم والتُّرك وغيرهم ، أن يعرفوا إعجاز القرآن إلا بأن[1] يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فإذا عرفوا هذا — بأن علموا أنهم قد تُحُدُّوا إلى[2] أن يأتوا بمثله ، وقُرِّعوا على ترك الإتيان بمثله ، ولم يأتوا به — : تبينوا أنهم عاجزون عنه ، وإذا عجز أهل ذلك اللسان ، فهم عنه أعجز .

وكذلك نقول : إن من كان من أهل اللسان العربى — إلّا أنه ليس يبلغ فى الفصاحة الحدَّ الذى يتناهى إلى معرفة أساليب الكلام ، ووجوه تصرُّف اللغة ، وما يعدُّونه فصيحاً بليغاً بارعاً من غيره — فهو كالأعجمىّ : فى أنه لا يمكنه أن يعرف إعجاز القرآن ، إلا بمثل ما بيَّنا أن يعرف به الفارسى الذى بدأنا بذكره ، وهو ومَنْ ليس من أهل اللسان ، سواء .

فأما من كان قد تناهى فى معرفة اللسان العربى ، ووقف على طرقها ومذاهبها — فهو يعرف القدرَ الذى ينتهى إليه وُسْعُ المتكلم من الفصاحة ، ويعرف ما يخرج عن الوُسْع ، ويتجاوز حدود القدرة —

(١) س ، ك « إلا أن » .

(٢) س ، ك « تحدوا على » .

فليس يخفى عليه إعجاز القرآن ، كما يميز بين جنس الخطب والرسائل والشعر ، وكما يميز بين الشعر الجيد والردىء ، والفصيح والبديع ، والنادر والبارع والغريب .

وهذا كما يميِّز أهلُ كل صناعة صنعتَهم ، فيعرفُ الصَّيْرَفِيُّ من النقد ما يخفى على غيره ، ويعرف البزَّازُ من قيمة الثوب وجَودته ورداءته ما يخفى على غيره ، وإن كان يَبْقَى مع معرفة هذا الشأن أمرٌ آخر ، وربما[1] اختلفوا فيه :

لأنَّ من أهل الصنعة من يختار الكلام المتين ، والقول الرَّصِين .

ومنهم من يختار الكلام الذى يَرُوق ماؤُه ، وتَرُوع بهجتُه ورُوَاؤه ، ويَسْلسُ مأخَذُه ، ويَسْلَم وجهه ومَنْفَذُه ، ويكون قريبَ المتناوَل ، غيرَ عَوِيص اللفظ ، ولا غامض المعنى .

كما [قد][2] يختار قوم ما يغمُض معناه ، ويَغْرُب لفظه ، ولا يختار ما سَهُلَ على اللسان ، وسبق إلى البيان .

ورُوى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وصف زُهَيرًا ، فقال : كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه[4] ؛ وقال لعبد بنى الحَسْحاس حين أنشدَه :

---

(١) ا ، م « آخر ربما » .
(٢) الزيادة من م .
(٣) س « ويختار » .
(٤) راجع الأغانى ٩ / ١٤٧ والشعر والشعراء ١ / ٨٧

* كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهياً[١] * :

أما إنه لو قلتَ مثلَ هذا لأجزتُك عليه[٢] .

ورُوى أن جريرًا سُئِل عن أحسن الشعر ؟ فقال : قوله

إن الشقىَّ الذى فى النار منزلُه

والفوزُ فوزُ الذى ينْجُو مِنَ النَّارِ[٣]

كأنه فضَّله لصدق معناه .

ومنهم من يختار الغلوَّ فى قول الشعر والإفراط فيه[٤] ، حتى ربما قالوا : أَحْسنُ الشعر أكذبُه ؛ كقول النَّابغة :

يَقُدُّ السَّلُوقىَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ

ويُوقِدْنَ بالصُّفَّاح نارَ الحُباحِبِ[٥]

وأكثرهم على مدح المتوسط بين المذهبين : فى الغلو[٦] والاقتصاد ، وفى المَتانة والسّلاسة .

ومنهم من رأى أن أحسن الشعر ما كان أكثر صنعةً ، وألطف

---

(١) صدره فى ديوان سحيم ص ١٦ * عميرة ودّع إن تجهزت غاديا *

(٢) فى الأغانى ٢٠ / ٣ « لو قلت شعرك كله . . . » وفى البيان والتبيين ١ / ٧٢ « لو قدمت الإسلام على الشيب لأجزتك »

(٣) من أبيات جميلة أنشدها ابن الأعرابى ، كما فى أمالى المرتضى ٢/٤٥ – ٤٦ وقبله :

ما شقوة المرء بالإقتار يقتره ولا سعادته يوماً بإكثار

(٤) سقطت كلمة « فيه » من م

(٥) ديوانه ص ٤٤ والعمدة ٢ / ٥٩ ، ٢٨٥

(٦) س « فى اللغو »

تمحلًا ؛ وأن يتخير الألفاظ الرّشيقة للمعانى البديعة والقوافى الواقعة ، كمذهب البُحْتُرِى ، وعلى ما وصفه عن بعض الكتّاب[١] [فى قوله][٢] :

فى نِظَامٍ مِنَ البلاغةِ ما شَكْ
كَ أمروٌ أنه نِظَامُ فَرِيدِ[٣]
وبديعٍ كأنه الزهَر الضَّا
حكُ فى رَوْنَقِ الربيع الجديد
حُزْنَ مُسْتَعْمَلَ الكلام اختيارًا
وتجنَّبْنَ ظُلْمَةَ التَّعقيد
ورَكِبْنَ اللفظَ القريبَ فأدْرَكْ
نَ به غايةَ المُرادِ البعيد[٤]
[كالعذَارَى غدَوْنَ فى الحُلَل الـ
بيض إذا رُحْنَ فى الخُطوط السُّود[٥]]

ويرون أن من تعدّى هذا كان سالكاً مسلكاً عاميًا ، ولم يَرَوْه شاعرًا ولا مصيباً .

---

(١) هو محمد بن عبد الملك الزيات .
(٢) الزيادة من م
(٣) ديوانه ٢ / ٦٩٣
(٤) فى ا « ورمين اللفظ »
(٥) الزيادة من م . وفيها « فالعذارى » والتصويب من الديوان

وفيما كتب [إلىَّ] الحسن بن عبد الله أبو[١] أحمدَ العَسْكَرِىُّ ؛ قال : أخبرنى محمد بن يحيى ، قال : أخبرنى عبد الله بن الحسين[٢] قال : قال لى البحترى :

دعانى علىّ بن الجَهْم ، فمضيت إليه ، فأفضنا فى أشعار المحْدَثين ، إلى أن ذكرنا شعر أشْجَع [السُّلَمى] ؛ فقال لى : إنه يُخْلِى ، وأعادها مرَّات ، ولم أفهمها ؛ وأَنِفْتُ أن أسأله عن معناها ، فلما انصرفتُ أفْكَرْتُ فى الكلمة ، ونظرتُ فى شعره ، فإذا هو ربما مرت له الأبيات مَغْسُولةً ليس فيها بيت رائع ؛ وإذا هو يريد هذا بعينه : أن يعمل الأبيات فلا يصيب فيها ببيت نادر[٣] ؛ كما أنّ الرامىَ إذا رمى برَشْقَةٍ فلم يصب بشىء[٤] ، قيل : قد أَخْلَى . قال[٥] : وكان على بن الجهم أحسن الناس علماً بالشعر[٦] .

وقوم من أهل اللغة يميلون إلى الرَّصين من الكلام ، الذى يجمع الغريب والمعانى ، مثل أبى عَمْرو بن العلاء ، وخَلَفٍ الأحمر ، والأصمعى .

---

(١) م « ابن احمد » وهو خطأ .
(٢) س « ابن الحسن » وهو خطأ .
(٣) م « فيها بيتاً نادراً »
(٤) م « شيئاً »
(٥) سقطت كلمة « قال » من م
(٦) راجع أخبار أبى تمام ص ٦٣

ومنهم من يختار الوحشىَّ من الشعر ؛ كما اختار المفضَّل[١] للمنصور من المفضَّليات ؛ وقيل : إنه اختار ذلك لميله إلى ذلك الفن .

وذكر الحسن بن عبد الله : أنه أخبره بعضُ الكتاب عن على بن العباس ؛ قال : حضرت مع البحترى مجلس عُبيد الله بن عبد الله بن طاهر[٢] ، وقد سأل البحترى عن أبى نُواس ومُسْلم بن الوليد : أيهما أشعر ؟ فقال البحترى : أبو نواس أشعر ؛ فقال عبيد الله : إن أبا العباس ثَعْلَبًا لا يطابقك على قولك ، ويفضّل مُسْلما .

فقال البحترى : ليس هذا من عمل ثَعْلب وذويه من المتعاطين لعلم الشِّعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك مَنْ دُفِعَ فى مَسْلَك[٣] الشعر إلى مضايقه ، وانتهى إلى ضَرُوراته[٤] .

فقال له عبيد[٥] الله : ورِيَتْ بك زِنادى يا أبا عُبادَةَ ، وقد وافق حكمُك حكمَ أخيك بشّار بن بُرْد فى جرير والفرزْدَق ، [فإن دِعْبلًا حدثنى عن أبى نُوَاس : أنه حضر بشَّارًا ، وقد سئل عن جرير والفرزدق ، و][٦] أيهما أشعر ؟ فقال : جرير أشعرهما ؛ فقيل له :

---

(١) م « اختار ذلك المفضل »
(٢) كان واليا على شرطة بغداد . ولد سنة ٢١٣ وتوفى سنة ٣٠٠ راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ٢ / ٣٠٤ ــ ٣٠٦
(٣) س « وقع فى سلك » م ، ا « دفع فى مسلك »
(٤) دلائل الإعجاز ص ١٩٥
(٥) س « عبد »
(٦) الزيادة من م ، ا

بماذا ؟ فقال : لأن جريرًا يشتد ، إذا شاء ، وليس كذلك الفرزدق ، لأنه يشتد أبدًا .

فقيل له : فإن يونس وأبا عُبيدةَ يفضّلان الفرزدق على جرير .

فقال : ليس هذا من عمل أولئك القوم ، إنما يعرف الشعر من يُضطر إلى أن يقول مثله ؛ وفى الشعر ضروب لم يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النَّوَارُ امرأتُه ، فناح عليها بقول جرير :

لولا الحياءُ لعادَنى اُستِعْبارُ ولزُرْتَ قبرَكِ والحبيبُ يُزَارُ[١]

ورُوى عن أبى عبيدة : أنه قال للفرزدق[٢] : مالَك لا تَنسُب كما يَنسُبُ جرير ؟ فغاب حولًا ، ثم جاء فأنشد :

يا أختَ ناجيةَ بنِ سامَةَ إننى أخشى عليكِ بنىَّ إنْ طلبُوا دَمى[٣]

والأعدل فى الاختيار ما سلكه أبو تمام[٤] من الجنس الذى جمعه فى كتاب « الحماسة » ، وما اختاره من « الوحشيات » ؛ وذلك أنه تنكَّبَ[٥] المستنكَر الوحشىَّ ، والمبتذَل العامىَّ ، وأتى بالواسطة .

وهذه طريقةُ مَن يُنصفُ فى الاختيار ، ولا يَعدِلُ به غرض[٦]

---

(١) ديوانه ص ١٩٩ والصناعتين ص ١٧ والشعر والشعراء ١/٤٦٤ .
(٢) م « قال قيل للفرزدق » .
(٣) ديوانه ص ٧٧٨ .
(٤) م « أبو التمام » .
(٥) س ، ك « تنكر » .
(٦) م « به إلى غرض » .

يخص . لأن الذين اُختاروا الغريب فإنما اُختاروه لغرض لهم فى تفسير ما يشتبه على غيرهم ، وإظهارِ[١] التقدم فى معرفته ، وعجز غيرهم عنه ؛ ولم يكن قصدُهم جيِّدَ الأشعارِ لشيء يَرجعُ إليها فى أنفسها .

ويبيِّن هذا : أن الكلام موضوعٌ للإبانة عن الأغراض التى فى النفوس . وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقربَ إلى الدلالة على[٢] المراد ، وأوضحَ فى الإبانة عن المعنى المطلوب ، ولم يكن مُسْتَكْرَهَ المَطْلَعِ على الأُذُن ، و [لا][٣] مستنكر المَوْرِدِ على النفس ، حتى يتأبَّى بغرابته[٤] فى اللفظ عن الإفهام ، أو يمتنع بتعويص[٥] معناه عن الإبانة . ويجب أن يتنكَّب ما كان عامىَّ اللفظ[٦] ، مُبْتذَلَ العبارة ، رَكِيكَ المعنى ، سَفْسَافِىَّ الوضْع ، مُجْتَلَبَ التَّأْسِيس[٧] على غير أصلٍ ممهَّد ، ولا طريقٍ مُوطَّد .

وإنما فُضِّلت العربية على غيرها ، لاعتدالها فى الوضع . لذلك وضع أصلها على أن أكثرها [هو][٨] بالحروف المعتدلة ، فقد أهملوا الألفاظ

---

(١) م « فى نفسه لكونه مما يشتبه على غيرهم ولإظهار » .
(٢) ا « عن » .
(٣) الزيادة من م .
(٤) م « لغرابته » .
(٥) م « لعويص » .
(٦) س ، ك « ما كان عليه اللفظ » .
(٧) م « سفسافاً فى الوضع مختلف التأسيس » .
(٨) الزيادة من م .

المُسْتَكْرَهة فى نظمها ، وأسقطوها من كلامهم ، وجعلوا عامّة[١] لسانهم على الأَعْدَل . ولذلك صار أكثر كلامهم من الثلاثى ، لأنهم بَدءوا بحرف وسكتوا على آخر ، وجعلوا حرفاً وُصْلَةً بين الحرفين ، ليتمّ الابتداء والانتهاء على ذلك ، والثنائى أقل ، وكذلك الرباعى والخماسى أقل ؛ ولوكان كلُّه ثنائيًّا لتكرّرت الحروف ؛ ولوكان كلُّه رباعيًّا أو[٢] خماسيًّا لكثرت الكلمات .

وكذلك بنى أمرُ الحروف التى ابتدئ بها السُّوَرُ على هذا . فأكثر هذه السور التى ابتدئت بذكر الحروف ، ذُكِرَ فيها ثلاثةُ أحرف ، وما هو أربعة أحرف سورتان ، وما ابتُدئ بخمسة أحرف سورتان .

فأما ما بدئ بحرف واحد فقد اختلفوا فيه :

فمنهم من لم يجعل ذلك حرفاً ، وإنما جعله فعلاً واسماً لشىء خاصّ .

ومن جعل ذلك حرفاً قال : أراد أن يحقق الحروف مُفردَها ومنظومَها .

ولضيق ما سوى كلام العرب ، أو لخروجه عن الاعتدال ، يتكرّر[٣] فى بعض الألسنة الحرفُ الواحد فى الكلمة الواحدة والكلمات المختلفة كثيراً[٤] ؛ كنحو تكرر الطاء والسين فى لسان

---

(١) س : « فجرى لسانهم » .
(٢) م « رباعيًّا وخماسيًّا » .
(٣) س ، ك « يتكرر » .
(٤) سقطت هذه الكلمة من م

يُونَان ؛ وكنحو الحروف الكثيرة التى هى[1] اسم لشىء واحد فى لسان التُّرك . ولذلك لا يمكن أن يُنْظَمَ من الشعر فى تلك الألسنة على الأعاريض التى تُمكنُ فى اللغة العربية .

والعربيةُ أشدّها تمكناً ، وأشرفُها تَصَرُّفاً وأعدلُها ؛ ولذلك[2] جعلتْ حِلْيةً لنظم القرآن ، وعَلِقَ بها الإعجازُ ، وصار دلالةً فى النبوة[3] .

* * *

وإذا كان الكلام إنما يفيد الإبانة عن الأغراض القائمة فى النفوس ، التى لا يمكن التوصّلُ إليها بأنفسها وهى محتاجة إلى ما يعبر عنها ؛ فما كان أقربَ فى تصويرها ، وأظهر فى كشفها للفهم الغائب عنها ، وكان مع ذلك أحكم فى الإبانة عن المراد ، وأشدَّ تحقيقاً فى الإيضاح عن المَطْلَب[4] وأعجبَ فى وضعه ، وأرْشَقَ فى تصرُّفه ، وأبرعَ فى نظمه — : كان أولى وأحقَّ بأن يكون شريفاً .

وقد شبّهوا النطق بالخطّ ، والخطُّ يحتاج مع بيانه إلى رشاقة

---

(١) م « الكثيرة هى » .
(٢) م « وكذلك » .
(٣) س ، ك « وصارت دلالة فى النبوة » .
(٤) س « عن الطلب » .

وصحة ، [وملاحة[١]] ولطف ، حتى يحوز الفضيلة ويجمعَ الكمال .

وشبَّهوا الخطّ والنطقَ بالتصوير ؛ وقد أجمعوا أن من أحْذَق المُصَوِّرين ، مَن صوَّر لك الباكِيَ المُتَضَاحِكَ ، والباكيَ الحزينَ ، والضّاحكَ المُتَباكِيَ ، والضاحك المستبشر . وكما أنه يحتاج إلى لطف يد فى تصوير هذه الأمثلة ، فكذلك يحتاج إلى لُطْف فى اللسان والطبع فى تصوير ما فى النَّفْس للغير .

وفى جملة الكلام ما تَقْصُرُ[٢] عبارته وتَفْضُل معانيه ؛ وفيه ما تقصر معانيه[٣] وتفضل العباراتُ ؛ وفيه ما يقع كل واحد منهما وفقاً للآخر ، ثم ينقسم ما يقع وفقاً إلى أنه قد يفيدها على [جملة ، وقد يفيدها على][٤] تفصيل .

وكل واحد منهما قد ينقسم إلى ما يفيدها على أن يكون كل واحد منهما بديعاً شريفاً ، وغريباً لطيفاً ؛ وقد يكون كل واحد منهما مُسْتَجْلَباً متكلَّفاً ، ومصنوعاً مُتَعَسَّفاً ؛ وقد يكون [كل][٥] واحد منهما حسناً رشيقاً ، وبهيجاً نَضِيراً[٦] ؛ وقد يتفق أحد الأمرين دون الآخر ؛ وقد

---

(١) الزيادة من ا ، م . ومكانها بياض فى ك .

(٢) س ، ك « الكلام إلى ما تقصر » .

(٣) س ، ك « المعانى »

(٤) الزيادة من ا ، م .

(٥) الزيادة من ا ، م ، ك .

(٦) ك ، م « نظيرا » .

يتفق أن يسلم الكلام والمعنى من غير رشاقة ولا نضارة فى واحد منهما ؛ [و][1] إنما يُمَيِّزُ من يُمَيِّزُ ، ويعرفُ مَنْ يَعرِفُ . والحكمُ فى ذلك صعب شديد ، والفصل فيه شأو بعيد . وقد قلَّ من يميز أصناف الكلام ؛ فقد حكى عن طبقة أبى عُبَيْدَةَ وخَلَف الأحمر وغيرهما فى زمانهما[2] ، أنهم قالوا : ذهب من يعرف نَقْد[3] الشعر .

وقد بيّنّا قبل هذا اختلافَ القوم فى الاختيار ، وما يجب أن يجمعوا عليه ، ويرجعوا عند التحقيق إليه ؛ فكلامُ المُقْتَدِرِ نَمَطٌ ، وكلام المتوسطِ[4] بابٌ ، وكلام المطبوع له طريق ، وكلام المتكلِّف له منهاج ، والكلامُ المصنوع المطبوع له بابٌ .

ومتى تقدَّم الإنسان فى هــذه الصنعة لم تَخْفَ عليه هذه الوجوهُ ، ولم تشتبه عنده هــذه الطرقُ ؛ فهو يميّز قدرَ كل متكلم بكلامه[5] ، وقَدْرَ كلِّ كلام فى نفسه ؛ ويُحِلُّه محلَّه ، ويعتقد فيه ما هو عليه ، ويحكم فيه[6] بما يستحق من الحكم .

---

(١) الزيادة من ك ، م .

(٢) س ، ك « وغيرهم فى زمانهم » .

(٣) م « يعرف هذا الشعر » .

(٤) س ، ك « وكلام المتوسع باب » .

(٥) سقطت هذه الكلمة من م .

(٦) م « عليه ما يستحق » .

وإن كان المتكلم يُجوِّد في شيء دون شيء، عرف ذلك منه، وإن كان[1] يعم إحسانه، عرف[2].

ألا ترى أن منهم من يجوّد فى المدح دون الهجو، ومنهم من يجوّد فى الهجو وحده[3]؛ ومنهم من يجوّد فى المَزْح[4] والسُّخْف؛ ومنهم من يجود فى الأوصاف.

والعالم لا يَشِذُّ عنه [شيء من ذلك، ولا تخفى عليه][5] مراتب هؤلاء، ولا تذهب عليه أقدارهم؛ حتى إنه إذا عرف طريقة شاعر فى قصائدَ معدودة، فأُنْشِد غيرَها من شعره — : لم يَشُكَّ أن ذلك من نَسْجِه، ولم يَرْتَب فى أنها[6] من نظمه؛ كما أنه إذا عرف خطّ رجل لم يشتبه عليه خطُّه حيث رآه[7] من بين الخطوط المختلفة، وحتى يميِّزَ بين رسائلِ كاتب وبين رسائل غيره؛ وكذلك أمرُ الخُطَبِ.

فإن اشتبه عليه البعض، فهو لاشتباه الطريقين، وتماثُل الصّورتين. كما قد يشتبه شعر أبى تَمَّام بشعر البُحْتُرِى: فى القليل الذى يترك أبو تمام فيه التّصنُّع، ويقصد فيه التّسَهُّل، ويسلك الطريقة الكتابية،

---

(١) م «ولو كان».
(٢) م «عرفه».
(٣) م «فى الهجو دون المدح، ومنهم من يعكس».
(٤) س، ك «فى المدح».
(٥) الزيادة من م.
(٦) س، ك «فى أنه».
(٧) م «يراه».

ويتوجّه في تقريب الألفاظ وترك تَعْويص المعانى ، ويتفق له مثل بهجة أشعار البُحْتُرِى وألفاظه .

ولا يخفى على أحد يميز هـذه الصنعة سَبْكُ أبي نواس [من سبك مسلم][1]، ولا نسجُ ابن الرُّومى من نسج البحترى ؛ وينبهه ديباجة[2] شعر البحترى ، وكثرةُ مائه ، وبديعُ رَوْنَقِه ، وبهجةُ كلامه ؛ إلا فيما يسترسل فيه ، فيشتبه بشعر[3] ابن الرُّومى ؛ ويحركه ما لشعر[4] أبي نواس من الحلاوة والرِّقة والرَّشاقة والسَّلاسة ، حتى يُفرق بينه وبين شعر مُسْلِم .

وكذلك يميز بين شعر الأَعْشَى فى التّصرُّف ، وبين شعر امرئ القيس ، وبين شعر النّابغة وزُهَير ، وبين شعر جَرِير والأخْطَل ، والبَعِيث والفَرَزْدَق . وكلٌّ له منهج معروف ، وطريق مألوف .

ولا يخفى عليه فى زماننا الفَصْلُ بين رسائل عبد الحميد وطبقته ، وبين طبقة من بعده ؛[5] حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد ، وبين رسائل أهل عصره ومَنْ بعدَه ممن برع فى صنعة الرّسائل ،

---

(١) الزياده من م .
(٢) ا « وتنبهه » م « وشبهه » .
(٣) م « فيشبه بعفو شعر » .
(٤) م « فى شعر » .
(٥) سقط ما بين الرقمين من م .

وتقدّم فى شأوها ، حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين ، [و] حتى خلَّص لنفسه طريقة[١] ، وأنشأ لنفسه مِنْهاجاً ؛ فسلك تارةً طريقةَ الجاحِظ ، وتارة طريقةَ السّجع ، وتارةً طريقةَ الأصْل ؛ وبرَع فى ذلك باقتداره ، وتقدَّم بِحِذْقِهِ ؛ ولكنّه لا يخفى مع ذلك على أهل الصّنعة طريقُه من طريق غيرِه ؛ وإن كان قد يشتبه البعض ، ويَدِقُّ القليل ، وتَغْمُضُ الأطراف ، وتشذُّ النواحِي .

وقد يتقارب[٢] سَبْكُ نَفَرٍ من شعراء عصر ، وتتدانى رسائل كتّاب دهر ، حتى تشتبه اشتباهاً شديداً ، وتتماثلَ تماثلًا قريباً ؛ فيغمض الأصل[٣] .

وقد يَتَشاكَلُ الفرع والأصل ، وذلك فيما لا يتعذر دِراكُ[٤] أَمَدِه ، ولا يَتصعَّبُ طِلَابُ شَأْوه ، ولا يتمنع بلوغ غايته ، والوصول إلى نهايته ؛ لأنَّ الذى يتفق من الفصل[٥] بين أهل الزمان إذا تفاضلوا [فى سبق[٦]] ، وتفاوتوا فى مِضْمار ؛ فصلٌ قريب ، وأمرٌ يسير .

وكذلك لا يخفى عليهم معرفة سارق الألفاظ و[لا] سارق[٧]

---

(١) م « طريقاً » .
(٢) ا ، م « وقد يتفاوت » .
(٣) س « الفصل » ك « الفضل » .
(٤) س « إدراك » ا « أمره » .
(٥) م « الفضل » .
(٦) الزيادة من م ومكانها بياض فى ك .
(٧) الزيادة من م .

المعانى ، ولا من يخترعها ، ولا من يُلِمُّ بها ، ولا من يجاهر بالأخذ ممن يُكاتم به ، ولا من يخترع الكلام اختراعاً ، ويَبْتَدِهُهُ أبتداهاً ، ممن يُروِّى[1] فيه ، ويُجيلُ الفكر فى تَنْقِيحِه ، ويصبر عليه ، حتى يَتَخَلَّصَ له ما يريد ، وحتى يتكرر نظره فيه .

قال أبو عُبيدة : سمعت أبا عمرو يقول : زُهيرٌ والحُطيئة وأشباههما عَبيدُ الشِّعرِ ؛ لأنهم نقَّحوه ، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين[2] .

وكان زُهَير يسمِّى كُبْر شعره « الحَوْلِيَّات المُنَقَّحة » . وقال عدِىّ ابن الرِّقَاع :

وقصيدةٍ قد بِتُّ أَجْمَعُ بينها ... حتى أُقَوِّمَ ميلَها وسِنادَها[3]

نَظَرَ المُثَقِّفِ فى كُعُوبِ قَنَاتِه ... حتى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَها

وكقول سُوَيْد بن كُرَاع :

أَبِيتُ بِأَبْوابِ القوافى كأنّما

أُصَادِى بها سِرْباً من الوَحْش نُزَّعَا[4]

ومنهم من يُعرف بالبديهة وحِدَّةِ الخاطر ، ونفاذِ الطبع وسرعة

---

(١) م « ثم يروى »

(٢) الشعر والشعراء ١ / ٢٣ ، ٩٤ والبيان والتبيين ٢ / ١٢

(٣) الموشح ص ١٣ والأغانى ٨ / ١٨٤ والشعر والشعراء ٢ / ٦٠١

(٤) الأغانى ١١ / ١٢٩ وفيه « شربا » وهو خطأ ، والبيان والتبيين ٢ / ١٢ والشعر والشعراء ١ / ٢٣ ، ٢ / ٦١٦ والمصاداة : المداراة

النّظْم ؛ يَرْتَجِلُ القول ارتجالًا ، ويطبعه[١] عَفْوًا صَفْوًا ؛ فلا يَقْعُدُ به عن قوم قد تعبوا وكدُّوا أنفسهم ، وجاهَدُوا خواطرهم .

وكذلك لا [يمكن أن][٢] يخفى عليهم الكلامُ المُلْوِىّ ، واللفظ الملوكىّ ؛ كما لا يخفى عليهم الكلام العامىّ ، واللفظ السّوقىّ ؛ ثم تراهم يُنزلون الكلام تنزيلًا ، ويُعْطُونَهُ — كيف تصرف — حُقوقَهُ ، ويعرفون مراتبه ؛ فلا يخفى عليهم ما يَختصّ به كل فاضل تقدّم فى وجه من وجوه النظم ، من الوجه الذى لا يُشاركه فيه غيره ، ولا يُساهِمُهُ سواه .

أَلَا تراهم وصفوا زُهيْرًا بأنه أمْدَحُهم وأشدُّهم أَسْرَ شِعْرٍ[٣] ؛ قاله أبو عُبَيْدة[٤] ؟

ورُوى أن الفَرَزْدَقَ انْتَحَلَ بيتاً من شعر جَرِير ، وقال : هذا يشبه شعرى .

فكان هؤلاء لا يخفى عليهم ما قد نسبناه إليهم من المعرفة بهذا الشأن ؛ وهذا كما يعلم البزّازُ أنّ[٥] هذا الدِّيباج عُمِل بتُسْتَرَ[٦] ، وهذا

(١) م « ويطيعه » .
(٢) الزيادة من م .
(٣) س « أثر » .
(٤) الشعر والشعراء ١ / ٩٣ .
(٥) س ، ك « البزازون » .
(٦) مدينة من كور الأهواز ، فتحها أبو موسى الأشعرى فى عهد عمر . وكانت بها مصانع للثياب والعمائم ، معجم البلدان ٢ / ٣٧٧ وابن خلكان ٢ / ١٥٠ .

لم يعمل بِتُستَر ؛ وأن هذا من صنعة فلان دون فلان ، ومِنْ نسج فلان دون فلان ؛ حتى لا يخفى عليه ، وإن كان قد يخفى على غيره .

ثم إنهم يعلمون أيضاً من له سَمْتٌ بنفسه ، ورَفْتٌ برأسه ؛ ومن يقتدى فى الألفاظ أو فى المعانى أو فيهما بغيره ، ويجعل سواه قدوةً له ؛ ومن يُلِم فى الأحوال بمذهب غيره ، ويَطُورُ[1] فى الأحيان [بِجَنَبَاتِ كلامه][2] .

وهذه أمور مُمَهَّدَة عند العلماء ، وأسباب معروفة عند الأدباء ؛ وكما يقولون : إن البُحْتُرِىّ يغير على أبى تمام إغارة ، ويأخذ منه صريحاً وإشارةً ؛ ويستأنس بالأخذ منه بخلاف[3] ما يستأنس بالأخذ من غيره ، ويألَف اتّباعه كما لا يألف اتّباع سواه ؛ وكما كان أبو تمام يُلِمُّ بأبى نُواس ومُسْلم ؛ وكما يعلم أن بعض الشعراء يأخذ من كل أحد ولا يتحاشى ، ويؤلِّف ما يقوله من فِرَق شتّى .

وما الذى نفع المُتَنَبِّىَ جُحُودُه الأخذَ ، وإنكارُه معرفةَ الطّائيَّين ؛ وأهل الصنعة يدلُّون على كلّ حرفٍ أَخذَه منهما جِهارًا ، أو أَلَمَّ بهما فيه سِرَارًا ؟ !

---

(١) س ، ك « ويأتى » .
(٢) الزيادة من ا ، م ومكانها بياض فى ك .
(٣) م « خلاف » .

وأما ما لم يأخذ عن الغير ، ولكن سلك النمطَ ، وراعى النَّهْجَ ؛ فهم يعرفونه ، ويقولون : هذا أشبه به من التَّمرة بالتمرة ، وأقرب إليه من الماء إلى الماء ؛ وليس بينهما إلا كما بين الليلة والليلة . فإذا تباينا وذهب أحدهما فى غير مذهب صاحبه ، وسلك فى غير جَانبِه[1] ؛ قيل : بينهما ما بين السماء والأرض ، وما بين النجم والنون[2] ، وما بين المشرق والمغرب .

* * *

وإنما أطلت عليك ، ووضعتُ جميعَهُ بين يديك ؛ لتعلم أن أهل الصنعة يعرفون دقيقَ هـذا الشأن وجليلَه ، وغامضَه وجليَّه ، وقريبَه وبعيدَه ، ومُعْوجَّه ومستقيمَه . فكيف يخفى عليهم الجنس الذى هو بين النّاس مُتداوَل ، وهو قريب مُتناوَل ؛ من أمر يخرج عن أجناس كلامهم ، ويبعد عما هو فى عرفهم ، ويفوت مَوَاقِعَ قُدَرِهِمْ ؟ !

وإذا اشتبه ذلك فإنما يشتبه على ناقص فى الصنعة ، أو قاصِرٍ عن معرفة طرق الكلام الذى يتصرَّفون فيه ويُدِيرُونَه[3] بينهم ولا يَتجاوزُونه ؛ فلكلامهم سُبُلٌ مضبوطة ، وطرقٌ معروفة محصورة .

وهذا كما يشتبه على من يدعى الشعرَ — من أهل زماننا — والعلمَ بهذا

---

(١) م ، « مسلكه » .

(٢) فى اللسان ١٧ / ٣١٦ « النون الحوت ، والجمع أنوان ونينان » .

(٣) م « ويسد يرونه » .

الشأن ؛ فيدعى أنه أشعر من البُحْتري ، ويتوهم أنه أدقّ مسلكاً من أبى نُوَاس ، وأحسن طريقاً من مُسْلِم ! وأنت تعلم أنهما متباعدان ، وتتحقق أنهما لا يجتمعان ؛ ولعل أحدهما إنما يلحظ غبار[١] صاحبه ، ويطالع ضياء نجْمِه ، ويُرَاعِي خُفُوقَ[٢] جناحه ، وهو راكدٌ فى موضعه . ولا يَضُرُّ البحتريَّ ظَنُّه ، ولا يُلْحِقه بشأوِه وَهْمُه[٣] .

فإن اشتبه على متأدّب أو مُتَشاعر أو ناشئ أو مُرْمِدٍ ، فصاحةُ القرآن ، وموقعُ بلاغته ، وعجيب براعته — : فما عليك منه ؛ إنما يخبر عن نقصه[٤] ، ويدلُّ على عجزه ، ويُبين عن جهله ، ويُصرِّح[٥] بسخافة فهمِهِ ، وركاكة عقله .

وإنما قدّمنا[٦] ما قدّمناه فى هـذا الفصل ، لتعرف أن ما ادّعيناه من معرفة البليغ بعلوِّ شأن القرآن وعجيبِ نظمه وبديع تأليفه ، أَمْرٌ لا يجوز غيرُه ، ولا يحتمل سواه ، ولا يشتبه على ذى بصيرة ، ولا يَخِيلُ عند[٧] أخى معرفة ؛ كما يعرف الفَصْل بين طبائع[٨] الشعراء

---

(١) س : « عبارة » ا « طريقة » .
(٢) س ، ك « حفوف » .
(٣) م « وهمته » .
(٤) م « نقصانه » .
(٥) م « ويبوح » .
(٦) م « وإنما قلنا » .
(٧) م « ولا يختل على » .
(٨) ك ، ا ، م « طباع » .

من أهل الجاهلية ، وبين المخضرمين ، وبين المحدَثين ؛ ويميز بين من يجرى على شاكلةِ طبعه وغريزة نفسه ، وبين من يشتغل بالتكلّف والتّصنُّع ، وبين من يصير التكلُّف له كالمطبوع ، وبين من كان مطبوعه كالمُتَعمَّل[١] المصنوع .

هيهات هيهات ! ! هذا أمر — وإن دَقّ — فله قوم يقتلونه علماً ، وأهل يحيطون به فهماً ؛ ويُعرّفونه[٢] إليك إن شئت ، ويُصوّرونه لديك إن أردت ، ويُجَلُّونه على خواطرك إن أحببت ، ويَعرضونه لفطنتك إن حاولت ؛ وقد قال القائل :

للحرب والضَّرْب أقوامٌ لها خُلِقُوا ... وللدَّواوين كُتّابٌ وحُسَّابُ

ولكل عمل رجال ، ولكل صنعة ناس ، وفى كل فرقة الجاهل والعالم والمتوسط ؛ ولكن قد قلّ من يميز فى هذا الفن خاصَّة ، وذهب من يُحصِّل فى هذا الشأن ، إلا قليلًا .

فإن كنت ممن هو بالصفة التى وصفناها — من التناهى فى معرفة الفصاحات ، والتحقق[٣] بمجارِى البلاغات — فإنما يكفيك التأمل ، ويغنيك التَّصوّر .

وإن كنت فى الصنعة مُرْمِدًا ، وفى المعرفة بها متوسطاً ؛ فلا بُدَّ

---

(١) س ، ك « كالتعمل » .
(٢) م « ويقدمونه » .
(٣) م « والتحقيق » .

لك من التقليد ، ولا غنى بك عن التسليم . إن الناقص فى هذه الصنعة كالخارج عنها ، والشادىَ فيها كالبائن منها .

فإن أراد أن يقرب عليه أمرًا[١] ، ويفسح له طريقاً ، ويفتح له باباً — ليعرف به إعجاز القرآن — فإنا نضع بين يديه الأمثلة ، ونعرض عليه الأساليب ، ونُصوِّر له صور[٢] كل قَبيل من النّظم والنثر ، ونُحْضِرُه[٣] من كلّ فن من القول شيئاً يتأمله حق تأمله ، ويراعيه حق رعايته[٤] ؛ فيستدل استدلال العالم ، ويستدرك استدراك[٥] الناقد ، ويقع[٦] له الفَرْقُ بين الكلام الصَّادِر عن الرُّبوبيّة ، الطّالع عن الإلهيّة ؛ الجامع بين الحُكْم والحِكَم ، والإخبار عن الغيوب والغائبات ؛ والمتضمّن لمصالح الدنيا والدين ، والمُسْتَوعِب لِجَلِيَّة اليقين ؛ والمعانى المخترعة فى تأسيس أصل الشريعة وفروعها بالألفاظ الشريفة ؛ على تَفَنُّنِها وتصرُّفها . ونَعْمِدُ إلى شىء من الشعر المُجْمَع عليه ، فَنبيّنُ وجه النقص فيه ، ونَدُلُّ على انحطاط رتبته ، ووقوع أبواب الخلل فيه ؛ حتى إذا تأمل ذلك ، وتأمل ما نذكره — من تفصيل إعجاز القرآن وفصاحته ، وعجيب براعته — انكشف له واتضح ، وثبت

---

(١) م « أمداً » .

(٢) س « صورة » .

(٣) س « ونحضر له » .

(٤) س ، ك « مراعاته » .

(٥) م « الاستدلال » .

(٦) س « ويقطع » .

ما وصفناه لديه ووضح؛ وليعرف حــدود البلاغة، ومواقع البيان والبراعة، ووجه التقدم فى الفصاحة.

وذكر الجاحظ فى كتاب البيان والتَّبْيين[١] : أن الفارسىّ سُئل، فقيل له : ما البلاغة؟ فقال : معرفة الفصْل من الوصل.

وسئل اليُونانىّ عنها؟ فقال : تصحيحُ الأقسام، واختيارُ الكلام.

وسئل الرّومىّ عنها؟ فقال : حسْنُ الاقتضاب عند البَداهَة[٢]، والغزارةُ يوم الإطالة.

وسئل الهندىّ عنها؟ فقال : وضوحُ الدلالة، وانتهازُ الفرصة، وحسْنُ الإشارة.

وقال مرّةً[٣] : ألتماسُ حسن الموقع، والمعرفةُ بساعات[٤] القول، وقلةُ الخُرْق بما[٥] التبس من المعانى، أو غمض وشرد من اللفظ وتعذّر؛ وزينته[٦] أن تكون الشمائل موزونة، والألفاظ معدَّلة، واللهجة نقية[٧]؛

---

(١) ١ / ٨٨

(٢) م « البديهة »

(٣) فى البيان والتبيين « قال : وقال مرّة : جماع البلاغة التماس . . . »

(٤) س « بساحات » م « بتباعات »

(٥) م « وقلة الحذف فيما »

(٦) فى البيان ١ / ٨٩ « ثم قال : وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته وسناؤه أن تكون الشمائل »

(٧) م « والبهجة نقية » وفى البيان بعد ذلك : « فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت ، فقد تم كل التمام ، وكمل كل الكمال »

وأن[١] لا يكلمَ سيدَ الأَمَة بكلام الأَمَة ؛ ويكونَ فى قوله فضْلُ[٢] التصرّف فى كلّ طبقة ؛ ولا يدققَ المعانى كلّ التدقيق ؛ ولا يُنقِّحَ الألفاظ كلّ التنقيح ، و [لا] يصفيَها كلّ التصفية ، و [لا] يهذبَها بغاية التهذيب[٣] .

وأما البراعةُ فهى فيما يذكر[٤] أهل اللغة : الحذق بطريقة الكلام وتجويده . وقد يوصف بذلك كلُّ متقدم فى قول أو صناعة .

وأما الفصاحةُ فقد اختلفوا فيها :

فنهم من عبّر عن معناها بأنه : ما كان جَزْلَ اللفظ ، حَسَنَ المعنى .

وقد قيل : معناها : الاقتدار على الإبانة عن المعانى الكامنة فى النفوس ، على عبارات جليَّة ، ومعانٍ نقيَّة بهية .

* * *

والذى يصوِّر عندك ما ضَمِنَّا تصويرَه ، ويحصِّل لديك[٥] معرفته — إذا كنتَ فى صنعة الأدب متوسطاً ، وفى علم العربية متبيّناً[٦] — :

---

(١) هذا الكلام من الصحيفة التى زعم الجاحظ أن فيها البلاغة عند الهند. وأولها كما ذكر فى البيان ١ / ٩٢ « أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون فى قواه ... »

(٢) م: « فصل »

(٣) راجع بقية الصحيفة المزعومة فى البيان ١ / ٩٢

(٤) س ، ك: « البراعة ففيها »

(٥) س ، ك: « عندك »

(٦) م: « مشاركا »

أن تنظر أولًا فى نَظْم القرآن ، ثم فى شىء من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، فتعرف الفَصْلَ بين النظمين ، والفرقَ بين الكلامين . فإن تبيَّن لك الفصلُ ، ووقعتَ على جليّة الأمر وحقيقةِ الفَرْق — : فقد أدركتَ الغرض ، وصادفتَ المقصد ؛ وإن لم تفهم الفرقِ ، ولم تقع[1] على الفصل — : فلا بد لك من التقليد ، وعلمتَ أنك من جملة العامة ، وأن سبيلَك سبيلُ من هو خارجٌ عن أهل اللسانِ .

(١) ك : « الفاصلة »

خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم

روى طَلْحَةُ بن عُبيد الله قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على منبره يقول :

« ألا أيها[1] الناس؛ تُوبُوا إلى ربّكم قبلَ أنْ تموتوا ، وبَادِرُوا الأعمالَ الصالحةَ قبلَ أنْ تُشْغَلُوا ؛ وصِلُوا الذى بينكم وبيْنَ ربِّكم — بكثرةِ ذكرِكم له ، وكثرةِ الصّدقةِ فى السرِّ والعلانيةِ — : تُرْزَقُوا وتُؤْجَرُوا وتُنْصَرُوا .

واعلموا أن اللهَ عز وجل قد اُفْتَرَضَ عليكم الجمعةَ فى مَقامى هذا ، فى عامى هذا ، فى شهرى هذا ؛ إلى يوم القيامة : حياتى ومن بعد[2] موتى ؛ فمن تَرَكها وله إمامٌ : فلا جَمَعَ الله له شَمْلَه ، ولا بارَكَ له فى أمره ؛ ألَا ولا حجَّ له ، ألا ولا صومَ له ، ألَا ولا صدقةَ له ، ألَا ولا بِرَّ له .

ألَا ولا يَؤُمُّ أعْرَابِىٌّ مُهاجِرًا ، ألَا ولا يَؤُمُّ فَاجِرٌ مؤمنًا ؛ إلا أنْ يَقْهَرَهُ سلطانٌ يخاف سيفَه أو سَوطَه » .

---

(١) م : « ألا يا يها »

(٢) م : « وبعد »

خطبة له صلى الله عليه وسلم

« أيها[1] الناس ؛ إن لكم مَعَالِمَ ، فانتهوا[2] إلى مَعَالِمكم ، وإنَّ لكم نهايةً ، فانتهوا إلى نهايتكم .

إنّ المؤمن بيْن مخافتيْن : بيْنَ أجلٍ قد مضى ، لا يَدْرِى ما اللهُ صَانعٌ فيه ؛ وبين أجلٍ قد بقى ، لا يدرى ما اللهُ تعالى قَاضٍ عليه فيه .

فَليأخذِ العبدُ لنفسه من نفْسِه ، ومن دنيـــاه لآخرتِه ؛ ومن الشَّبيبَةِ[3] قبلَ الـكِبَرِ ، ومن الحياة قبلَ الموتِ .

والذى نَفْسُ محمدٍ بيَدِهِ : ما بَعْدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ ، ولا بعد الدنيا دارٌ ، إلا الجنّةُ أو النّارُ » .

خطبة له صلى الله عليه وسلم

« إنّ الحمد لله ، أحمَدُه وأستعينُه ؛ نعوذُ بالله من شُرُور أنفسِنا ، وسيِّآتِ أعمالِنا ؛ مَنْ يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، ومن يُضْلِلْ فلا هَادِىَ له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ[4] له .

---

(١) فى البيان والتبيين ٣٠٢/١ «خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات : حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ...» . وهى فى عيون الأخبار ٢٣١/٢

(٢) س : « فانتبهوا »

(٣) فى البيان « ومن الشيبة قبل الكبرة »

(٤) من أول الخطبة إلى هنا هو صدر خطبته صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ، كما فى العقد الفريد ٥٧/٤ والبيان والتبيين ٣١/٢

إنّ أحْسَنَ الحديثِ كتابُ الله ؛ قد أفلح مَن زَيَّنَهُ الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ؛ إنه أحسن[1] الحديثِ وأبْلَغُهُ .

أحِبُّوا مَنْ أحبَّ الله ، وأحِبُّوا اللهَ من كلّ قلوبِكم ؛ ولا تَمَلُّوا كلامَ الله وذِكْرَه ، ولا تَقْسُوا عليه قلوبُكم . اعْبُدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً .

اتقوا الله حقَّ تُقَاتِه ، وصَدِّقُوا صَالِحَ ما تَعْمَلُون بأفْواهِكم ؛ وتَحَابُّوا بِرُوحِ الله بينكم ؛ والسلامُ عليكم ورحمةُ الله » .

خطبة له صلى الله عليه وسلم فى أيام التشريق

قال بعد حمد الله :

« أيها الناسُ ؛ أتدرون[2] فى أىِّ شهر أنتم ، وفى أىِّ يوم أنتم ، وفى أىِّ بلد أنتم ؟

قالوا : فى يومٍ حَرامٍ ، وشهرٍ حَرامٍ ، وبلدٍ حَرامٍ .

قال : ألَا فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ ، كَحُرْمَةِ يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، إلى يوم تلقَوْنه .

ثم قال : اسمعوا منّى تعيشوا ؛ ألَا لا تَظَالموا ، ألا لا تظالموا ، ألا لا تظالموا .

---

(١) س : « إنه أصدق » .

(٢) س : « هل تدرون » .

ألا إنه لا يَحِلُّ مالُ امرئٍ مسلم إلا بطِيبِ نفسٍ منه.

ألا إنَّ كُلَّ دَمٍ ومالٍ ومَأْثُرَةٍ كانتْ فى الجاهلية تحتَ قدمى هذه؛ ألا وإن أوّل دَمٍ وُضِعَ دَمُ ربيعةَ بنِ الحارث بن عبد المُطَّلِب — كان مُسْتَرْضَعاً فى بنى لَيْثٍ، فقتلته هُذَيْل[1] —.

ألا وإنَّ كلّ رباً كان فى الجاهلية موضوعٌ؛ ألا وإن الله تعالى قَضَى أنَّ أوّل رِباً يُوضَعُ: رِبَا عَمِّى العباسِ؛ لكم ﴿رُءوسُ أَمْوَالِكُم، لا تَظْلِمُونَ ولا تُظْلَمُونَ﴾.

ألا وإنَّ الزّمانَ قد اْستَدَارَ كهيئته يومَ خلَق الله السمواتِ والأرضَ[2]، ﴿منها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ذلكَ الدِّينُ القَيِّمُ؛ فلا تَظْلِمُوا فيهن أنفُسَكم﴾.

ألا لا تَرجِعوا بعدى كُفَّارًا: يَضْرِبُ بعضُكم رقابَ بعضٍ[3].

---

(١) هذه الجملة التفسيرية ثابتة فى النسخ كلها. وفى م: «بنو هذيل».

(٢) كذا فى كل النسخ وفى البيان والعقد «والأرض. وإن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً فى كتاب الله، يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات، وواحد فرد. ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان. ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد».

(٣) فى العقد بعد ذلك: «فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.» وكذلك فى البيان.

ألا وإنّ الشيطان قد يَئسَ أن يَعبُدَه المصلّون ، ولكن فى التّحْرِيش بينكم[1] :

أتّقوا الله فى النساء ؛ فإنّهُنَّ عندكم عَوَانٍ[2] ، لا يَمْلِكْنَ لأنفسهن شيئًا ، وإنّ لهن عليكم حقًّا ، ولكم عليهن حقٌّ : أن لا يُوطِئْنَ فَرْشَكُمْ أحدًا غيرَكم ؛ فإن خِفْتُم نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ ، واهْجُروهُنّ فى المَضَاجِع ، واضرِبوهن ضَرْبًا غير مُبَرِّح ؛ ولَهُنَّ رِزْقُهُنّ وكِسْوتهن بالمعروفِ ؛ فإنما أخذتُموهنَّ بأمانةِ الله تعالى ، واستحللتم فروجَهنَّ بكلمةِ الله .

ألا ومَن كانتْ عنده أمانةٌ ، فَلْيُؤَدِّها إلى مَن أئتَمَنه عليها .

ثم بَسَط يدَه ، فقال : ألَا هل بَلَّغْتُ ، ألا هل بلغتُ ؛ ليبلّغ الشاهدُ الغائبَ ؛ فَرُبَّ مُبلَّغٍ أبلغُ من سامعٍ » .

---

(١) فى البيان والعقد : « أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم »

(٢) فى اللسان ١٩ / ٣٣٦ « عوان : أى أسرى أو كالأسرى ، واحدة العوانى عانية ، وهى الأسيرة ، يقول : إنما هن عندكم بمنزلة الأسرى . قال ابن سيدة : والعوانى : النساء ؛ لأنهن يظلمن فلا ينتصرن » . وفى النهاية : « العانى : الأسير ، وكل من ذل واستكان وخضع فقد عنا يعنو ، وهو عان ، والمرأة عانية ، وجمعها : عوان » .

خطبته صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة

وقَف على باب الكعبةِ ، ثم قال :

« لا إله إلا الله وحده لاشريك له ؛ صَدَقَ[١] وَعْدَه ، ونَصَرَ عَبْدَه ، وهزَمَ الأحزابَ وحدَه .

ألا كلُّ مأثُرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدَّعَى ، فهو تحتَ قدمىَّ هاتيْنِ ؛ إلا سَدَانَةَ البيتِ ، وسِقَايَةَ الحاجِّ .

ألا وقتلُ الخطإِ العمد بالسوط والعصا ، فيه الدية مُغَلَّظَةً ، منها أربعون خَلِفَةً[٢] ، فى بطونها أولادُها .

يا معشرَ قُريش ؛ إن الله قد أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وتَعَظُّمَها بالآباء ؛ الناسُ من آدم ، وآدمُ خُلق من ترابٍ ؛ ثم تلا هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[٣] ﴾ .

يا معشرَ قُريشٍ —أو يا أهلَ مكةَ— ما تَرَوْنَ أنى فاعلٌ بكم ؟ قالوا : خيرًا ؛ أخٌ كريم ، وابنُ أخٍ [كريم . ثم] قال : فاذهَبُوا فأنتم الطُّلَقَاءُ » .

خطبته صلى الله عليه وسلم بالخَيْفِ

وروى زَيْدُ بن ثَابت : أنّ النبى صلى الله عليه وسلم خطب

---

(١) س ، ك « صدق الله »

(٢) فى اللسان ١٠/٤٤٣ « الخلفة بفتح الخاء وكسر اللام : الحامل من النوق »

(٣) سورة الحجرات ١٣

بالخَيْفِ من مِنًى، فقال[١] :

« نَضَرَ اللهُ عَبْدًا سمِع مقالتي فوعاها[٢] ، ثم أدَّاها إلى مَن لم يسمعْها ؛ فَرُبَّ حامل فقهٍ لا فِقهَ له ؛ وربَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه .

ثلاثٌ لا يُغِلُّ[٣] عليهن قلبُ المؤمنِ : إخلاصُ العملِ لله ، والنّصيحةُ لأولى الأمرِ ، ولزومُ الجماعة ، إنَّ دعوتهم تكونُ من ورائه .

ومَن كان همُّه الآخرةَ : جَمَع اللهُ شَمْلَهُ ، وجَعَل غِناَهُ في قلبِه ؛ وأتَتْه الدنيا وهي رَاغِمَةٌ .

ومَن كان همُّه الدنيا : فَرّقَ اللهُ أمْرَه ، وجَعَل فقرَه بيْنَ عينَيْه ؛ ولم يأتِهِ من الدنيا إلّا ما كُتِبَ له » .

---

(١) من أول قوله وروى « زيد بن ثابت » ليس في ك، وهو ثابت في ا ، م

(٢) « نضر الله عبداً » يجوز في « نضر » تخفيف الضاد المفتوحة وتشديدها. وقد روى بالوجهين . فعلى التخفيف يكون هذا الفعل الثلاثي متعديا ، وهو في أصله لازم . ولكن جاز فيه الأمران ، يقال : « نَضَر وجه فلان » ، و « نضر الله وجهه » ، و« نضَّر » و « أنضره » أيضاً .

(٣) في اللسان ١٤ / ١٣١ « قيل معنى قوله : لا يغلّ عليهن قلب مؤمن : أى لا يكون معها في قلبه غش ودَغل ونفاق ، ولكن يكون معها الإخلاص في ذات الله عز وجلّ . وروى لا يَغِلّ ولا يُغِلّ ، فمن قال يغل بالفتح للياء وكسر الغين فإنه يجعل ذلك في الضغن والغل وهو الضّغن والشحناء ، أى لا يدخله حقد يزيله عن الحق . ومن قال يغل بضم الياء جعله من الخيانة . . . وقال ابن الأثير : ويروى يَغِلُ بالتخفيف ، من الوغول ، الدخول في الشيء : والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب ، فمن تمسك بها طهر قلبه من الدغل والخيانة والشر. وعليهن في موضع الحال ، تقديره لا يَغِل كائناً عليهن . . . ابن الأعرابي في النوادر : غُلّ بصر فلان : حاد عن الصواب ، من غلّ يغل ، وهو معنى قوله : ثلاث لا يغلُ عليهن قلب امرئ مؤمن ، أى لا يحيد عن الصواب غاشا »

خطبة له صلى الله عليه وسلم
رواها أبو سعيدٍ الخُدْرِيُّ رضى الله عنه

قال[١] : خَطَب بعدَ العصرِ ، فقال :

« أَلَا إنَّ الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ[٢] ؛ أَلَا وإنَّ الله مُسْتَخْلِفُكم فيها ، فَنَاظِرٌ كَيفَ تَعمَلون ؛ فاتّقُوا الدّنيا ، واتّقوا النساءَ .

ألا لا يَمْنَعَنَّ رجلًا مَخَافةُ النّاسِ ، أنْ يقولَ الحقَّ إذا علِمَه .

قال : ولم يَزَلْ يَخطُبُ حتى لم تَبقَ من الشمس إلا حُمْرَةٌ على أطرافِ السَّعَفِ ؛ فقال :

إنه لم يَبقَ من الدنيا فيما مَضَى ، إلّا كما بَقِيَ من يومِكم هذا فيما مضى » .

كتابُ النبي صلى الله عليه وسلم إلى مَلِك فارس

« من محمدٍ رَسُولِ الله إلى كِسْرَى عظيمِ فارسَ :

سلامٌ على من اتَّبعَ الْهُدَى ، وآمَنَ بالله ورسوله ، وشَهِدَ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأنّ محمدًا عبدُه ورسولُه ؛ وأدعوك

---

(١) هذه الكلمة من م فقط

(٢) فى اللسان ٥/٣٣٢ « والدنيا خَضِرَةٌ مضِرَة : أى ناعمة غضة طرية طيبة ، وقيل : مونقة معجبة . وفى الحديث : إن الدنيا حلوة خضرة مضرة ، فمن أخذها بحقها بورك له فيها » .

بدعاءِ الله تعالى ؛ فإنى أنا رسولُ الله إلى النَّاس كافةً ، لِأُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا ، ويَحِقَّ القَوْلُ على الكافرين . فأَسْلِمْ تَسْلَمْ » .

كتابٌ له صلى الله عليه وسلم إلى النَّجَاشِيّ

« من محمدٍ رسولِ الله إلى النَّجَاشِي ملك الحبشةِ :

سِلْمٌ أنت ، فإنى أحمدُ إليك اللهَ الملكَ القُدُّوسَ السّلامَ المُؤْمِنَ المُهَيْمِنَ ؛ وأشهدُ أنّ عيسى ٱبنَ مريمَ رُوحُ الله وكَلمتُه ألقاها إلى مريمَ البَتُولِ[1] الطَّيِّبة ، فحَملتْ بعيسى ، فحَملتْه من رُوحِه ونَفْخِه ؛ كما خَلقَ آدمَ بيده ونَفْخِه .

وإنى أَدْعوكَ إلى الله وحدَه لا شريكَ له ، والمُوالاةِ على طاعتِه ؛ وأن تَتَّبِعَنى وتُؤْمِنَ بالذى جاءَنى ؛ وإنى أَدعوكَ وجُنُودَكَ إلى الله تعالى ؛ فقد[2] بَلَّغْتُ ونَصحْتُ ، فاقبلوا نُصْحِى . والسَّلامُ على من ٱتَّبعَ الهُدَى » .

نُسخةُ عَهدِ الصُّلحِ مع[3] قُرَيشٍ عامَ الحُدَيْبِيَةِ

« هذا[4] ما صالَحَ عليه محمدُ بن عبد الله صلى الله عليه وسلم سُهَيْلَ

---

(١) قال أبو حيان التوحيدى فى البصائر والذخائر ١ / ١١٤ « البتل : القطع ، ومنه العذراء البتول ؛ لأنها قطعت عن الرجال »

(٢) م « قد »

(٣) م « عهد الصلح بين قريش »

(٤) فى إمتاع الأسماع ٢٩٧ « باسمك اللهم، هذا ما اصطلح »

ابنَ عَمْرٍو ؛ اصطلحا على وَضْعِ الحربِ عن الناس عشر سنين ، يأمن فيها[1] النـاس ، ويكفُّ بعضُهم عن بعض : على أنّه من أَتَى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من قريش[2] بغير إِذْنِ[3] وَلِيِّه ، ردَّهُ عليهم . ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يَرُدُّوهُ عليه[4] ؛ وأن بَيْنَنا عَيْبَةً مَكْفُوفَةً[5] ؛ وأَنَّهُ لا إِسْلَالَ[6] ، ولا إِغْلَالَ[7] ؛ وأَنَّهُ مَن أَحبَّ أن يَدْخُلَ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقْدِه

---

(١) س ، ك « عشرين سنة يأمن فيه » !

(٢) س ، ك « ويكف فيه بعضهم » .

(٣) قوله « من قريش » ساقط من ك ، س .

(٤) م : « بغير اذيه وانه رده »

(٥) م : « لم يرده عليه » .

(٦) فى اللسان ٢ / ١٢٦ « وروى عن ابن الأعرابى أنه قال : معناه أن بيننا وبينهم فى هذا الصلح صدْراً معقوداً على الوفاء بما فى الكتاب ، نقيًّا من الغِلّ والغدر والخداع . والمكفوفة : المشرَجةُ المعقودة . والعرب تكنى عن الصدور والقلوب التى تحتوى على الضمائر المخفاة بالعياب ، وذلك أن الرجل إنما يضع فى عيبته حرّ متاعه ، وصَوْنَ ثيابه ، ويكتم فى صدره أخصّ أسراره التى لا يحب شيوعها ، فسميت الصدور والقلوب عيابا تشبيهاً بعياب الثياب . . . وقال بعضهم : أراد به الشر بيننا مكفوف كما تكف العيبة إذا أُشرجت . وقيل : أراد أن بينهم موادَعةً ومكافةً عن الحرب ، يجريان مجرى المودة التى تكون بين المتصافين الذين يثق بعضهم إلى بعض »

(٧) فى اللسان ١٣ / ٣٦٤ « قال أبو عمرو : الإسلال : السرقة الخفية . قال الجوهرى : وهذا يحتمل الرشوة والسرقة جميعاً . ويقال : الإسلال الغارة الظاهرة ، وقيل : سل السيوف» وفى ١٤ / ١٣ « قال أبو عبيد : الإغلال : الخيانة ، والإسلال : السرقة . وقيل : الإغلال : السرقة ، أى لا خيانة ولا سرقة : ويقال : لا رشوة » .

دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل فى عهد قريش وعقدهم دخل فيه ؛ وأنَّكَ تَرْجِعُ عنَّا عامَكَ هذا ، فلا تدخلُ علينا مكّة ؛ فإذا كانَ عامًا قابِلًا خرجنا عنك ، فدخلتَها بأصحابك ، فأقمتَ بها ثلاثًا ؛ وأنَّ معك سِلَاحَ الرَّاكِب ، والسُّيوفَ فى القُرُبِ[1] ؛ فلا تدخلها بغير هذا » .

* * *

ولا أُطَوِّلُ عليك ، وأقتصرُ على ما أَلْقَيْتُهُ إليك[2] ؛ فإنْ كان لك فى الصَّنعة حظٌّ ، أو كان لك فى هذا المعنى حِسٌّ ، أو كنتَ تَضْرِبُ فِي الأدب بسَهْم ، أو فى العربية بِقِسْطٍ — وإنْ قَلَّ ذلك السَّهْمُ ، أو نقص ذلك النَّصيبُ —: فما أحسَبُ أنه يَشْتَبهُ عليك الفرقُ بين بَراعَةِ القرآنِ ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبه ورسائلِه ؛ وما عَساكَ تَسْمَعُهُ من كلامِه ؛ ويَتَساقَط إليك من ألفاظِه ؛ وأُقدِّرُ أنَّكَ تَرَى بين الكلامين بَوْنًا بَعِيدًا ، وأَمَدًا مَدِيدًا ؛ ومَيْدَانًا وَاسِعًا ، ومكانًا شَاسِعًا .

* * *

فإن قلت : لعله أنْ يكونَ تَعَمَّلَ للقرآن وتَصَنَّعَ لِنَظْمِه ؛ وشَبَّه عليك الشَّيطانُ ذلك من خُبْثِهِ —: فتثبَّتْ فى نفسك، وارجِعْ إلى عقلك،

---

(١) س، ك: « فى الركب » . والقرُبُ : جمع قِراب ، وهو غمد السيف. كما فى اللسان ٣ / ١٦١

(٢) م: « عليك » .

واجمع لُبَّكَ ؛ وتيقَّنْ أنَّ الخُطَبَ يُحْتَشَدُ لها في المواقفِ العِظَام، والمحافلِ الكِبارِ ، والمواسمِ الضِّخام ؛ ولا يُتَجوَّزُ فيها ، ولا يُستهانُ بها . والرَّسائلُ إلى الملوك مما يَجمعُ لها الكاتبُ جَرَاميزَهُ[١]، ويُشَمِّرُ لها عن جِدّ واجتهاد ؛ فكيف يَقعُ بها الإخلالُ ؟ وكيف تعرضُ[٢] للتفريط ؟ فستعلَم ، لا محالةَ أنَّ نظمَ القرآن من الأمرِ الإلهيِّ ؛ وأن كلامَ النبي صلى الله عليه وسلم من الأمرِ النبويِّ .

فإذا أردتَ زيادةً في التَّبيّن[٣] ، وتَقدُّماً في التَّعرُّف ، وإشْرافاً على الجَليَّةِ ، وفوْزاً بمُحْكَمِ القضية ؛ فتأمَّلْ — هداك الله — ما نَنسَخُه لك من خُطب الصّحابة والبلغاء ؛ لتعلمَ أنّ نَسْجَها ونَسْجَ ما نقلنا — من خطب النبي صلى الله عليه وسلم — واحدٌ، وسَبْكَها سَبْكٌ غيرُ مختلفٍ ؛ وإنما يَقَعُ بيْن كلامِه وكلامِ غيرِه ، ما يقعُ من التَّفاوُتِ بين كلام الفصيحيْن، وبين[٤] شعرِ الشَّاعرَيْن ؛ وذلك أمرٌ له مقدارٌ معروفٌ ، وحدٌّ — يَنتهي إليه — مضبوطٌ .

فإذا عرفتَ أنَّ جميعَ كلام الآدميِّ منهاجٌ، وجملته طريق[٥] ؛

---

(١) في اللسان ٧ / ١٨٣ « ويقال : جمع فلان لفلان جراميزه : إذا استعد له وعزم على قصده . وجراميز الرجل : جسده وأعضاؤه » . وانظر مجمع الأمثال ١ / ١٧٤

(٢) س ، ا : « وكيف يتعرض »

(٣) س : « في التبيين »

(٤) م : « وشعر »

(٥) م : « منهاجاً . . . طريقاً »

وتبينتَ[1] ما يُمكنُ فيه من[2] التفاوتِ —: نَظَرْتَ إلى نظم القرآن نظرةً أخرى، وتأملتَه مَرَّةً ثانيةً؛ فتراءى بُعْدَ موقِعه، وعالِيَ محلِّهِ وموضِعه؛ وحكَمْتَ بواجبٍ من اليقين، وثَلَجِ[3] الصَّدْر بأَصْل الدِّينِ.

---

(١) ا، م: «وتصورت»

(٢) سقطت من م

(٣) م: «وثلج من الصدر». وفى اللسان ٣ / ٤٥ «وثلجت نفسى بالشىء ثلجاً: اشتفت به واطمأنت إليه . . . وثلج قلبه: تيقن»

خطبة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه

قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال[1] :

« أما بعدُ ؛ فإنى وَليتُ أمْرَكُم ، ولستُ بخيركم ؛ ولكنْ نزَلَ القرآن ، وسَنَّ النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وعلَّمَنَا فَعلِمْنا .

واعلموا أنَّ أَكْيَسَ الكَيْسِ التُّقَى ، وأن أَحْمَقَ الحُمْقِ الفُجُورُ ؛ وأنَّ أقوَاكم عندى الضَّعيفُ ، حتى آخذَ له بحقه ؛ وأنَّ أَضْعَفَكم عندى القوىُّ ، حتى آخُذَ منه الحقَّ .

أيها الناسُ ؛ إنما أنا مُتَّبِعٌ ، ولستُ بِمُبْتَدِعٍ ؛ فإنْ أحسنتُ فأعينونى ؛ وإنْ زُغْتُ فقَوِّمونى[2] » .

عهدٌ لأبى بكرٍ الصِّدِّيقِ إلى عُمَرَ رضى الله عنهما

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا ما عَهِد أبو بكرٍ خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، آخرَ

---

(١) فى عيون الأخبار ٢ / ٢٣٤ « الهيثم ، عن مجالد ، عن الشعبى ، قال : لما بويع أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، صعد المنبر فنزل مرقاة من مقعد النبى ، صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : » والخطبة فى العقد ٤ / ٥٩ باختلاف .

(٢) فى عيون الأخبار بعد ذلك : « أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لى ولكم »

عهدِه بالدنيا ، وأوّلَ عهدِه بالآخرة ؛ سَاعَةَ يُؤمِنُ فيها الكافرُ ، ويتّقِي فيها الفاجرُ .

إنى استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطاب ، فإن بَرَّ وعَدَلَ : فذاك ظَنِّى به ، ورأيى فيه ؛ وإنْ جارَ وبَدَّل فلا علمَ لى بالغيبِ ، والخَيْرَ أَرَدْتُ لكم[1] ؛ ولكلِّ امرئٍ ما اكْتَسَبَ من الإثم ؛ وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ[2] .

* * *

وفى حديث عبد الرحمن بنِ عَوْف رحمة الله عليه ؛ قال :

دخلتُ على أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فى عِلَّتِه التى مات فيها ؛ فقلتُ : أراك بارئًا يا خليفةَ رسولِ اللهِ ، فقال : أما إنِّى — على ذلك — لَشديدُ الوَجَعِ ؛ ولَمَا لَقِيتُ منكم — يا معشر المهاجرين — أشدُّ علىَّ من وَجَعِى .

إنى وَلَّيْتُ أُمورَكم خيرَكم فى نفسى ، فكلُّكم وَرِمَ[3] أَنْفُه أَنْ يكون له الأمرُ من دونه .

والله لتتخذُنَّ نَضَائِدَ[4] الدِّيباج وسُتورَ الحرير . ولتألَمُنَّ النَّوْمَ

---

(١) م : « لكم »

(٢) ورد هذا العهد فى الكامل للمبرد ١ / ٨

(٣) قال المبرد ١ / ٧ « يقول : امتلأ من ذلك غضباً . وذكر أنفه دون السائر ، كما يقال : فلان شامخ بأنفه ، يريد رافع رأسه . وهذا يكون من الغضب »

(٤) قال المبرد : « واحدها نضيدة ، وهى الوسادة وما ينضد من المتاع ... ويقال : نضدت المتاع ، إذا ضممت بعضه إلى بعض ، فهذا أصله » .

علی الصّوفِ الأذْرَبِيّ[١] ، كما يألَمُ أحدُكم النّومَ على حَسَكِ السَّعْدَانِ[٢] ؛ والذي نفسي بيده لأنْ يُقدَّمَ أحدُكم فتُضرَبَ رقبتُه في غير حَدٍّ ، خيرٌ له من أن يخُوضَ غَمَرَاتِ الدنيا .

يا هاديَ الطريقِ جُرْتَ[٣] ؛ إنَّما هو — والله — الفَجْرُ أو البَجْرُ[٤] .

قال : فقلتُ : خَفِّضْ عليكِ يا خليفةَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن هذا يَهِيضُكَ[٥] إلى مَا بِكَ ؛ فو الله مازِلْتَ صالحاً مُصلِحًا ، لا تَأْسَى على شيءٍ فَاتَكَ من أمر الدنيا ؛ ولقد تخليتَ بالأمرِ وحدَكَ ، فما رأيتَ إلا خيرًا .

* * *

وله خطب ومقامات مشهورة اقتصرنا منها على ما نقلنا ، منها قِصَّةُ السَّقِيفَة .

---

(١) قال المبرد ١ / ٦ « الأذربي منسوب إلى أذربيجان » .

(٢) قال المبرد : « السعدان نبت كثير الحسك (الشوك) تأكله الإبل فتسمن عليه ، ويغذوها غذاء لا يوجد فى غيره ، فمن أمثال العرب : مرعى ولا كالسعدان ، تفضيلا له »

(٣) س ، ك : « جزت »

(٤) س ، ك : « البحر » قال المبرد ١ / ٧ « يقول : إن انتظرت حتى يضيء لك الفجر الطريق أبصرت قصدك ، وإن خبطت الظلماء وركبت العشواء هجما بك على المكروه . وضرب ذلك مثلا لغمرات الدنيا وتحييرها أهلها »

(٥) قال المبرد : « يهيضك ، مأخوذ من قولهم : هيضَ العظمُ : إذا جبر ثم أصابه شيء يعنته فآذاه ، فكسره ثانية أو لم يكسره ، وأكثر ما يستعمل فى كسره ثانية » .

نسخة كتاب كتبه[١] أبو عبيدة بن الجرّاح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، رضى الله عنهم :

سلام عليك ؛ فإنا نحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد ؛ فإنا عهدناك وأمرُ نفسك لك[٢] مُهِمّ ؛ فأصبحتَ وقد وُليت أمرَ هذه الأمة أحمرِها ، وأسوَدِها ؛ يجلسُ بين يديك الصديقُ والعدوُّ ، والشّريف والوضيع ؛ ولكلّ حِصّتُه من العدل ؛ فانظر كيف أنت — يا عمر — عند ذلك ؛ فإنا نحذّرك يومًا تَعْنُو فيه الوجوهُ ، وتَجِبُ فيه القلوبُ .

وإنّا كُنّا نتحدّثُ أن أَمْرَ هذه الأمة يَرْجِعُ[٣] فى آخر زمانها : أن يكونَ إخوانُ العلانيَةِ أعداءَ السَّرِيرَةِ ؛ وإنا نَعوذُ بالله أن تُنْزِلَ كِتابَنا سِوَى المَنْزِلِ الذى نَزَل من قلوبنا ؛ فإنا إنما كتبْنا إليك نصيحةً لك ؛ والسلامُ .

فكتب إليهما :

من عمر بن الخطاب ، إلى أبى عُبَيْدَةَ بن الجَرّاح ومُعاذ بن جَبَلٍ :

سلامٌ عليكما ؛ فإنى أَحْمَدُ إليكما اللهَ الذى لا إله إلا هو[٤] .

---

(١) س، ك : «كتب» .

(٢) م : «إليك» .

(٣) س، ك «أن هذه الأمة ترجع» .

(٤) فى سيرة عمر ص٥٥٢ «أما بعد فإنى أوصيكما بتقوى الله، فإنه رضا ربكما، وحظ أنفسكما ، وغنيمة الأكياس لأنفسهم عند تفريط العجزة ، وقد بلغنى كتابكما . . .»

أما بعد ؛ فقد جاءنى كتابكما ، تزعمان أنّه بلغكما أنى وليت أمر هذه الأمّة : أحمرِها وأسودِها ، يجلس بين يدىَّ الصديق والعدوّ ، والشريفُ والوضيعُ ؛ وكتبتما : أَنِ انْظُرْ كيف أنت يا عمر عند ذلك ؟ وإنه لا حول ولا قوة لعمر — عند ذلك — إلا بالله .

وكتبتما تُحَذِّرانِى ما حُذِّرَتْ به الأممُ قبلَنا ؛ وقديمًا كان اختلافُ الليل والنهار بآجال الناس : يُقَرِّبانِ كلَّ بعيدٍ ، ويُبْلِيانِ كلَّ جديدٍ ، ويأتيان بكلِّ موعودٍ ؛ حتى يصيرَ الناسُ إلى منازلهم ، من الجنة أو النار ؛ ثُمَّ تُوَفَّى كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ .

وكتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمانها : أنْ يكونَ إخوانُ العلانيةِ أعداءَ السَّريرةِ ؛ ولستم بذاك ، وليس هذا ذلك الزّمان ، ولكن زَمانُ ذلك[1] حين تَظهرَ الرغبةُ والرّهبةُ ؛ فتكونُ رغبةُ بعضِ الناس إلى بعضٍ إصلاحَ دينهم ، ورهبةُ بعض الناسِ إصلاحَ دنياهم .

وكتبتما تُعَوِّذانى بالله أن أُنزلَ كتابكما منى سوى المنزل الذى نزل من قلوبكما ؛ وإنما كتبتما نصيحةً لى ؛ وقد صدَّقتكما ؛ فَتعهَّدانِى منكما بكتاب ؛ ولا غِنى بى عنكما[2] .

---

(١) م « ولستم بذلك . . . زمان هذا » .

(٢) الرياض النضرة ٢ / ٦١

عهد من عهود عمر رضى الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قَيْسٍ[١] :

سلام عليك .

أما بعد ؛ فإنّ القضاء : فَرِيضةٌ مُحْكَمَةٌ ، وسُنّةٌ مُتَّبَعَةٌ ؛ فافهَمْ إذا أدلِىَ إليك ؛ فإنه لا ينفعُ تَكَلُّمٌ بحقٍ لا نَفَاذَ له .

آسِ[٢] بين الناس فى وَجْهك وعَدْلِك ومجلسك ، حتى لا يطمعَ شريف فى حَيْفِك[٣] ، ولا ييأسَ ضعيف[٤] من عدلك .

البيِّنةُ على من ادَّعَى ، واليمينُ على من أنكر ؛ والصُّلحُ جائزٌ بين المسلمين ، إلا صلحاً أحلّ حراماً ، أو حرَّم حلالاً .

ولا يَمْنعنَّك[٥] قضاءٌ قَضَيْتَه بالأمس — فراجَعْتَ فيه عَقْلَك ، وهُدِيتَ لِرُشْدك — : أن ترجعَ إلى الحق ؛ فإن الحق قديم ، ومُرَاجَعَةُ الحقِّ خيرٌ من التمادى فى الباطل .

---

(١) هو أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار اليمانى الصحابى المشهور ، راجع تاريخ الإسلام ٢ / ٢٥٥ — ٢٥٨ والمعارف ص ١١٥ وابن سعد ٦ / ٩ وخلاصة تذهيب الكمال ص ١٧٨

(٢) قال المبرد ١/٩ « يقول : سوِّ بينهم ، وتقديره : اجعل بعضهم أسوة بعض » .

(٣) قال المبرد : « أى فى ميلك معه لشرفه » .

(٤) ك : « شريف » .

(٥) س ، ك : « ولا يمنعك » .

الفَهْمَ الفَهْمَ ، فيما تَلَجْلَجَ فى صدرك(١) ؛ مما ليس فى كتاب ولا سنّة ؛ ثم اعرفِ الأشباهَ والأمثال ، وقِسِ الأمورَ عند ذلك ، واعْمِدْ إلى أَشْبَهِهَا بالحق .

واجعلْ لمن ادَّعى حقًّا غائبًا أو بينةً أَمَدًا(٢) ينتهى إليه ؛ فإن أَحْضَرَ بينة أخذْتَ له بحقه ؛ وإلا استحللتَ عليه القضيةَ ؛ فإنه أَنْفَى للشك ، وأَجْلَى للعَمَى .

المسلمون عُدولٌ بعضُهم على بعض ؛ إلا مَجْلودًا فى حَدّ ، أو مُجرَّبًا عليه شهادةُ زور ، أو ظَنِينًا فى ولاءٍ أو نسب(٣) ؛ فإن الله تولى منكم السرائر ، ودَرَأَ بالأيمان والبيِّنات(٤) .

وإيّاكَ والغَلَقَ(٥) والضجر ، والتأذِّىَ بالخصوم ، والتَّنكُّرَ عند

---

(١) قال المبرد ١ / ١٠ « يقول : تردد ، وأصل ذلك المضغة والأكلة يرددها الماضغ فى فيه ، فلا تزال تتردد إلى أن يسيغها أو يقذفها ، والكلمة يرددها الرجل إلى أن يصلها بأخرى »

(٢) ك : « أمراً » .

(٣) فسَّرَ المبرد : « الظنين بأنه المتهم ، ثم قال : « وإنما قال عمر ذلك لما جاء عن النبى صلى الله عليه وسلم : ملعون ملعون من انتمى إلى غير أبيه ، أو ادعى إلى غير مواليه . فلما كانت معه الإقامة على هذا لم يره للشهادة موضعا »

(٤) قال المبرد « ودرأ ، إنما هو دفع ، من ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ادرؤا الحدود بالشبهات » .

(٥) س ، ك : « والغلو » وفى عيون الأخبار والبيان والتبيين : « والقلق » . قال المبرد : « وأما قوله : إياك والغلق والضجر فإنه ضيق الصدر وقلة الصبر ، يقال فى سوء الخلق : رجل غلق . وأصل ذلك من قولهم : أُغلقَ عليه أمره ، إذا لم يتضح ولم ينفتح . من ذلك قولهم : غلقَ الرهنُ أى لم يوجد له تخلص ، وأغلقت الباب من هذا » .

الخصومات(١) ؛ فإن الحقّ فى مواطن الحقّ يُعْظِمُ اللهُ به الأجرَ ، ويُحسِنُ به الذُّخْرَ ؛ فمن صحَّت نيتُه ، وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس ؛ ومن تخلَّق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شأَنَهُ الله(٢) ؛ فما ظنُّك بثواب الله عز وجل فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ؛ والسلامُ .

ولعمر رضى الله عنه خطبٌ مشهورة مذكورة فى التاريخ ، لم ننقلها اختصارًا .

• • •

ومن كلام عثمان بن عفان رضى الله عنه

خطبة له(٣) رضى الله عنه

قال : إنّ لكلّ شىءٍ آفةً ، وإنّ لكلّ نعمةٍ عاهةً ؛ وإنّ عاهةَ(٤) هذا الدين عيّابون طَنّانُون ، يُظهرون لكم ما تُحبون ، ويُسِرُّون

---

(١) ما هنا يوافق ما فى الكامل . وفى البيان والتبيين « والتنكر للخصوم فى مواطن الحق ، التى يوجب الله بها الأجر ، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ، ولو على نفسه ، يكفه الله ما بينه وبين الناس » .

(٢) فى البيان « ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره ، وأبدى فعله فما ظنك »

(٣) ك ، ا « خطبة لعثمان »

(٤) ك : « عاهة هذا الدين » س « عاهة ، فى هذا الدين »

ما تكرهون ، يقولون لكم وتقولون ؛ طَغَامٌ[١] مِثْلُ النَّعام ، يَتْبَعُون أوّلَ نَاعِقٍ ؛ أَحبُّ مواردِهم إليهم النَّازِحُ .

لقد أقررتم لابن الخطاب بأكثرَ مما نقمتُم عليَّ ؛ ولكنه وَقَمكُمْ وقَمَعَكُمْ ، وزَجَرَكُمْ زَجْرَ النَّعام المُخَزَّمَة[٢] . والله إنى لأقربُ ناصرًا ، وأعزُّ نفرًا[٣] ، وأقْمَنُ — إن قُلتُ : هَلُمَّ — : أَنْ تُجابَ دعوتى ؛ من عُمرَ .

هل تفقدون من حقوقكم شيئاً ؟ فما لى لا أفعل فى الحق ما أشاء ؟ إذًا فلم كنتُ إماماً ؟ !

كتابه إلى علىّ حين حُصرَ — رضى الله عنهما

أما بعد ؛ فقد بَلَغ السَّيلُ الزُّبَى ، وجاوز الحِزَامُ الطُّبْيَيْنِ[٤] ، وطَمِعَ فىَّ مَن لا يَدْفَعُ عن نفسِه . فإذا أتاك كتابى هذا : فأقبل إلىَّ ، عَلَىَّ كنتَ أمْ لى .

---

(١) فى اللسان ١٥ / ٢٦١ « الطغام أرذال الناس وأوغادهم . . . قال الأزهرى : وسمعت العرب تقول للرجل الأحمق : طغامة ، والجميع الطغام »

(٢) فى اللسان ١٥ / ٦٤ « والمخزم من نعت النعام ، قيل له مخزم لثقب فى منقاره »

(٣) فى البيان والتبيين ٣٧٧/١ بعد ذلك : فضل فضل من مالى ، فمالى لا أفعل فى الفضل ما أشاء ؟! »

(٤) قال المبرد ١٢/١ « الزبية : مصيدة الأسد ، ولا تتخذ إلا فى قلة أو رابية أو هضبة . . . وقوله : وبلغ الحزام الطبيين ، فإن السباع والخيل يقال لموضع الأخلاف منها : أطباء ، واحدها طبى . . . فإذا بلغ الحزام الطبيين فقد انتهى فى المكروه »

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولًا : فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ ؛
وإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمَزَّقِ[1]

* * *

ومن كلام عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه .

قال : لما قُبِضَ أبو بكر رضى الله عنه ارتجّتِ المدينةُ بالبكاء ، كيوم قُبِضَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ؛ وجاء عليٌّ باكيًا مُسْتَرْجِعًا[2] ، وهو يقول : اليومَ انقطعَتْ خلافةُ النبوةِ ، حتى وقف على باب البيتِ الّذى فيه أبو بكر ؛ فقال :

رحمك[3] الله أبا بكر ؛ كنتَ إلفَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأُنسَه ، وثقتَه وموضعَ سرِّه ؛ كنتَ أَوَّلَ القومِ إسلامًا ، وأخلَصَهم إيمانًا ، وأشدَّهم يقينًا ؛ وأخوَفَهم لله ، وأعظَمَهم غَنَاءً فى دينِ الله ، وأحوَطَهم عَلَى رسول الله[4] ، وأثبَتَهم[5] على الإسلام ، وأَيمَنَهُم على أصحابه ، وأحسنَهم صُحبةً ؛ وأكثرَهم مناقبَ ، وأفضلَهم سوابقَ ؛

---

(١) البيت للمزق العبدى من قصيدة يعتذر فيها إلى النعمان ابن المنذر ، كما فى اللسان ٢١/١٣ وطبقات فحول الشعراء ص ٢٣٢ والشعر والشعراء ١/٣٦٠ وبقية القصيدة فى الأصمعيات ص٤٧

(٢) م: « متوجعا »

(٣) م: « يرحمك »

(٤) س ، ك: « على رسوله »

(٥) ك : « وأيمنهم »

وأرفعَهم درجةً ، وأقربَهم وسيلةً ؛ وأشبَهم برسول الله[١] صلى الله عليه وسلم سَنَنًا[٢] وهَدْيًا ، ورحمةً وفَضلًا ؛ وأشرفَهم منزلةً ، وأكرمَهم عليه ، وأوثقَهم عندَه .

فجزاكَ[٣] الله عن الإسلام وعن رسوله خيرًا . كنتَ عندَه بمنزلة السّمع والبصرِ .

صدَّقتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين كذّبه الناسُ ، فسَمَّاكَ في تنزيله صِدِّيقًا ؛ فقال : ﴿ والَّذِي جَاءَ بالصِّدْق وصَدَّقَ بِهِ[٤] ﴾ .

واسَيْتَهُ حين بَخِلوا ، وقمتَ معَه عندَ المكارهِ حين قعَدُوا ؛ وصحِبتَه في الشدائد أكرمَ الصُّحبةِ ، ثاني اثنين وصاحبه[٥] في الغار ، والمنزل عليه السَّكينةُ والوَقارُ ؛ ورفيقه في الهجرة ، وخليفته في دينِ الله وفي أمته — أحسنَ الخلافةِ — حينَ ارتدَّ الناس ، فنهضْتَ حين وَهَنَ أصحابُك ، وبَرَزْتَ حين استكانُوا ، وقَويتَ حين ضَعُفُوا ، وقمتَ بالأمر حين فَشلوا ، ونَطَقتَ حين تَتَعْتَعُوا[٦] ؛ مضَيْتَ بنورٍ : إذْ وقفُوا ؛ واتَّبعوكَ فَهُدُوا .

---

(١) س ، ك: « وأقربهم برسول الله »

(٢) م: « سمتا »

(٣) س ، ك: « جزاك »

(٤) سورة الزمر ٣٣

(٥) م: « اثنين إذ هما » .

(٦) س : «حين تبعبعوا » وفي اللسان ٩ / ٣٨٤ « والتعتعة في الكلام : أن يعيا بكلامه ويتردد من حصر أوعي ، ومنه الحديث : الذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه ، أي يتردد في قراءته ويتبلد فيها لسانه » .

وكنتَ أصْوبهم مَنْطِقاً ، وأطولَهم صَمتاً ، وأبلغَهم قولا ، وأكثرهم رأياً ، وأشجعَهم نفْساً ؛ وأعرفَهم بالأمور ، وأشرفَهم عملًا .

كنتَ للدِّين يَعْسُوباً[1] ، أوَّلا : حينَ نَفَر عنه الناسُ ؛ وآخِرًا : حين قَفَلُوا[2] ؛ وكنتَ للمؤمنين أبًا رحيماً ؛ إذْ صاروا عليك عِيالًا ؛ فحملتَ أثقَالَ ما ضَعُفوا عنه[3] ، ورَعيْتَ ما أهمَلُوا ؛ وحَفِظْتَ ما أضاعوا ؛ شمَّرتَ إذْ خَنَعُوا ؛ وعَلَوْتَ إذْ هَلَعُوا ؛ وصَبَرْتَ إذْ جَزِعُوا ؛ وأدركْتَ أوْتَارَ ما طَلَبُوا ؛ ورَاجَعُوا رُشْدَهم برأيك فَظَفِرُوا ، ونالوا بك ما لم يَحْتَسِبُوا .

وكنتَ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أَمَنَّ الناسِ عليه فى صُحبتِك وذاتِ يَدِك ؛ وكنتَ كما قال : ضعيفاً فى بدنِك ، قويًّا فى أمرِ اللهِ ، متواضعاً فى نفسِك ، عظيماً عند الله ، جليلًا فى أعينِ الناس[4] ، كبيرًا فى أنفسِهم .

لم يكنْ لأحدٍ[5] فيك مَغمزٌ ، ولا لأحَدٍ مَطمَعٌ ؛ ولا لمخلوقٍ عندَك هَوَادَةٌ ؛ الضّعيفُ الذليلُ عندكَ قويٌّ عزيزٌ ، حتى تأخذَ له

---

(١) فى اللسان ٢ / ٨٩ « اليعسوب : السيد والرئيس والمقدّم ، وأصله أمير النحل وذكرها »

(٢) س « حين أقبلوا » ك : « حين قبلوا » ومعنى قفلوا : رجعوا ، يشير بذلك إلى الردّة .

(٣) سقطت من ك ، س

(٤) م « فى أعين المؤمنين »

(٥) ا « لأحدهم »

بِحَقِّه ؛ والقويُّ العزيزُ عندَك ضعيفٌ ذليلٌ ، حتى تأخذَ منه الحقَّ ؛ ألقريبُ والبعيدُ عندك سواء ؛ أقربُ النّاس إليك أطْوَعُهم لله .

شَأْنُكَ ألحقُّ والصّدقُ والرِّفقُ[1] ؛ وقولُك حكم وحَتْمٌ[2] ، وأمرُك حِلْمٌ[3] وحزمٌ ، ورأيُك علمٌ وعزمٌ ؛ فأَبْلَغْتَ وقد نَهَجَ السبيلُ ، وسَهُلَ العسيرُ ؛ وأطفأتَ النيران ، واعتَدَل بك الدينُ ، وقَوِىَ الإيمان ، وظَهَر أَمْرُ الله ولو كَرِه الكافرون ؛ وأَتعبتَ مَنْ بعدَك إتعاباً شديدًا ، وفزت بالخير فوزًا عظيماً[4] ؛ فجَلَلْتَ عن البكاء ، وعَظُمَتْ رَزِيَّتُكَ فى السماء ؛ وهَدَّتْ مصيبتُك الأيام ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون ؛ رَضينا عن الله قضاءه ، وسَلَّمنا له أمرَه ؛ فواللهِ لن يُصابَ المسلمون بعدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بمثلك أبدًا ؛ فألحقَك الله بنبيه ، ولا حَرَمَنا أجْرَك ، ولا أضلَّنا بَعدَك .

وسكتَ الناسُ حتى انقضَى كلامُه ، ثم بَكَوْا حتى علَتْ أصواتُهم .

* * *

(١) سقطت هذه الكلمة من م .

(٢،٣) مكان هاتين الكلمتين بياض فى ك ، س

(٤) س ، ك : « بالجد فوزاً مبيناً »

خطبة أخرى لعلىّ رضى الله عنه

أما بعد ؛ فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع ؛ وإن المضمار اليوم ، وغداً السّباق .

ألا وإنكم فى أيام مهل ، ومن ورائه أجل ؛ فمن أخلص فى أيام مهله[1] فقد فاز ؛ ومن قصّر فى أيام مهله[2] ، قبل حضور أجله ، فقد خسر عمله ، وضرّه أمله .

ألا فاعملوا لله فى الرغبة ؛ كما تعملون له فى الرهبة .

ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها ؛ ولا كالنار نام هاربها .

ألا وإنه من لم ينفعه الحقّ ضرّه[3] الباطل ؛ ومن لم يستقم[4] به الهدى يجرّ به الضلال .

ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن ، ودللتم على[5] الزّاد .

ألا وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع[6] الهوى ، وطول الأمل[7] .

(١، ٢) س ، ك : « أمله . . أمله »

(٣) س ، ك : « يضربه »

(٤) ك : « ومن لا يستقيم »

(٥) م : « عن »

(٦) سقطت من س ، ك

(٧) الخطبة فى عيون الأخبار ٢/٢٣٥ والبيان والتبيين ٢/٥٢ ونهج البلاغة ١/٦٦

* * *

وخطب رضى الله عنه ، فقال بعدَ حمدِ اللهِ :

أيها الناس ؛ اتقوا الله؛ فما خُلِق امرؤٌ عبثًا فيلهُوَ، ولا أُهمِلَ سُدًى فيلغُوَ ؛ ما دُنياه التى تحسَّنتْ إليه بخَلفٍ من الآخِرةِ التى قبحها سوءُ النظر إليه؛ وما الخسيسُ الذى ظَفِر به — من الدنيا — بأعلى هِمَّتِه[1] ؛ كالآخَر الذى ذهب[2] من الآخِرة من سُهمَتِه[3] .

* * *

وكتب على رضى الله عنه إلى عبد الله بن عباس
رحمة الله عليهما ، وهو بالبصرة :

أَما بعد ؛ فإن المرء يُسَرُّ[4] بدَرْكِ ما لم يكنْ لِيُحْرَمَه ، ويَسوءُه فَوْتُ ما لم يكنْ ليُدْرِكَه ؛ فليكنْ سرورُك بما قدَّمْتَ : من أجرٍ أو مَنطِقٍ ؛ وليكنْ أَسفُك فيما فَرَّطتَ فيه من ذلك .

وانظُرْ ما فاتَك من الدنيا : فلا تُكثِرْ عليه جَزَعًا ؛ وما نِلتَه : فلا تَنعَمْ به فَرَحًا ؛ وليكنْ هَمُّكَ لِما بعدَ الموتِ[5] .

---

(١) م : «هميه»
(٢) س ، ك : «الذى ظفر به من الآخرة»
(٣) م: «من سهميه» والسُّهمةُ : النصيب كما فى اللسان ١٥ / ٢٠٠
(٤) م: «ليسر»
(٥) نهج البلاغة ٣/٢٣–٢٤ والأمالى لأبى على القالى ٢/٩٤ .

كلامٌ لابن عباسٍ رضى الله عنه

قال عُتْبَة بن أَبى سُفْيان لابن عباسٍ : ما مَنعَ أَميرَ المؤمنين أَنْ يَبعثَك مكانَ أَبى موسى ، يومَ الحَكَمَيْنِ ؟

قال : منَعه — واللهِ — مِن ذلك حاجزُ القَدَرِ ، وقِصَرُ المُدَّةِ ، ومِحْنةُ الابْتِلاء .

أَمَا واللهِ ، لو بَعثَنى مكانَه لاعترَضتُ له فى مَدارج نفسِه ، ناقِضاً لما أَبرَم ، ومُبْرِماً لما نَقَض ؛ أُسِفُّ إذا طار ، وأَطيرُ إذا أَسفَّ ؛ ولكنْ مَضَى قَدَرٌ ، وبَقِىَ أَسَفٌ ؛ ومَع يومِنا غدٌ ؛ والآخرةُ خيرٌ لأميرِ المؤمنين ، من الأولى .

* * *

خطبة لعبد الله بن مسعودٍ رضى الله عنه

أصدقُ الحديثِ كتابُ اللهِ ؛ وأوثَقُ العُرَى كلمةُ التَّقْوى ؛ خيرُ المِلَلِ مِلَّةُ إبراهيمَ ؛ وأَحسَنُ السُّنَنِ سُنَّةُ النبى محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؛ خيرُ الأمورِ أَوْساطُها ؛ وشرُّ الأمورِ مُحْدَثاتُها ؛ ما قلَّ وكَفَى ، خيرٌ مما كَثُر وأَلْهَى ؛ خيرُ الغِنَى غِنَى النفسِ ؛ وخيرُ ما أُلْقِىَ فى القلبِ اليقينُ ؛ الخمرُ جِمَاع الإثمِ ؛ النساءُ حِبَالةُ[1] الشيطانِ ؛ الشبابُ شُعْبةٌ من الجُنون ؛ حُبُّ الكِفايةِ مِفتاحُ المَعْجَزَةِ . مِن

(١) م «حبائل»

الناسِ مَن لا يأتى الجماعةَ إلّا دبرًا ، ولا يَذكرُ اللهَ إلا هُجْرًا ؛ أعظمُ الخَطايا اللسانُ الكَذُوبُ ؛ سِبابُ المؤمنِ فِسقٌ ، وقتالُه كفر ، وأكلُ لحمِه معصيةٌ ؛ مَن يَتألَّ على الله يُكْذِبْه[1] ؛ مَن يَغفرْ يُغْفَرْ له ؛ مكتوبٌ فى دِيوان المحسنين : مَن عفا عُفى عنه . الشقىُّ مَن شَقِىَ فى بطن أمِّه ، والسعيدُ مَن وُعِظَ بغيره ؛ الأمورُ بعواقبها ؛ مِلَاكُ العملِ خَواتيمُه[2] ؛ أشرَفُ الموتِ الشهادةُ ؛ من يعرفِ البلاءَ يَصبِرْ عليه ، ومن لا يعرفِ البلاءَ يُنكرْه .

* * *

خطبة لمعاويةَ بنِ أبى سفيان رضى الله عنه

قال الراوى : لمّا حضرتْه الوفاةُ قال لمولًى له : مَن بالباب ؟

فقال : نَفرٌ من قريش يتباشرون بموتك !

فقال : ويحك ، ولِمَ ؟ ثم أَذن للناس ، فحمِد الله وأثنى عليه[3] ؛ فأوجز ؛ ثم قال :

---

(١) فى اللسان ١٨ / ٤٣ « من يتألَ على الله يكذبه » أى من حكم عليه وحلف ، كقولك : والله ليدخلن الله فلاناً النار وينجحن الله سعى فلان »

(٢) م « خواتمه » وفى البيان والتبيين ١ / ٥٧ بعد ذلك : « أحسن الهدى هدى الأنبياء . أقبح الضلالة بعد الهدى »

(٣) س ، ك : « فحمد الله فأوجز »

أيها الناس ، إنّا قد أصبحنا فى دهر عَنُودٍ ، وزمن شديد ؛ يُعَدُّ فيه المحسن مسيئاً ، ويزداد الظالم فيه عُتُوًّا ؛ لا نَنتفِعُ بما علِمْنا ، ولا نَسْأَلُ عمّا جهلنا ، ولا نتخوفُ[1] قارِعَةً حتى تَحُلَّ بنا ؛ فالنّاسُ على أربعةِ أصنافٍ :

منهم : مَن لا يمنعُه الفسادَ فى الأرض لا مهانةُ نفسِه ، وكَلَالُ حَدِّه ، ونَضِيضُ[2] وَفْرِهِ .

ومنهم: المُصْلِتُ[3] لسيفه ، والمُجْلِبُ بِرَجْله[4] ، والمعلن[5] بشرّه ؛ قد أَشْرَطَ نفسَه[6] ، وأوبق دينَه ؛ لحُطام[7] ينتهزه ، أو مِقْنَبٍ[8] يقودُه ، أو مِنبَرٍ يَفْرَعُه[9] ؛ وَبِئْسَ المَتْجَرُ أنْ تراها لنفسِك ثمناً ، ومِمَّا لك عندَ اللهِ عِوَضاً .

---

(١) س ، ك : « من قارعة »

(٢) م : « وقصيص »

(٣) س ، ك : « المسلط » وفى اللسان ٢ / ٣٥٨ « وأصلت السيف : جرد من غمده فهو مصلت »

(٤) فى اللسان ١ / ٢٦٥ « وأجلب الرجلُ الرجلَ إذا توعده بشره وجمع الجمع عليه ، وكذلك جلب يجلب جلبا ، وفى التنزيل : (وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أى اجمع عليهم وتوعدهم بالشر »

(٥) ك : « والمعلق بشره »

(٦) م : « قد أشرك » ، ومعنى « أشرط نفسه » : أى هيأها

(٧) م : « بحطام »

(٨) وفى اللسان ٢ / ١٨٤ « المقنب بالكسر : جماعة الخيل والفرسان »

(٩) س ، ك : « يقرعه » ، ومعنى « يفرعه » : يعلوه

ومنهم : مَن يطلُبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ ؛ ولا يطلُبُ الآخرةَ بعملِ الدنيا ؛ قد طَامَنَ مِنْ شخصه ، وقارَبَ من خطوه ، وشَمَّرَ من ثوبه ؛ وزَخْرَفَ نفسَه للأَمانةِ ، واتخذَ سترَ اللهِ ذَرِيعَةً إلى المعصيةِ .

ومنهم : مَن أقعدَه عن المُلكِ ضُئُولَةٌ فى نفسه ، وانقطاعُ سببه ؛ فقصَّر به الحال عن حال[1] ؛ فتحلى باسم القناعةِ ، وتزيّن بلباس الزهادِ ؛ وليس من ذلك فى مَرَاحٍ ولا مَغْدًى .

وبَقِىَ رجالٌ أَغضَّ أبصارَهم ذِكْرُ المَرْجِعِ ، وأراقَ دموعَهم خوفُ المحشَرِ ؛ فهُم بين شريد[2] نَادٍّ ، وخائفٍ مُنْقَمِعٍ[3] ، وساكتٍ مَكْعُومٍ[4] ، وداعٍ مخلص ، ومُوجَعٍ ثَكْلانَ ؛ قد أخملتهم التَّقِيَّةُ ، وشملتْهم الذِّلة ؛ فهم فى بحرٍ أُجَاجٍ ، أفواهُهم دامية[5] ، وقلوبهم قَرِحَة[6] ؛ قد وُعِظُوا حتى مَلُّوا ، وقُهِرُوا حتى ذلُّوا ، وقُتلوا حتى قَلُّوا .

---

(١) كذا فى م والعقد الفريد ٤ / ٨٩ و ا « الحال على ماله » وعيون الأخبار ٢ / ٢٣٨ « على حاله » والبيان والتبيين ٢ / ٦٠ « الحال عن أمله » وفى ك ، س « فقصرته الحال فتحلى باسم القناعة »

(٢) س ، ك : « شديد ناد » وفى العقد و م « شريد باد » والناد: النافر الذاهب على وجهه

(٣) س : « متقمع » وفى اللسان ١٠/١٦٨ « وقمع الرجل فى بيته وانقمع دخله مستخفيا »

(٤) فى اللسان ١٥ / ٤٢٦ « مكعوم : قد سد الخوف فمه فمنعه من الكلام »

(٥) فى البيان والتبيين ٢ / ٦٠ « ضامزة » وفى م « أقدامهم دامية »

(٦) س ، ك : « قريحة »

فلتكنِ الدنيا فى عيونكم أقلَّ من حتاتة القَرَظ[١] ، وقُرَاضةِ الجَلَم[٢] ؛ واتّعظُوا بمَن كان قبلَكم ، قبلَ أنْ يتعظَ بكم مَن بعدَكم ؛ فارفضُوها ذميمةً ؛ فإنها قد رَفضَت مَن كان أَشْغَفَ بها منكم[٣] .

خطبةٌ لعمرَ بن عبد العزيز رضى الله عنه

أيها الناس ، إنكم ميّتون ، ثم إنكم مَبعوثون ، ثم إنكم مُحاسَبون ؛ فلعمرى : لئن كنتم صادقين ، لقد قصَّرتم ؛ ولئن كنتم كاذبين ، لقدهلكتم .

يا أيها الناس ؛ إنه مَن يُقدَّرْ له رزقٌ برأسِ جبلٍ ، أو بحَضيضِ

---

(١) م : « حتاثة » وفى اللسان ٢/٣٢٦ « حتات كل شىء : ما تحات منه ، أى تناثر » وفى ١٣ / ١٥٠ « وحثالة القرظ : نفايته ، ومنه قول معاوية فى خطبته : فأنا فى مثل حثالة القرظ ، يعنى الزمان وأهله »

(٢) فى اللسان ٩/٨٢ « والقراضة : ما سقط بالقرض . وقراضات الثوب : الفضالة التى يقطعها الخياط وينفيها الجلم » والجلم : المقص

(٣) عقب الجاحظ على هذه الخطبة بقوله ٢ /٦١ « وفى هذه الخطبة ــ أبقاك الله ــ ضروب من العجب : منها أن الكلام لا يشبه الذى من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب فى تصنيف الناس ، وفى الإخبار عما هم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية والخوف ، أشبه بكلام على رضى الله عنه ومعانيه وحاله ــ منه بحال معاوية . ومنها أنا لم نجد معاوية فى حال من الحالات يسلك فى كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب العباد . وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » وقد قال الرضى فى نهج البلاغة ١ / ٧٦ إنها من كلام على الذى لا يشك فيه ، وانظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ١ / ١٧٢ .

أرضٍ — يأتِه ؛ فأجْمِلُوا فى الطَّلَبِ[١] .

خطبة للحجّاج بن يوسُفَ

حمِد الله ، وأثنى عليه[٢] ؛ ثم قال :

يا أهلَ العراقِ ، ويا أهلَ الشِّقاقِ والنِّفاقِ ، ومساوى الأخلاقِ ؛ وبنى اللَّكيعةِ ، وعَبيدَ العصَا ، وأولادَ الإماء ، والفَقْعِ بالقَرْقَرِ[٣] ؛ إنى سمعتُ تكبيرًا لا يُرادُ به الله ، وإنما يُرادُ به الشيطانُ ؛ وإنما مثلى ومثَلكم ، ما قاله ابن بَرَّاقةَ الهَمْدَانِىّ[٤] :

وكنتُ إذا قومٌ غزَوْنى غزَوْتُهم فهل أنا فى ذا ، يالَهَمْدَانَ ، ظالمُ
متى تَجمعِ القلبَ الذَّكِىَّ وصَارِمًا وأنْفًا حَمِيًّا ، تَجْتَنِبْكَ المظالمُ[٥]

أمَا واللهِ لا تَقْرَعُ عصًا عصاً ، إلا جعلتُها[٦] كأمْسِ الدَّابِرِ .

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨

(٢) فى البيان والتبيين ٢ / ١٣٧ عن الهيثم بن عدى قال « أنبأنى ابن عياش ، عن أبيه قال : خرج الحجاج يوماً من القصر بالكوفة ، فسمع تكبيراً فى السوق فراعه ذلك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال »

(٣) فى اللسان ١٠ / ١٢٦ « الفقع والفِقع بالفتح والكسر : الأبيض الرخو من الكمأة وهو أردؤها . . . ويشبه به الرجل الذليل فيقال : هو فقع قَرْقَر ، ويقال أيضاً : أذل من فقع بقرقر ؛ لأن الدواب تنجله بأرجلها » والقرقر : الأرض المنخفضة

(٤) هو عمرو ابن براقة ، وهو ابن منبه بن شهر الهمدانى ، شاعر فاتك ، جاهلى إسلامى . نُسب إلى أمه براقة ، راجع المؤتلف والمختلف للآمدى ص ٦٦ — ٦٧ والأغانى ٢١ / ١٧٥

(٥) ا : « القلب الكمى »

(٦) ك : « إلا جعلها » وفى ا ، م « كالأمس »

خطبة لقُسّ بن ساعِدَة الإيادى[(١)]

أخبرنى محمد بن علىّ الأنصارى [(٢)] بن محمد بن عامر ، قال : حدثنا علىُّ بن إبراهيمَ ، حدثنا عبدُ الله بن داودَ بنِ عبد الرحمن العمرى ؛ قال : حدثنا الأنصارىُّ علىُّ بن محمد الحَنْظَلى — من ولد حَنْظلةَ الغَسِيل — حدثنا جعفر بن محمد ، عن محمد بن حسان[(٣)] ، عن محمد ابن حجاج اللَّخْمى[(٤)] ، عن مُجالدٍ[(٥)] ، عن الشَّعْبىِّ ، عن ابن عباسٍ ؛ قال :

لما وَفَد وفْدُ عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيكم يعرف قُسَّ بنَ ساعدة ؟

---

(١) م : « رضى الله عنه » !

(٢) هذه الكلمة من ك فقط

(٣) هو محمد بن حسان بن خالد السمتى ، أبو جعفر البغدادى . مات سنة ثمان وعشرين ومائتين راجع خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٨٣

(٤) هو أبو إبراهيم محمد بن الحجاج ، من أهل واسط ، سكن بغداد ، وحدث بها عن عبد الملك بن عمير ، ومجالد بن سعيد . وهو كذاب خبيث منكر الحديث ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أطعمنى جبريل الهريسة لتشد ظهرى لقيام الليل » ؛ وقد توفى سنة إحدى وثمانين ومائة . وترجمته فى تاريخ بغداد ٢ / ٢٧٩ — ٢٨٢

(٥) هو مجالد بن سعيد بن عمير الهمدانى ، أبو عمرو الكوفى . ضعفه ابن معين . وقال ابن عدى : إن ما يرويه غير محفوظ . مات سنة أربع وأربعين ومائة ، كما فى خلاصة تذهيب الكمال ص ٣١٥

قالوا : كلنا نعرفه يا رسول الله[1] .

قال : لستُ أنساه بعكاظ ، إذْ وقف على بعيرٍ له أحمر ، فقال :

أيها الناس اجتمعوا ، وإذا اجتمعتم فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعُوا ؛ وإذا وعيتم فقولوا ، وإذا قلتم فاصْدُقوا ؛ من عاش مات ، ومن مات فات ؛ وكل ما هو آتٍ آتٍ .

أما بعد ، فإن فى السماء لخبرًا ، وإن فى الأرض لَعِبرًا ؛ مِهَادٌ موضوع ، وسقْف مرفوع ؛ ونجوم تَمُور ، وبحارٌ لا تغور ؛ أَقْسَم بالله قُسٌّ قسماً حقًّا ، لا كاذبًا فيه ولا آثمًا ، لئن كان فى الأرض رضًا ليكونَنَّ سخطًا[2] ؛ إن لله تعالى دينًا هوأحبُّ إليه من دينكم الذى أنتم عليه ، وقد أتاكم أَوَانُه ، ولحقتكم مُدَّتُه .

مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أَرَضُوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تُرِكوا فناموا ؟

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكم يروى شعره ؟ فأنشدوه :

---

(١) حديث قس بن ساعدة طرقه كلها ضعيفة ، كما قال الحافظ ابن حجر فى الإصابة ٥ / ٢٨٥ — ٢٨٦ وانظر ترجمته فى البداية والنهاية لابن كثير ٢ / ٢٣٠ — ٢٣٧ وعيون الأثر لابن سيد الناس ١ / ٦٨ — ٧٢ وتاريخ بغداد ٢ / ٢٨٣ والأغانى ١٤ / ٤١ — ٤٣ والبيان والتبيين ١ / ٣٠٨ — ٣٠٩ والمعمرين للسجستانى ص ٦٩ — ٧٠ ومجمع الأمثال ١ / ١١٧ — ١١٨ وخزانة الأدب ١ / ٢٦٣ — ٢٦٨ .

(٢) س : « سخط »

في الذَّاهبين الأوَّليـــنَ من القرون لنا بصائرْ

لمــا رأيتُ مَوَارِدًا للموت ليس لها مَصَادِرْ

ورأيتُ قومى نحـوها يسعى الأصاغرُ والأكابرْ

لا يرجـع المـاضى إلَيْـــىَ ولا من الباقين غابرْ

أيقنتُ أنى لا مَحَــا لَةَ حيثُ صار القومُ صائرْ

* * *

أخبرنى الحسن بن عبد الله بن سعيد ، حدثنا علىّ بن الحسين[1] ابن إسماعيل ، حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا عُبَيدُ الله بن الضحّاك ، عن هشام ، عن أبيه : أن وفدًا من إياد قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألهم عن حال قُسّ بن سَاعِدَة ، فقالوا : قال قُسّ :

يا ناعىَ الموتِ والأمواتُ فى جَدَثٍ
عليهمُ من بقـايا بَزِّهِمْ خِرَقُ

دَعْهُمْ فإنَّ لهمْ يوماً يُصَاحُ بهمْ
كما يُنبَّـهُ مِنْ نَوْمَاتِهِ الصَّعِقُ[2]

منهم عُرَاةٌ ومنهم فى ثيابهمُ
منها الجديدُ ومنها الأوْرَقُ الخَلَقُ[3]

---

(١) م : « الحسن »

(٢) فى المعمرين بعد هذا البيت :

حتى يجىء بحال غير حالهم   خلق مضوا ثم ماذا بعد ذاك لقوا

(٣) فى المعمرين ص ٧١ « منهم عراة وموتى فى ثيابهم »

مطر ونبات[١] ، وآباء وأمهات ، وذاهب وآتٍ ، وآياتٌ فى إثر آيات ، وأموات بعد أموات . ضوء وظلام ، وليال وأيام ؛ وغنىّ وفقير ، وشقى وسعيد ، ومحسن ومسىء . أين الأَرْبَابُ الفَعَلة ، ليصلحن كل عامل عمله .

كلا ، بل هو الله واحد ؛ ليس بمولود ولا والد ؛ أَعَادَ وأَبْدَى[٢] ؛ وإليه المآب غدًا .

أما بعد ، يا معشر إياد ؛ أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ أين الحسن الذى لم يشكر ؟ أين الظلم الذى لم ينقم[٣] ؟ كلاّ ورب الكعبة ليعودنّ ما بدا ، ولئن ذهب يوم ليعودنّ يوم .

قال : وهو قس بن ساعدة[٤] بن حُذاق بن ذهل بن إياد بن نزَار ، أوّل من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأوّل من توكأ على عصا[٥] ، وأوّل من تكلم بـ « أما بعد[٥] » .

---

(١) فى المعمرين « قال أبو حاتم : وذكر حزم بن أبى راشد قال : أملى علىّ رجل من أهل خراسان من مواعظ قس : مطر . . . »

(٢) م : « وابدأ » ك : « وابداء »

(٣) س : « الظالم » وفى البيان والتبيين ١ / ٣٠٩ « والظلم الذى لم ينكر » .

(٤) فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ص ٣٠٨ « قس بن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدى بن مالك . . . » وفى المعمرين غير ذلك فراجعه هناك ص ٦٩ .

(٥) ما بين الرقمين ساقط من ا ، م وثابت فى ب و ك ، والمعمرين ص٦٩

خطبة لأبى طالب

الحمد لله الذى جعلنا من ذُرِّية إبراهيم ، وزَرْع إسماعيل ؛ وجعل لنا بلداً حَرَاماً ، وبيتاً مَحْجُوجاً ؛ وجعلَنا الحكّامَ على الناس .

وإنَّ محمدَ بنَ عبد الله ، ابنَ أخى ، لا يوازَنُ[1] به فتًى من قريش إلا رَجَح به : بركةً وفضلاً عدلاً ، ومَجْداً ونُبْلاً ، وإن كان فى المال مُقلاً ؛ فإن المال عاريةٌ مُسْتَرْجَعة ، وظل زائل ؛ وله فى خديجة بنتِ خُوَيلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ؛ وما أردتم من الصَّدَاق فعلىَّ[2] .

---

(١) م : « لا أزن »

(٢) صبح الأعشى ٢١٣/١

* * *

قد نسختُ لك جُملاً من كلام الصَّدْر الأوّل ومُحاوراتهم وخطبهم، وأحيلك فيما لم أنسخ على التواريخ والكتب المصنّفة فى هذا الشأن. فتأملْ ذلك، وسائرَ ما هو مسطَّر من الأخبار المأثورة عن السلف، وأهل البيان واللَّسَنِ، والفصاحة والفِطَنِ؛ والألفاظِ المنثورةِ، والمخاطباتِ الدّائرة بينهم، والأمثالِ المنقولةِ عنهم. ثم انظر بسكون طائر، وخَفْض جَناح، وتفريغ لُبّ، وجَمْع عقل، فى ذلك، فسيقع لك الفضل[1] بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم[2] كلام الآدميين، وتعلم الحدّ الذى يتفاوت بين كلام البليغ والبليغ، والخطيب والخطيب، والشاعر والشاعر، وبين نظم القرآن جملةً.

فإنْ خُيِّلَ إليك، أو شُبِّهَ عليك، وظننت أنه يحتاج أن يُوازَن بين نظم الشعر والقرآن، لأن الشعر أفصح من الخطب، وأبرع من الرسائل، وأدقّ مسلكاً من جميع أصناف المحاورات — ولذلك[3] قالوا له صلى الله عليه وسلم: هو شاعر أو ساحر — وسوّل إليك الشيطان أن الشعر أبلغُ وأعجب، وأرقّ[4] وأبرع، وأحسن الكلام وأبدع —: فهذا فصل فيه نظر بين المتكلمين، وكلام بين المحققين.

---

(١) م: «الفصل»
(٢) م: «مخالف لنظم»
(٣) م: «وكذلك»
(٤) م: «وأدق»

باب[١]

سمعتُ[٢] أفضلَ من رأيتُ من أهل[٣] العلم بالأدب والحِذْق بهذه الصناعة، مع تقدُّمه فى الكلام — : يقول :

إن الكلام المنثور يتأتَّى فيه من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتَّى فى الشعر ؛ لأن الشعر يُضَيِّق نِطاقَ الكلام، ويمنع القول من انتهائه، ويصدُّه عن تصرُّفه على سَنَنِه .

وحَضَرَهُ من يتقدم فى صنعة الكلام، فَرَاجَعَهُ فى ذلك، وذكر أنه لا يمتنع أن يكون الشعر أبلغَ إذا صادف شروط الفصاحة، وأبدعَ إذا تضمَّن أسبابَ البلاغة .

ويشهد عندى للقول الأخير : أنّ معظم براعة كلام العرب فى الشعر، ولا نجد فى منثور قولهم ما نجد فى منظومه، وإن كان قد أُحدثت البَرَاعةُ فى الرسائل على حدٍّ لم يُعْهَد فى سالف أيام العرب، ولم يُنقل فى دواوينهم[٤] وأخبارهم .

وهو، وإن ضَيَّق نطاقَ القول، فهو يَجمع حواشيه، ويضمُّ

---

(١) هذا العنوان من م

(٢) س : «أسمعت»

(٣) م : «من العلم بالأدب» ا : «من أهل الأدب»

(٤) س : «من دواوينهم»

أطرافه ونواحيه ، فهو إذا تهذّب فى بابه ، ووُفى[1] له جميع أسبابه ، لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ، ولم يعارضه من خطابهم خطاب .

وقد حُكِىَ عن المُتَنَبِّى أنه كان ينظر فى المصحف ، فدخل إليه بعض أصحابه ، فأنكر نظره فيه ، لما كان رآه[2] عليه من سوء اعتقاده ، فقال له : هذا[3] المَكّى على فصاحته كان مُفْحَماً .

فإن صَحَّتْ هذه الحكاية عنه فى إلحاده ، عُرِفَ بها[4] أنه كان يعتقد أن الفصاحة فى قول الشعر [أمكن و] أبلغ[5] .

وإذا كانت الفصاحة فى قول الشعر أو لم تكن ، وبَيَّنَّا أنّ نظم القرآن يزيد فى فصاحته على كل نظم ، ويتقدم فى بلاغته على كل قول ؛ بما يتضح به الأمر اتّضاحَ الشمس ، ويتبين به بيانَ الصبح — : وَقَفْتَ على جليّة هذا الشأن . فانظر فيما نعرضه عليك[6] . وتصوّر بفهمك ما نُصوِّره ، ليقع لك موقع عظيم شأن القرآن ، وتأملْ ما نُرَتِّبه ، ينكشفْ لك الحق .

إذا أردنا[7] تحقيق ما ضمناه لك ، فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة

---

(١) م : « ووفر »
(٢) م : « يراه »
(٣) ك : « هو »
(٤) ك : « عرف لها »
(٥) س ، ك : « الشعر أبلغ »
(٦) ك : « تعرضه وتصور » س : « نعرضه عليك ما نعرضه وتصور »
(٧) م : « إذا أردت »

مُتَّفَقٍ على كبر محلها ، وصحّة نظمها ، وجودة بلاغتها ، ورشاقة[1] معانيها ، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها ، مع كَوْنِهِ من الموصوفين بالتقدّم فى الصناعة ، والمعروفين بالحِذْقِ فى البراعة ، فنقفك على مواضع[2] خللها ، وعلى تفاوُت نظمها ، وعلى اختلاف فُصولها ، وعلى كثرة فُضولها ، وعلى شدة تعسّفها ، وبعض تكلّفها ، وما تَجْمَعُ من كلام رفيع ، يُقْرَنُ بينه وبين كلام وضيع ، وبين لفظ سُوقِىّ ، يُقْرَنُ بلفظ مُلُوكِىّ ، وغير ذلك من الوجوه التى يجىء تفصيلها ، ونُبَيِّن ترتيبها وتنزيلها .

• • •

فأما كلام مُسَيْلِمَةَ الكذّاب ، وما زعم أنه قرآن ، فهو أخسُّ من أن نشتغل به ، وأسخفُ من أن نفكر فيه .

وإنما نقلنا منه طرفاً ليتعجب القارئ ، وليتبصر الناظر . فإنه[3] على سخافته قد أضلّ ، وعلى ركاكته قد أَزَلّ ، وميدان الجهل واسع ! ومن نظر فيما نقلناه عنه ، وفَهِمَ موضع جهله ، كان جديراً أن يحمد الله على ما رزقه من فهمٍ ، وآتاه من علم .

فمّا كان يزعم أنه نزل عليه من السماء : « والليل الأَطْخَم ، والذئب

(١) سقطت هذه الكلمة من س ، ك

(٢) م : « فنوقفك على مواقع »

(٣) م : « لأنه »

الأذلم ، والجذع الأزلم ، ما انتهكت أسيد من محرم » ! وذلك قد ذكر في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه !

وقال أيضاً : « والليل الدّامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطْب ولا يابس » !

وكان يقول : « والشاء وألوانها ، وأعجبها السّود ، وألبانها ، والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم المَذْق ، فما لكم لا تجتمعون[1] » !

وكان يقول : « ضِفْدَع بنت ضِفْدَعين ، نِقّي ما تَنِقّين ، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين ، لا الشّاربَ تمنعين[2] ، ولا الماء تكدّرين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشاً[3] قوم يعتدون » !

وكان يقول : « والمبديات[4] زرْعاً ، والحاصدات حَصْداً ، والذاريات قمحاً ، والطّاحنات طحْناً ، والخابزات خبزًا ، والثّاردات ثرْدًا ، واللاقمات لَقْماً ، إهَالَةً وسمناً ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المَدَر ، ريفكم فامنعوه ، والمُعْتَرّ فآووه ، والباغي فناوِئوه . » !

---

(١) م : « تمجعون » !

(٢) التمهيد ص ١٢٨

(٣) م : « قريش »

(٤) في التمهيد « والزارعات » م : « والمنذرات » ك : « والمتبديات »

وقالت سَجَاح بنت الحارث بن عقبان — وكانت تتنبأ ، فاجتمع مُسَيْلِمَةُ معها — فقالت له : ما أوحى إليك ؟

فقال : « ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى[١] ، ما بين صفاق وحَشا » !

وقالت : فما بعد ذلك ؟

قال : أوحى إليّ : « إن الله خلق النساء أفواجاً ، وجعل الرجال لهن أزواجاً ، فنولج فيهن قَعْساً إيلاجاً ، ثم نخرجها إذا شئنا إخراجاً ، فينتِجن لنا سِخَالًا نِتاَجاً » ! فقالت : أشهد أنك نبي[٢] ! !

ولم ننقل كل ما ذكر من سخفه ، كراهية التثقيل .

وروى : أنه سألَ أبُو بكر الصديق رضى الله عنه أقواماً قدموا عليه من بنى حنيفة ، عن هذه الألفاظ ؟ فحكَوْا بعض ما نقلناه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ! ويحَكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن إلٍّ[٣] ، فأين كان يُذهَبُ بكم ؟ !

ومعنى قوله : « لم يخرج عن إلٍّ » : أى عن رُبُوبيّة .

---

(١) ل : « تسعى بين »

(٢) انظر قصة اجتماعهما ، وبقية حوارهما ، وما قاله الأغلب العجلى فى قصة زاوجهما ، فى كتاب الأغانى ١٨ / ١٦٥ — ١١٦ وطبقات فحول الشعراء ص ٥٧٣ — ٥٧٥

(٣) س : « عن آل »

ومن كان له عقل لم يشتبه عليه سخفُ هذا الكلام[١] !

• • •

فنرجع الآن إلى ما ضَمِنّاه من الكلام على الأشعار المتفَق على جَوْدتها وتقدّم أصحابها فى صناعتهم ، ليتبين لك تفاوتُ أنواع الخطاب ، وتباعدُ مواقع أنواع[٢] البلاغة ، وتستدلّ على مواضع البراعة .

وأنت[٣] لا تشك فى جودة شعر امرئ القيس ، ولا ترتاب فى براعته ، ولا تتوقف فى فصاحته ، وتعلم أنه قد[٤] أبدع فى طرق الشعر أمورًا اتبع فيها ، من ذكر الديار والوقوف عليها ، إلى ما يتصل بذلك : من البديع الذى أبدعه ، والتشبيه الذى أحدثه ، والمليح الذى تجد فى شعره[٥] ، والتصرف الكثير الذى تصادفه فى قوله ، والوجوه التى

---

(١) قال المؤلف فى كتاب التمهيد ص ١٢٨ « هذا الكلام دال على جهل مورده ، وضعف عقله ورأيه ، وما يوجب السخرية منه والهزء به ، وليس هو مع ذلك خارجاً عن وزن ركيك السجع وسخيفه . وعلى أنه لو كان معجزاً لتعلقت العرب وأهل الردة به ، ولعرف أتباع النبى صلى الله عليه أنه عرض له ، ولوقع لهم العلم اليقين بأنه قد قوبل . وفى عدم ذلك دليل على جهل مدعى ذلك ، وعلى أن مسيلمة لم يدع هذا الكلام معجزاً ، ولا تحدّى العرب بمثله فعجزوا عنه ، بل كان فى نفسه ونفس كل سامع له أخفّ وأسخف وأذل من أن يتعلق به . ولذلك لا نجد له نبأ ولا أحداً من العرب تعلق به »

(٢) هذه الكلمة من م

(٣) م : « إنك »

(٤) سقطت من م

(٥) هكذا فى الأصول الخطية ، وفى س : « والتمليح الذى يوجد فى شعره »

ينقسم إليها كلامه : من صناعة وطبع ، وسلاسة وعفو[١] ، ومتانة ورقة ، وأسبابٍ تُحْمَد ، وأمور تُؤْثَر وتمدح . وقد ترى الأدباء أوّلًا[٢] يوازنون بشعره فلانًا وفلانًا ، ويضمون أشعارهم إلى شعره ، حتى ربما وازنوا بين شعر من لقيناه وبين شعره فى أشياء لطيفة ، وأمور بديعة ، وربما فَضَّلُوهم عليه ، أو سَوَّوْا بينهم وبينه ، أو قَرَّبوا موضع تقدمه عليهم[٣] ، وبَرَّزُوه بين أيديهم .

ولما اختاروا قصيدته فى السَّبْعِيَّات[٤] ، أضافوا إليها أمثالَها ، وقرنوا بها نظائرَها ، ثم تراهم يقولون : لفلان لامية مثلها ، ثم ترى أنْفُس الشعراء تتشوّق إلى معارضته ، وتساويه فى طريقته ، وربما غَبَّرَتْ فى وجهه فى أشياء كثيرة[٥] ، وتقدمت عليه فى أسباب عجيبة .

وإذا جاءوا إلى تعداد محاسن شعره ، كان أمرًا محصورًا ، وشيئًا معروفًا . أنت تجد من ذلك البديعَ أو أحسنَ منه فى شعر غيره ، وتشاهد مثل ذلك البارع فى كلام سواه ، وتنظر إلى المُحْدَثين كيف توغَّلوا إلى حِيازَة المحاسن ، منهم من جمع رَصَانَة الكلام إلى سَلاسَتِه ،

---

(١) كذلك فى سائر الأصول ، ولكنها غيرت فى س أيضاً إلى « وعلو » !

(٢) سقطت هذه الكلمة من م

(٣) س ، ك : « تقدمهم عليه » وم : « موقع تقدمه »

(٤) يريد « المعلقات السبع » .

(٥) كذا فى الأصول ، ولكنها غيرت فى س إلى « وربما عثرت فى وجهه على أشياء كثيرة » !!

ومَتانَته إلى عُذوبته ، والإصابةَ فى معناه إلى تحسين بَهْجَتِه ؛ حتى إن منهم مَنْ إنْ قصَّر عنه فى بعض ، تقدَّم عليه فى بعض ، [وإنْ وقف دونه فى حالٍ ، سبقه فى أحوالٍ ، وإنْ تشبَّه به فى أمر ، ساواه فى أمور[1]] ؛ لأنَّ الجنس الذى يَرْمُونَ إلَيــه ، والغرضَ الذى يَتَوارَدُونَ عليه ، هو[2] مما للآدمى فيه مَجَالٌ ، وللبَشَرِىّ فيه مِثَالٌ ؛ فكلٌّ يضرب فيه بسهم ، ويفوز فيه بِقِدْحٍ ، ثم قد تتفاوت السهام[3] تفاوتاً ، وتتباين تبايناً ، وقد تتقارب تقارباً ، على حسب مشاركتهم فى الصنائع ، ومساهمتهم فى الحِرَف .

ونظمُ القرآن جنسٌ مُتَمَيِّزٌ[4] ، وأسلوب مُتخصِّص ، وقَبِيلٌ عن النظير[5] مُتَخَلِّص ؛ فإذا شئتَ أن تعرف عِظَمَ شأنِه ، فتأملْ ما نقولُه فى هذا الفصل لامرئ القيس فى أجود أشعاره ، وما نبيِّنُ لك من عَوَارِه ، على التفصيل . وذلك قوله :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ
بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فالمِقْرَاةِ لم يَعْفُ رَسْمُها
لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ

(١) الزيادة من ا ، م
(٢) هذه الكلمة سقطت من س ، ك
(٣) م : « بالسهام »
(٤) ك ، م : « مميز »
(٥) ك : « عن النظم »

الذين يتعصبون له ويدَّعون[١] محاسنَ الشعر، يقولون: هذا من البديع، لأنه وقَف واستوقف، وبكَى واستبكى، وذكر العهْدَ والمنزل والحبيب، وتوجَّع واسترجع، كلُّه في بيتٍ؛ ونحو ذلك.

وإنما بيّنا هذا لئلّا يقع لك ذَهَابُنا عن مواضع المحاسن، إن كانت، ولا غفلتُنا عن مواضع الصناعة، إن وُجِدَتْ.

تأملْ — أرشدك الله، وانظر — هداك الله: أنت تعلم أنه ليس في البيتين شيء قد سبَقَ في ميدانه شاعرًا، ولا تقدَّم به صانعاً. وفي لفظه ومعناه خلل:

فأوَّلُ ذلك: أنه استوقف مَن يَبْكِي لذكر الحبيب[٢]، وذكراه لا تقتضي بكاء الخَلِيِّ، وإنما يصحّ طلب الإسْعَاد في مثل هذا، على أن يَبْكِيَ لبكائه، ويرقَّ لصديقه في[٣] شدة بُرَحَائِهِ؛ فأمَّا أن يبكي على حبيب صديقِه، وعشيق رفيقه، فأمرٌ محال.

فإن كان المطلوب وقوفُه وبكاؤُه أيضاً عاشقاً، صحَّ الكلام [من وجهٍ[٤]]، وفسد المعنى من وجهٍ آخر؛ لأنّه من السّخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعوَ غيره إلى التَّغَازُلِ عليه، والتَّوَاجُدِ معه فيه!

---

(١) س، ك: «أو»
(٢) ك: «استوقف ثم يبكي»
(٣) م: «من شدة»
(٤) الزيادة من م

ثم فى البيتين ما لا يفيد ، من ذكر هذه المواضع ، وتسمية هذه الأماكن : من « الدَّخول » و « حومل » و « تُوضِح » و « المِقْرَاة » و « سِقْطِ اللِّوَى » ، وقد كان يكفيه أن يذكر فى التعريف بعضَ هذا . وهذا التطويلُ إذا لم يُفِدْ كان ضَرْباً من العِيّ !

ثم إن قوله : « لَمْ يَعْفُ رَسْمُها » ، ذكر الأَصْمَعِيّ من محاسنه : أَنَّه باقٍ فنحنُ نحزن على مشاهدته ، فَلَوْ عَفَا لاسترحنا .

وهذا بأن يكون من مَسَاويه أولى ؛ لأنه إن كان صادقَ الوُدِّ ، فلا يزيده عَفَاءُ الرُّسُومِ إلا جِدَّةَ عَهْدٍ ، وشِدَّةَ وَجْدٍ . وإنما فَزِعَ الأصمعى[1] إلى إفادته هذه الفائدة ، خشيةَ أن يُعاب عليه ، فيقال : أىُّ فائدة لِأَنْ يُعرِّفنا أنّه لم يَعْفُ رَسْمُ منازل حبيبه ؟ وأى معنًى لهذا الحشو ؟ فذكر ما يمكن أن يذكر ؛ ولكن لم يخلّصه — بانتصاره له — من الخلل .

ثم فى هذه الكلمة خلل آخر ، لأنه عَقَّبَ البيت بأن قال[2] :

« فهل عند رسمٍ دارسٍ من مُعَوَّل ! »

فذكر أبو عُبيدَة : أنه رجع فأَكْذَبَ نفسه ، كما قال زُهَير :

---

(١) س : « وإنما قرع له الأصمعى » !

(٢) ا : « بأن قال بعده »

قِفْ بالديار التى لم يَعْفُها القِدَمُ   بَلَى، وغيَّرها الأرْوَاحُ والدِّيَمُ[١]

وقال غيره : أراد بالبيت الأول أنه لم ينطمس أَثَرُهُ كلّه ، وبالثانى أنه ذهب بعضُه ، حتى لا يَتَنَاقَضَ الكلامَان .

وليس فى هذا انتصار ، لأن معنى « عفا » و « دَرَس » واحد ، فإذا قال : « لم يعف رَسْمُها » ثم قال : « قد عَفَا » ، فهو تناقضٌ لا محالة !

واعتذارُ أبى عُبيدة أقربُ لو صَحَّ ، ولكن لم يرد هـذا القول مَوْرِدَ الاستدراك كما قاله[٢] زهير ، فهو إلى الخلل أقرب .

وقوله : « لِمَا نَسَجَتْهَا » ، كان ينبغى أن يقول : « لِمَا نَسَجَها » ولكنَّه تعسَّف فجعل « ما » فى تأويل تأنيث[٣] ، لأنها فى معنى الرِّيح ، والأَوْلى التَّذكيرُ دون التأنيث ، وضرورةُ الشعر قد قادته إلى[٤] هذا التعسُّف .

وقوله : « لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا » ، كان الأولى أن يقول : « لَمْ يَعْفُ رَسْمُهُ » ؛ لأنه ذكَّر المنزل ؛ فإن كان ردَّ ذلك إلى هذه البِقاع والأماكن

---

(١) ديوانه ص ١٤٥ وفيه « بلى وغيرها » والأرواح : جمع ريح . والديم جمع ديمة ، والديمة مطر يدوم فى سكون بلا رعد أو برق ، وقال ثعلب فى شرح هذا البيت : « قال أبو زياد : عفا بعضها ولم يعف بعض . وقال أبو عبيدة : أكذب نفسه . لم يعفها : لم يدرسها ، ثم رجع فقال : بلى ، ومثله قول الطهوى :
فلا تبعدن يا خير عمرو بن جندب   بلى إن من زار القبور ليبعدا

(٢) م : « لو صح . ولم يكن يورد هذا القول . . . على ما قاله »

(٣) كذا فى م ، ا ، ك ، وفى س : « التأنيث »

(٤) س ، ك : « قد دلته على هذا »

التى المنزلُ واقعٌ بينها ، فذلك خلل ؛ لأنه إنما يريد صفة المنزل الذى نزله حبيبه ، بعفائه ، أو بأنه لم يعف دون ما جاوره.

وإن أراد بالمنزل الدارَ حتى أنث ، فذلك أيضاً خلل .

ولو سلِمَ من هذا كلِّه ومما نكرهُ ذكره كراهيةَ التطويل — : لم نَشُكَّ فى أن شعر أهل زماننا لا يَقصُر عن البيتين ؛ بل يزيد عليهما ويَفضُلها .

* * *

ثم قال :

وُقُوفاً بها صَحْبِى علىَّ مَطِيَّهمْ ... يقولون: لاتَهْلِكْ أَسًى وتَحَمَّلِ[1]

وإن شِفَائِى عَبْرَةٌ مُهَرَاقةٌ ... فَهَلْ عِنْدَرَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

وليس فى البيتين أيضاً معنًى بديع ، ولا لفظٌ حسن كالأوّلين .

والبيت الأول منهما متعلق بقوله : « قفا نبك » ، فكأنه قال : قفا وقوفَ صحبى بها علىَّ مطيهم ، أو : قفا حالَ وقوف صحبى . وقوله « بها » : متأخر فى المعنى وإن تقدم فى اللفظ . ففى ذلك تكلُّف وخروجٌ عن[2] اعتدال الكلام .

والبيت الثانى مُخْتَلّ من جهة أنه قد جعل الدّمعَ فى اعتقاده شافياً

---

(١) جاء فى م بعد هذا البيت قوله :

كأنى غداة البين يوم تحملوا ... لدى سمرات الحى ناقف حنظل

(٢) هى كذلك فى ا ، م ، ك ولكنها غيرت فى س إلى « من »

كافياً ، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة[1] أخرى ، وتَحَمُّلٍ ومُعَوَّلٍ عند الرُّسُوم ؟

ولو أراد أن يحسن الكلام لوجب أن يَدُلَّ[2] على أن الدمع لا يشفيه لشدة ما به من الحزن ، ثم[3] يسائل : هل عند الربع من حيلة أخرى ؟

* * *

وقوله :

كَدأْبكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا ... وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمأْسَلِ

إذا قامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا ... نَسِيمَ الصَّبا جاءتْ بِرَيَّا القَرَنْفُلِ

أنت لا تشك فى أن البيت الأول قليل الفائدة ، ليس له مع ذلك بَهْجَة ، فقد يكون الكلام مصنوعَ اللفظ ، وإن كان مَنْزُوعَ المعنى !

وأما البيت الثانى فوجه التكلّف فيه قوله :

* إذا قامتا تضوّع المسك منهما *

ولو أراد أن يجوّد أفاد أن بهما طيباً على كل حال ، فأمّا فى حال القيام فقط ، فذلك تقصير ! !

ثم فيه خلل آخر : لأنه بعد أن شبّه عَرْفها بالمسك ، شَبَّهَ ذلك بنسيم القَرَنْفُل ، وذِكْر ذلك بعد ذكر المسك نقصٌ .

---

(١) م : « طلب حاجة »

(٢) هى كذلك فى ا ، م ، ك ولكنها فى س « أن يدخل » !

(٣) م : « ثم أقبل يسائل »

وقوله: « نَسِيمَ الصَّبَا » ، فى تقدير المنقطع عن المصراع الأوّل ، لم يصله به وَصْلَ مِثْلِه .

* * *

وقوله :

فَفَاضَتْ دُمُوعُ العَيْنِ مِنّى صَبَابَةً   عَلَى النَّحْرِ حتَّى بَلَّ دَمْعِىَ مِحْمَلِى

أَلا رُبَّ يومٍ لكَ منهنَّ صالِحٍ   ولا سِيَّما يَومٍ بِدَارَةَ جُلْجُلِ[1]

قوله : « فَفَاضَتْ دُموعُ العَيْنِ » ، ثم استعانته بقوله : « مِنّى » استعانةٌ ضعيفة عند المتأخرين فى الصنعة ، وهو حشو غير مليح ولا بديع .

وقوله : « على النَّحْرِ » ، حشو آخر ، لأن قوله : « بَلَّ دَمْعِى مِحْمَلِى »[2] يغنى عنه ويدلُّ عليه ، وليس بحشو حسن . ثم قوله : « حَتَّى بَلَّ دَمْعِى مِحْمَلِى »[2] إعادة ذكره الدمعَ حشوٌ آخر ، وكان يكفيه أن يقول : حتى بلت[3] محملى ، فاحتاج لإقامة الوزن إلى هذا كله.

ثم تقديره أنه[4] قد أفرط فى إفاضة الدمع حتى بَلَّ مِحْمَلَه ، تفريطٌ منه وتقصير ، ولو كان أَبْدَعَ لكان يقولُ : حتى بلّ دمعى مغانِيَهم وعِرَاصَهم . ويشبه أن يكون غرضه إقامة الوزن والقافية : لأن[5]

---

(١) م : « يوم صالح لك منهما »

(٢) ما بين الرقمين ثابت فى ا ، م ، ك

(٣) م : « بل »

(٤) سقطت هذه الكلمة من م

(٥) س : « إذا » بدل « لأن » .

الدمعَ يَبْعُدُ أن يَبُلَّ المِحْمَل ، وإنما يَقْطُرُ من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذّيل ! ! وإن بلّه فَلِقِلّته وأنه لا يقطر .

وأنت تجد فى شعر الخُبْزَرُزّى[1] ما هو أحسن من هذا البيت وأمتن[2] وأعجب منه .

والبيت الثانى خال من المحاسن والبديع ، خاوٍ[3] من المعنى ، وليس له لفظٌ يَرُوقُ ، ولا معنى يَرُوع ، من طباع[4] السوقة ! فلا يرعك تهويله باسم موضع غريب .

* * *

وقال :

ويومَ عَقَرْتُ للعذارَى مَطِيَّتى ... فَيَاَ عَجَباً مِنْ رَحْلِها الْمُتَحَمَّلِ

فظلَّ العَذارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهاَ ... وشَحْمٍ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتَّلِ

---

(١) فى ضبطها ست لغات . فانظرها فى وفيات الأعيان ١٨/٥ وهو أبو القاسم نصر بن أحمد بن نصر ، أصله من البصرة ، ونزل بغداد وأقام بها دهراً طويلا . وتوفى سنة سبع وعشرين وثلاثمائة . وهو شاعر أمى مجيد ، كان لا يتهجى ولا يكتب ، وكان خبازاً يخبز خبز الأرز بدكان له فى مربد البصرة ، فكان يخبز وهو ينشد ما يقوله من الشعر ، فيجتمع الناس حوله ويزدحمون عليه ، لاستماع شعره وملحه ، ويتعجبون من إجادته فى مثل حاله وحرفته . راجع ترجمته فى تاريخ بغداد ١٣ / ٢٩٦ — ٢٩٩ ووفيات الأعيان ٥ / ١٢ — ١٨ ومعجم الأدباء ١٩ / ٢١٨ — ٢٢٢ ويتيمة الدهر ٢ / ٣٣٧ — ٣٤٠

(٢) م : « وأميز »

(٣) س : « خلو » م « فارغ »

(٤) س : « طبائع »

تقديره : أُذْكُرْ يوم عَقَرْتُ مطيتى ، أو يَرُدُّه[1] على قوله : « يوم بِدَارَةَ جُلْجُلِ » ، وليس فى المصراع الأول من هذا البيت إلا سفاهته[2] !!

قال بعض الأدباء : قوله « يا عجبا » يُعَجِّبهم من سفهه فى شبابه : من نحره ناقته لهن[3]. وإنما أراد أن لا يكون الكلام من هذا المصراع منقطعاً عن الأول ، وأراد أن يكون الكلام ملائماً له .

وهذا الذى ذكره بعيد . وهو منقطع عن الأول ، وظاهره أنه يتعجب من تحمل المذارى رَحْلَهُ ! وليس فى هذا تعجب كبير ، ولا فى نَحْرِ الناقة لهن تعجّب !

وإن كان يعنى به أنهن حملْنَ رحلَه ، وأن بعضَهن حملته[4] ، فعبَّرَ عن نفسه برحله ، فهذا قليلاً يشبه أن يكون عجباً ، لكنّ الكلامَ لا يدلّ عليه ، ويَتَجَافَى عنه .

ولو سلم البيت من العيب لم يكن فيه شىء غريب[5] ، ولا معنى بديع ، أكثر من سفاهته[6] ، مع قلة معناه ، وتقارب أمره ، ومشاكلته طبع المتأخرين من أهل زماننا !

---

(١) م : « أو يجريه »

(٢) ا ، م ، ك : « إلا سلامته »

(٣) س ، ك : « لهم »

(٤) م : « حمله »

(٥) سقطت هذه الكلمة من ا

(٦) ا ، م ، ك : « من سلامته »

وإلى هذا الموضع لم يعرّ له بيتٌ رائع ، وكلام رائق .

وأما البيت الثانى فيعدونه حسناً ، ويعدون التشبيه مليحاً واقعاً . وفيه شىء : وذلك أنه عرَّفَ اللحم ونَكَّرَ الشّحم ، فلا يعلم[١] أنه وصف شحمها ، وذكر تشبيه أحدهما بشىء واقع [للعامّة ، ويجرى على ألسنتهم][٢] ! وعجز عن تشبيه القسمة الأولى فمرّت مُرْسَلَةً ! وهذا نقصٌ فى الصّنعة ، وعجزٌ عن إعطاء الكلام حقّه .

وفيه شىء آخر من جهة[٣] المعنى : وهو : أنه وصف طعامه الذى أطعم من أضاف بالجودة ، وهذا قد يعاب . وقد يقال : إن العرب تفتخر بذلك ولا يرونه عيباً ، وإنما الفرس هم الذين يرون هذا عيباً شنيعاً .

وأما تشبيه الشحم بالدِّمَقْس ، فشىءٌ يقع للعامة ويجرى على ألسنتهم ، فليس بشىء قد سبق إليه ، وإنما زاد « المُفَتَّل » للقافية ، وهذا[٤] مفيد ، ومع ذلك فلست أعلم العامة تذكر هذه الزيادة ، ولم يعدّ أهل الصنعة ذلك من البديع ، ورأوه قريباً .

وفيه شىء آخر [من جهة المعنى[٥]] : وهو : أنّ تَبجُّحَهُ بما أَطْعَمَ للأحباب مذموم ، وإنْ سَوَّغَ التَّبَجُّحَ بما أَطْعَمَ للأضياف ، إلا أن

---

(١) م : « فلا يعرف »
(٢) الزيادة من ا
(٣) م : « من طريق »
(٤) م : « وهو »
(٥) الزيادة من ا

يوردَ الكلامَ موردِ المُجُون ، وعلى طريق[1] أبى نُوَاس فى المزاح والمداعبة !

• • •

وقوله :

ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةٍ فقالت: لكَ الوَيْلاتُ إنَّكَ مُرْجِلِى

تَقولُ وقد مَالَ الغَبِيطُ بنا معاً : عَقَرْتَ بَعِيرِى ياامرأَ القَيْسِ فانْزِلِ

قوله : « دخلتُ الخِدرَ خدْرَ عُنيزة » ، ذكرَه تكريرًا[2] لإقامة الوزن ، لا فائدة فيه غيره ، ولا ملاحة له ولا رونق !

وقوله فى المصراع الأخير من هذا البيت : « فقالت لك الوَيْلاتُ إنك مُرْجِلى » ، كلامٌ مؤنَّث من كلام النساء ، نقله من جهته إلى شعره ! وليس فيه غير هذا ! !

وتكريره بعد ذلك : « تقول وقد مال الغبيط » ، يعنى قَتَبَ الهَوْدَج ، بعد قوله : « فقالت لك الوَيْلاتُ إنّكَ مُرْجِلِى » : لا فائدة فيه غير تقدير[3] الوزن ! وإلا فحكاية قولها الأوّل كافٍ ، وهو فى النظم قبيح ؛ لأنه ذكر مرةً : « فقالت » ، ومرةً : « تقول » ، فى معنى واحد ، وفَصْلٍ خفيف !

وفى مصراع الثانى أيضاً تأنيثٌ من كلامهن .

---

(١) ا : « طرائق »

(٢) م : « ذكر تكريره »

(٣) م : « غير تقديم »

وذكر أبو عُبيدَة أنه قال : « عقَرْتَ بَعيرى » ، ولم يقل ناقتى ؛ لأنهم يحملون النساء على ذكور الإبل ، لأنها أقوى .

وفى ذلك[1] نظر ، لأن الأظهر أنّ البعير اسم للذكر والأنثى ، واحتاج إلى ذكر البعير لإقامة الوزن .

* * *

وقوله :

فقلتُ لها : سِيرِى وأَرْخِى زِمَامَهُ ... ولا تُبْعِدِينى مِنْ جَنَاكِ المُعَلَّلِ

فمِثْلِكِ حُبْلَى قد طَرَقْتُ ومُرْضِعٍ ... فأَلْهَيْتُها عن ذى تَمائِمَ مُحْوِلِ[2]

البيت الأول قريب النسج ، ليس له معنى بديع ، ولا لفظ شريف ، كأنه من عبارات المنحطّين فى الصنعة .

وقوله : « فمثلكِ حبلى قد طَرَقْتُ » ، عابه عليه أهل العربية . ومعناه عندهم حتى يستقيم الكلام : فرب مثلك حبلى قد طرقت ، وتقديره أنه زِيرُ نِسَاء ، وأنّه يفسدهن ويلهيهن عن حَبَلِهِنّ ورضاعِهِن ، لأنّ الحُبْلَى والمُرْضِعة أبعدُ من الغزل وطلب الرجال !

والبيت الثانى فى الاعتذار والاستِهْتَار[3] والتَّهْيَام ، وغير منتظم مع المعنى الذى قدّمه فى البيت الأول ؛ لأنّ تقديره : لا تبعدينى عن نفسك فإنى أَغْلِب النِّساء ، وأخدعهن عن رأيهن ، وأُفسدهن

(١) س ، ك : « وفيه »
(٢) س ، ك : « مغيل » ا « مغول »
(٣) ك : « والاشتهار » !

بالتغازل ! وكونه مَفْسَدَةً لمن لا يوجب له وَصْلَهُنّ وتركَ إبعادِهِنّ إياه ، بل يوجب هجره والاستخفاف به ، لسخفه ودخوله كلَّ مدخلٍ فاحش ، وركوبِه كل مركب فاسد !

وفيه من الفحش والتفحش ما يستنكف الكريم من[1] مثله ، ويأنف من ذكره !!

• • •

وقوله :

إذا ما بكَى من خَلْفِها انصرفتْ لَهُ ‏ ‏ ‏ بِشِقٍ وتَحْتِي شِقُّها لم يُحَوَّلِ[2]

ويوماً على ظَهْرِ الكَثِيبِ تَعَذَّرَتْ ‏ ‏ ‏ عَلَيَّ وآلت حِلْفَةً لَمْ تُحَلَّلِ

فالبيت الأول غاية فى الفحش ، ونهاية فى السخف ، وأىّ فائدة لذكره لعشيقته كيف كان يركب هذه القبائح ، ويذهب هذه المذاهب ، ويَرِد هذه الموارد ؟! إنّ هذا ليبغضه [إلى][3] كلُّ من سَمِعَ كلامَه ، ويُوجبُ له المَقْتَ ! وهو — لو صدق — لكان قبيحاً ، فكيف : ويجوز أن يكون كاذباً ؟!

ثم ليس فى البيت لفظ بديع ، ولا معنى حسن .

وهذا البيت متصل بالبيت الذى قبله ، من ذكر المُرْضِعِ التى لها ولد مُحْوِل .

---

(١) م : « عن »
(٢) ا : « بشق وشق عندنا لم يحول »
(٣) الزيادة من ا ، ك ، م

فأمّا البيتُ الثانى وهو قوله : « ويوماً » ، يتعجب منه بأنها[1] تشددت وتصّرت[2] عليه وحلفت عليه ، فهو كلام رَدِىء النَّسْجِ ، لا فائدة لذكره لنا أن حبيبته تمنّعت عليه يوماً بموضع يسمّيه ويصفه !

وأنت تجد فى شعر المحدَثين من هذا الجنس فى التغزل ما يذوب معه اللُّبُّ ، وتطرب عليه[3] النفْس . وهذا مما تستنكره النفس ، ويشمئز منه القلب ، وليس فيه شىء من الإحسان والحسن !!

* * *

وقوله :

أفاطمَ مَهْلاً بعضَ هذا التّدلُّلِ ... وإنْ كنتِ قدْ أزْمَعْتِ صُرْمِى فأجْمِلِى

أَغرَّكِ منّى أنّ حبَّك قاتِلِى ... وأنكِ مَهْما تأْمُرِى القلبَ يَفْعَلِ

فالبيت الأول فيه ركاكة جدًّا ، وتأنيث ورقّة ، ولكن فيها تخْنِيثٌ !

ولعل قائلًا [أن][4] يقول : إنّ كلامَ النساء بما يلائمهن من الطبع أَوْقَعُ وأَغْزَلُ ؟

وليس كذلك ، لأنك تجد الشعراء فى الشعر المؤنّث لم يعدلوا عن رصانة قولهم .

---

(١) ا : « منه أنها » ك ، س « منه وإنما »

(٢) م : « وتعصرت »

(٣) م : « له »

(٤) الزيادة من ا ، م ، ك

والمصراع الثانى منقطع عن الأول ، لا يلاءمه ولا يوافقه . وهذا يبين لك إذا عرضت[1] معه البيت الذى تقدمه .

وكيف يُنكِرُ عليها تدلّلها ، والمُتَغَزِّلُ يطرب على دلال الحبيب وتدلُّلِهِ ؟

والبيت الثانى قد عِيب عليه[2] ، لأنه قد أخبر أنّ من سبيلها أن لا تغتر[3] بما يريها من أن حبّها يقتله ، وأنها تملك قلبه فما أمرَتْهُ فَعَلَهُ ، والمحبُّ إذا أخبر عن مثل هذا صدق .

وإن كان المعنى غير هذا الذى عيب عليه ، وإنما ذهب مذهباً آخر ، وهو : أنه أراد أن يظهر التجلّد :— فهذا خلاف ما أظهر من نفسه فيما تقدم من الأبيات ، من الحب والبكاء على الأحبة ، فقد دخل فى وجه آخر من المُنَاقَضَةِ والإحالة فى الكلام .

ثم قوله : « تأمُرِى القلبَ يَفْعَلِ » ، معناه[4] تأمرينى ، والقلب لا يُؤْمَرُ ، والاستعارة فى ذلك غير واقعة ولا حسنة[5] .

---

(١) كذا فى م ، ك . وفى س : « اعترضت »

(٢) راجع الموشح ص ٣٦

(٣) م : « ألا تعبره »

(٤) م : « تقديره »

(٥) قال أبو حيان التوحيدى فى كتاب البصائر والذخائر ١/٢٦ « وقال محمد بن راشد : كنا يوماً مع إسحاق بن إبراهيم الطاهرى نتحدث ونخوض فى ضروب الآداب ، فأقبل علينا فقال : ما أراد امرؤ القيس بقوله :

أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل ؟

فكل قال بما حضره ، فقال : لم يرد هذا . قلنا : فما أراد ؟ قال : أراد أنك

* * *

وقوله :

فإن كنتِ قدْساءَتْكِ منّى خَلِيقَةٌ ... فَسُلِّى ثيابِى منْ ثيابكِ تَنْسُلِ
وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلا لِتَضْرِبِى ... بِسَهْمَيْكِ فى أَعْشارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ

البيت الأول قد قيل فى تأويله : إنه ذكر الثّوب وأراد البدن ، مثل قول الله تعالى :﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ[1] ﴾ . وقال أبو عبيدة : هذا مثل للهَجْر ، وتَنْسُل : تبين .

وهو بيت قليل المعنى ، ركيكه ووضيعه ، وكلّ ما أضاف إلى نفسه ووصفَ به نفسَه سُقوطٌ وسفه وسخف ، يوجب[2] قطعه . فلِمَ لَمْ يَحْكُم على نفسه بذلك ، ولكن يورده مورد أَنْ ليست له خليقة توجب هِجْرانَه والتّفصِّى[3] من وصله ، وأنه مهذّب الأخلاق ، شريف الشمائل فذلك يوجب أن لا ينفكّ من وِصالِه .

والاستعارة فى المصراع الثانى فيها تواضع وتقارب ، وإن كانت غريبة[4] .

تملكين قلبك فإن أردت صرمى قدرت عليه ، وإن أردت صلتى قدرت عليها ، وأما أنا فلا أملك من قلبى إلا صلتك » ومعنى .أغرّك : أى جرأك علىّ » وانظر الشعر والشعراء ١ / ٨٤

(١) سورة المدثر ٤
(٢) كذا فى ك ، م
(٣) م : « والتقصى »
(٤) م : « عربية »

وأما البيت الثانى فمدود من محاسن القصيدة [١] وبدائعها .
ومعناه : ما بكيت إلا لِتَجْرَحِى قلباً معشَّرًا — أى مكسَّرًا — من قولهم : « بُرْمَةٌ أعشار » إذا كانت قِطَعًا [٢] . هذا تأويل ذكره الأصمعى [٣] ، وهو أشبه عند أكثرهم .

وقال غيرُه : وهذا مثل للأعشار التى تقسم الجزور عليها ، ويعنى بسهميك : المُعَلّى ، وله سبعة أنصباء ، والرَّقيبَ ، وله ثلاثة أنصباء . فأراد أنك ذهبت بقلبى أجمع .

ويعنى بقوله : مقتَّل : مذلَّل [٤] .

وأنت تعلم أنّه على ما يَعْنى به فهو غير موافق للأبيات المتقدمة ، لما فيها من التناقض الذى بينّا .

ويشبه أن يكون مَنْ قال بالتأويل الثانى ، فزع إليه لأنه رأى اللفظ مستكرَهاً على المعنى الأول ، لأن القائل إذا قال : « ضرَبَ

---

(١) م : « هذه القصيدة »

(٢) أراد أن قلبه كسر ثم شعب كما تشعب القدر

(٣) س ، ك : « رضى الله عنه» !

(٤) فى اللسان ٦ / ٢٤٩ « قال الأزهرى : وفيه قول آخر ، وهو أعجب إلى . قال أبو العباس أحمد بن يحيى : أراد بقوله : "بسهميك" ها هنا سهمى قداح الميسر ، وهما : المعلى والرقيب ، فللمعلى سبعة أنصباء ، وللرقيب ثلاثة ، فإذا فاز الرجل بهما غلب على جزور الميسر كلها ، ولم يطمع غيره فى شىء منها ، وهى تقسم على عشرة أجزاء . فالمعنى: أنها ضربت بسهامها على قلبه فخرج لها السهمان ، فغلبته على قلبه كله ، وفتنته فملكته . ويقال : أراد بسهميها عينيها . . . قال : وهذا التفسير فى هذا البيت هو الصحيح . ومقتل : مذلل »

فلان بسهمه فى الهدف » ، بمعنى أصابه ، كان كلاماً ساقطاً مرذولاً .
وهو يرى أن معنى الكلمة أن عينيها كالسهمين النافذين فى إصابة قلبه المجروح ، فلما بكتا وذرفتا بالدموع كانتا ضاربتين فى قلبه .

ولكن مَنْ حمل على التأويل الثانى سلم من الخلل الواقع فى اللفظ ، ولكنه يفسد المعنى ويختل[1] ، لأنه إن كان مُحبًّا[2] — على ما وصف به نفسه من الصبابة — فَقَلْبُهُ كلُّه لها ، فكيف يكون بكاؤها هو الذى يُخَلِّص قلبه لها ؟!

واعلم بعدَ هذا أن البيت غير ملائم للبيت الأول ، ولا متصل به فى المعنى ، وهو منقطع عنه ، لأنه لم يسبق كلام يقتضى بكاءها ، ولا سبب يوجب ذلك ، فتركيبه هذا الكلام على ما قبله فيه اختلال .

ثم لو[3] سلم له بيت من عشرين بيتاً ، وكان بديعاً ولا عيب فيه ، فليس بعجيب ، لأنه لا يُدَّعى على مثله أن كلامه كلَّه متناقض ، ونظمه كلَّه متباين .

وإنما يكفى أن نبيّن أن ما سبَقَ من كلامه إلى هذا البيت ، مما لا يمكن أن يقال إنه يتقدم فيه أحدًا من المتأخرين ، فضلاً عن المتقدمين .

---

(١) كذا فى م ، وفى س ، ك « ولكنه إذا حمل على الثانى فسد المعنى واختل »

(٢) س : « كان محتاجاً » !

(٣) م : « ثم إن »

وإنما قُدِّم فى شعره لأبيات قد برع فيها، وبَانَ حِذْقُه بها .

وإنما أنكرنا أن يكون شعره مُتَنَاسِباً فى الجودة ، ومتشابهاً فى صحة المعنى واللفظ ، وقلنا : إنه يتصرَّفُ بين وحْشِىّ غريب مُسْتَنْكَر ، وعربية كالمُهْمَلَ مُسْتَكْرَهَة[1] ، وبين كلام سليم متوسط ، وبين عامىّ سُوقِىّ فى اللفظ والمعنى ، وبين حكمةٍ حسنة ، وبين سخف مُسْتَشْنَع . ولهذا قال الله عزّ اسمه : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا[2] ﴾ .

* * *

فأما قوله :

وبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤُها ... تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوٍ بها غَيْرَ مُعْجَلِ
تجاوزْتُ أَحْرَاساً وأَهْوَالَ مَعْشَرٍ ... علىّ حِرَاصٍ لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِى[3]

فقد قالوا : عَنَى بذلك أنها كبيضة خِدْرٍ فى صفائها ورقّتها ، وهذه كلمة حسنة ، ولكن لم يَسْبِقْ إليها ، بل هى دائرةٌ فى أفواه العرب ، وتشبيهٌ سائرٌ .

ويعنى بقوله : « غيرَ مُعْجَلِ » : أنه ليس ذلك مما يتفق قليلاً وأحياناً ، بل يتكرر له الاستمتاع بها ، وقد يحمله[4] غيره على أنه

---

(١) كذا فى م ، ك ، وفى س : « كالمهل مستنكرة » !
(٢) سورة النساء ٨٢
(٣) كذا فى م ، ك ، وفى س والمعلقات :
« أحراساً إليها ومعشر على حراصا »
(٤) م : « حمله »

رابط الجأش ، فلا[١] يستعجل إذا دخلها خوفَ حصاناتها[٢] ومَنَعتها .

وليس فى البيت كبير فائدة ؛ لأنّ[٣] الذى حكى فى سائر أبياته قد تَضَمَّنَ مطاولته فى المُغَازَلَة واشتغالَه بها ، فتكريره فى هذا البيت مثلَ ذلك قليلُ المعنى ، إلا الزيادة التى ذكَرَ مِنْ مَنعتها ، وهو — مع ذلك — بيت سليم اللفظ فى المصراع الأول دون الثانى .

والبيت الثانى ضعيف .

وقوله : « لو يُسِرُّون مَقْتَلِى » ، أراد أن يقول : لو أسرّوا ، فإذا نقله إلى هذا ضَعُفَ ووقعَ فى مضمار الضّرورة ، والاختلالُ على نظمه بَيِّن ، حتى إن المتأخرَ لَيَحْتَرِزُ[٤] من مثله .

* * *

وقوله :

إذا ما الثُّرَيّا فى السماء تَعرَّضتْ تعرُّضَ أثْناء الوِشاحِ المُفَصَّلِ[٥]

قد أنكر عليه قوم قوله : « إذا ما الثُّرَيّا فى السماء تَعرَّضَتْ » ، وقالوا : الثريا لا تتعرّضُ[٦] ، حتى قال بعضهم : سَمَّى الثريا وإنما أراد الجَوْزَاءَ ، لأنها تعرض ، والعرب تفعل ذلك ، كما قال زهير : « كأَحْمَرِ

(١) م : « ولا »

(٢) م : « حصاناتها وعفتها ومنعتها » (٣) س : « لأنه »

(٤) س ، ك « المحترز يحترز »

(٥) التشبيهات لابن أبى عون ص ٤

(٦) الموشح ص ٣٦ والوساطة ص ١٢ ، وفى م « لا تعرض »

عَادٍ[١] » ، وإنما هو أحمر ثمود[٢] .

وقال بعضهم فى تصحيح قوله [إنما] تَعرَّضُ : أوّلَ ما تَطْلُع [وحين تغرُبُ[٣]] ، كما أن الوِشَاحَ إذا طُرِح يَلقاكَ بعُرْضِه ، وهو ناحيته[٤] . وهذا كقول الشاعر[٥] :

تَعَرَّضَتْ لى بمَجازٍ خلٍّ   تَعَرُّضَ المُهْرَةِ فى الطِّوَلِّ[٦]

يقول : تُرِيكَ عرضًا وهى فى الرَّسَن .

---

(١) يقصد قوله فى معلقته :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم   كأحمر عاد ثم ترضع فتفطِم

قال الأعلم الشنتمرى : « قوله : كأحمر عاد : أى كلهم فى الشؤم كأحمر عاد ، وأراد أحمر ثمود ، فغلط . وقال بعضهم : لم يغلط ولكنه جعل عاداً مكان ثمود اتساعاً ومجازاً ، إذ قد عرف المعنى مع تقارب مابين عاد وثمود فى الزمن والأخلاق » راجع ديوانه ص ٢٠ وشرح المعلقات للزوزنى ص ٨٣

(٢) هو عاقر ناقة صالح .

(٣) الزيادة من م .

(٤) فى اللسان ٩ / ٣١ « أى لم تستقم فى سيرها ، ومالت كالوشاح المعوّج أثناؤُه على جارية توشحت به » .

(٥) م : « الشاعر زهير » وهو خطأ . وفى اللسان ٤٣٩/١٣ « الطِّوَل : الحبل الذى يطول به للدابة فترعى فيه . . وقد شدد الراجز الطِّوَلّ للضرورة ، فقال منظور بن مَرْثَد الأسدى :

تعرّضت لى بمكان حلّ   تعرضا لم تأل عن قَتْلِلِّى

تعرض المهرة فى الطوَلّ

ويروى : عن قتلاً لى ، على الحكاية ، أى عن قولها قتلا له » . وفى ٩ / ١٣٠ « وقال : تعرّضت لم تأل عن قَتْلٍ لى »

(٦) كذا فى م ، ك ، وفى تاج العروس « حل » وفى س « بمجان خل » وفى الصحاح . . . بمكان حل »

وانظر التشبيهات لابن أبى عون ص ٤ .

وقال أبو عمرو : يعنى إذا أخذت الثّريّا فى وسط السماء ، كما يأخذ الوشاح وسط المرأة .

والأشبه عندنا[١] : أنّ البيت غير مَعِيب من حيث عابوه به ، وأنه من محاسن هذه القصيدة ، ولولا أبياتٌ عدّةٌ فيه لَقابله ما شئْتَ من شعر غيره ، ولكن لم يأت فيه بما يفوت الشّأْوَ ويستولى على الأَمَد :

أنت تعلم أنه ليس للمتقدّمين ولا للمتأخّرين فى وصف شيء من النجوم مثل مافى وصف الثريا ، وكلٌّ قد أبدع فيه وأحسن ، فإما أن يكون قد عارضه أو زاد[٢] عليه .

فمن ذلك قول ذى الرُّمَّة :

وَرَدْتُ اعْتِسَافاً والثُّرَيَّا كأَنّها ... على قِمَّةِ الرَّأْسِ ابنُ ماءٍ مُحلِّقِ[٣]

ومن ذلك قول ابن المعتزّ :

وترَى الثريّا فى السماء كأَنّها ... بَيَضَاتُ أُدْحيٍّ يَلُحْنَ بفَدْفَدِ[٤]

وكقوله :

كأَنّ الثريا فى أَوَاخرِ لَيلِها ... تَفَتُّحُ نَوْرٍ أو لجامٌ مفضَّضُ[٥]

وقوله أيضاً :

فَناوَلَنيها والثّريّا كأنّهـــا ... جَنى نَرْجِسٍ حَيَّى النَّدَامَى به السَّاقِي[٦]

---

(١) نقل هذا عبد القادر البغدادى فى خزانة الأدب ٤/٤١٦ .

(٢) م : « وزاد »

(٣) ديوانه ص ٤٠١ وديوان المعانى ١/٣٣٤ ونثار الأزهار ص ١٠٩ والتشبيهات ص ٥

(٤) ديوانه ص ٣٣ « بيض بأدحى »

(٥) ديوان المعانى ١/٣٣٦ وزهر الآداب ١/٣١٠ والتشبيهات ص ٥

(٦) ديوانه ص ٢٣٩ وديوان المعانى ١/٣٣٥

وقول الأشهب بن رُمَيْلَة :

وَلاحَتْ لِسَارِيها الثُّرَيَّا كَأَنَّها ... لدى الأُفُقِ الغربىِّ قُرْطٌ مُسَلْسَلُ (١)

ولابن المعتز :

وقد هَوَى النجمُ والجَوْزَاء تَتْبَعُهُ ... كَذَاتِ قُرْطٍ أَرَادَتْهُ وقد سَقَطا (٢)

أخذه من ابن الرُّومِىّ فى قوله :

طَيِّبٌ رِيقُهُ إذا ذُقْتَ فاهُ ... والثُّرَيَّا بجانب الغَرْبِ قُرْطُ (٣)

ولابن المُعْتَزّ :

قد سَقَانِى المُدَامَ والصُّـــبْحُ باللَّيـــل مُؤْتَزِرْ
والثُّرَيَّا كنَوْرِ غُصْـــنٍ على الأرض قد نُثِرْ (٤)

وقوله :

وتَرُومُ الـــثُّرَيَّا فى السماء مَرَامَا (٥)
كانْـكِبَابِ طِمِـرٍّ كادَ يُلْقِى لِجَامَا

ولابن الطَّثَرِيَّة :

إذا ما الثُّرَيَّا فى السماء كأنَّها ... جُمَانٌ وَهَى مِنْ سِلْكِهِ فتَبَدَّدَا (٦)

---

(١) ديوان المعانى ١ / ٣٣٥ والتشبيهات ص ٥
(٢) التشبيهات ص ٩ وديوان المعانى ١ / ٣٣٧
(٣) التشبيهات ص ٥ وديوان المعانى ١ / ٣٣٥
(٤) ديوانه ص٢٢٢ « والليل بالصبح » وكذلك التشبيهات ص ١٠ وفى م « على الغرب »
(٥) ديوانه ص ٢٤٥ وأسرار البلاغة ص ٧٥
(٦) ديوان المعانى ١ / ٣٣٤ وحماسة ابن الشجرى ص ٢١٤

ولو(١) نسختُ لك كلَّ ما قالوا من البديع فى وصف الثريا لطال عليك الكتاب ، وخرج(٢) عن الغرض ، وإنما نريد أن نبين لك أن الإبداع فى نحو هذا أمر قريب(٣) ، وليس فيه شىء غريب .

وفى جملة ما نقلناه ما يزيد على تشبيهه(٤) فى الحسن، أو يساويه، أو يقاربه(٥) . فقد علمتَ أن ما حلَّقَ(٦) فيه ، وقدَّر المتعصبُ له أنه بلغ النهايةَ فيه ، أمرٌ مشترَك، وشَرِيعة مَوْرُودَةٌ ، وبابٌ واسع ، وطريق مسلوك . وإذا كان هذا بيتُ القصيدة ، ودُرَّةُ القِلادَة ، وواسِطَةُ العِقْد ، وهذا محله(٧) ، فكيف بما تعدَّاه ؟ !

ثم فيه ضربٌ من التكلُّف ، لأنه قال « إذا ما الثريا فى السماء تعرَّضَتْ تعرض أثناءِ الوِشَاحِ » ، فقوله : « تَعَرَّضَتْ » : من الكلام الذى يُستغْنَى عنه ، لأنه يُشَبِّهُ أثْنَاءَ الوِشَاحِ [بالثريا](٨)، سَواءٌ كان فى وسط السماء، أو عند الطلوع والمغيب، فالتهويلُ بالتعرّض، والتطويل بهذه الألفاظ، لا معنى له .

وفيه : أنَّ الثريا كقطعة من الوشاح المُفَصَّل ، فلا معنى لقوله « تَعرُّضَ أثناء الوِشَاحِ » ، وإنما أراد أن يقول : تعرُّضَ قطعة من

---

(١) م : « قال : ولو نسخت »

(٢) م : « ولخرج »

(٣) م : « فى مثل هذا نحو قريب »

(٤) م : « يشبهه »

(٥) م : « يقاربه ويدانيه »

(٦) ك : « ما خلق » م « ما حلق إليه ، وقدر المتعصب أنه »

(٧) م : « وهذا محطه »

(٨) الزيادة من خزانة الأدب ٤ /٤١٧

أثناء الوشاح ، فلم يستقم له اللفظ ، حتى شبه ما هو كالشىء الواحد بالجمع[١] .

* * *

وقوله :

فجئتُ وقد نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثِيابَهَا لَدَى السِّتْرِ إلا لِبْسَةَ المُتَفَضِّلِ
فقالت : يمِينَ اللهِ مَا لَكَ حِيلَةٌ ومَا إنْ أرَى عنكَ الغوايةَ تَنْجَلِى[٢]

انظر إلى البيت الأوَّل والأبيات التى قبله ، كيفْ خلّط فى النظم ؛ وفرَّطَ فى التأليف ! فذكر التَّمتُّعَ بها ، وذكَرَ الوقت والحال والحُرَّاسَ ، ثم ذكر[٣] كيف كان صفتها لمّا دخل عليها ووصل إليها ، من نَزْعِها ثِيابَهَا إلا ثوباً واحداً . والمُتَفَضِّلُ : الذى فى ثوب واحد ، وهو الفَضْل ، فما كان مِنْ سبيله أن يقدِّمه إنما ذكره مؤخراً .

وقوله : « لدى السِّتْرِ » : حشو ، وليس بحَسن ولا بديع ، وليس فى البيت حُسن ، ولا شىء يفضَّل لأجله .

وأما البيت الثانى ففيه تعليق[٤] واختلال ، ذكر الأصمعى أن معنى قوله « ما لكَ حيلَةٌ » ، أى ليست لك جهة تجىء فيها والناس أحْوَالِى[٥] .

---

(١) آخر ما نقله البغدادى فى خزانة الأدب ٤/٤١٧ .
(٢) س ، ك « العماية »
(٣) س ، ك « ثم يذكر »
(٤) م : « تغليق » ا « تفليق »
(٥) كذا فى ك وفى م : « جهة تجىء إليها والناس حولى »

والكلام فى المصراع الثانى منقطع عن الأوَّل ، ونظمه إليه فيه ضرب من التفاوت .

* * *

وقوله :

فقمتُ بها أَمْشِى تَجُرُّ وَرَاءنَا على إثْرِنا أذْيالَ مِرْطٍ مُرَجَّلِ

فلما أَجَزْنَا ساحةَ الحَىِّ وانْتَحَى بنا بَطْنَ خَبْتٍ ذى حِقَافٍ عَقَنْقَلِ [1]

البيت الأوَّل [يذكر من محاسنه][2] : من مساعدتها إياه ، حتى قامت معه ليخلوَا ، وأنها[3] كانت تجر على الإثر أذيال مِرْطٍ مرجَّل ، والمرجَّل : ضرب من البرود ، يقال لوَشْيِه[4] : الترجيل ، وفيه تكلّف ، لأنه قال « وراءنا عَلى إثرنا » ، ولو قال « على إثرنا » كان كافياً ، والذّيلُ إنما يجر[5] وراء الماشى ، فلا فائدة لذكره « وراءنا » ، وتقدير القول : فقمت أمشى بها ، وهذا أيضاً ضرب من التكلف .

وقوله « أذيال مرط » ، كان من سبيله أن يقول : ذيل مرط .

على أنه لو سلم من ذلك كان قريباً ليس مما يَفُوتُ بمثله غيرَه ، ولا يتقدَّم به سواه وقول ابن المعتزّ أحسنُ منه :

---

(١) ك : « ذى قفاف » م : « ذى ركام »

(٢) س ، ك : « الأول من مساعدتها »

(٣) س ، ك : « وإنَّما »

(٤) م : « يقال أوشيه »

(٥) م : « إنما ينجر »

فَبِتُّ أفرشُ خدّى فى الطريق لَهُ ذُلاًّ وأسحبُ أكمامى على الأثَرِ[١]

وأما البيت الثانى فقوله « أَجَزْنَا » بمعنى « قَطَعْنَا » ، و « الخَبْتُ » : بطن من الأرض ، و « الحِقْفُ » : رمل منعرج ، و « العَقَنْقَل » : المنعقدُ من الرمل الدّاخل بعضه فى بعض .

وهذا بيت متفاوت[٢] مع الأبيات المتقدمة ؛ لأنّ فيها ما هو سلس[٣] قريب ، يُشْبِه كلام المولدين وكلام البذلة ، وهذا قد أغرب فيه ، وأتى بهذه اللفظة الوحشية المتعقّدة ، وليس فى ذكرها والتفضيل بإلحاقها بكلامه[٤] فائدة .

والكلامُ الغريب واللفظةُ الشديدة المُبَايِنةُ[٥] لِنَسْجِ الكلامِ قد تُحمد إذا وقعت موقعَ الحاجة فى وصف ما يلائمها ، كقوله عز وجل فى وصف يوم القيامة: ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا[٦] ﴾. فأمّا إذا وقعتْ فى غير هذا الموقع ، فهى مكروهةٌ مذمومة ، بحسب ما تحمد فى موضعها .

ورُوِى أَنَّ جريرًا أنشدَ بعضَ خُلفاء بنى أُمية قصيدتَه[٧] :

بَانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوَ كُلَّمَا جَدُّوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ ؟

---

(١) كذا فى م ، ك ، ا ، وفى س : « أذيالى »

(٢) كذا فى م ، وفى ك : « متقارب »

(٣) ك : « سلس القياد قريب »

(٤) س ، ك : « كلامها »

(٥) سورة الإنسان : ١٠

(٦) م : « الشريدة المتباينة »

(٧) الخبر فى الشعر والشعراء ١ / ١٥

كيفَ العزاءُ ولم أجدْ مُذْ بِنْتُمُ قلباً يَقرّ ولا شَراباً يَنْقَعُ[١]

قال : وكان يزحف من حسن هذا الشعر ، حتى بلغ قولَه :

وتقولُ بَوْزَعُ :قد دَبَبْتَ على العصَا هلّا هَزِئْتِ بِغَيْرِنَا يا بَوْزَعُ

فقال : أفسدتَ شعرَك بهذا الاسم ! !

* * *

وأما قوله :

هَصَرْتُ بِغُصْنَيْ دَوْحَةٍ فَتَمَايلَتْ عَلَيَّ هَضِيمَ الكَشْحِ رَيَّا المُخَلْخَلِ[٢]

مُهَفْهَفَةٌ بيضاءُ غَيرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

فمعنى قوله « هَصَرْتُ » : جَذَبْتُ وثَنَيْتُ .

وقوله « بغصْنَيْ دَوْحَةٍ » ، تعسّف ، ولم يكن من سبيله أن يجعلهما اثنين .

والمصراع الثانى أصح ، وليس فيه شىء إلا ما يتكرر على ألسنة الناس من هاتين الصفتين . وأنت تجد ذلك فى وصف كل شاعر ، ولكنه مع تكرره على الألسن صالح .

وأما معنى قوله « مُهفْهَفَةٌ » : أنها مخففة ليست مثقلة .

و « المُفاضَةُ » : التى اضطرب طولها .

والبيت — مع مخالفته فى الطبع الأبياتَ المتقدمةَ ، ونزوعه فيه[٣]

(١) ا : « ولم أفد » ك : « ولا شراب »
(٢) كذا فى م ، ك، وفى المعلقات ص ١٨ « هصرت بفودى رأسها » وفى شرحها « ويروى : بغصنى دومة »
(٣) م : « فيها »

إلى الألفاظ المستكرهة ، وما فيه من الخلل ، من تخصيص الترائب بالضوء ، بعد ذكر جميعها بالبياض — فليس بطائل ، ولكنه قريب متوسط .

* * *

وقوله :

تَصُدُّ وتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وتَتَّقِي ... بِنَاظِرَةٍ مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مُطْفِلِ

وَجِيدٍ كَجِيدِ الرِّيمِ لَيسَ بفاحشٍ ... إذا هي نَصَّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

معنى قوله « عَنْ أَسِيلٍ » : أى بأسيل ، وإنما يريد خداً ليس بكَزٍّ .

وقوله « تَتَّقِي » ، يقال : اتقاه بحقه[1] أى جعله بينه وبينه .

وقوله : « تصدّ وتُبْدِي عن أسيل » : متفاوت ، لأنّ الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد .

وقوله : « تَتَّقِي بنَاظِرَةٍ » : لفظة مليحة ، ولكن أضافها إلى ما نظم به[2] كلامه ، وهو مختلّ ، وهو قوله : « مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ » ! وكان يجب أن تكون العبارة بخلاف هذا ، كان من سبيله أن يضيف إلى عيون الظباء أو المَهَا دون إطلاقِ الوَحْش ، ففيهن ما تستنكر عيونها .

---

(١) كذا فى م ، ك ، وفى س « بترسه »

(٢) م : « بها »

وقوله : « مُطفِلٍ » فسّرُوه على أنها ليست بصبيّة ، وأنهـا قد استحكَمتْ ، وهـــذا اعتذار متعسف . وقوله « مطفل » : زيادة لا فائدة فيها على هذا التفسير الذى ذكره الأصمعى . ولـكن قد يحتمل عندى أن يفيد(١) غير هذه الفائدة ، فيقال : إنها إذا كانت مطفلًا لحظتْ أطفالها بعين رقة ، فنى نظر هذه رقّة نظر المودة ، ويقع الـكلام معلقاً تعليقاً متوسطاً .

وأما البيت الثانى فمعنى قوله : « ليس بفاحش » : أى ليس بفاحش الطول .

ومعنى قوله : « نَصَّتْهُ » : رفعته ومعنى قوله : « ليس بفاحش » — فى مدح الأعناق — كلام فاحش موضوع منه ! وإذا نظرتَ فى أشعار العرب رأيت فى وصف الأعناق ما يشبه السِّحْر ، فـكيف وقع على هذه الـكلمة ، ودُفِعَ إلى هذه اللفظة ؟ ! وهلا قال كقول أبى نواس :

مثل الظبـــــاءِ سَمتْ إلى ... رَوْضٍ صَوَادِرَ عَنْ غَدِيرِ(٢)

* * *

ولست أطوِّل عليك فتستثقل ، ولا أكثر القول فى ذمه فتستوحش .

---

(١) « يفاد »

(٢) ديوانه ص١٩٢

وأَكِلُكَ الآن إلى جملة من القول ، فإن كنت من أهل الصنعة فطنتَ واكتفيت ، وعرفتَ ما رمينا إليه واستغنيتَ .

وإن كنت عن الطبقة خارجاً ، وعن[١] الإتقان بهذا الشأن خالياً ، فلا يكفيك البيان وإن[٢] استَقْرَيْنَا جميع شعره ، وتتبعنا عامّة ألفاظه ، ودللنا[٣] على ما فى كل حرف منه .

* * *

اعلم أن هــذه القصيدة قد ترددت بين أبيات سوقية مُبْتَذَله ، وأبيات متوسطة ، وأبيات ضعيفة مرذولة ؛ وأبيات وحشية غامضة مستكرَهة ، وأبيات معدودة بديعة .

وقد دللنا[٤] على المبتذل منها ، ولا يشتبه عليك الوَحْشِىّ المستنكر ، الذى يَرُوعُ السمع ، ويَهُولُ القلبَ ، ويكُدُّ اللسان ، ويَعْبَسُ معناه فى وجه كل خاطر ، ويَكْفَهِرُّ مَطْلَعُهُ على كلّ مُتأمل أو ناظر ، ولا يقعُ بمثله التَّمدُّح[٥] والتَّفاصُحُ . وهو مجانب لما وُضِع له أصْل الإفهام ، ومخالف لما بُنِى عليه التّفاهم بالـكلام . فيجب أن يسقط عن الغرض المقصود ، ويلحق باللغز والإشارات المستبهمة .

---

(١) م : « ومن »
(٢) م : « ولو »
(٣) م : « لفظه ودللناك »
(٤) م : « دللناك »
(٥) م : « المدح »

* * *

فأما الذى زعموا أنه من بديع هذا الشعر ، فهو قوله :

ويُضْحِى فتيتُ المسك فوقَ فِرَاشِها
نَؤُوم الضُّحَى لَمْ تَنْتَطِقْ عَنْ تَفَضُّلِ

والمصراع الأخير عندهم بديع ، ومعنى ذلك : أنها مُتْرَفة متنعمة ، لها من يكفيها .

ومعنى قوله : « لم تَنْتَطِقْ عن تفضّل » ، يقول : لم تَنْتَطِقْ وهى فُضُلٌ[1] ، و « عن » هى بمعنى « بعد » . قال أبو عُبيدة : لم تنتطق فتعمل ، ولكنها تَتَفَضَّل .

* * *

ومما يعدّونه من محاسنها :

وليلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
عَلَيَّ بأنواعِ الهُمُومِ لِيَبْتَلِي[2]

---

(١) فى اللسان ١٤ /١٤١–١٤٢ « والفضلة : الثياب التى تبتذل للنوم ، لأنها فضلت عن ثياب التصرف . . . وفى حديث امرأة أبى حذيفة : قالت يا رسول الله ، إن سالما مولى أبى حذيفة يرانى فُضُلا : أى مبتذلة فى ثياب مَهْنَتى ، يقال : تفضلت المرأة : إذا لبست ثياب مهنتها أو كانت فى ثوب واحد ، فهى فُضُل ، والرجل فُضُل أيضاً » .

(٢) س ، ك « بأنواع الغموم » وانظر رأى الأستاذ محمود محمد شاكر فى معنى هذا البيت ونقضه لآراء الشراح السابقين فى طبقات فحول الشعراء ص٧١

فقلتُ لهُ لمّا تمطّى بصُلْبِهِ
وأرْدَفَ أعْجَازًا وناءَ بِكَلْكَلِ :

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألَا انْجَلِ
بصبحٍ ، وما الإصباح فيك بأَمْثَلِ[1]

وكان بعضهم يعارض هذا بقول النّابغة :

كِلِينى لِهَمٍّ يا أُميمة نَاصِبِ
وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكِبِ[1]

وصَدْرٍ أرَاحَ الليلُ عازِبَ هَمِّهِ
تَضَاعَفَ فيه الحزنُ مِنْ كلِّ جانب

تَقَاعَسَ حتى قلتُ : ليس بِمُنْقَضٍ
وليس الذى يتلو النُّجُومَ بآيِبِ[2]

وقد جرى ذلك بين يدى بعض[3] الخلفاء ، فقُدِّمَتْ أبياتُ امرئِ القيس ، واستحسنت استعارتها[4] ، وقد جَعل للّيل صدرًا يثقل تنحّيه ، ويبطئ تقضّيه ، وجعل له أردافًا كثيرة ، وجعل له صلبًا يمتدُّ ويتطاول ، ورأوا هــذا بخلاف ما يستعيره أبو تمّام من

---

(١) ك ، م « فيك » س « منك »

(٢) « الذى يرعى النجوم »

(٣) م : « ذلك بمجلس بعض »

(٤) س ، ك « واستحسن » وانظر الموشح ص ٣١ — ٣٣

الاستعارات الوحشية البعيدة المستنكَرة[١]، ورأوا أن الألفاظ جيلة.

واعلمْ أن هذا صالح جيل، وليس من الباب الذى يقال إنه متناهٍ عجيب، وفيه إلمام بالتكلف، ودخولٌ فى التعمُّل.

* * *

وقد خرَّجوا له فى البديع من القصيدة قولَه:

وقد أَغْتَدِى والطيرُ فى وُكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدٍ قَيْـدِ الأَوَابِدِ هَيْكَلِ

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا
كجُلمودِ صخرٍ حطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ[٢]

وقوله أيضاً:

له أَيْطَلَا ظبيٍ وساقا نَعامةٍ وإرخاءُ سِرْحَانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ[٣]

فأما قوله «قيْدُ الأوابد»، فهو مليح، ومثله فى كلام الشعراء وأهل الفصاحة كثير، والتَّعمُّلُ بمثله[٤] ممكن.

وأهلُ زماننا الآن يصنفون نحو هذا تصنيفاً، ويؤلِّفون المحاسن تأليفاً، ثم يُوَشِّحُونَ به كلامَهم. والذين كانوا من قبلُ — لغزارتهم[٥]

---

(١) سقطت من م

(٢) انظر شرحه فى طبقات فحول الشعراء ص٦٩

(٣) انظر شرحه فى طبقات فحول الشعراء ص٧٠

(٤) م: «والتعمل لمثله ... زماننا اليوم»

(٥) م: «لغرائزهم» ك: «لغزارتهم»

وتمكنهم — لم يكونوا يتصنَّعون لذلك ، إنما كان يتفق لهم اتفاقاً ، ويَطَّرِدُ فى كلامهم اطِّراداً .

وأما قوله فى وصفه : « مِكَرٍّ مِفَرٍّ » ، فقد جمع فيه طِباقاً وتشبيهاً .

وفى سرعة جرى الفرس للشعراء ما هو أحسن من هذا وألطف

وكذلك فى جمعه بين أربعة وجوه من التشبيه فى بيت واحد :— صنعة ، ولكن قد عُورِض فيه وزُوحِم [عليه[1]] ، والتوصل إليه يسير ، وتطلّبه[2] سهل قريب .

وقد بينّا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتاً بيناً فى الجودة والرَّداءة ، والسلاسة والانعقاد ، والسلامة والانحلال ، والتمكّن [والاستصعاب[3]] والتسهّل والاسترسال ، والتوحّش والاستكراه ، وله شركاء فى نظائرها ، ومنازعون فى محاسنها ، ومعارضون فى بدائعها . ولا سواء كلامٌ يُنْحَتُ من الصخر تارةً ، ويذُوب تارة ، ويتلوَّن تَلَوُّنَ الحِرْبَاء ، ويختلف اختلاف الأهْواء ، ويكثر فى تصرُّفه اضطرابُه ، وتتقاذف[4] به أسبابُه ، وبين قول يجرى فى سَبْكِه على نظام ، وفى رَصْفه على مِنْهاج ، وفى وضعه على حدٍّ ، وفى صفائه على باب ، وفى

---

(١) الزيادة من م

(٢) م : « والتطلب له »

(٣) الزيادة من م

(٤) م : « وتتفاوت »

بَهْجَته ورونقه على طريق ، مُخْتَلِفُه مُوْتَلِف ، ومُوْتَلِفُه مُتَّحِد ، ومُتَباعِدُه مُتقارِب ، وشَارِدُه مُطِيع ، ومُطيعه شَارِد . وهو على مُتَصَرَّفَاته واحِد ، لا يُستصعَبُ فى حال ، ولا يَتعقَّدُ فى شأن .

* * *

وكنّا أردنا أن نتصرّف فى قصائد مشهورة ، فنتكلمَ عليها ، وندلّ على معانيها ومحاسنها ، ونذكرَ لك من فضائلها ونقائصها ، ونبسطَ لك القول فى هذا الجنس ، ونفتحَ عليك فى هذا النَّهْج[1] .

ثم رأينا هذا خارجاً عن غرض كتابنا ، والكلامُ فيه يتصل بنقد الشعر وعِيَارِه ، ووزنه بميزانه[2] ومعياره ، ولذلك كُتُبٌ وإن لم تكن مُسْتوفاه ، وتصانيفُ وإن لم تكن مستقصاه .

وهذا القَدْرُ يكفى فى كتابنا ، ولم نُحِبَّ أن ننسخ[3] لك ما سطّره الأدباء فى خطأ امرئ القيس فى العروض والنحو والمعانى ، وما عابوه عليه[4] فى أشعاره ، وتكلموا به على ديوانه ، لأنَّ ذلك أيضاً خارج عن غرض كتابنا ، ومُجانِبٌ لمقصوده .

وإنما أردنا أن نبيّنَ الجملةَ[5] التى بَيّنّاها ، لتعرف أن طريقة الشعر

---

(١) م : « ونفسح عليك فى هذا المنهج »
(٢) سقطت هذه الكلمة من م
(٣) م : « أحب أن أنسخ »
(٤) م : « به »
(٥) م : « نبين الحكمة »

شَرِيعةٌ مَوْرُودَةٌ ، ومَنزِلة مشهودة ، يأخذ منها أصحابها على مقادير أسبابهم ، ويتناول منها ذووها على حسب أحوالهم .

وأنت تجِدُ للمتقدم معنًى قد طَمَسَهُ المتأخرُ بما أَبَرَّ عليه فيه ، وتجِدُ للمتأخر معنى قد أغفله المتقدِّم ، وتجد معنى قد تَوَافَدَا عليه ، وتَوَافَيَا إليه ، فهما فيه شريكا عنان ، وكأنهما فيه[1] رضِيعَا لبَان ، والله يُؤْتى فَضْلَه مَن يشاء .

* * *

فأما[2] نهج القرآن ونظمه ، وتأليفُه ورَصْفُه ، فإن العقول تتيه فى جهته ، وتحار فى بحره[3] ، وتضلُّ دون وصفه .

ونحن نذكر لك فى تفصيل هــذا ما تستدلُّ به على الغرض ، وتستولى به على الأَمَدِ ، وتصلُ به إلى المقصد ، وتتصوّر إعجازَه كما تتصوّر الشمسَ ، وتتيقنُ تَنَاهِىَ بلاغتِهِ كما تتيقنُ الفَجْرَ ، وأُقرّب عليك الغامضَ ، وأُسهّل لك العسير .

واعلم أن هذا علم شريف المحلّ ، عظيم المكان ؛ قليل الطلاب ، ضعيف الأصحاب ؛ ليست له عشيرةٌ تَحميه ، ولا أهلُ عِصْمَةٍ تَفطنُ

---

(١) م : « وكلاهما فيه »

(٢) م : « وأما »

(٣) ك : « وتحار فى فكره »

لما فيه . وهو أدقّ من السحر ، وأهْوَلُ من البحر ، وأعجب من الشعر .

وكيف لا يكون كذلك : وأنت تحسَب أن وَضْع « الصبح » فى موضع « الفجر » يَحْسنُ فى كل كلام إلا أن يكون شعرًا أو سجعاً ؟ وليس كذلك ؛ فإن إحدى اللفظتين قد تَنْفِرُ فى موضع ، وتَزِلّ عن مكان لا تَزِلُّ عنه اللفظةُ الأخرى ، بل تتمكن فيه ، وتضْرِبُ بِجِرانها ، وتراها فى مظانّها ، وتجدُها فيه غير مُنَازِعَةٍ إلى أوطانها ، وتجدُ الأخرى — لو وُضعت مَوْضِعَها — فى محل نِفَارٍ ، ومَرْمَى شِرَادٍ ، ونابِيةً عن استقرار[1] .

ولا أُكْثِرُ عليكَ المثال ، ولا أَضربُ لك فيه الأمثال ، وأَرْجِعُ بك إلى ما وعدتُكَ[2] من الدلاله ، وضمنتُ لك من تقريب المقاله .

فإن كنت لا تعرف الفصْلَ الذى بيناً بين اللفظتين على اختلاف مواقع الكلام ، ومُتَصَرَّفات مَجارِى النِّظام ، لم تستفدْ مما نُقَرِّبُه عليك شيئاً ، وكان التقليدُ أَولى بك ، والاتباعُ أَوْجَبَ عليك . ولكل شىء سبب ، ولكل علم طريق ؛ ولا سبيل إلى الوصول إلى الشىء من غير طريقه ، ولا بلوغ غايتِهِ من غير سبيله .

* * *

(١) م : «ونابية عن استقرار»

(٢) ك : «ما وعدتك به»

خذ الآن — هداك الله — فى تفريغ(١) الفِكْر ، وتَخْلِيَة البال ؛ وانظر فيما نعرض عليك ، ونُهْدِيه إليك ؛ متوكلاً على الله ، ومعتصماً به ، ومستعيذًا به من الشيطان الرجيم ؛ حتى تَقِفَ على إعجاز القرآن العظيم .

سماه الله عزّ ذكرُه « حكيماً » و « عظيماً » و « مجيدًا » .

وقال : ﴿ لا يَأْتِيهِ ٱلبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ(٢) ﴾ .

وقال : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(٣) ﴾ .

وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ، بَلْ لِلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً(٤) ﴾ .

وقال : ﴿ قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(٥) ﴾ .

وأخبرنا أحمدُ بن محمدِ بن الحسين القَزْوِينىُّ ، حدثنا أبو عبدِالرحمنِ أحمدُ بن عثمانَ ، حدثنا أبو يوسفَ الصَّيْدَلانىُّ ، حدثنا محمد بن سلمةَ ،

---

(١) م : « مع تفريغ »
(٢) سورة فصلت : ٤٢
(٣) سورة الحشر : ٢١
(٤) سورة الرعد : ٣١
(٥) سورة الإسراء : ٨٨

عن أبي سِنَانٍ، عن عَمرو بن مُرَّةَ ، عن أبي البَخْتَرِيّ الطّائي ، عن الحارث الأعْورِ ، عن عليّ رضي الله عنه ؛ قال :

قيل : يا رسول الله ، إن أمتك سَتَفْتَتِنُ من بعدك ؛ فسأل أو سُئل : ما المَخرجُ من ذلك ؟

فقال : « بكتاب الله العزيز الذى لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خَلْفِه ، تنزيلٌ من حكيم حميد ؛ مَن ابتغى العلم فى غيره أضله الله ، ومن وَلِيَ هذا مِن جَبَّار فحكَمَ بغيره قَصَمه الله ؛ وهو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم . فيه خَبَرُ مَنْ قبلكم ، وتِبْيَانُ مَن بعدكم ؛ وهو فَصْلٌ ، ليس بالهزل . وهو الذى [لما] سمعته الجن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ[1] ﴾ . لا يَخْلُقُ على طول الرَّدّ ، ولا تنقضى عِبرُه ، ولا تفنى عجائبه[2] .

وأخبرنى أحمدُ بن علىّ بن الحسن ، أخبرنا أبى ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عُبيد الله ، حدثنا المسيَّب بن شريك ، عن عُبَيْدَةَ[3] ، عن أُسامة بن أبى عطاء[4] ؛ قال : أرسل النبى صلى الله

(١) سورة الجن : ٢

(٢) انظر عيون الأخبار ٢ — ١٣٣

(٣) « عبيدة » بضم العين المهملة ، وهو ابن الأسود بن سعيد الهمدانى الكوفى ، راجع ترجمته فى التهذيب ٧ / ٨٦

(٤) أسامة بن أبى عطاء هذا : تابعى ، يروى عن على بن أبى طالب ، ترجمه البخارى فى التاريخ الكبير ج ١ ق ١ ص ٢٣ ، وابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ج١ ق ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

عليه وسلم إلى عليّ رضى الله عنه فى ليلةٍ ، فذكر نحو ذلك فى المعنى ، وفى بعض ألفاظه اختلاف .

وأخبرنا أحمد بن عليّ بن الحسن ، أخبرنا أبى ، أخبرنا بشر بن عبد الوهاب ، أخبرنا هشام بن عُبيد الله ، حدثنا المسيَّب بن شَرِيكٍ ، عن بِشْر بن نُمَيْر ، عن القاسم ، عن أبى أُمَامَة ؛ قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ ثلث القرآن أُعطىَ ثلثَ النبوّة ، ومن قرأ نصف القرآن أُعطىَ نصف النبوّة ، ومن قرأ القرآن كلَّه أُعطىَ النبوّة كلَّها ؛ غير أنه لا يُوحَى إليه » . وذكر الحديث[1] .

* * *

ولو لم يكن من عِظَم شأنه إلا أنه طبّقَ الأرضَ أَنوارُه ، وجَلَّلَ الآفاق ضياؤُه ، ونفذ فى العالم حكمُهُ ، وقُبِلَ فى الدنيا رسمه ؛ وطَمَس ظلامَ الكفر بعد أن كان مَضْرُوبَ الرِّواق ، ممدودَ الأَطناب ، مبسوط الباع ، مرفوعَ العِماد ؛ ليس على الأرض من يعرف الله حقّ معرفته ،

---

(١) سألت الشيخ أحمد محمد شاكر عن هذا الحديث فكتب يقول : « هذا الحديث مكذوب لا أصل له ، وكفى أن يكون فى إسناده « بشر بن نمير القشيرى البصرى » قال يحيى بن سعيد القطان فى شأنه : « كان ركناً من أركان الكذب » . وقال أحمد بن حنبل : « يحيى بن العلاء كذاب يضع الحديث ، وبشر بن نمير أسوأ حالا منه » . وبشر هذا يروى عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبى أمامة أحاديث فى نسخة له ، قال الحافظ الذهبى فى ميزان الاعتدال ١٥١/١ — ١٥٢ بعد أن ذكر الحديث الذى هنا : « ولبشر عن القاسم نسخة كبيرة ساقطة » . وقال شعبة بن الحجاج : « كان بشر بن نمير لو قيل له : ما شاء الله — لقال : القاسم عن أبى أمامة » ! ! يعنى جرأته على الكذب والاختراع » .

أو يعبده حق عبادته ، أو يَدِينُ بعظمته ، أو يعلم علوّ جلالته ، أو يتفكَّر فى حكمته . فكان كما وصفه الله تعالى جل ذكره ، من أنه نور ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى ما الكِتَابُ ولا الإيمَانُ ، وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وإنَّكَ لَتَهْدِى إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [1] ﴾ .

فانظر — إن شئت — إلى شريف هذا النظم ، وبديع هذا التأليف ، وعظيم هذا الرَّصْف ؛ * كلُّ كلمة من هذه الآية تامة ، وكلُّ لفظٍ بديعٌ وَاقِعٌ .

قوله : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ : يدل على صدوره من الرُّبُوبيَّة ، ويُبينُ عن وُرُودِه عن الإلهية . وهذه الكلمة بمفردها وأخواتها [2] ، كلُّ واحدةٍ منها لو وَقعتْ بين كلام كثير — تميَّزَ عن جميعهِ ، وكان واسطة عِقْدِه ، وفاتحة عَقده ؛ وغُرَّة شَهْرِه ، وعينَ دهره .

وكذلك قوله : ﴿ ولَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ، فجعله رُوحاً ، لأنه يحيي [3] الخلقَ ، فله فضل الأرواح فى الأجساد وجعلَه نورًا لأنه يضىء ضياءَ الشمس فى الآفاق . ثم أضاف وقوع

(١) سورة الشورى ٥٢ .
(*) م : «على أن كل» .
(٢) س : «وأخوتها» .
(٣) م : «يحيي به» .

الهداية به إلى مشيئته ، ووَقَفَ وقوع[1] الاسترشاد به على إرادته ؛ وبيّن أنه لم يكن ليهتدىَ إليه لولا توفيقُه ، ولم يكن ليعلمَ ما فى الكتاب ولا الإيمانَ لولا تعليمُه ؛ وأنه لم يكن ليهتدىَ — فكيف كان يَهْدِى — لولاه ، فقد صار[2] يهدى ، ولم يكن[2] من قبل ذلك ليهتدى[3] ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الذى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ[4] ﴾ .

فانظر إلى هذه الكلمات الثلاث : فالكلمتان الأُولَيَانِ مُؤْتَلِفَتَان . وقوله : ﴿ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ، كلمةٌ منفصلة مباينة للأُولى ، قد صيَّرها شريفُ النظم أشدَّ ائتلافاً من الكلام الْمُؤَالِف ، وألطفَ انتظاماً من الحديث الملائم .

وبهذا يبين فضل الكلام ، وتظهر فصاحته وبلاغته .

الأمر أظهر ؛ والحمد لله ، والحال أَبْيَن من أن يحتاج إلى كشف .

تأمَّلْ قوله : ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ، وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ[5] ﴾ .

---

(١) كذا فى م وفى س، ك : « وقوف » .

(٢) ما بين الرقمين مكانه بياض فى ك .

(٣) م : « ليهدى » .

(٤) سورة الشورى ٥٣ .

(٥) سورة الأنعام ٩٦ .

انظر إلى هذه الكلمات الأربع التى ألّف بينها ، واحتجّ بها على ظهور قدرته ، ونفاذ أمره ، أليس كلُّ كلمةٍ منها فى نفسها غُرّة ؟ وبمنفردها[1] درّة ؟

وهو — مع ذلك — يبين أنه يصدر عن علو الأمر ، ونفاذ القَهْر ؛ ويتجلَّى فى بهجة القُدرة ، ويتحلَّى بخالصة العِزَّة ؛ ويجمع السّلاسة إلى الرّصانة ، والسّلامة إلى المتانة ؛ والرونقَ الصّافىَ ، والبهاء الضَّافِىَ .

ولستُ أقول : إنه شمِلَ الإطباقَ المليح ، والإيجازَ اللطيف ؛ والتعديل والتَّمثيل ، والتقريب والتَّشْـكيل — وإن كان قد جمع ذلك وأكثر منه — لأن العجيب ما بيّنّا من انفراد كلّ كلمةٍ بنفسها ، حتى تصلح أن تكون عَيْن رسالة أو خطبة ، أو وَجْهَ قصيدة أو فقرة . فإذا أُلِّفَت ازدادت [به] حسناً [وإحساناً][2] ، وزادتك — إذا تأمَّلتَ — معرفةً وإيماناً .

* * *

ثم تأمَّل قوله : ﴿ وآيةٌ لَهُمُ الليْـلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ . والقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كالعُرْجُونِ القَدِيمِ ﴾[3] — : هلْ تَجِدُ

(١) كذا فى م ، ك وفى س « وبمفردها » .

(٢) الزيادة من م .

(٣) سورة يس ٣٧ — ٣٩ .

كلَّ لفظة ، وهل تعلم كلَّ كلمة ، تستقل بالاشتمال على نهاية البديع ، وتتضمن شرط القول البليغ ؟

فإذا كانت الآيةُ تنتظم من البديع ، وتتألفُ من البلاغات ، فكيف لا تفوت حدَّ المعهود ، ولا تَجُوزُ[١] شأوَ المألوف ؟ وكيف[٢] لا تَحوز قَصَبَ السَّبْق ، ولا تتعالى عن كلام الخلْق ؟

ثم اقْصد إلى سورة تامَّة ، فتَصَرَّفْ فى معرفة قَصَصِها ، وراعِ ما فيها من براهينها وقِصَصِها .

تأمل السورةَ التى يُذكر فيها النمل ، وانظر فى كلمةٍ كلمةٍ ، وفصلٍ فصلٍ :

بدأ بذكر السورة ، إلى أن بيَّن أن القرآن من عنده ، فقال : ﴿ وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[٣] . ثم وصل بذلك قصةَ موسى عليه السلام ، وأنه رأى نارًا ، فقال لأهله امكثوا : ﴿ إنى آنَسْتُ نَارًا ، سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾[٤] .

وقال فى سورة طه فى هذه القصة : ﴿ لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ

---

(١) كذا فى م ، ك وفى س « ولا تحوز » .
(٢) ب س « فكيف » .
(٣) سورة النمل ٦
(٤) سورة النمل ٨

أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى[١] ﴾ . وفى موضع : ﴿ لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[٢] ﴾ .

قد[٣] تصرَّف فى وجوهٍ ، وأتى بذكر القصة على ضُرُوبٍ ، ليُعلِمَهم عجزَهم عن جميع طُرُق ذلك . ولهذا قال : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ[٤] ﴾ ، ليكون أبلغَ فى تعجيزهم ، وأظهرَ للحجة عليهم .

وكلّ كلمة من هذه الكلمات ، وإن أنبأتْ عن قصةٍ ، فهى بليغة بنفسها ، تامة فى معناها .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِىَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ، وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَ[٥] ﴾

فانظر إلى ما أجرى له[٦] الكلام ، من علوّ أمر هذا النداء ، وعِظَمِ شأن هذا الثّناء[٧] ، وكيف انتظم مع الكلام الأوّل ، وكيف اتصل بتلك المقدمة ، وكيف وصل بها ما بعدها من الإخبار عن الرُّبُوبِيَّةِ ، وما دلَّ به عليها من قلب العصا حيةً ، وجعلها دليلًا يدله عليه ، ومعجزةً تهديه إليه ؟

---

(١) سورة طه ١٠

(٢) سورة القصص ٢٩

(٣) م : « فقد »

(٤) سورة الطور ٣٤

(٥) سورة النمل ٨

(٦) م : « إليه »

(٧) « شأن هذه النبا »

وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها فى الحسن، وفيما تتضمنه من المعانى الشريفة، ثم ما شَفَعَ به هذه الآية، وقرَنَ به هذه الدلالة: من اليَدِ البَيْضَاء — عن نور البرهان — من غير سُوء.

ثم انظر فى آيةٍ آيةٍ، وكلمةٍ كلمةٍ: هل تجدها كما وصفنا: من عجيب النظم، وبديع الرَّصْف؟ فكل كلمة لو أُفْرِدتْ كانت فى الجمال[1] غايةً، وفى الدلالة آيةً، فكيف إذا قارنتْها أَخواتُها، وضَامَّتْها ذواتُها: [مما][2] تجرى فى الحسن مجراها، وتأخذ فى معناها؟

ثم من قصةٍ إلى قصة، ومن باب إلى باب، من غير خلل يقع فى نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يُصوِّر[3] لك الفصل وصلًا، ببديع[4] التأليف، وبليغ التنزيل.

* * *

وإن أردتَ أن تتبيَّن ما قلناه فضلَ تبيُّنٍ، وتتحقق بما ادعيناه زيادة تحقُّقٍ — فإن كنت من أهل الصنعة فاعمدْ إلى قصة من هذه القصص، وحديث من هذه الأحاديث، فعبِّر عنه بعبارة من جهتك، وأَخْبِرْ عنه بألفاظ من عندك، حتى ترى فيما جئت به[5] النقصَ الظاهر، وتتبينَ فى نظم القرآن الدليلَ الباهر.

(١) «فى الكلام غاية»
(٢) الزيادة من م
(٣) م: «وحتى يتصور»
(٤) م: «لبديع»
(٥) م: «به من»

ولذلك[١] أعاد قصة موسى فى سُوَر ، وعلى طرق شتى ، وفواصلَ مختلفة ، مع اتفاق المعنى . فلعلك ترجع إلى عقلك ، وتستر[٢] ما عندكَ ، إن غلطتَ فى أمركَ ، أو ذهبت فى مذاهب وهمك ، أو سَلَّطْتَ على نفسك وجهَ ظنّك .

متى تهيأ لبليغ أن يتصرَّف فى قدر[٣] آية فى أشياء مختلفة ، فيجعلها مؤتلفة ، من غير أن يَبِينَ على كلامه إعياء الخروج والتنقّل ، أو يظهر على خطابه آثارُ التكلّف[٤] والتعمُّل ؟

وأَحْسِبُ أنه لا يسلم من هذا — ومحال أن يسلم منه — متى[٥] يظفر بمثل تلك الكلمات الأفْرَادِ ، والألفاظِ الأعْلام ، حتى يجمع بينها ، فيجلو[٦] فيها فقرة من كلامه ، وقطعة من قوله . ولو اتفق له فى أحرف معدودة ، وأسطر قليلة ، فمتى يَتَّفق له فى قدر ما تقول : إنه[٧] من القرآن معجز ؟

هيهات هيهات ! إن الصبح يَطْمِسُ النجوم وإن كانت زاهِرةً ، والبحرَ يغمر الأنهارَ وإن كانت زَاخِرَة .

---

(١) م : « وكذلك »
(٢) م : « إلى نفسك وتسبر »
(٣) م : « فى صدر »
(٤) م : « التكليف »
(٥) م : « حتى »
(٦) م : « فيخلو »
(٧) م : « آية من القرآن معجزة »

متى[١] تهيأ للآدمى أن يقول فى وصف كتاب سليمان عليه السلام ، بعد ذكر العنوان والتسمية ، هذه الكلمةَ الشريفةَ العالية : ﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وأْتُونِي مُسْلِمِينَ[٢] ﴾ . والخلوص من ذلك إلى ما صارتْ إليه من التدبير ، واشتغلتْ به من المَشْوَرَة ، ومن تعظيمها أمر المستشار ، ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها[٣] ، بتلك الألفاظ البديعة ، والكلمات العجيبة البليغة .

ثم كلامها بعد ذلك ، [ألا] تعلم[٤] تمكُّنَ قولها : ﴿ يَا أَيُّهَا الملأُ أَفْتُونِي فى أمْرِى ، مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ[٥] ﴾ .

وذكر قولهم : ﴿ قالوا : نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالأَمْرُ إِلَيْكِ ، فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ[٦] ﴾ ، لا تجد فى صفتهم أنفسهم أبرع[٧] مما وصفهم به .

وقوله : ﴿ والأمْرُ إِلَيْكِ ﴾ ، تعلم براعتَه بنفسه ، وعجيبَ معناه ، وموضعَ اتفاقه فى هذا الكلام ، وتمكّن الفاصلة[٨] ، وملاءمته لما قبله ، وذلك قوله : ﴿ فَانْظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ .

---

(١) م : « فتى »
(٢) سورة النمل ٣١
(٣) م : « وطاعتهم لها »
(٤) س : « بعد ذلك لتعلم »
(٥) سورة النمل ٣٢
(٦) سورة النمل ٣٤
(٧) س « أبدع »
(٨) م : « تمكن ألفاظه »

ثم إلى هذا الاختصار ، وإلى البيان مع الإيجاز . فإن الكلام قد يفسده الاختصار ، ويعميه التخفيف منه والإيجاز ، وهذا مما يزيده الاختصار بسطاً ، لتمكّنه ووقوعه موقعه ، ويتضمن الإيجازُ منه تصرُّفاً يتجاوزُ محله وموضعه .

وكم جئتَ إلى كلام مبسوط يَضِيقُ عن الأفهام ، ووقعتَ على حديث طويل يقصر عما يراد به من[1] التمام ، ثم لو وقع على الأفهام [والتمام ، أخل بما[2]] يجب فيه من شروط الإحكام ، أو بمعانى القصة وما تقتضى من الإعْظَام .

ثم لو ظفرتَ بذلك كلّه ، رأيتَه ناقصاً فى وجه الحِكمة ، أو مَدْخُولاً فى باب السياسة ، أو مَضْعُوفاً[3] فى طريق السيادة ، أو مشترك العبارات إن كان مستجود المعنى ، [أو مستجود العبارة مشترك المعنى[4]] ، أو جيد البلاغة مُسْتَجْلَبَ[5] المعنى ، أو مستجلَب البلاغة جيد المعنى ، أو مستنكَر اللفظ وحشىّ العبارة ، أو مستبهَم الجانب مستكرَه الوضع .

وأنت لا تجد فى جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بُسِطَ أفاد ، وإذا اختصِرَ كمل فى بابه وجاد ؛ وإذا سرَّح الحكيمُ فى جوانبه طرفَ

(١) م : «على»
(٢) الزيادة من م ومكانها بياض فى ك
(٣) س ، ك : «أو مصفوفاً» !
(٤) الزيادة من م
(٥) م : «مستحيل المعنى أو مستحيل»

خاطره[1] ، وبعث العليم فى أطرافه عيون مباحثه ، لَمْ يَقع إلا على محاسن تتوالى ، وبدائع تَتْرَى[2] .

ثم فكِّرْ بعد ذلك فى آية آية ، أو كلمة كلمة ، فى قوله : ﴿ إنَّ المُلُوكَ إذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وجَعَلُوا أعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ[3] ﴾ .

هذه الكلمات الثلاث ، كل واحدة منها كالنجم فى علوه ونوره ، وكالياقوت يتلألأ بين شُذُورِه . ثم تأملْ تمكُّن الفاصلة — وهى الكلمة الثالثة — وحسنَ موقعها ، وعجيب حكمتها[4] ، وبارع معناها .

وإن شرحتُ لك مافى كل آية طال عليك الأمر ، ولكنى قد بيّنتُ بما فسرت ، وقرّرت بما فصَّلت — الوجهَ الذى سلكتُ ، والنحوَ الذى قصدتُ ، والغرضَ الذى إليه رميتُ ، والسَّمْتَ الذى إليه دعوتُ .

ثم فكِّرْ بعد ذلك فى شيء أدلُّك عليه :

وهو تَعادُلُ هذا النظم فى الإعجاز ، فى مواقع الآيات القصيرة ، والطويلة ، والمتوسطة .

---

(١) م : « أو »

(٢) هذا الاستعمال من الباقلانى يكاد يوهم القارئ أن كلمة « تترى » فعل مضارع ، إذ جعلها مزاملة لكلمة « تتوالى » ! و « تترى » اسم ، بمعنى : متواترين ، ولذلك يجوز تنوينها . فى اللسان ٧ / ١٣٧ — ١٣٨ « وجاؤا تترى وتتراً ، أى متواترين . التاء مبدلة من الواو . قال ابن سيدة : وليس هذا البدل قياساً ، إنما هو فى أشياء معلومة »

(٣) سورة النمل ٣٤

(٤) س : « حكمها »

فأَجِلِ الرأيَ فى سورة سورة ، وآية آية ، وفاصلة فاصلة ، وتدبَّر الخَوَاتِمَ ، والفَوَاتِحَ ، والبَوَادِيَ[١] ، والمقاطع ، ومواضع الفَصْل والوصل ، ومواضع التنقّل والتحوّل ، ثم اقْضِ ما أنت قاضٍ .

وإن طال عليك تأمل الجميع ، فاقتصر على سورة واحدة ، أو على بعض سورة[٢] .

ما رأْيك فى قوله : ﴿ إنَّ فِرْعَونَ عَلاَ فى الأرْضِ ، وجَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً ، يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، ويَسْتَحْيي نِسَاءَهُمْ ، إنَّهُ كانَ مِنَ المُفْسِدِينَ[٣] ﴾ ؟

هذه تشتمل على ست كلمات ، سناؤُها وضياؤُها على ما ترى ، وسلاستها وماؤُها على ما تشاهد ، ورونقُها على ما تعاين ، وفصاحتها على ما تَعْرِف .

وهى تشتمل على جملة وتفصيل ، [وجامعة[٤]] وتفسير : ذكر العُلُوَّ فى الأرض باستضعاف الخلق بذبح الوِلْدَان وسبي[٥] النساء ، وإذا تحكَّم فى هذين الأمرين فما ظنُّك بما دونهما ؟! لأنّ النفوس لا تطمئن على هذا الظلم ، والقلوب لا تَقَرُّ على هذا الجَوْر .

---

(١) م : « والمبادى »
(٢) س : « سور » م « أو بعض »
(٣) سورة القصص ٤
(٤) الزيادة من م
(٥) م : « لذبح الولدان ، واستحياء »

ثم ذَكَرَ الفاصِلةَ التى أوْغَلَت فى التأكيد ، وكفَت فى التظليم ، وردّت آخرَ الكلام على أوله ، وعطفت عجُزَه على صدره .

ثم ذكر وعده تخليصَهم بقوله : ﴿ ونُرِيدُ أنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ استُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ[١] ﴾ . وهذا من التأليف بين المؤتلف ، والجمع بين المُسْتَأْنِس .

كما أن قوله : ﴿ وابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا ، وأَحْسِنْ كما أَحْسَنَ اللهُ إلَيْكَ ، ولا تَبْغِ الفَسَادَ فى الْأَرْضِ ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ[٢] ﴾ .

وهى خمس كلمات ، متباعدة فى المواقع ، نائيةُ المَطَارِح ، قد جعلها النَّظْمُ البديع أشدَّ تألفاً[٣] من الشىء المؤتلف فى الأصل ، وأحسن توافقاً من المُتطَابِق فى أول الوضع .

ومثل هذه الآية قوله : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ويَخْتَارُ ، مَا كانَ لَهُم الخِيَرَةُ ، سُبْحَانَ اللهِ وَتَعالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ[٤] ﴾ .

ومثلها : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِم إلاّ قَلِيلاً ، وكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ[٥] ﴾ .

---

(١) سورة النمل ٥
(٢) سورة القصص ٧٧
(٣) م : « تأليفا »
(٤) سورة القصص ٦٨
(٥) سورة القصص ٥٨

ومن المؤتلف قوله : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وبِدَارِهِ الأَرْضَ ، فَمَا كَانَ لهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَمَا كانَ مِنَ المُنْتَصِرِينَ[١] ﴾ .

وهذه ثلاث كلمات ، كل كلمة منها أعزُّ من الكبْريت الأحمر .

ومن الباب الآخر[٢] قوله تعالى : ﴿ ولا تَدْعُ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ، لاَ إلهَ إلَّا هُوَ ، كلُّ شيءٍ هالِكٌ إلَّا وَجْهَهُ ، لهُ الحُكْمُ ، وَإليَهْ تُرْجَعُونَ[٣] ﴾ .

* * *

كل سورة من هذه السور تتضمن من القَصَص ما لو تكلفتَ العبارة عنها بأضعاف كلماتها ، لم تَستَوْفِ ما استوفَتْه . ثم تجد فيما تنظم ثِقَلَ النظم ، ونُفُورَ الطبع ، وشِرَادَ[٤] الكلام ، وتهافُتَ القول ، وتمنُّع جانبه ، وقُصورَكَ فى الإيضاح عن واجبه . ثم لا تقدر على أن تنتقل من قصة إلى قصة ، وفصل إلى فصل ، حتى تتبين[٥] عليك مواضع الوصل ، وتستصعب عليك أماكن الفصل . ثم لا يمكنك أن تصل بالقصص مواعظ زاجرة ، وأمثالاً سائرة ، وحكماً جليلة ، وأدلةً على التوحيد بيّنة ، وكلماتٍ فى التنزيه والتّحْميد[٦] شريفة .

---

(١) سورة القصص ٨١

(٢) كذا فى ك ، س وفى م : « ومن الباب قوله »

(٣) سورة القصص ٨٨

(٤) م : « وشرود »

(٥) كذا فى س ، ك . وفى م : « حتى تتعثر » ا « حتى تتبتر »

(٦) م : « والتمجيد »

وإن أردت أن تتحقق ما وصفتُ لك ، فتأملْ شعرَ مَنْ شئتَ من الشعراء المُفْلِقِين ، هل تجد كلامه فى المديح والغزل والفخر والهجو يجرى مجرى كلامه فى ذكر القصص ؟

إنك لتراه إذا جاء إلى وصف وقْعَة[1] ، أو نَقْلِ خبرٍ ، عَامِّىَّ الـكلامِ ، سُوقِىَّ الخطاب ، مسترسلًا فى أمره ، متساهلًا فى كلامه ، عادلاً عن المألوف من طبعه ، وناكِبًا عن المعهود من سَجِيَّتِهِ . فإن اتفق له فى قصةٍ كلامٌ جيد ، كان قدر ثنتين أو ثلاثة ، وكان ما زاد عليها حشوًا، وما تجاوزها لغوًا . ولا أقول : إنها تخرج من عادته عفوًا، لأنه يقصر عن العفو ، ويقف دون ، العُرْف ، ويتعرّض للرّكاكة .

فإن لم تقنع بما قلتُ لك من الآيات[2] ، فتأملْ غير ذلك من السور[3] ، هل تجد الجميع على ما وصفت لك ؟

لو لم تكن إلّا سورة واحدة لَـكَفَتْ فى الإعجاز ؛ فكيف بالقرآن العظيم ؟

ولولم يكن إلا حديث من سورة لَـكَفَى ، وأقنع وشَفَى .

ولو عرفتَ قدر قصة موسى وحدها من سورة الشعراء[3]، لما طلبتَ بيّنةً سواها .

بل قصةً من قصصه ، وهى قوله : ﴿وَأَوْحَيْنَا إلى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ، إنَّـكُمْ مُتَّبَعُونَ[4]﴾ إلى قوله : ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِن جَنَّاتٍ

(١) س : « واقعة » (٢) كذا فى م . وفى س، ك : « من الأبيات »

(٣) ا : « من الشعر » (٤) سورة الشعراء ٥٢

وعُيُونٍ ، وكُنُوزٍ ومَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ[1] ﴾ حتى قال : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ[2] ﴾ .

ثم قصة إبراهيم عليه السلام .

ثم لو لم تكن إلا الآيات التى انتهى إليها القول فى ذكر القرآن ، وهى قوله : ﴿ وإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ[3] ﴾ .

وهذه كلمات مُفْرَدَةٌ بفواصلها ، منها ما يتضمن فاتحة وفاصلة ، ومنها ما هى فاتحة وواسطة وفاصلة ، ومنها كلمة بفاصلتها تامة .

دل على أنه نَزَّله على قلبه ليكون نذيرًا ، وبَيَّنَ أنه آيةٌ لكونه نبيًّا ، ثم وصل بذلك كيفية النِّذارة فقال : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ، واخْفِضْ جَنَاحَك لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ[4] ﴾ .

فتأمل آيةً آيةً ، لتعرفَ الإعجاز ، وتتبيَّنَ التصرف البديع ، والتنقل فى الفصول إلى آخر السورة .

ثم راعِ المقطعَ العجيب ، وهو قوله : ﴿ وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ[5] ﴾ .

---

(١) سورة الشعراء ٥٧ — ٦٠

(٢) سورة الشعراء ٦٣

(٣) سورة الشعراء ١٩٢ — ١٩٥

(٤) سورة الشعراء ٢١٤ — ٢١٥

(٥) سورة الشعراء ٢٢٧

هل يُحسِن [أحدٌ][1] أن يأتىَ بمثل هذا الوعيد ، وأن يَنظِم[2] مثل هذا النظم ، وأن يَجد مثل هذه النظائر السابقة ، ويُصادف[3] مثل هذه الكلمات المتقدمة ؟

ولولا كراهة الإملال ، لجئت إلى كل فصل ، فاستقريت على الترتيب كلماته ، وبينتُ لك ما فى كل واحدة منها من البراعة ، وعجيب[4] البلاغة .

ولعلك تستدل بما قلنا على ما بعده ، وتستضىء بنوره ، وتهتدىَ بهداه .

ونحن نذكر آياتٍ أُخَر ، لتزداد استبصارًا ، وتتيقن[5] تيقنًا :

تأمّل من الكلام المؤتلف قوله : ﴿حم . تَنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العَزِيزِ العَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ، ذِى الطَّوْلِ لا إلٰهَ إلا هُوَ ، إليه المَصِيرُ[6]﴾ .

أنت قد تدرَّبْتَ الآن بحفظ أسماء الله تعالى وصفاته ، فانظرْ متى وجدت فى كلام البشر وخطبهم مِثلَ هذا النظم فى هذا القدْر ، وما يجمع ما تجمع هذه الآية من شريف المعانى وحسن الفاتحة والخاتمة .

---

(١) الزيادة من م

(٢) س، ك : « وأن تنظم . . . وأن تجد . . . وتصادف »

(٣) م : « السابغة . . . مثل الكلمات »

(٤) س ، ك : « ومن عجيب »

(٥) كذا فى م . وفى س « وتتقدم » وك : « ويتقدم »

(٦) سورة غافر ١ ـــ ٣

ثم اتلُ(١) ما بعدها من الآى ، واعرفْ وجهَ الخُلوص من شىء إلى شىء : من احتجاج إلى وعيد ، ومن إعْذَارٍ إلى إنْذَار ، ومن فنون من الأمر شتى ، مختلفة تَأْتَلِفُ بشريف النظم ، ومتباعدة تتقارب(٢) بعلىِّ الضّم .

ثم جاء إلى قوله : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ والأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وجَادَلُوا بالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ ، فَأَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ، وكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الذينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ(٣) ﴾ .

الآيةُ الأولى أربعة فصول ، والثانية فصلان .

وَجْهُ الوقوف على شرف(٤) الكلام : أن تتأمل موقع قوله : ﴿ وهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوه ﴾ ، وهل تقع فى الحسن موقع قوله : « ليأخذوه » كلمةٌ ؟ وهل تقوم مقامه فى الجزالة لفظةٌ ؟ وهل يسد مسده فى الأصالة نكتةٌ ؟ لو وَضَع موضع ذلك « ليقتلوه » ، أو « ليرجموه » ، أو « لينفوه » ، أو « ليطردوه » ، أو « ليهلكوه » ، أو « ليذلوه » ، ونحو هذا ، ما كان ذلك بديعاً(٥) ولا بارعاً ، ولا عجيباً ولا بالغاً .

---

(١) س ، ك : « واتل »
(٢) كذا فى س ، ك . وفى م : « تتقارب بعالى الكلام »
(٣) سورة غافر ٥ ـ ٦
(٤) م : « على شريف »
(٥) كذا فى م . وفى س ، ك : « بعيداً »

فاقدْ موضع هـذه الـكلمة ، وتعلَّم بها ما تذهب إليه من تخير[١] الـكلام ، [وانتقاء[٢]] الألفاظ ، والاهتداء للمعانى .

فإن كنت تقدّر أن شيئاً من هـذه الـكلمات التى عددناها[٣] عليك أو غيرها ، [يقوم مقام هذه اللفظة ، لم تَقِفْ[٤]] على غرضنا من هذا الـكتاب ، فلا سبيل لك إلى الوقوف على تصاريف الخطاب ، فافزع إلى التقليد ، واكْفِ نفسك مؤونة التفكير .

وإن فطنت فانظر إلى ما قال مِن رَدِّ عجز الخطاب إلى صدره ، بقوله : ﴿ فأخذتُهم ، فـكيفَ كان عقابِ ﴾ ثم ذكر عقيبها العذابَ فى الآخرة ، وأتلاها تِلْوَ العـــذاب فى الدنيا ، على الإحكام الذى رأيت[٥] .

ثم ذكَرَ المؤمنين بالقرآن ، بعد ذكر المـكذِّبين بالآيات والرسل ، فقال : ﴿ الَّذِين يَحْمِلُونَ العَرْشَ ومَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ويُؤْمِنُونَ بِهِ[٦] ﴾ ، إلى أن ذكر ثلاث آيات .

---

(١) س ، ك : « من نخب »

(٢) الزيادة من م ، ومكانها بياض فى ك

(٣) مكان هذه الكلمة بياض فى ك

(٤) الزيادة من م ، وفى س ، ك « عليك أو غيرها لا تقف بك على غرضنا »

(٥) م : « على الأحكام التى رادت »

(٦) سورة غافر ٧

وهذا كلام مفصول، تعلم[١] عجيب اتّصاله بما سبق ومضى، وانتسابه إلى ما تقـدم وانقضى، وعظم موقعه[٢] فى معناه، ورفيع ما يتضمن من تحميدهم وتسبيحهم، وحكاية كيفية دعاء الملائكة بقوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وعِلْماً[٣] ﴾.

هل تعرفُ شرفَ هذه الـكلمة لفظاً ومعنى، ولطيفَ هذه الحـكاية، وتلاؤُمَ هذا الـكلام، وتشاكُلَ هذا النظام؟ فـكيف[٤] يهتدى إلى وضع هذه المعانى بَشَرِىّ، وإلى تركيب ما يلائمها من الألفاظ إنْسىّ؟.

ثم ذكر ثلاث آيات فى أمر الـكافرين على ما ترى.

ثم نبَّه على أمر القرآن، وأنه من آياته، بقوله: ﴿ هُوَ الّذِى يُرِيكُمْ آياَتِهِ، ويُنَزِّلُ لَـكُمْ مِنَ السَّماءِ رِزْقاً، وَمَا يَتَذَكَّرُ إلّا مَنْ يُنيبُ[٥] ﴾.

وإنما ذكر هذين الأمرين اللذين يختص بالقدرة عليهما، لتناسبهما فى أنهما من تنزيله من السماء، ولأن الرزّاق الذى لو لم[٦] يَرْزُقْ لم يمكن بقاء النفس، تَجِبُ طاعته والنظر فى آياته.

---

(١) ك: «يعلم»
(٢) س، ك: «وتقضى وعظم موضعه»
(٣) سورة غافر ٧
(٤) س، ك: «وكيف»
(٥) سورة غافر ١٣
(٦) م: «الذى لم»

ثم قال : ﴿ فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ولَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ، رَفيعُ الدَّرَجَاتِ ذو العَرْشِ ، يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ، يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيءٌ ، لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ ؟ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ[١] ﴾ .

قف على هذه الدلالة[٢] ، وفكر فيها ، وراجع نفسك فى مراعاة معانى هذه الصفات العالية ، والكلمات السامية ، والحِكم البالغة ، والمعانى الشريفة — : تَعْلَمْ وُرُودَها عن الإلٰهية ، ودلالتها على الرُّبوبية ، وتتحقَّقْ أنَّ الخُطَبَ المنقولة عنهم ، والأخبارَ المأثورة فى كلماتهم الفصيحة ، من الكلام الذى تَعْلَقُ به الهمم البشريّة ، وما تَحُومُ عليه الأفكار الآدمية ، وتعرفْ مُبَايَنتَها لهذا الضرب من القول .

أىُّ خاطرٍ يتشوَّف إلى أن يقول : ﴿ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ ، يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ﴾ ؟

وأىُّ لفظٍ يدرك هذا المضمار ؟ وأىُّ حكيم يهتدى إلى ما لهذا من الغَوْر ؟ وأى فصيح يهتدى إلى هذا النظم ؟

ثم استقرئ الآيةَ إلى آخرها ، واعتبرْ كلماتها ، وراعِ بعدَها قولَه : ﴿ اليَومَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لا ظُلْمَ اليومَ ، إنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ[٣] ﴾ .

---

(١) سورة غافر ١٤ — ١٦

(٢) م : « الآية »

(٣) سورة غافر ١٧

مَن يقدر على تأليف هذه الكلمات الثلاث ، على قربها ، وعلى خفتها فى النظم ، وموقعها من القلب ؟

ثم تأمل قوله : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ القُلُوبُ لَدَى الحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ ، يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى الصُّدُورُ ، وَاللهُ يَقْضِى بِالحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ[1] ﴾ .

كل كلمة من ذلك على ما قد وصفتُها[2] : من أنه إذا رآها الإنسان فى رسالةٍ كانت عينَها ، أو فى خطبةٍ كانتْ وجهَها ، أو قصيدةٍ كانت[3] غُرَّةَ غُرَّتِهاَ ، وبيتَ قصيدتها ، كالياقوتة التى تكون فَرِيدَةَ العِقْدِ ، وعَيْنَ القِلاَدَة ، ودُرَّةَ الشَّذْرِ ، إذا وقع بين كلام وَشَّحَه ، وإذا ضُمِّنَ[4] فى نظام زَيَّنه ، وإذا اعْتَرَضَ فى خطاب تَمَيَّزَ عنه ، وبَان بحسنه منه .

ولست أقول هذا لك فى آية دون آية ، وسورة دون سورة ، وفصل دون فصل ، وقصة دون قصة ، ومعنى دون معنى ؛ لأنى قد شرحت لك أن الكلام فى حكاية القصص والأخبار ، وفى الشرائع

---

(١) سورة غافر ١٨ — ٢٠

(٢) م : « على قدر ما وصفتها »

(٣) م : « كانت غرتها »

(٤) م : « وإذا نظم »

والأحكام ، وفى الديانة والتوحيد ، وفى الحُجَج والتثبيت ، هو خلاف الكلام فيما عدا هذه الأمور .

أَلا ترى أن الشاعر المُفْلِقَ إذا جاء إلى الزهد قصَّرَ ، والأديبَ إذا تكلم فى بيان الأحكام وذكر الحلال والحرام ، لَمْ يكن كلامُه على حسب كلامه فى غيره

ونَظْمُ القرآن لا يتفاوت فى شىء ، ولا يتباين فى أمر ، ولا يختلُّ فى حال ؛ بل له المثل الأعلى ، والفضل الأسْنَى .

وفيما شرحناه لك كفايةٌ ، وفيما بيَّنَّاه بلاغٌ

* * *

ونذكر فى الأحكاميات وغيرها آياتٍ أُخر :

منها قوله : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ ؟ قُلْ : أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ، تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللهُ ، فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَابِ[1] ﴾ .

أنت تجد فى هذه الآية من الحكمة والتصرُّف العجيب ، والنظم البارع [الغريب][2] ، ما يدلك — إن شئتَ — على الإعجاز ، مع هذا الاختيار والإيجاز ، فكيف إذا بلغ ذلك آياتٍ[3] ، أو كانت سورة ؟

ونحو هذه الآية قوله : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى

(١) سورة المائدة ٤

(٢) الزيادة من م

(٣) س ، ك : « وكانت »

يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ[1] ﴾.

وكالآية التى بعدها فى التوحيد وإثبات النبوة ، وكالآيات الثلاث فى المواريث

أىُّ بارع يقدر على جمع أحكام الفرائض فى قدرها من الكلام ؟ ثم كيف يقدر على ما فيها من بديع النظم[2] ؟

وإن جئت إلى آيات الاحتجاج ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ، لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ[3] ﴾.

وكالآيات فى التوحيد ، كقوله : ﴿ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ[4] ﴾.

وكقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ

(١) سورة الأعراف ١٥٧

(٢) م : « على مثل ما فيها من بليغ النظام »

(٣) سورة الأنبياء ٢٢ — ٢٣

(٤) سورة غافر ٦٥

لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا[1] ﴾ .

وكقوله : ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[2]﴾، إلى آخرها .

وكقوله:﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ، إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ، رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ، إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ، وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ، لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،دُحُورًا ، وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ[3] ﴾ .

هذه من الآيات التي قال فيها الله تعالى ذكره : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[4] ﴾ .

[ارفع طرف قلبك][5] ، وانظر بعين عقلك ، وراجع جليَّة بصيرتك ، إذا تفكرت في كلمة كلمة مما نقلناه إليك ، وعرضناه

(١) سورة الفرقان ١ — ٢

(٢) سورة الملك ١

(٣) سورة الصافات ١ — ١٠

(٤) سورة الزمر ٨

(٥) الزيادة من م

عليك ، ثم فيما ينتظم من الكلمات ، ثم إلى أن يتكامل فَصْلًا وقصةً ، أو يَتِمّ حديثا وسورة .

لا ، بل فَكِّرْ فى جميع القرآن على هذا الترتيب ، وتدبَّرْه على نحو هذا التنزيل ، فلم ندَّعِ ما ادعيناه لبعضه ، ولم نَصِفْ ما وصفنا[1] إلا فى كلّه ، وإن كانت الدلالة فى البعض أَبْيَنَ وأَظهرَ ، والآية أَكْشَفَ وأَبْهَرَ .

وإذا تأملت على ما هديناك إليـــه ، ووَقَفْنَاكَ عليه ، فانظر هل تجد وَقْعَ[2] هذا النور فى قلبك ، واشتمالَهُ على لُبِّك ، وسَرَيانَه فى حِسِّك ، ونفوذَه فى عروقك ، وامتلاءَكَ به إيقانا وإحاطة ، واهتداءك به إيمانًا وبصيرةً ؟ أم هل تجد الرُّعبَ يأخذ منك مأخذَه من وجه ، والهِزَّةَ تعمل فى جوانبك[3] من لون ، والأَرْيَحِيَّةَ تستولى عليك من باب ؟ .

وهل تجد الطرب يستفزُّكَ لِلَطِيفِ ما فَطِنْتَ له ، والسرور يحركك من عجيب ما وقفتَ عليه ، وتجدُ فى نفسك من المعرفة التى حدثت لك عِزَّة ، وفى أَعْطَافك ارتياحا وهِزَّة ، وترى لك فى الفضل تقدما وتَبْرِيزًا ، وفى اليقين سَبْقا وتحقيقا ، وترى مطارِحَ الجُهَّال تحت

---

(١) س : « ما وصفناه »

(٢) كذا فى ا ، م ، وفى س ، ك : « هل ترى »

(٣) م : « فى جوارحك »

أقدام النَبَفلة ، ومَهَاوِيهُمْ فى ظلال[1] القِلَّة والذِّلة ، وأَقْدَارَهم بالمين التى يجب أن تُلْحَظ بها ، ومراتبَهم بحيث يجب[2] أن ترتبها ؟ .

هذا كلّه فى تأمل الكلام ونظامه ، وعجيب معانيه وأحكامه .

فإن جئت إلى ما انبسط فى العالم من بركته وأنواره ، وتمكن فى الآفاق من يُمْنه وأضوائه ، وثبَتَ فى القلوب من إكْبارِه وإعْظَامِهِ ، وتقرر فى النفوس من حَتْم أمره ونهيه ، ومضى فى الدماء[3] من مَفْرُوض حكمه ، وإلى أنه جُعِل عِمَادَ[4] الصلاة التى هى تِلْوُ الإيمان فى التأكيد ، وثانيةُ التوحيد فى الوُجُوب . وفُرِضَ[5] حفظُه ، ووُكِلَ الصغارُ والكبارُ بتلاوته ، وأُمر عند افتتاحه بما أُمر به لتعظيمه ، من قوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ[6] ﴾ ، لم يؤمر بالتعوّذ لافتتاح أمرٍ كما أُمر به لافتتاحه ، فهل يدلك هذا على عظيم شانه ، وراجحِ ميزانه ، وعالى مكانه .

وجُمْلَةُ الأمرِ أنّ نقدَ الكلام شديد ، وتمييزَه صعب .

ومما كتب إلى الحسَنُ بن عبد الله العَسْكَرِى : [قال][7] أخبرنى

---

(١) كذا فى س ، ك ، وفى م : « فى أطلال »
(٢) م : « بحيث يحق »
(٣) م : « فى الدنيا »
(٤) م : « أعماد »
(٥) م : « وفروض »
(٦) سورة النحل ٩٨
(٧) الزيادة من م

أبو بكر بن دُرَيْدٍ قال : سمعت أبا حاتم يقول: سمعت الأصْمعى يقول : فرسانُ الشعر[1] أقلُّ من فرسان الحرب .

وقال : سمعت أبا عَمرو بن العلاء يقول : العلماء بالشعر أعزُّ من الكبريت الأحمر .

وإذا كان الكلام المتعارَف المتداوَل بين الناس ، يشقُّ تمييزُه ، ويصعب نقده ، ويذهب عن محاسنه الكثير[2] ، وينظرون إلى كثير من قبيحه بعين الحسن ، وكثير من حسنه بعين القبح ، ثم يختلفون فى الأحسن منه اختلافاً كثيرًا ، وتتباين آراؤهم فى تفضيل ما يفضل منه، فكيف لا يتحيرون فيما لا يحيط به علمهم ، ولا يتأتّى فى مقدورهم ، ولا يَمْثُلُ بخواطرهم ؟ وقد حَيَّرَ القومَ الذين لم يكن أحدٌ أفصحَ منهم ، ولا أتمَّ بلاغةً ، ولا أحسن براعة ، حتى دُهشوا حين ورد عليهم ، ووَلِهَتْ عقولُهم ، ولم يكن عندهم فيه جوابٌ غير ضربِ الأمثال ، والتَّخَرُّصِ[3] عليه ، والتوهم فيه ، وتقسيمه أقساماً ، وجعله عِضِينَ .

وكيف لا يكون أحسنَ الكلام ، وقد قال الله تعالى : ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ، ذٰلِكَ هُدَى اللهِ

(١) كذا فى م ، وفى س ، ك : « الشعراء »

(٢) ك : « يذهب . . . الكبير »

(٣) كذا فى ك ، وفى م ، س : « والتخرض »

يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاء ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ[(١)] ﴾ .

استغنم فهمَ هذه الآية ، وكفاك ، استفدْ علم هذه الكلمات ، وقد أغناك ، فليس يُوقَفُ على حسن الكلام بطوله ، ولا تُعرف براعته بكثرة فصوله ، إن القليل يدل على الكثير ، والقريب قد يَهْجُم بك على البعيد .

ثم إنه سبحانه وتعالى لمّا علم من عظم شأن هذه المعرفة ، وكبر محلها[(٢)] ، وذهابها على أقوام — ذكر فى آخر هذه الآية ما ذكر ، وَبَيَّنَ ما بَيَّنَ ، فقال : ﴿ ذٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِى بِهِ مَنْ يَشَاء ﴾ . فلا تعلم[(٣)] ما وصفنا لك إلا بهداية من العزيز الحميد . وقال : ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ . وقال : ﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا[(٤)] ﴾ .

وقد بسطنا لك القول رجاءَ إفْهَامِك .

وهذا المنهاج الذى رأيته ، إنْ سلكتَه يأخذ بيدك ، ويدلك على رشدك ، ويغنيك عن[(٥)] ذكر براعة[(٦)] آية آية لك .

واعلم أنَّا لم نقصد فيما سَطَّرناه من الآيات ، وسميناه من السور

---

(١) سورة الزمر ٢٣
(٢) م : « وكبر محملها »
(٣) س ، ك : « فلا يعلم »
(٤) سورة البقرة ٢٦
(٥) م : « ويعينك على »
(٦) س : « براعته »

والدلالات ، ذِكْرَ الأحسن[١] والأكشفِ والأظهر ؛ لأنا نعتقد فى كل سورة ذكرناها أو[٢] أضربنا عن ذكرها اعتقادًا واحدًا فى الدلالة على الإعجاز ، والكفاية فى التمنّع والبرهان ، ولكن لم يكن بُدٌّ من ذكر بعضٍ ، فذكرنا ما تيسر ، وقلنا فيما اتجه فى الحال وخطر ، وإن كنّا نعتقد أن الإعجاز فى بعض القرآن أظهر ، وفى بعضه[٣] أدقُّ وأغمض ، والكلام فى هذا الفصل يجىء بعد هذا .

فاحفظ عنّا فى الجملة ما كررنا ، والسَّيْرُ بعد ذلك فى التَّفصيل إليك .

وحصِّل ما أعطيناك من العلامة ، ثم النظر عليك .

* * *

قد اعتمدنا على أن الآيات تنقسم إلى قسمين :

أحدهما : ما يتمُّ بنفسه ، أو بنفسه وفاصلته ، فيُنِيرُ فى الكلام إنارة النَّجم فى الظلام

والثانى : ما يشتمل على كلمتين أو كلمات ، إذا تأملتَها وجدتَ كل كلمة منها فى نهاية البراعة وغاية البلاغة .

وإنما يَبِينُ ذلك بأن تتصور هذه الكلمة مُضمَّنةً بين أضْعاف كلام كثير ، أو خطاب طويل ، فتراها ما بينها[٤] تدلّ على نفسها ،

---

(١) ا ، م : « ذكر الأعجز »

(٢) س ، ك : « وضربنا »

(٣) س : « وفى بعض »

(٤) م : « ما بينهما »

وتعلو على ما قُرِن بها(١) لعلو جنسها ، فإذا ضُمَّت إلى أخواتها ، وجاءت في ذواتها، أَرَتْكَ القَلائِدَ منظومة ، كما كانت تُرِيكَ عند تأمل الأفراد منها اليواقيتَ مَنْثُورَةً ، والجواهر مَبْثُوثَةً(٢) .

ولولا ما أكره من تضمين القرآن فى الشعر لأنشدتك ألفاظاً وقعت مُضَمَّنة ، لتعلم كيف تلوح(٣) عليه ، وكيف ترى بهجَتَها فى أثنائه ، وكيف تمتاز منه ، حتى إنه لو تأمله من لم يقرأ القرآن لتبيَّن أنه أجنبي من الكلام الذى تضمنه ، والباب الذى توسطه ، وأنكر مكانه ، واستكبر موضعه .

ثم تناسبها فى البلاغة والإبداع ، وتماثلها فى السلاسة والإغراب ، ثم انفرادها بذلك الأسلوب ، وتخصصها بذلك الترتيب ، ثم سائر ما قدمنا ذكره ، مما نكره إعادته .

وأنت ترى غيره من الكلام يضطرب فى مجاريه ، ويختل تصرفه فى معانيه ، ويتفاوت التفاوت الكثير فى طرقه ، ويضيق به النِّطاق فى مذاهبه ، ويرتبك(٤) فى أطرافه وجوانبه ، ويُسلمه للتكلف(٥) الوحش كثرة تصرفه ، ويحيله على التصنع الظاهر مَوارِدُ تنقّله وتخلصه

---

(١) كذا فى ا ، م . وفى س ، ك : « على ما قد قرن منها »

(٢) م : « مبثوثة منشورة »

(٣) م : « يلوح »

(٤) م : « ويريبك »

(٥) م : « ويسلبه التكلف الوحش كثير »

ونظم القرآن فى مُؤْتَلِفه ومختلفه، وفى فصله ووصله، وافتتاحه واختتامه، وفى كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يَؤُمُّه، على ما وصفه الله تعالى به — : لا يتفاوت، كما قال: ﴿ولَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]. ولا يخرج عن تشابهه وتماثله، كما قال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غيرَ ذِي عِوَجٍ[2]﴾. وكما قال: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾[3]. ولا يخرج عن إبانته، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[4].

وغيره من الكلام كثير التلون، دائم التغير، [والتنكر][5]، يقف بك على بديع مستحسَن، ويعقبه بقبيح[6] مستهجَن، ويطلع عليك بوجه الحسناء، ثم يعرض للهجر بخد القبيحة الشَّوْهاء، ويأتيك باللفظة المستنكَرة بين الكلمات التى هى كاللآلئ الزُّهْر.

وقد يأتيك باللفظة الحسنة بين الكلمات البُهْم، وقد يقع إليك منه الكلام المُتَبَّجُ[7]، والنظم المشوَّش، والحديث المشوَّه

وقد تجد منه ما لا يتناسب ولا يتشابه، ولا يتألف ولا يتماثل.

---

(١) سورة النساء ٨٢
(٢) سورة الزمر ٢٨
(٣) سورة الزمر ٢٣
(٤) سورة الشعراء ١٩٥
(٥) الزيادة من م
(٦) س «قبيح»
(٧) فى اللسان ٣/٤٣ «الثبج: اضطراب الكلام»

وقد قيل فى وصف ما جَرَى هذا المَجْرَى :

وشِعْرٍ كَبَعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بينهُ
لِسَانُ دَعِيٍّ فى القَرِيضِ دَخِيلِ[١]

وقال آخر :

وبعضُ قَرِيضِ القومِ أَوْلادُ عَلَّةٍ
يَكُدُّ لِسَانَ النَّاطِقِ المُتَحَفِّظِ[٢]

فإن قال قائل : فقد نجد فى آياتٍ [من][٣] القرآن ما يكون نظمُه بخلاف ما وصفْتَ ، ولا تتميز الكلمات بوجه البراعة ، وإنما تكون البراعة عندك منه فى مقدار يزيد على الكلمات المفردة ، وحدٍّ يتجاوزُ حدَّ الألفاظ المستندة ، وإن كان الأكثر على ما وصفته به ؟

---

(١) فى البيان والتبيين ١/٦٦ « قال أبو العاصى : وأنشدنى فى ذلك أبو البيداء الرياحى : وشعر إلخ . . . وأما قوله : "كبعر الكبش" فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور . وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملساء، ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ، ومتنافرة مستكرهة ، تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ، ورطبة مواتية ، سلسة النظام ، خفيفة على اللسان ، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد » .

(٢) البيت لخلف الأحمر . قال الجاحظ فى البيان والتبيين ١/٦٦ « أما قول خلف * وبعض قريض القوم أولاد علة * فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكرها ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات . وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضياً موافقاً ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة »

(٣) الزيادة من م

قيل له : نحن نعلم أن قوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ ﴾ ، إلى آخر الآية — ليس من القبيل الذى يمكن إظهار البراعة فيه ، وإبانة الفصاحة [عليه][1] وذاك يجرى عندنا مَجْرَى ما يُحتاج إلى ذكره من الأسماء والألقاب ، فلا يمكن إظهار البلاغة[2] فيه ، فطلبها فى نحو هذا ضربٌ من الجهالة . بل الذى يعتبر فى نحو ذلك تنزيل الخطاب ، وظهور الحكمة فى الترتيب والمعنى ، وذلك حاصل فى هذه الآية — إن تأملت .

ألا ترى أنه بدأ بذكر الأم ، لعظم حرمتها ، وإدلائها بنفسها ، ومكان بَعْضِيَّتها ، فهى أصل لكلّ من يُدْلى بنفسه منهن ، ولأنه[3] ليس فى ذوات الأنساب أقربُ منها .

ولما جاء إلى ذوات الأسباب ، ألحق بها[4] حُكْمَ الأم من الرضاع ؛ لأن اللحم ينشره اللبن بما يَغْذُوه ، فيتحصَّل بذلك أيضاً لها حكم البَعْضِيَّة ، فنشر[5] الحُرْمَةَ بهذا المعنى ، وألحقها بالوالدة .

وذكَرَ الأخوات من الرضاعة ، فنبَّه بها على كل من يُدْلى بغيرها ، وجعلها تِلْوَ الأم من الرضاع .

---

(١) الزيادة من م

(٢) م : « البراعة »

(٣) س ، ك : « لأنه »

(٤) س ، ك : « لها »

(٥) م : « فتنتشر »

والكلام فى إظهار حِكَم هذه الآية وفوائدها يطول، ولم نضع كتابنا لهذا ، وسبيل هذا أن نذكره فى كتاب "معانى القرآن" إن سهل الله لنا إملاءه وجمعه .

فلم تنفكّ هذه الآية من الحكم التى تَخْلُفُ حكمةَ الإعجاز فى النظم والتأليف ، والفائدةِ التى تنوب مناب العُدُول عن البراعة فى وجه التَّرْصِيفِ .

فقد علم السائل أنه لم يأت بشىء ، ولم يهتد للأغراض[1] فى دلالات الكلام ، وفوائده ومتصرفاته ، وفنونه ومتوجهاته .

وقد يتفق فى الشعر ذكر الأسامى فيحسن موقعه ، كقول أبى دُوَاد الأسدى[2] .

إنْ يَقْتُلُوكَ فَقَدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهُمْ
بِعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شهابِ[3]
بأشدهم كلبًا على أعدائه
وأعزِّهم فَقْدًا على الأصحاب[4]

وقد يتفق ذكر الأسامى فيفسد النظم، ويقبح الوزن .

---

(١) م : « للاعتراض » ، ك : « للأعراض »

(٢) فى العقد الفريد ٥/٢٤٩ الشعر لربيعة الأشتر ، والد ذؤاب بن ربيعة ، قاتل عتيبة بن الحارث بن شهاب

(٣) فى العقد : « فقد هتكت بيوتهم »

(٤) فى العقد : « بأحبهم فقداً إلى أعدائه * وأشدهم فقدا »

والآيات الأحكاميات التى لا بد فيها من أمر[١] البلاغة ، يُعتبر فيها من الألفاظ[٢] ما يعتبر فى غيرها ، وقد يمكن فيها ، وكل موضع أمكن ذلك فقد وُجد فى القرآن فى بابه ما ليس عليه مزيد فى البلاغة وعجيب النظم . ثم فى جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ فى الكلمات الأفْراد والألفاظ الآحاد ، فقد تجد ذلك مع تركّب الكلمتين والثلاث ، ويطَّرد ذلك فى الابتداء ، والخروج ، والفواصل ، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة ، أو باجتماع ذلك أو فى بعض ذلك — ما يخلف الإبداع فى أفْراد الكلمات ، وإن كانت الجملة والمعظم على ما سبق الوصف فيه .

وإذا عرف ما يجرى إليه الكلام ، وينهى إليه الخطاب ، ويقف عليه الأسلوب ، ويختص به القبيل ، بَانَ عند أهل الصنعة تميُّزُ بابِه ، وانفرادُ سبيله ، ولم يَشُكَّ البليغُ فى انتمائه إلى الجهة التى ينتمى إليها ، ولم يرْتَب الأديبُ البارع فى انتسابه إلى ما عَرف من نهجه .

وهذا كما يعرف طريقة مترسِّل فى رسالته ، فهو لا يخفى عليه بناء قاعدته وأساسه ، فكأنه يرى[٣] أنه يعد عليه مجارىَ حركاته وأنفاسه .

---

(١) م : «من ذكر»

(٢) م : «من اللفظ»

(٣) م : «يراه»

وكذلك فى الشعر[١] واختلاف ضروبه ، يعرف المتحقق به طبعَ كل أحدٍ ، وسبيل كل شاعرٍ .

وفى نظم القرآن أبواب كثيرة لم نستوفها ، وتقصّيها يطول ، وعجائبها لا تنقضى ، فنها الكلام [المغلق][٢] والإشارات .

وإذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغاً ربما زاد الإفهام به على الإيضاح ، أو ساوى مواقع التفسير والشرح ، مع استيفائه شروطه — كان النهايةَ فى معناه .

وذلك كقوله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ، لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٣] . فصول هذه الآية وكلماتُها على ما شرحناه من قبل[٤] البلاغة واللطف فى التقدم ، وفى تضمن هذا الأمر العظيم ، والمقام الكريم .

ويتلو هذه قوله : ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ، وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِى إِسْرَائِيلَ﴾[٥] . هذا خروج لو كان فى غير هذا الكلام لتَصَوَّرَ فى

---

(١) م : « فى الشعر مع اختلاف »
(٢) الزيادة من م ، ومكانها بياض فى ك
(٣) سورة الإسراء ١
(٤) م : « من قبيل »
(٥) سورة الإسراء ٢

صورة المنقطع ، وقد تمثل فى هذ النظم لبراعته وعجيب أمره وموقع ما لا ينفك منه القول[1] .

وقد يتبرَّأ الكلام المتصلُ بعضه من بعض، ويظهر عليه التَّثْبِيجُ[2] والتَّبايُن ، للخلل الواقع فى النظم .

وقد تصوّر هذا الفصلُ للطفه وصلًا ، ولم يبنْ عليه تميزُ الخروج .

ثم انظر كيف أجرى هذا الخطاب إلى ذكْر نُوح ، وكيف أثنى عليه ؟

وكيف تليق صفته بالفاصلة ويتم النظم بها ، مع خروجها مخرج البُرُوز من الكلام الأول ، إلى ذكْره ، وإجرائه إلى مدحه بشكره ، وكونهم من ذرّيته يُوجِبُ عليهم أن يسيروا بسيرته ، وأن يستنُّوا بسنته ، فى أن يشكروا كشكره ، ولا يتخذوا من دون الله وكيلًا ، وأن يعتقدوا تعظيمَ تخليصه إياهم من الطُّوفان ، لَمّا[3] حملهم عليه ونجَّاهم فيه ، حين أهلك مَن عَداهم به ، وقد عرّفهم أنه إنما يؤاخذهم بذنوبهم وفسادهم ، فيما سَلَّطَ عليهم مَن قبلهم وعاقبهم ، ثم عاد عليهم بالإفضال والإحسان، حتى يتذكروا ويعرفوا قدر نعمة الله عليهم وعلى نوح الذى ولدهم وهم من ذريته ، فلما عادوا إلى جهالتهم ، وتمردوا فى طغيانهم ، عاد عليهم بالتعذيب .

---

(١) م : « وموقع لا ينفك »

(٢) م : « عليه القبح »

(٣) م : « بما » ، ا : « وبما »

ثم ذكر الله عز وجل فى ثلاث آيات بعد ذلك معنى هذه القصة التى كانت لهم ، بكلمات قليلة فى العدد ، كثيرة الفوائد ، لا يمكن شرحها إلا بالتفصيل الكثير ، والكلام الطويل .

ثم لم يخل تضاعيف الكلام مما ترى من الموعظة ، على أعجب تدريج، وأبدع تَأْرِيجٍ[1]، بقوله : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا[2] ﴾ .

ولم ينقطع بذلك [نظامُ][3] الكلام ، وأنت ترى الكلام يتبدّد مع اتصاله ، وينتشر مع انتظامه ، فكيف بإلقاء ما ليس منه فى أثنائه ، وطَرْحِ ما يَعْدُوهُ[4] فى أَدْرَاجِه ؟

إلى أن خرج إلى قوله : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ . وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا[4] ﴾ . يعنى : إن عدتم إلى الطاعة عدنا إلى العفو .

ثم خرج خروجاً آخر إلى ذكر القرآن .

وعلى هذا فَقِسْ بحثَك عن[5] شرف الكلام ، وما لَهُ من علوّ الشان ، لا يطلب مطلباً إلا انفتح ، ولا يسلك قلباً إلا انشرح ، ولا

---

(١) كذا فى م ، ك ، وفى س : «تاريخ» . والتأريج : التهييج ، كما فى اللسان ٣/٢٩

(٢) سورة الإسراء ٧

(٣) الزيادة من م . ومكانها بياض فى ك

(٤) سورة الإسراء ٨

(٥) كذا فى م . وفى س ، ك : «ما بعده»

(٦) م : «على»

ينصبَ منهباً إلا استتار وأضاء ، ولا يضرب مضرباً إلا بلغ فيه السماء ، لا تقعُ منه على فائدة فقدَّرْتَ أنها أقصى فوائدها إلا قَصَّرْتَ ، ولا تظفر بحكمة فظننتَ أنها زُبْدَةُ حكمها إلا وقد أخللتَ .

* * *

إنَّ الذى عارض القرآن بشعر امرئ القيس لأَضَلُّ من حمارِ بَاهِلَةَ[1] ، وأَحْمَقُ من هَبَنَّقَة[2] .

لو كان شعره كلّه كالأبيات المختارة التى قدّمناها ، لأوجب البراءةَ منه[3] قولُه :

وسِنٍّ كسُنَّيْقٍ سناء وسُنَّماً   ذعَرْتُ بِمِدْلاجِ الهجيرِ نَهُوضِ[4]

قال الأصمعى : لا أدرى ما السِّنُّ ، ولا السُّنَّيْقُ ، ولا السُّنَّم ؟ !

وقال بعضهم : السنيق : أكمة .

---

(١) كذا فى م . وفى س، ك : «من حمار أهله» . وكذلك ورد فى الحيوان ٢٥٧/٢ ولست أعرف وجه الصواب فيهما .

(٢) هو ذو الودعات : يزيد بن ثروان ، أحد بنى قيس بن ثعلبة . راجع مجمع الأمثال ٢٢٧/١

(٣) كذا فى م ، ك ، ولكنها غيرت فى س إلى «من قوله» !

(٤) ديوانه ص ٨٢ وفى اللسان ٣١/١٢ «لم يفسر أبو عمرو قول امرئ القيس . . . ويروى : سناما وسنما . وفسره غيره فقال هو : جبل . التهذيب : وسنيق : اسم أكمه معروفة وأورد بيت امرئ القيس . شمر : سنيق : جمع سنيقات وسنانيق ، وهى الأكام . وقال ابن الأعرابى : لا أدرى ما سنيق .» : وقال ابن قتيبة فى المعانى الكبير ٧٧٣/٢ «لم يعرفه الأصمعى . وقال غيره : سن : ثور ، وسنيق جبل . سناء : ارتفاعاً . وسنم : بقرة ، مدلاج : من دلج ، إذا مشى ، وليس هو من أدلج لا أدّلج ، وكيف يدلج فى الهجير أو يدلج ؟» . وفى م : «بمدلاج المدير» . والعير : الحمار الوحشى

وقال فيها :

له قُصْرَيا عَــيْرٍ وساقا نَعامَةٍ
كفَحْلِ الهِجانِ القَيْسَرِىّ العَضُوضِ(١)

وقوله :

عَصافيرُ وذِبَّانٌ ودُودٌ وأَجْرأُ من مُجَلِّحَةِ الذِّئابِ(٢)

وزاد فى تقبيح ذلك وقوعُه فى أبياتٍ فيها :

فقد طوّفتُ فى الآفاق حتى رضيتُ من الغنيمة بالإيابِ
وكلُّ مَكارمِ الأخلاق صارَتْ إليه هِمَّتِى وبها اكتسابى(٣)

وكقوله فى قصيدة قالها فى نهاية السقوط :

أَزْمانَ فُوهَا كُلَّمَا نَبَّهْتُهَا كالمسك فاحَ وظل فى الفدَّام(٤)
أفـلا ترى أَظْعانَهُنَّ بَوَاكِرًا كالنَّخْلِ من شَوْكانَ حِينَ صِرام(٥)

---

(١) قبل هذا البيت فى الديوان :
وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد عبل اليدين قبيض
والقصرى ، والقصيرى : الضلع التى تلى الشاكلة بين الجنب والبطن . وفى س ، ك : « الهجان القيصرى »

(٢) كذا فى م والديوان ص ٢٨ ، وفى ك : « من مجلجلة الذياب » ولكن الكلمة الأخيرة غيرت فى س إلى « الذباب » ! ! وفى اللسان ٣/٢٤٩ « وذئب مجلح : جرئ والأنثى بهاء ، قال امرؤ القيس . . . »

(٣) س ، ك : « سارت إليه همتى ونما اكتسابى » . وفى الديوان « وبه اكتسابى »

(٤) فى الديوان ص ١٣٦ « وظل فيه الفدام »

(٥) فى الديوان « أو ما ترى » ، وفى م ، ا « أظعانهن بعاقل » . والصرام : « قطع الثمرة واجتناؤها من النخلة » كما فى اللسان ١٥/ ٢٢٨

وكأنَّ شارِبَها أصابَ لِسانَهُ مُومٌ يُخالِطُ جِسمَهُ بِسقامِ[١]

وكقوله :

لم يَفعلوا فِعلَ آلِ حَنظَلَةٍ إنهمْ جَيْرِ بِئسما ائتمروا[٢]

لاحِمْيَرِىٌّ وفىٰ ولا عُدَسٌ ولا اُسْتُ عَيرٍ يحكُّها الثَّفَرُ[٣]

إن بنى عوفٍ ابتَنَوْا حَسَباً ضَيَّعَهُ الدُّخلُلونَ[٤] إذْ غَدَرُوا

---

(١) الموم : المرض . وفى م « يخالط خبله » وهى رواية أخرى . وبين هذا البيت وسابقه هنا ثلاثة أبيات فى الديوان

(٢) بنو حنظلة ، هم الذين خذلوا شرحبيل عم امرئ القيس . وجير معناها : حقاً كما فى اللسان ٥ / ٢٢٨ وفى م « إنهم خير »

(٣) حميرى وعدس : رجلان من بنى حنظلة تولوا الغدر بعمه شرحبيل . والثفر : السير الذى فى مؤخر السرج ويجعل تحت ذنب الدابة ، كما فى اللسان ٥/١٧٣

(٤) هذا البيت الذى أخره المؤلف عن موضعه ، هو أول الأبيات التى مدح بها الشاعر عوير بن شجنة العوفى ، وبعده فى الديوان ص ٦٤ :

أدوا إلى جارهم خفارته ولم يضع بالمغيب إذ نصروا

وبنو عوف : هم قبيلة عوير ، الذى أجار هند بنت حجر ، أخت امرئ القيس ، ثم ردها سالمة مع ما أودعه من مال . وفى م ، س « ضيعه الداخلون » والدخللون هنا : الخاصة ، وهذه الكلمة من الأضداد ، قال أبو عبيدة : يقال للصديق والخليل دخلل ، ويقال للحشو ومن يدخل نفسه فى قوم ليس منهم : دخلل ، قال امرؤ القيس . . . ويقال : فلان دخلل فلان : أى من خاصته ، ويقال : بينهم دخلل ودخلل ، أى إخاء ومودة ، وهو مأخوذ فى هذا المعنى من الدخيل والمداخل » راجع الأضداد لابن الأنبارى ص ٢٠٤

وكقوله :

أبلغ شهاباً [بل] وأبلغ عاصماً [ومالكا] هل أتاك الخُبْرُ مَالِ[١]

أَنَّا تركنا منكم قتلى بِخَوْعَى وَسُبِيًّا كالسَّعَالِى[٢]

يَمْشِينَ بَيْنَ رِحَالِنا مُعْـتَرِفَاتٍ بجـوع وهزال

* * *

ولم يقع مثل ذلك له وحده ، فقد قال الأعْشَى :

فأدخلك الله بَرْدَ الْجِنَـا نِ جَذْلَانَ فى مَدْخَلٍ طَيِّبِ[٣]

وقال أيضاً :

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَينِه عَنْ شَاتِهِ فأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وطِحَالَها[٤]

وقال فى فرسه :

ويأْمُرُ لليَحْمُومِ كلَّ عَشِيَّةٍ بقَتٍّ وتَعْلِيقٍ فقد كاد يَسْنَقُ[٥]

---

(١) الزيادة من ديوانه المخطوط ، رواية الطوسى . والخبر : العلم ، ومال : مرخم مالك

(٢) خوعى : اسم موضع . وسبِى : جمع سبى . والسعالى : الغيلان ومعنى معترفات : مصطبرت ، والعارف : الصابر

(٣) ديوانه ص ٢٨

(٤) ديوانه ص ٢٩ والموشح ص ٥٣

(٥) اليحموم : الفرس ، وفى اللسان ٣١/١٢ « السنق : البشم ... سنق الحمار وكل دابة سنقاً : إذا أكل من الرطب حتى أصابه كالبشم ؛ والفصيل إذا أكثر من اللبن يكاد يمرض ؛ قال الأعشى ... »

وقال :

شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلٌ[1]

وهذه الألفاظ فى معنى واحد .

وقد وقع لزهير نحوه كقوله :

فأقسمتُ جَهْدًا بالمنازل مِنْ مِنًى وما سُحِفَتْ فيه المقاديمُ والقَمْلُ[2]

كيف يقول[3] هذا فى قصيدة يقول فيها :

وهل يُنْبِتُ الخَطِّىَّ إلا وَشِيجُهُ وتُغْرَسُ إلا فى مَنابتها النَّخْلُ[4]

---

(١) فى اللسان ١٣/٣٨٥ « ورجل مشل وشلول، وشلل ، وَشُلْشُلٌ : خفيف سريع قال الأعشى :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

وقال أبو بكر فى بيت الأعشى : الشاوى : الذى شوى ، والشلول : الخفيف ، والمشل : المطرد ، والشلشل : الخفيف القليل ، وكذلك الشول ، والألفاظ متقاربة، أريد بذكرها والجمع بينها المبالغة » وانظر المعانى الكبير لابن قتيبة ١/٣٧٩

(٢) كذا فى ديوانه ص ٩٩ . وفى م ، ك،س: « وما سفحت». س، ك: « المقادم ». وقال ثعلب فى شرحه: « سحفت »: حلقت. والمنازل :حيث ينزل الناس من منى . والمقاديم : مقاديم الرءوس ، والقمل : يريد الشعر الذى فيه القمل ، كما قال عز وجل (واسأل القرية) »

(٣) س ، ك : « يقال »

(٤) ديوانه ص ١١٥ وقال ثعلب فى شرحه: « الخطى : الرماح ، نسبها إلى الخط ، وهى جزيرة ترسى إليها سفن الرماح . يقول : لا تنبت القناة إلا القناة . والوشيج : القنا ، واحدها وشيجة ، والوشوج : دخول الشىء بعضه فى بعض . يعنى أنهم كرام ولا يولد الكرام إلا فى موضع كريم »

وكقول الطِّرِمَّاح :

سَوْفَ تُدْنيكَ مِنْ لَمِيسَ سَبَنْتَا ةٌ أَمَارَتْ بالبَوْلِ مَاءَ الكِرَاضِ[١]

السَّبَنْتَاةُ : الناقة الصُّلبة . والكِرَاضُ : ماء الفحل ، أسالت ماء الفحل مع البول ، فلم تعقد عليه ، ولم تحمل، فتضعفَ . والمائر : السائل.

* * *

فإن قال قائل : أجدُك تحاملتَ على امرئ القيس ، ورأيت أن شعره يتفاوت بين اللين والشَّرَاسَة ، وبين اللطف والشَّكَاسَة ، وبين التوحّش والاستئناس ، والتقارب والتباعد ، ورأيتَ الكلامَ الأعدلَ أفضلَ ، والنظام المُسْتَوْثِقَ[٢] أكمل ، وأنت تجد البُحْتُرِيَّ يسبق[٣] فى هذا الميدان ، ويفوت الغايةَ فى هذا الشان، وأنت ترى[٤] الكتّاب يُفَضِّلون كلامَه على كل كلام ، ويقدِّمون رأيه فى البلاغة على كل رأى ، وكذلك تجد[٥] لأبى نُوَاسٍ من بهجة اللفظ ، ودقيق المعنى

---

(١) فى اللسان ٩ / ٩٣ « قال ابن برى : الكراض فى شعر الطرماح : ماء الفحل ، فيكون على هذا القول من باب إضافة الشىء إلى نفسه . . . وصف هذه الناقة بالقوة ، لأنها إذا لم تحمل كان أقوى لها . . . وقال ابن الأعرابى : الكراض : ماء الفحل فى رحم الناقة . وقال الجوهرى : الكراض ماء الفحل تلفظه الناقة من رحمها بعد ما قبلته ، وقد كرضت الناقة إذا لفظته » وانظر هناك تفصيل الخلاف فى ذلك بين العلماء . والكامل للمبرد ١ / ٩٧

(٢) ك : « المستوسق »

(٣) م : « سبق فى هذا الميدان بموب»

(٤) م : « سترى »

(٥) سقطت من م

ما يتحير فيه أهل الفضل[١] ، ويقدّمه الشُّطَّار والظُّرَّافُ على كل شاعر ، ويرون لنظمه روعةً لا يرون لنظم غيره ، وزِبْرِجاً لا يَتَّفِقُ لسواه ؛ فكيف يعرف فضل ما سواه عليه ؟

فالجواب : أن الكلام فى أن الشعر لايجوز أن[٢] يوازن به القرآن قد تقدم .

وإذْ كنا قد بينا أن شعر امرئ القيس—وهو كبيرُهم الذى يُقِرُّونَ بتقدمه ، وشيخُهم الذى يعترفون بفضله ، وقائدهم الذى يأتمُّون به[٣] ، وإمامهم الذى يرجعون إليه — كيف سبيله ، وكيف[٤] طريق [سقوط][٥] منزلته عن منزلة نظم القرآن ، وأنه لا يلحظُ[٦] بشعره غُبَارَ ذلك النظم ، وهو إذا لَحَظَ ذلك كان كما قال[٧] :

فأصْبَحْتُ من لَيْـــلَى الغَدَاةَ كَنَاظِرٍ
مع الصُّبح فى أَعْجَازِ نَجْمٍ مُغَرِّبِ[٨]

---

(١) كذا فى ا ، م . وفى س ، ك : « أهل اللفظ »

(٢) م : « الشعر لا يوازن به »

(٣) م : « يعترفون بفضله ، وإمامهم »

(٤) م : « طريقة »

(٥) الزيادة من م

(٦) كذا فى ا ، م . وفى س ،ك « لا يخلط بشعره »

(٧) نسبه فى اللسان ٢ / ١٢٩ لقيس بن الملوح ، ثم قال: وقد نسب المبرد هذا البيت إلى « أبى حية النميرى » لكنه فى الكمل ١/١٧٢ لقيس

(٨) فى اللسان « فى أعقاب نجم » . والمغرب : الذى يأخذ فى ناحية المغرب

وكما قال أيضاً :

رَاحَتْ مشرّقةً ورُحْتُ مُغرِّباً فمتى التقاء مُشَرِّقٍ ومُغرِّبِ

وإذا كنا قد أبنَّا فى القاعدة ما علمت ، وفصَّلنا لك فى شعره ما عرفت ، لم نحتج إلى أن نتكلم على شعر [كل][1] شاعر ، وكلام بليغ ، والقليلُ يدل على الكثير .

وقد بيّنا — فى الجملة — مُباينةَ أسلوب نظم القرآن جميعَ الأساليب ، ومزيته عليها فى النظم والترتيب ، وتقدُّمه عليها فى[2] كل حكمة وبراعة ، ثم تكلمنا على التفصيل — على ما شاهدت[3] — فلا يبقى علينا بعد ذلك سؤال .

ثم تقول : أنت تعلم أن من يقول بتقدم البُحْتُرِىّ فى الصنعة ، به من الشّغْل فى تفضيله على ابن الرُّومىّ أو تسوية ما بينهما ما لا يطمع معه فى تقديمه على امرئ القيس ومَن فى طبقته .

كذلك أبو نُوَاس ، إنما يُعْدَلُ شعرُه بشعر أشكاله ، ويقابَلُ كلامُه بكلام أضرابه مِن أهل عصره ، وإنما يقع بينهم التباين اليسير ، والتفاوت القليل .

فأمّا أن يَظُنَّ ظانٌّ ، أو يتوهم متوهم ، أنّ جنس الشعر مُعارِضٌ

---

(١) الزيادة من م

(٢) م : « ومزيته عليها فى كل حكمة »

(٣) كذا فى م ، ك ، وفى س : « التفضيل على ما شهدت ولا »

لنظم[1] القرآن ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطيرُ أو تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ في مَكَانٍ سَحِيقٍ[2] ﴾ .

وإنما هي خواطر يُغِيرُ بعضُها على بعض ، ويقتدى فيها بعضٌ ببعض . والغرض الذي يرمى إليه ، ويصح[3] التَّوَافِي عليه ، في الجملة ، فهو قَبِيلٌ متداوَل ، وجنس مُتنازَع ، وشريعةٌ مَوْرُودَةٌ ، وطريقة مسلوكة .

ألا ترى إلى ما رُوِي عن الحسين بن الضَّحَّاك ؛ قال : أنشدت أبا نُوَاس قصيدتى التى فيها :

وشَاطِرِيِّ اللِّسَانِ مُخْتَلِقِ التَّـكْـــرِيهِ شَابَ المُجُونَ بالنُّسْكِ[4]
كأنَّهُ — نَصْبَ كأسِه — قمرٌ يَكْرَعُ في بَعْضِ أَنْجُمِ الفَلَكِ[5]

قال : فأنشدنى أبو نُوَاس بعد أيام قصيدتَه التى يقول فيها :

---

(١) م : « يعارض بنظم »
(٢) سورة الحج ٢١
(٣) م : « ترمى إليه يصح »
(٤) كذا فى ا ، م والأغانى ٦ / ١٧٥. وفى س ، ك : « زان المجون»
(٥) م : « كأنما » وقد ورد هذا البيت فى الأغانى بروايتين : الأولى :
وتخالها نصب كأسه قمراً يكرع فى بعض أنجم الفلك
والثانية :
كأنما نصب كأسه قمر حاسده ببعض أنجم الفلك
وفى العمدة بعد ذلك : « فنفر نفرة منكرة ، فقلت : مالك فقد أفزعتنى؟ فقال : هذا معنى مليح ، وأنا أحق به ، وستري لمن يروى . . . » إلخ

أعاذلَ أَعْتَبْتُ الإمــامَ وأعْتَبَا
وأَعْرَبْتُ عَمَّا فى الضميرِ وأَعْرَبَا[(١)]
وقلتُ لساقيها : أجِزْها فلم أَكُنْ
ليأبى أميرُ المؤمنــين وأَشْرَبَا[(٢)]
فجوّزها عــنّى عُقَارًا تَرَى لهـــا
إلى الشَّرَفِ الأعْــلَى شُعَاعًا مُطَنَّبَا
إذا عَبَّ فيها شارِبُ القومِ خِلتَه
يُقبِّل فى داجٍ من الليـــل كَوْكَبَا

قال : فقلت له : يا أبا على ، هذه مُصَالَتَةٌ[(٣)] . فقال : أتظن أنه يُرْوَى[(٤)] لك معنى وأنا حىّ ؟

فتأملْ هذا الأخذ ، وهذا الوضْع ، وهذا الاتباع[(٥)] .

أما الخَلِيعُ فقد رأى الإبداعَ فى المعنى ، فأما العبارات فإنها ليست على ما ظنَّه ؛ لأن قوله : « يَكْرَعُ » ليس بصحيح ، وفيه ثقل بيّن

(١) ديوانه ص ٢٤٤ والإمام : يقصد به الأمين

(٢) ك : « لساقينا »

(٣) كذا فى م ، ك وفى الأغانى « مصالبه »

(٤) س : « يرى »

(٥) فى الأغانى عن ابن مهرويه « قال : لما أنشدت إبراهيم بن المدبر قول حسين بن الضحاك . . . قال لى : إن الحسين كان يزعم أن أبا نواس سرق منه هذا المعنى ، فإن كان سرقه منه فهو أحق به ، لأنه قد برز عليه ، وإن كان حسين سرقه منه فقد قصر عنه »

وتفاوت ، وفيه إحالة ، لأن القمر لا يصح تَصَوُّرًا[١] أن يكرع في نجم .

وأما قول أبي نواس : « إذا عبَّ فيها » ، فكلمة قد قصد فيها المتانة ، وكان سبيله أن يختار سواها من ألفاظ الشُّرْب[٢] ، ولو فعل ذلك كان أملح .

وقوله : « « شارِبُ القوم » ، فيه ضرب من التكلف الذى لا بد له منه أو من مثله ، لإقامة الوزن .

ثم قوله : « خِلْتَهُ يُقَبِّلُ فى دَاجٍ من الليل كَوْكَبَا » ، تشبيه بحالة واحدة من أحواله ، وهى أن يشرب حيث لا ضوء هناك ، وإنما يتناوله ليلًا ، فليس بتشبيه مُستوفًى ، على ما فيه من الوقوع والملاحة [والصنعة][٣] .

وقد قال ابن الرُّومِيّ ما هو أوقع منه وأملح وأبدع :

وَمُهَفْهَفٍ تَمَّتْ محاسِنُهُ ... حتى تَجاوزَ مُنْيَةَ النفْسِ[٤]
تَصْبُو الكُئوسُ إلى مَرَاشِفِهِ ... وتَحِنُّ فى يده إلى الحَبْسِ
أَبْصَرْتُه والكأس بَيْنَ فمٍ ... منه وبين أناملٍ خَمْسِ
وكأنّها وكأن شارِبَها ... قمرٌ يقبّل عارِضَ الشمسِ[٥]

---

(١) م : «يصح أن يتصور » . س « لا يصح تصور»
(٢) س « الشراب »
(٣) الزيادة من م
(٤) ديوانه ص ٢٤٤ والعمدة ١٧٣/٢
(٥) م : « فكأنها »

ولا شك فى أن تشبيه ابن الرومى أحسنُ وأعجب[١]، إلا أنه [لم] يتمكن من إيراده [إلا] فى[٢] بيتين ، وهما — مع سبقهما إلى المعنى — أتيَا به فى بيت واحد .

* * *

وإنما أردت بهذا أن أعرّفك أن هذه أمور متقاربة[٣] ، يقع فيها التنافس والتعارض ، والأطماع تتعلّق[٤] بها ، والهمم تسمو إليها ، وهى إلفُ طباعِنا ، وطوعُ مدارِكنا ، ومجانسُ[٥] لكلامنا .

وإعجابُ قَوْمٍ بنحو هذا وما يجرى مجراه ، وإيثار أقوامٍ لشعر البحترى على أبى تمَّامٍ وعَبْد الصَّمَدِ وابن الرّومى ، وتقديم قومٍ كل هؤلاء أو بعضهم عليه ، وذَهاب قوم عن المعرفة —: ليس بأمرٍ يضرّ بنا ، ولا سبب[٦] يعترض على أفهامنا .

* * *

ونحن نعمد إلى بعض قصائد البُحْتُرِىّ فنتكلم عليها[٧] ، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس ، ليزداد الناظر فى كتابنا بَصِيرةً ، ويستخلص

---

(١) وفى العمدة ١٧٣/٢ : « وقد أربى ابن الرومى عليهما جميعاً بقوله : أبصرته . . . وكأنها . . . ولكن بيت أبى نواس أملأ للفم والسمع ، وأعظم هيبة فى النفس والصدر ، ولذلك كان أسير »

(٢) س ، ك : « إلا أنه تمكن من إيراده فى بيتين »

(٣) م : « هذه الأمور المتقاربة »

(٤) س : « معلقة »

(٥) م : « وهى إلف طباعها ، وطوع مداركها ، ومحاسن لكلامنا »

(٦) م : « يضرنا ، ولا بسبب »

(٧) م : « عليه »

من سرّ المعرفة سَرِيرَةً ، ويعلم كيف تكون الموازنة ، وكيف تقع المشابهة والمقاربة .

ونجعل تلك القصيدة التى نذكرها أجود شعره .

سمعت الصَّاحب إسماعيل بن عبَّاد يقول : سمعت أبا الفَضْل بن العَمِيد يقول : سمعت أبا مسلم الرُّسْتُمى يقول : سمعت البحترى يذكر(١) أن أجود شعر قاله :

* أهلًا بذلكم الخيالِ المقبلِ *

قال : وسمعت أبا الفضل بن العميد يقول : أجودُ شعره هو قوله :

* فى الشيب زَجْرٌ لَهُ لَوْ كانَ يَنزَجِرُ(٢) *

قال : وسئلتُ عن ذلك ؟ فقلت : البحترى أعرف بشعر نفسه من غيره .

فنحن الآن نقول فى هذه القصيدة ما يصلح فى مثل هذا :

---

(١) م : « يقول إن »

(٢) فى س وضع قوله : « زجر له لو كان ينزجر » فى سطر وحده ، على أنه شطر بيت ! وقد جاء فى ديوانه ٦٧٣/٢ وقال يمدح على بن مر الأرمنى :

فى الشيب زجر له لو كان ينزجرُ ... وبالغ منه لولا أنه حجر

وهى قصيدة جيدة ؛ عدد أبياتها ٤١ بيتاً . ومنها البيتان المشهوران :

إذا محاسنى اللائى أدل بها ... كانت ذنوبى فقل لى كيف اعتذر

علىَّ نحت القوافى من مقاطعها ... وما على لهم أن تفهم البقر

قوله[١] :

أهــــلًا بذلكمُ الخيَالِ المُقْبِلِ
فعَلَ الذى نهْوَاهُ أوْ لَمْ يَفْعَــلِ

بَرْقٌ سَرَى فى بَطْنِ وَجْرَةَ فاهْتَدَتْ
بِسَنَاهُ أَعْنَاقُ الرِّكابِ الضُّلَّلِ[٢]

البيت الأول ، فى قوله : « ذلكم الخيال » ، ثقل روح ، وتطويل وحشوٌ ، وغيره أصلح له[٣] . وأخفُّ منه قول الصَّنَوْبَرِى :

أهلًا بِذَاكَ الزَّوْرِ مِنْ زَوْرِ ... شمسٌ بَدَتْ فى فلكِ الدَّوْرِ

وعذوبة الشعر تذهب بزيادة حرف أو نقصان حرف ، فيصير إلى الـكَزَازَةِ ، وتعود ملاحته بذلك مُلوحة ، وفصاحتُه عِيًّا ، وبراعتُه تـكلفاً ، وسلاسته تعسفاً ، وملاسته تلويا وتعقداً ، فهذا فصل .

وفيه شىء آخر ، وهو : أن هذا الخطاب إنما يستقيم مهما خوطب به الخيال حال إقباله ، فأما أن يحكى الحال التى كانت وسلفت على هذه العيادة ففيه عُهْدَةٌ ، وفى تركيب الـكلام عن هذا المعنى عُقْدَةٌ[٤] ، وهو

(١) مدح البحترى بهذه القصيدة محمد بن على بن عيسى القمى ، الكاتب ، وهى فى ديوانه ٢ / ٧٣٠ — ٧٣٤ (طبع بيروت سنة ١٩١١ م)
(٢) م : « فاهتدت بسراه »
(٣) م ، ا : « أملح له »
(٤) كذا فى ك . وفى م : « على هذه العبارة ففيه عهدة ، ومن ركب الكلام غير هذا المعنى عقده »

— لبراعته وحذقه فى هذه الصنعة — يَعْلَقُ[١] نحوَ هذا الكلام ، ولا ينظر فى عواقبه ، لأن ملاحة قوله تغطى على عيون الناظرين فيه نَحْوَ هذه الأمور .

ثم قوله : « فَعلَ الذى نَهْوَاهُ أو لم يفعل » ، ليست بكلمة رشيقة ، ولا لفظة ظريفة ، وإن كانت كسائر الكلام .

فأما بيته الثانى ، فهو عظيم الموقع فى البهجة ، وبديع المأخذ[٢] ، حسن الرُّوَاء ، أنيقُ المنظر والمسمع ، يملأُ القلب والفهم ، ويفرح الخاطر ، وتسْرِى[٣] بَشاشتُه فى العروق .

وكان البُحْتُرِىّ يسمى نحو هذه الأبيات : « عُرُوقَ الذهب » ، وفى نحوه ما يدل على براعته فى الصناعة ، وحذقه[٤] فى البلاغة .

ومع هذا كله فيه ما نشرحه من الخلل ، مع الديباجة الحسنة والرونق المليح .

وذلك : أنه جعل الخيال كالبرق لإشراقه فى مَسْراه ، كما يقال : إنه يسرى[٥] كنسيم الصَّبَا ، فيطيّب ما مرَّ به ، كذلك يضىء ما مَرَّ حوله ، وينوّر ما مرّ به . وهذا غلو فى الصنعة ، إلا أن ذكره « بطن

---

(١) ك : « تعلق » . م « يعلم بنحو »

(٢) م ، ا : « وبدايع الماء »

(٣) كذا فى ك ، م ، ا . وفى س : « وترى »

(٤) م : « وفى نحو ما يدل على البراعة فى الصناعة ، وحذق » . ك : « وفى نحوه من الخلل مع الديباجة الحسنة »

(٥) م : « يقال سرى كنسيم »

وجرة » حشو ، وفى ذكره خلل ؛ لأن النور القليل يؤثر فى بطون الأرض وما اطمأن منها ، بخلاف ما يؤثر فى غيرها ، فلم يكن من سبيله أن يربط ذلك يبطن وَجْرَةَ .

وتحديدُه المكان — على الحشو — أَحْمَدُ من تحديد امرئ القيس من ذكر « سقط اللوى بين الدخول فحومل ، فتوضح فالمقراة » ، لم يقنع بذكر حدٍّ ، حتى حدَّه بأربعة حدود ، كأنه يريد بيع المنزل فيخشى — إن أخلَّ بحدٍّ — أن يكون بيعه فاسدًا أو شرطه باطلًا !! فهذا باب .

ثم إنما يُذْكر[1] الخيال بخفاء الأثرِ ، ودقة المطلب ، ولطف المسلك . وهذا الذى ذكر يضادُّ هذا الوجه ، ويخالف ما وضع[2] عليه أصل الباب .

ولا يجوز أن يقدِّر مقدِّرٌ أن البحترى قطع الكلام الأوّل ، وابتدأ بذكر برق لَمعَ من ناحية حبيبه من جهة بطن وَجْرَةَ ؛ لأن هذا القطع إن كان فَعَلَه كان خارجاً به عن النظم المحمود ، ولم يكن مبدعاً ، ثم كان[3] لا تكون فيه فائدة ؛ لأن كل برق شَعَل[4] وتكرر[5] وقع الاهتداء به فى الظلام ، وكان[6] لا يكون بما نظمه مفيدًا ولا متقدماً .

---

(١) م : « ثم إنا نذكر »
(٢) س ، ك : « ما يوضع »
(٣) ا : « ثم كان لا يكون بما نظمه مفيداً . . . »
(٤) م : « سمل »
(٥) ب : « وتكوى »
(٦) م : « فكان »

وهو على ما كان من مقصده فهو ذو لفظ محمود ، ومعنى مُسْتَجْلَب[١] غيرمقصود ، ويعلم بمثله أنه طلبَ العبارات ، وتعليقَ القول بالإشارات .

وهذا من الشعر الحسنِ[٢] ، الذى يحلو لفظه ، وتقل فوائده ، كقول القائل[٣] :

وَلَمّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كلَّ حاجةٍ
وَمَسَّحَ بالأرْكانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
وَشُـدَّتْ على حُدْبِ المَهارَى رِحَالُنَا
ولا يَنْظُرُ الغَادِى الذى هو رائحُ[٤]

---

(١) كذا فى م ، ا . وفى س : « مستحب » . ك : « مستلجب »

(٢) كذا فى م ، ا وفى س ، ك : « من الشعر الجنس الذى »

(٣) هو كثير كما فى ديوانه ص ٧٩ وزهر الآداب ٦٦/٢ وقد ورد فى أمالى الشريف المرتضى ١١٠/٢ « أخبرنا أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى قال : أنشدنى محمد بن أحمد الكاتب قال : أنشدنا أحمد بن يحيى ثعلب ، عن ابن الأعرابى للمضرب ، وهو عقبة بن كعب بن زهير بن أبى سلمة : . . . فلما قضينا من منى . . . » وانظر معاهد التنصيص ١٣٤/٢

وقد ورد هذا الشعر غير منسوب فى نقد الشعر ص ١٠ والخصائص ص ٢٦ ، ٢٢٥ ونوادر القالى ص ١٦٦ والصناعتين ص ٤٢ ومصارع العشاق ص ٣٦٩ وأسرار البلاغة ص ١٦ — ١٨ والشعر والشعراء ١١/١ ومعجم البلدان ١٥٩/٨ ونظام الغريب ص ١٣٦

(٤) فى م : « فلا ينظر ». وفى نقد الشعر وأسرار البلاغة « على دهم المهارى . . . . ولم ينظر » وفى اللسان ٩٩/٥ « فرس أدهم : أسود ، والعرب تقول : ملوك الخيل دهمها »

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الأَحاديثِ بَيْنَنَا
وسَالَتْ بأَعْنَاقِ المَطِيّ الأَبَاطِحُ[1]

هذه ألفاظ بديعة[2] المطالع والمقاطع ، حلوة المَجَانِى[3] والمواقع ، قليلةُ المعانى والفوائد[4] .

* * *

فأما قول البحترى بعد ذلك :

مِنْ غَادةٍ مُنِعَتْ وتَمْنَعُ نَيْلَها فلَوَ أنها بُذِلَتْ لنا لَمْ تَبْذُلِ
كالبدْرِ غَيْرَ مُخَيَّلٍ ، والغُصْنِ غيرَ مُمَيَّلٍ ، والدِّعْصِ غيرَ مُهَيَّلِ[5]

فالبيت الأول — على ما تكلف فيه من المُطابقة ، وتَجَشّم الصّنعة — ألفاظُه أوفر من معانيه ، وكلماتُه أكثر من فوائده ، وتعلم أن القصدَ

---

(١) قال القالى فى النوادر ص ١٦٦ : « أطراف الأحاديث : ما يستطرف منها ويؤثر »

(٢) س ، ك : « بعيدة »

(٣) م : « المجارى »

(٤) قال ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ص ١١ « وضرب منه حسن لفظه وحلا ؛ فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، كقول القائل : ولما قضينا إلخ . . . هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع ، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ؛ ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح »

(٥) غير مخيل : غير محجوب بغيم . وفى س ، ك : « غير مخبل » والتصحيح من الديوان . والدعص : الكثيب من الرمل

وضعُ العبارات فى مثله ! ولو قال : هى ممنوعة مانعة ، كان ينوب عن تطويله ، وتكثيره الكلام وتهويله . ثم هو معنى متداوَل مكرَّر على كل لسان .

وأما البيت الثانى ، فأنت تعلم أن التشبيه بالبدر والغصن والدِّعْصِ، أمرٌ منقول متداول[1] ، ولا فضيلة فى التشبيه بنحو[2] ذلك .

وإنما يبقى تشبيهه ثلاثةَ أشياء بثلاثة أشياء فى البيت ، وهذا أيضاً قريب ؛ لأن المعنى مكرر .

ويبقى له بعد ذلك شىء آخر ، وهو تمحُّله للتَّرْصِيع فى البيت كله ، إلا أن هذه الاستثناءات فيها ضرب من التكلف ؛ لأن التشبيه بالغصن كاف ، فإذا زاد فقال : كالغصن غير مُعَوَّج ، كان ذلك من باب التكلف خللًا ، وكان ذلك زيادةً يُستغنى عنها .

وكذلك قوله : « كالدِّعْصِ غير مُهَيَّل » ؛ لأنه إذا انهال خرج عن أن يكون مطلقُ التشبيه مصروفاً إليه ، فلا يكون لتقييده معنى .

* * *

وأما قوله :

ما الحُسْنُ عندكِ يا سُعَادُ بمُحْسِنِ ... فيما أَتَاهُ ولا الجَمال بِمُجْمِلِ[3]

---

(١) فى م : « متداول بين ضعفاء الشعراء »

(٢) م : « بمثل »

(٣) فى ديوانه « عندك يا إمام بمحسن »

عُذِلَ الْمَشُوقُ وإنَّ مِنْ سيما الهوَى   فى حيث يَجْهَلُهُ لَجَاجُ الْعُذَّلِ[1]

قوله فى البيت الأول : « عنــدكِ » ، حشو ، وليس بواقع ولا بديع ، وفيه كُلْفة .

والمعنى الذى قصدَه ، أنت تعلم أنه متكرر على لسان الشعراء .

وفيه شيء آخر ، لأنه يذكر أن حسنها لم يُحْسِن فى تهييج وجده وتَهْييم قلبه ، وضدُّ هذا المعنى هو الذى يميل إليه أهل الهوى والحب .

وبَيْتُ كُشاجِم[2] أسلمُ من هذا ، وأبعد من الخلل ، وهو قوله :

بحياة حُسنِكِ أحْسنِى ، وبحقّ مَنْ
جَعَلَ الجمــــالَ عليكِ وَقفاً أَجْمِلى

وأما البيت الثانى فإنّ قوله : « فى حيث » ، حشا بقوله فى كلامه ، ووقع ذلك مستنكرًا وحشيًّا ، نافرًا عن طبعه ، جافيًا فى وضعه ، فهو كرقعة من جلد فى ديباج حسن ! فهو يمحو حسنَه ، ويأتى على جماله .

ثم فى المعنى شيء ، لأن لَجَاجَ العُذَّل لا يدل على هوى مجهول ، ولو كان مجهولًا لم يهتدوا للعذل عليه . فعلم أن المقصدَ استجلابُ العبارات دون المعانى .

---

(١) فى ديوانه « وإن من شيم الهوى » ، س ، ك « تجهله »

(٢) لقب الشاعر محمود بن الحسين بن السندى بن شاهك ، طباخ سيف الدولة . وهو الذى لقب نفسه بهذا اللقب ، فسئل عن ذلك فقال : الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم

(٣) فى ديونه ١٤٣ « حسنك أقصرى »

ثم لو سلم من هذا الخلل لم يكن فى البيت معنى بديع ، ولا شىء يفوت قول الشعراء فى العَـذْل ، فإنّ ذلك جَمَلُهم الذَّلُول ، وقولهم المُـكرَّر [المَقُول[1]] .

* * *

وأما قوله :

ماذا عليكَ مِنَ انتظارِ مُتَيَّمٍ
بَلْ ما يَضُرُّكَ وقْفَةٌ فى منزلِ

إنْ سِيلَ عَىَّ عن الجواب فلم يُطِقْ
رَجْعاً ، فكيف يكون إنْ لم يُسألِ

لست أنكر حسن البيتين وظرفهما ، ورشاقتهما ولطفهما ، وماءهما وبهجتهما ، إلا أَنَّ البيت الأول منقطع عن الكلام المتقدم ضَرْباً من الانقطاع ؛ لأنّه لم يجر لمشافهة العاذل ذِكْرٌ ، وإنما جرى ذكر العُذَّال على وجهٍ لا يتصل هذا البيت به ولا يلائمه[2] .

ثم الذى ذَكَرَهُ من الانتظار — وإن كان مليحاً فى اللفظ — فهو فى المعنى متكلَّف؛ لأن الواقف فى الدار لا ينتظر أمرًا ، وإنما يقف تَحَسُّرًا و تَلَدُّدًا[3] وتحيرًا .

---

(١) الزيادة من ا ، ب ، م

(٢) س : « ولا يلائم »

(٣) س : « وتذللا » . وفى اللسان ٤/٣٩٥ « وتلدّد : تلفت يميناً وشمالا وتحير متبلداً »

والشطر الأخير من البيت واقع ، والأول مُستَجْلَب ؛ وفيه تعليق على أمر لم يَجْرِ له ذكر ؛ لأن وضع البيت يقتضى تَقَدُّمَ عَذْلٍ على الوقوف ، ولم يحصل ذلك مذكورًا فى شعره من قبل .

وأما البيت الثانى ، فإنه معلّق بالأول ، لا يستقل إلا به ؛ وهم يعيبون وقوف البيت على غيره ، ويرون أن البيت التامّ هو المحمود ، والمصراعَ التام بنفسه — بحيث لا يقف على المصراع الآخر — أفضلُ وأتم وأحسن .

وقوله : « فكيف يكون إن لم يسأل » ، مليح جدًّا ، ولا تستمرُّ[1] ملاحة ما قبله عليه ، ولا يطّرد فيه الماءُ اطِّرادَهُ فيه .

وفيه شيء آخر ، لأنه لا يصح[2] أن يكون السؤال سببًا لأن يَعْيَا عن الجواب ، وظاهر القول يقتضيه .

* * *

فأما قوله :

لا تَكلفَنَّ لىَ الدّموعَ فإنّ لى
دَمْعًا يَنُمُّ عليه إنْ لم يفْضُلِ[3]

ولقد سَكَنْتُ إلى الصّدودِ من النَّوَى
والشَّرْىُ أَرْىٌ عند أكل الحَنْظَلِ[4]

---

(١) م : « ولا تستتم »
(٢) كذا فى ا ، م . وفى ب ، ك ، س : « لا يصلح »
(٣) كذا فى س ، ك . وفى الديوان : « يتم عليه » . وفى م : « يعم عليه »
(٤) فى اللسان ١٥٩/١٩ « والشَّرْى بالتسكين الحنظل » . وفى ٢٩/١٨

وكذاك طَرَفَةُ حين أوْجَسَ ضَرْبَةً
في الرأس هان عليه فَصْدُ الأَكْحَلِ [١]

فالبيت الأول مخالف لما عليه مذهبهم ، فى طلب الإسعاد [٢] بالدموع ، والإسعاف بالبكاء ، ومُخَالِفٌ لأَوَّلِ كلامه ؛ لأنه يفيد مخاطبة العُذَّلِ ، وهذا يفيد مخاطبة الرفيق .

وقد بينت لك أن القوم يسلكون حفظ الألفاظ وتصنيعها ، دون ضبط المعانى وترتيبها ، ولذلك [٣] قال الله عز وجل : ﴿ والشُّعَراءُ يَتَّبِعهم الغَاوُون ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وأَنَّهم يَقُولُونَ مَالَا

= « والأرى : العسل » . وفى س ، ك « عند طعم » . وفى ا . « عند أكل » وم « عند أهل »

(١) يشير إلى قصة مقتل طرفة بن العبد ، وهم يذكرون أن الربيع بن حوثرة سقاه الخمر حتى أثمله ، ثم فصد أكحله . والأكحل – كما فى اللسان ١٤/١٠٥ « عرق فى اليد يفصد » ، وفصده : شقه وقطعه » . وفى م ، ا « قطع الأكحل » . وقال أبو العلاء المعرى فى عبث الوليد ص ١٨٥ « سكن راء طرفة متبعاً لأبى تمام فى قوله : والأعشيين وطرفة ولبيدا . وذلك ليس يحسن . . . وتغيير الاسم بالتصغير أحسن من هذا التسكين . وبعض الناس ينشد : " وكذا عبيد حين أوجس ضربة " وبعضهم يقول " وكذا طريفة " ولم يضعه البحترى إلا على أن طرفة الذى قد خاف القتل فاختار قطع الأكحل . ومن رواه "وكذا عبيد" حمله على أنه عبيد بن الأبرص ، قتله بعض ملوك الحيرة ، قيل ، عمرو بن هند ، وقيل : النعمان فى يوم بؤساه ، فكأنه لما أشرف على القتل هان عليه مالاقى طرفة ، أى ذلك يسير عند ما فعل به »

(٢) ا : « الإسعاف »

(٣) م : « وكذلك »

يَفْعَلُونَ[١] ﴾ . فأخبر سبحانه أنهم يتّبعون القولَ حيث توجّه بهم ، واللفظَ كيف أطاعهم ، والمعانى كيف تتبع ألفاظهم . وذلك خلاف ما وُضِع عليه الإبانةُ عن المقاصد بالخطاب ، ولذلك كان طلب الفصاحة فيه أسهل وأمكن ، فصار بهذا أبلغ خطابهم .

ثم لو أن هذا البيت وما يتلوه من البيتين سلم من نحو هذا ، لم يكن فى ذلك شىء يفوت شعر شاعر ، أو كلام متكلم .

وأما قوله : « والشَّرْىُ أَرْىٌ » ، فإنه وإن كان قد تصنع له من جهة الطِّباق ، ومن جهة التّجنيس المقارب ، فهى كلمة ثقيلة على اللسان ، وهم يذمّون نحو هذا ، كما عابوا على أبى تمام قوله :

كريمٌ متىأَمْدَحْهأمدحْه والوَرَى معى ،ومتىما لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِى[٢]

ذكر لى الصاحب [إسماعيل][٣] بن عباد : أنه جارَى أبا الفضل بن العَميد فى محاسن [هذه][٣] القصيدة ، حتى انتهى إلى هذا البيت ، فذكر له أن قوله : « أمدحْه أمدحْه » معيب ، لثقله من جهة تدارك حروف الحلْق .

ثم رأيت بعد ذلك المتقدمين قد تكلموا فى هذه النكتة ، فعلمت أن ذلك شىء عند أهل الصنعة معروف .

---

(١) سورة الشعراء ٢٢٤ — ٢٢٦

(٢) ديوانه ص ١٢٩ من قصيدة يمدح بها موسى بن إبراهيم الرّافقى

(٣) الزيادة من ا ، م

ثم إن قوله : « عند أكل الحنظل » ، ليس بحسن ولا واقع .

وأما البيت الثالث ، فهو أجنبي من كلامه ، غريب فى طباعه ، نافر من جملة شعره ، وفيه كَزَازَةٌ وفَجَاجَةٌ ، وإن كان المعنى صالحاً .

* * *

فأما قوله :

وأَغَرَّ فِى الزَّمَنِ البَهِيمِ مُحَجَّلٍ ... قَدْ رُحْتُ منه على أَغَرَّ مُحَجَّلِ [١]

كالهَيْكلِ المَبْنِيِّ إلّا أَنَّهُ ... فى الُحسنِ جَاءَ كصُورَةٍ فى هَيْكَلِ

فالبيت الأول لم يتفق له فيه خروجٌ حسن ، بل هو مقطوع عما سلف من الكلام .

وعامَّةُ خروجه نحو هذا ، وهو غير بارع فى هذا الباب ، وهذا مذموم معيب منه ، لأن[٢] من كان صناعته الشعر ، وهو يأكل به ، وتغافل عما يدفع[٣] إليه فى كل قصيدة ، واستهان بإحكامه وتجويده، مع تتبعه لأن[٤] يكون عامة ما يُصَدِّرُ به أشعارَه من النسيب عشرةُ أبيات ، وتتبعه للصنعة الكثيرة ، وتركيب العبارات ، وتنقيح الألفاظ وتزويرها — كان ذلك أدخل فى عيبه ، وأدل على تقصيره أو قصوره ، وإنما[٥] يقع له الخروج [الحسن فى مواضع يسيرة .

(١) ابن أبى الحديد ٢ — ٢٤٤

(٢) م : « لأن كل من»

(٣) كذا فى م ، ا : وفى س ، ك : « يرفع »

(٤) م : « بأن »

(٥) س : « وأنه لا يقع»

وأبو تمام أشدّ تَتَبُّعاً لتحسين الخروج[١]] منه .

وأما قوله : « وأغر فى الزمن البهيم محجل » ، فإن ذكر التَّحْجيل فى الممدوح قريب ، وليس بالجيد ، وقد يمكن أن يقال : إنه إذا قُرِنَ بالأغر حَسُن ، وجَرَى مجراه ، وانخرط فى سِلكه ، وأَهْوَى إلى مِضْمَارِه ، ولم يُنْكَرْ لمكانه من جِوَارِه . فهذا عذر ، والعدول عنه أحسن .

وإنما أراد أن يَرُدَّ العَجُزَ على الصَّدْر ، ويأتى بوجه [فى[٢]] التجنيس .

وفيه شىء ، لأن ظاهر كلامه يوهم أنه قد صار ممتطياً[٣] الأغر الأول ورائحاً عليه .

ولو سلم من ذلك لم يكن فيه مايفوت حدود الشعراء وأقاويل الناس .

فأما ذكر الهيكل فى البيت الثانى ، وردّه عجز البيت عليه ، وظنّه أنه قد ظفر بهذه اللفظة وعمل شيئاً ، حتى كررها ، فهى كلمة فيها ثقل ، ونحن نجدهم إذا أرادوا أن يصفوا بنحو[٤] هذا قالوا : « ما هو إلاّ صورة » ، و « ما هو إلا تمثال » ، و « ما هو إلاّ دُمْية » ، و « ما هو إلا ظبية » ، ونحو ذلك من الكلمات الخفيفة على القلب واللسان .

---

(١) الزيادة من ا ، ب ، م
(٢) الزيادة من م ، ك ، ا
(٣) س ، ك : « ممتطى »
(٤) كذا فى ا ، م ، ك وفى س : « يصنعوا نحو »

وقد استدرك[١] هو أيضاً على نفسه، فذكر أنه كصورة فى هيكل، ولو اقتصر على ذكر الصورة وحذف الهيكل، كان أولى وأجمل .

ولو أنّ هذه الكلمة كرّرها أصحابُ العزائم على الشياطين، لَرَاعُوهم بها، وأفزعوهم بذكرها ! وذلك من كلامهم، وشبيهٌ بصناعتهم[٢] .

* * *

وأما قوله :

وَافِى الضُّلُوعِ يَشُدُّ عَقْدَ حزَامِهِ يَوْمَ اللِّقَاءِ على مُعِمٍّ مُخْوِلِ

أَخْوَالُهُ للرُّسْتَمَيْنِ بفَارِسٍ وجُدُودُه للتُّبَّعَيْنِ بِمَوْكلِ

نُبْلُ المَحْزَمِ مما يمدح به الخيل ، فهو لم يأت فيه ببديع .

وقوله : « يشد عقد حزامه » ، داخل فى التكلف والتعسف ، لا يقبل من مثله وإن قبلناه من غيره ، لأنه يتتبَّعُ الألفاظ وينقدُها نقداً شديداً ، فهلا قال : « يشد[٣] حزامه » ، أو يأتى بحشو آخر سوى العقد ؟ فقد عقَّدَ هذا البيت بذكر العقد .

ثم قوله : « يوم اللقاء » ، حشو آخر لا يحتاج إليه .

وأما البيت الثانى فمعناه أصلح من ألفاظه ، لأنها غير مجانسة لطباعه ، وفيها غلظ و نفار .

* * *

(١) م : « استدركه أيضاً »

(٢) م : « بفظاعتهم »

(٣) م : « شد »

وأما قوله :

يَهْوِى كما تَهْوِى العُقَابُ وقد رأتْ
صَيْدًا وَيَنْتَصِبُ انْتِصَابَ الأَجْدَلِ (١)

مُتَوَجِّسٌ بِرَقِيقَتَيْنِ كأَنَّمَا
تُرَيَانِ مِنْ وَرَقٍ عليـــه مُوَصَّلِ (٢)

ما إنْ يعافُ قَذًى ، ولو أوردتَه
يوماً خَلَائِقَ حَمْدَوَيْهِ الأَحْوَلِ (٣)

البيت الأول صالح ، وقد قاله الناس ولم يَسْبق إليه ، ولم يقل مالم يقولوه ، بل هو منقول . وفى سرعة عدو الفرس تشبيهات ليس هذا بأبدعها ، وقد يقولون : « يفوت الطَّرْف » ، و « يسبق الريح » ، و « يجارى الوَهْم » و « يكدّ (٤) النظر » . ولولا أن الإتيان على محاسن ما قالوه فى ذلك يخرجُ الكلام عن غرض الكتاب ، لنقلتُ (٥) لك جملةً

(١) كذا فى الديوان و م ١ . وفى س ، ك ، ب « وينقض انقضاض الأجدل »

(٢) فى اللسان ٨/١٤٠ « والتوجس : التسمع إلى الصوت الخفى » برقيقتين : أى بأذنين

(٣) فى ابن أبى الحديد ٢ / ٢٤٤ « ألا تراه كيف استطرد بذكر حمدويه الأحول الكاتب ، وكأنه لم يقصد ذلك ولا أراده ، وإنما جرته القافية ، ثم ترك ذكره وعاد إلى وصف الفرس ، ولو أقسم إنسان أنه ما بنى القصيدة منذ افتتحها إلا على ذكره ، ولذلك أتى بها على روى اللام — لكان صادقاً »

(٤) س، ك : « ويكر »

(٥) م : « نقلت »

بما ذهبوا إليه فى هذا المعنى . فتتَّبعْ تعلمْ أنه لم يأت فيها بما يَجِلُّ عن الوصف ، أو يفوت منتهى الحد .

على أن الهُوِىّ يذكر عند الانقضاض خاصةً ، وليس للفرس هذه الصفة فى الحقيقة ، إلا أن يشبه حَدَّه[1] فى العَدْو بحالة انقضاض البازى والعُقَاب ، وليست تلك الحالة بأسرع أحوال طيرانها .

وأما البيت الثانى ، فقوله : إن الأذنين كأنهما من ورق موصَّل ، وإنما أراد بذلك حِدَّتَهما ، وسرعة حركتهما ، وإحساسهما بالصوت ، كما يحس الورق بِحَفيفِ الرِّيح . وظاهر التشبيه غير واقع ، وإذا ضمن ما ذكرنا من المعنى كان المعنى حسناً ، ولكن لا يدل عليه اللفظ ، وإنما يجرى مجرى المُضَمَّن .

وليس هذا البيت برائق اللفظ ، ولا مشاكل فيه لطبعه ، غير[2] قوله : « مُتَوَجِّس برقيقتين » ، فإن هذا القدر هو حسن[3] .

وأما البيت الثالث ، فقد ذكرنا فيما مضى من الكتاب أنه من باب الاستطراد[4] ، ونقلنا نظائر ذلك من قول أبى تمام وغيره ، وقطعةُ أبى تمام فى نهاية الحسن فى هذا المعنى .

---

(١) م : « حدته »
(٢) م : « ثم قوله »
(٣) م : « الحسن »
(٤) راجع ص ١٢٩

والذى وقع للبحترى فى هـذا البيت عندى[1] ليس بجيد فى لفظ ولا معنى ، وهو بيت وَحِشٌ جدًّا ، قد صار قذًى فى عين هذه القصيدة ، بل وَخْزاً فيها ووَبَالًا عليها ، قد كدَّرَ صفاءها ، وأذهب بهاءها وماءها ، وطَمَسَ بِظُلمته سناءها .

وما وجهُ مدح الفرس بأنه لا يعاف قَذًى من المياه إذا وَرَدَها ؟ ! كأنه أراد أن يسلك مسلك بشّار فى قوله :

* ولا يَشْرَبُ الماءَ إلاّ بِدَمْ[2] *

وإذا كان لهذا الباب مجانباً ، وعن هذا السَّمْتِ بعيدًا ، فهلاّ وصفها بعزة الشرب ؟ كما وصفها المتنبى فى قوله :

وَصُولٌ إلى المُسْتَصْعَبَاتِ بخيله
فلو كان قَرْنُ الشمس ماءً لأَوْرَدَا[3]

وهلاّ[4] سلك فيه مسلك القائل :

وإنى للماءِ الذى شَابَهُ القَذَى إذا كَثُرَتْ وُرَّادُهُ لَعَيُوفُ ؟![5]

ثم قوله : « ولو أوردته يوماً » ، حشو بارد ! !

ثم قوله : « حَمْدَوَيه الأحْوَلِ » ، وحش جدًّا ، فما أَمْقَتَ هذا

---

(١) سقطت هذه الكلمة من م

(٢) صدره : « فتى لا يبيت على دمنة »

(٣) ديوانه ١/١٨٧ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة

(٤) م : « وهذا »

(٥) غير منسوب فى زهر الآداب ٢/١٩٤ وفيه : « للماء المخالط للقذى » .

البيتَ وأبغضَه ، وما أثقله وأسخفه ! وإنما غطَّى على عينه عيبه ، وزيّن له إيرادَه طمعُه في الاسْتِطْرَاد[١] ، وهلاّ طمع فيه على وجه لا يغضّ من بهجة كلامه ، ولا معنى[٢] ألفاظه ؟! فقد كان يمكن ذلك ولا يتعذر .

* * *

فأما قوله :

ذَنَبٌ كما سُحِبَ الرِّدَاءِ يذُبُّ عن ... عُرْفٍ وعُرْفٍ كالقِنَاعِ المُسْبَلِ

تَتَوَهَّمُ الجَــوْزَاءَ في أَرْسَاغِهِ ... والبَدْرَ فَوْقَ جبينه المُتَهَلِّلِ

فالبيت الأول وَحِشُ الابتداء ، منقطع عما سبق من الكلام . وقد ذكرنا أنه لا يهتدى لوصل الكلام ، ونِظَام بعضه إلى بعض ، وإنما يتصنع لغير هذا الوجه .

وكان يحتاج أن يقول: ذنب كالرداء ، فقد حذف[٢] ،[و] الوصل[٣] غير متسق ولا مليح ، وكان من سبيله أن لا يخفى عليه ، ولا يذهب عن مثله .

ثم قوله : « كما سُحِبَ الرِّداء » ، قبيح في تحقيق التشبيه ، وليس بواقع ولا مستقيم في العبارة ، إلا على إضْمَارِ أنه ذنب يسحبه كما يُسْحَبُ الرِّداء !

---

(١) انظر معجم الأدباء ١٩/ ٢٥٠

(٢) م : « ولا يعمى »

(٣) س ، ك : « حذف الوصل »

وقوله : « يَذُبُّ عن عُرْفٍ » ، ليس بحسن ولا صادق . والمحمود ما ذكره امرؤ القيس ، وهو قوله :

فُوَيْقَ الأَرْضِ ليس بأَعْزَلِ[١]

وأما قوله : « تتوهم الجوزاءَ فى أَرْسَاغِهِ » ، فهو تشبيه مليح ، ولكنه لم يَسْبِقْ إليه ، ولا انفرد به .

ولو نسختُ لك ما قاله الشعراء فى تشبيه الغرّة بالهلال والبدر والنجم وغير ذلك من الأمور ، وتشبيه الحجول — : لتعجبتَ من بدائعَ قد وقعوا عليها ، وأمور مليحةٍ قد ذهبوا إليها ؛ وليس ذلك موضع كلامنا ، فتتبعْ ذلك فى أشعارهم ، تعلمْ ما وصفتُ لك .

واعلم أَنّا تركنا بقية كلامه فى وصف الفرس ، لأنه ذكر عشرين بيتاً فى ذلك .

والذى ذكرناه فى هذا المعنى يدل على ما بعده ، ولا يعدو[٢] ما تركناه أن يكون [حسناً مقولًا ، وبديعاً منقولًا ؛ أو يكون][٣] متوسطاً إلى حدٍّ لا يفوت طريقة الشعراء .

---

(١) فى المعانى الكبير لابن قتيبة ١٤٩/١

ضليع إذا استدبرته سد فرجه   بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

ضاف : سابغ . سد فرجه : أى فرج ما بين فخذيه ، يريد كثرة الذنب . والعزل : أن يعزل ذنبه فى أحد الجانبين ، وذلك عادة لا خلقة »

(٢) ك : « ولا بعده ما تركناه »

(٣) الزيادة من م

ولو تتبعتَ أقاويل الشعراء فى وصف الخيل ، علمتَ أنه وإن جمع فأَوْعَى ، وحَشَر فنادى ، ففيهم من سبقه فى ميدانه ، ومنهم من ساواه فى شَأْوِه ، ومنهم من داناه . فالقبيل واحد ، والنسيج متشاكل . ولولا كراهة التطويل لنقلت جملة من أشعارهم فى ذلك ، لتقف على ما قلتُ .

فتجاوزنا إلى الكلام على ما قاله فى المدح فى هذه القصيدة .

* * *

قال :

لمحمّد بن عليٍّ الشَّرَفُ الذى ... لا يَلْحَظُ الجَوْزَاءَ إلّا مِنْ عَلِ

وسَحَابةٍ لَوْلَا تَتَابُعُ مُزْنِهَا ... فِينَا لَرَاحَ المُزْنُ غَيْرَ مُبَخَّلِ[1]

والجودُ يعذلهُ عليه حاتمٌ ... سَرَفًا ولا جودٌ لمن لم يُعذلِ

البيت الأول منقطع عما قبله ، على ماوصفنا به شعره : من قَطْعِه[2]

(١) كذا فى الأصول ، وفى ديوانه ، « وسماحة لولا . . . غير منخل » وفى عبث الوليد ص ١٨٨ « وسماحة » قال المعرى : « الرواية غير ، بالراء ، وهو المعنى المتعارف الذى يتردد فى الشعر ، أى أنه جاد جوداً غزيراً بخل معه الغمام ، إذا كان قد يمسك فى بعض الأعوام ، وطالما هلكت السائمة والأنيس لفقد المطر . وهذا الممدوح ليس كذلك إذ كان يجود فى كل الأوقات والسنين . وإن رويت " عين مبخل " فله معنى يصح على بعد ، وذلك أنه يراد أنه عين المزن بجوده ، فلا نحفل أصاب فينا المطر أم حقب ، فهذا وجه . ويحتمل أنه لما جاد فأحسبنا بالنائل كرهنا أن يبخل الغمام ، إذ كان نسبة جوده فى بعض الأحيان فكأنه شفع إلينا فى ترك تبخيله » . ومعنى حقب — بكسر ففتح — : احتبس . وأحسبنا : أى أعطانا حتى قلنا له : حسبنا

(٢) م : « فى قطعه »

المعانىَ ، وفصله بينها ، وقلة تأتّيه لتجويد الخروج والوصل ، وذلك[1] نقصان فى الصناعة ، وتخلف فى البراعة ، وهذا إذا وقع فى مواضع قليلة عُذِرَ فيها ، وأمّا إذا كان بِنَاء الغالب من كلامه على هذا ، فلا عُذْرَ له .

وأما المعنى الذى ذكره ، فليس بشىء مما سَبق إليه ، وهو شىء مشترك فيه ، وقد قالوا فى نحوه : إن مجده سماء السماء ، وقالوا فى نحوه الكثير الذى يصعب نقل جميعه ، وكما قال المُتَنَبِّى :

وعَزْمَةٌ بَعَثَتْهَا هِمَّــةٌ زُحَلٌ
مِنْ تحتِها بمكانِ التُّرْبِ مِنْ زُحَلِ[2]

وحدثنى إسماعيل بن عبّاد : أنه رأى[3] أبا الفضل بن العَمِيد قام لرجل ، ثم قال لمن حضره : أتدرى من هذا ؟ هذا[4] الذى قال فى أبيه البحترى :

* لمحمد بن على الشرف الذى *

فذلك يدل على استعظامه للميت[6] ، بما مدح به من البيت .

---

(١) س ، ك : « ذلك »

(٢) فى ديوانه ٢/٣٨ من قصيدة مدح بها سيف الدولة . وقبله :

مثل الأمير بغى أمراً فقرّبه طولُ الرماح وأيدى الخيل والإبل

يقول : وقربها عليه عزمة حركتّها همة تعلو على زحل — الكوكب المعروف — بقدر علو زحل عن التّراب » .

(٣) م : « أنه روى »

(٤) ك : « قال : هذا » س : « هو الذى »

(٥) س : « لمحمد بن القاسم الشرف » !

(٦) ا ، ك ، م : « للبيت » م : « البيت »

والبيت الثانى فى تشبيه جوده بالسحاب قريب ، وهو حديث مكرر ، ليس ينفكّ مديح شاعر منه ، وكان من سبيله أن يبدع فيه زيادة إبداع ، كما قد يقع لهم فى نحو هذا ، ولكنه لم يتصنع له ، وأرسله إرسالًا .

وقد وقع فى المصراع الثانى ضربٌ من الخلل ، وذلك : أن المزن إنما يُبَخَّلُ إذا منع نيله ، وذلك[1] موجود فى كل نيل ممنوح ، وكلاهما محمود مع الإسعاف ، فإن أسعف أحدهما ومنع الآخر لم يمكن التشبيه ، وإن كان إنما شبه غالب [حال[2]] أحدهما بالآخر ، وذكر قصور أحدهما عن صاحبه ، حتى إنه قد يبخل فى وقت والآخر لا يبخل بحال — : فهذا جيد ، وليس فى حمل الألفاظ على الإشارة إلى هذا شىء .

والبيت الثالث ، وإن كان معناه مكررًا ، فلفظه مضطرب بالتأخير والتقديم ، يشبه ألفاظ المبتدئين .

وأما قوله :

فَضْلٌ وإفْضَالٌ وما أَخَذَ المَدَى بَعْدَ المَدَى كالفاضِلِ المُتَفَضِّلِ
سارٍ إذا ادَّلَجَ العُفَاةُ إلى النَّدَى لا يَصْنَعُ المعروفَ غير مُعَجَّلِ

فالبيت الأول منقطع عما قبله ، وليس فيه شىء غير التجنيس الذى ليس ببديع ، لتكرره على كل لسان .

(١) س ، ك : « فذلك »
(٢) الزيادة من م

وقوله : « ما أَخَذَ المدَى [بعد المدى][1] » ، فإنه لفظ مليح ، وهو كقول القائل :

* قَدْ أَرْكَبُ الآلة بَعْدَ الآله[2] *

ورُوى[3] : « الحالة بعد الحاله » . وكقول امرئ القيس :

* سُمُوَّ حبابِ الماءِ حالًا على حال[4] *

ولكنها طريقة مذللة ، فهو فيها تابع .

وأما البيت الثانى فقريب فى اللفظ والمعنى .

وقوله : « لا يَصنَعُ المعروف » ، ليس بلفظ محمود .

وأما قوله :

عالٍ على نَظَرِ الحَسُودِ كأنَّما ... جَذَبَتْهُ أَفْرادُ النُّجُومِ بأَحْبُلِ[5]
أَوَمَا رأيتَ المَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ ... فى آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لمْ يَتَحَوَّلِ

فالبيت الأول منكر جدًّا فى جر النّجوم بالأرسان[6] [من][7]

---

(١) الزيادة من ا ، ب ، م

(٢) فى اللسان ٤١/١٣ « والآلة : الحالة ، والجمع الآل ، يقال : هو بآلة سوء ، قال الراجز :

قد أركب الآلة بعد الآله ... واترك العاجز بالجداله

(٣) م : « وأروى »

(٤) صدره كما فى ديوانه ص ١٠٨ * سموت إليها بعد ما نام أهلها *

(٥) فى الديوان : « نظر العيون » .

(٦) م : « بالانسان » .

(٧) الزيادة من م ، ك .

موضعه إلى العلو ! والتكلف فيه واقع .

والبيت الثانى أجنبي عنه ، بعيد منه ، وافتتاحه ردىء . وما وجه الاستفهام والتقرير والاستبانة والتوقيف ؟

والبيتان أجنبيان من كلامه ، غريبان فى قصيدته .

ولم يقع له فى المدح فى هذه القصيدة شىء جيد .

ألا ترى أنه قال بعد ذلك :

نفسى فداؤكَ يا محمدُ مِنْ فَتًى ... يُوفِى على ظُلَم الْخُطُوبِ فتَنْجَلِى (١)

إنِّى أُريدُ أبا سعيدٍ ، والعِدَى ... بَيْنِي و بيْنَ سَحَابِهِ المُتَهَلِّلِ

كأنَّ هذا ليس (٢) من طبعه ولا من سَبْكِهِ .

وقوله :

مُضَرُ الجزيرةِ كلُّها وربيعةُ الـــخَابُورِ تُوعِدُنى وأَزْدُ المَوْصِلِ

قد جُدْتَ بالطِّرْفِ الجَوادِ فثَنِّهِ ... لأَخِيكَ من أُدَدٍ أبيكَ بمُنصُلِ

البيت الأول حسن المعنى ، وإن كانت ألفاظه بذكر الأماكن لا يتأتى فيه التحسين .

وهذا المعنى قد يمكن إيراده بأحسن من هذا اللفظ وأبدع منه وأرق منه ، كقوله :

---

(١) قبله فى الديوان :

ضيف لهم يقرى الضيوف ونازل ... متكفل فيهم ببر النُّزَّل

(٢) م: « كأن هذا شيء ليس » .

إذا غَضِبَتْ عليكَ بَنُو تَمِيمٍ رأيتَ الناسَ كلَّهمُ غِضاَبَا[١]

والبيت الثانى قد تعذر عليه وصله بما سبق من الكلام على وجه يلطف[٢] ، وهو قبيح اللفظ ، حيث يقول فيه : « فتنَةٍ لأَخيكَ من أُدَدٍ أَبيكَ » ، ومن أخذه بهذا التعرض[٣] لهذا السجع ، وذكر هذا النسب ، حتى أفسد به شعره !

وأما قوله بعد ذلك فى وصف السيف ، يقول :

يَتَناوَلُ الرُّوحَ البَعِيـدَ مَنَالُهَا عَفْواً ويَفْتَحُ فى القَضَاءِ المُقْفَلِ

بِإِبَانَةٍ فى كلِّ حَتْفٍ مُظْلِمٍ وهِدَايةٍ فى كلِّ نَفْسٍ مُجْهَلِ[٤]

مَاضٍ وإنْ لم تُمْضِهِ يَدُ فَارِسٍ بطلٍ ومَصقُولٌ وإنْ لم يُصقَلِ[٥]

ليس لفظ البيت الأول بمضاهٍ لديباجة شعره ، ولا له بهجة نظمه ، لظهور أثر التكلف عليه ، وتبين ثقل فيه .

وأما « القَضَاءِ المُقْفَل » وفتحه ، فكلام غير محمود ولا مرضى ! واستعارة لو لم يستعرها كان[٦] أولى به ! وهلَّا عِيبَ عليه كما عيب على أبى تَمَّام قوله :

---

(١) البيت لجرير ، يهجو به العباس بن يزيد الكندى ، كما فى معجم الشعراء ص ٢٦٤

(٢) م: « تلطف » .

(٣) م: « ومن أخذه بالتعرض » .

(٤) فى الديوان : « بإنارة فى كل » .

(٥) س: « يمضه » .

(٦) س ، ك: « كانت » .

فَضَرَبْتُ الشِّتَاءَ فى أُخْـدَعَيْهِ ضَرْبَةً غَادَرَتْهُ عَوْدًا رَكُوبًا[١]

وقالوا : يستحق بهذه الاستعارة أن يصفع فى أخدعيه ! وقد اتّبعه البُحْتُرِىّ فى استعارة الأَخْدَع ، وَلُوعًا باتباعه ، فقال فى الفتح بن خاقان :

وإنى وإنْ أَبْلَغْتَنِى شَرَفَ الْعُلَا
وأَعْتَقْتَ مِنْ ذُلِّ المَطَامِعِ أَخْدَعِى[٢]

إنّ شيطانه حيث زيَّن له هذه الكلمة ، [و] تابعه حين حسن عنده[٣] هذه اللفظة ، لخبيثٌ ماردٌ ، وَرَدِىءٌ مُعَانِد ، أَرَادَ أن يُطْلِقَ أَعِنةَ الذّم فيه ، ويُسَرِّحَ جيوش العتب إليه ! ولم يقنع بِقُفْلِ القَضَاءِ ؛ حتى جعل للحَتْف ظُلمةً تُجْلَى بالسيف ، وجعل السيف هاديًا فى النفس المَجْهَلِ الذى لا يهتدى إليه ! وليس فى هذا مع تحسين[٤] اللفظ وتنميقه شىء ، لأن السلاح وإن كان معيبًا ، فإنه يهتدى إلى النفس .

وكان يجب أن يبدع فى هذا إبداع المُتَنَبِّى فى قوله :

كَأَنَّ الهَامَ فى الهَيْجَا عُيُونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُكَ من رُقَادِ[٥]
وقد صُغْتَ الأَسِنَّةَ من هُمُومٍ فما يَخْطُرْنَ إلا فى فؤاد[٦]

(١) ديوانه ص ٢٧ وفيه « غادرته قودا » ، والقود والعود : الجمل . والأخدعان : عرقان فى جانبى العنق ، كما فى اللسان ٤١٩/٩

(٢) كذا فى الديوان ، وفى ك ، س ، م « وإنى وقد بلغتنى الشرف العلا »

(٣) من قوله : «إن شيطانه» إلى هنا — سقط من م . والزيادة من ا ، ك

(٤) م : « تحبيس »

(٥) ديوانه ٢٢٨/١ من قصيدة يمدح بها على بن إبراهيم التنوخى

(٦) س : « فى الفؤاد »

فالاهتداء على هذا الوجه فى التشبيه بديع حسن .

وفى البيت الأول شىء آخر: وذلك أن قوله : « ويفتحُ فى القضاء »، فى هذا الموضع حشو ردىء ، يلحق بصاحبه اللُّكْنَةَ ، وَيُلْزِمُهُ المُجْنَةَ .

وأما البيت الثالث ، فإنه أصلح[١] هذه الأبيات ، وإن كان ذكر الفارس حَشْوًا ، وتكلفاً ولغوًا ، لأنَّ هذا لا يتغير بالفارس والراجل . على أنه ليس فيه بديع .

وأما قوله :

يَغْشَى الوَغَى والتُّرْسُ ليس بِجُنَّةٍ
مِنْ حَدِّهِ والدِّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ[٢]

مُصغٍ إلى حُكْمِ الرَّدَى ، فإذا مَضَى
لم يلتفتْ ، وإذا قَضَى لم يَعْدِلِ

مُتَوَقِّدٌ يَـبْرِى بأَوَّلِ ضَرْبَةٍ
ما أَدْرَكَتْ ، وَلَوَ أَنَّهَا فى يَذْبُلِ[٣]

البيتان الأولان من الجنس الذى يكثر كلامه عليه ، وهى طريقته

(١) م: « فإنه أملح »
(٢) فى الديوان: « فالترس »
(٣) فى الديوان : « متألق يفرى » . ويذبل : اسم جبل فى بلاد نجد .

التى يَجْتبيها[1] ، وذلك من السَّبْكِ الـكِتابى والـكلامِ المعتدل ، إلا أنه لم يبدع فيهما[2] بشىء ، وقد زيد عليه فيهما .

ومن قصد إلى أن يكمل عشرة أبيات فى وصف السيف ، فليس من حكمه أن يأتى بأشياء منقولة ، وأمور مذكورة ، وسبيلُه أن يُغْرِب ويُبدع ، كما أبدع المتنبى فى قوله :

سَلَّهُ الرَّكْضُ بَعْدَ وَهْنٍ بِنَجْدٍ فَتَصَدَّى للغَيْثِ أهلُ الحجازِ[3]

هذا فى باب صِقَالِهِ وأَضوائه وكثرةِ مائه ، وكقوله :

رَيَّانُ لو قَذَفَ الذى أَسْـقَيْتَهُ

لجَرَى مِنَ الْمُهَجاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ[4]

وقوله : « مُصغٍ إلى حُـكْمِ الرَّدَى » — إن تأملتَه — مقلوب ، كان ينبغى أن يقول : يصغى الردى إلى حكمه ، كما قال الآخر :

* فالسَّيفُ يأمُرُ والأقدارُ تَنْتَظِرُ[5] *

---

(١) كذا فى ا ، ب . وفى س ، ك : «طريقه الذى يجتنيها» . وفى م «طريقته التى لم يبدع فيهما بشىء »

(٢) س : « فيها . . . فيها »

(٣) ديوانه ٣٧٤/١ من قصيدة يمدح بها على بن صالح الروذبارى الكاتب .

(٤) ديوانه ٢١٥/١ من قصيدة يمدح بها شجاع بن محمد الطائى المنبجى .

(٥) ذكر الطبرى ٨٦/١٠ فى مقتل أنس بن أبى شيخ كاتب البرامكة سنة ١٨٧ أن شاعراً قال :

تلمظ السيف من شوق إلى أنس فالموت يلحظ والأقدار تنتظر

وقوله : « وإذا قضى لم يعدل » ، متكرر على ألسنتهم فى الشعر خاصة ، فى نفس هذا المعنى .

والبيت الثالث سليم ، وهو كالأولين فى خلوه عن البديع .

فأما[1] قوله :

فَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَىءٍ مَقْتَلٌ وإذا أُصِيبَ فما لَهُ مِنْ مَقْتَلِ

وكأنّما سُودُ النِّمالِ وحُمْرُها دَبَّتْ بأَيْدٍ فى قَرَاهُ وأَرْجُلِ

البيت الأول يقصد بمثله صنعة[2] اللفظ ، وهو فى المعنى متفاوت ، لأن المضرب قد لا يكون مقتلاً ، وقد يطلق الشعراء ذلك ، ويرون أن هذا أبدع من قول المتنبى ، وأنه بضده[3] :

القَاتِلِ السيفَ فى جِسْمِ القَتِيلِ بِهِ
وللسُّيُوفِ كما للنَّاسِ آجَالُ[4]

وهذه طريقة لهم يتمدّحون بها فى قَصْف الرمح طَعْناً ، وتقطيع السيف ضرباً .

وأنشده أبو تمام فى الوحشيات لبعض بنى ثعل ، وقبله
أظله منك حتف قد تجلله حتى يؤامر فيه رأيك القدر
أمضى من السيف إلا عند قدرته وليس للسيف عفو حين يقتدر
والأبيات فى عيون الأخبار ١ / ١٣٠ غير منسوبة ، والعقد الفريد ٢ / ١٨١ لمسلم بن الوليد فى قصة طويلة .

(١) م : « وأما »

(٢) كذا فى ا ، ب ، م . وفى س ، ك « يقصه به صنيعة » .

(٣) م : « وإنه لضده »

(٤) كذا فى الديوان . وفى م : « ويقتل » . وس ، ك : « يفتل »

وفى قوله : « وإذا أُصِيبَ فما لَهُ مِنْ مَقْتَلِ » ، تعسفٌ ، لأنه يريد بذلك أنه لا ينكسر ، فالتعبير بما عبَّرَ به عن المعنى الذى ذكرناه يتضمن التكلّف وضرباً من المحال ، وليس بالنادر ، والذى عليه الجملة ما حكيناه عن غيره .

ونحوه قال بعضُ أهل الزمان :

يُقَصِّفُ فى الفارس السَّمْهَرِىَّ وصَدْرَ الحُسامِ فَرِيقاً فريقا[1]

والبيت الثانى أيضاً هو معنى[2] مكرر على ألسنة الشعراء .

وأما تَصنِيعُهُ بسود[3] النِّمَالِ وحُمْرِها ، فليس بشىء ، ولعله أراد بالحمر الذَّرّ ، والتفصيل بارد ! والإعرابُ به مُنْكَرٌ ! وهو — كما حُكِىَ عن بعضهم أنه قال — : كان كذا حين كانت الثّريا بحِذَاءِ رأسى على سواء ، أو منحرفاً قَدْرَ شبر ، أو نصف شبر ، أو إصبعاً ، أو ما يقارب ذلك ! فقيل له : هذا من الورع الذى يبغضه الله ، ويمقته الناس ! !

ورُبَّ زيادةٍ كانت نقصاناً .

وصفة النمل بالسواد والحمرة فى هذا من ذلك الجنس ، وعليه خرج بقية البيت فى قوله :

* دَبَّتْ بأَيْدٍ فى قَرَاهُ وأَرْجُلِ *

وكان يكفى ذكر الأرجل عن ذكر الأيدى .

---

(١) م : « ويقصف » .

(٢) م : « هو بيت » .

(٣) م : « وأما تصريفه سود » .

ووصف[١] الفرِنْد بدبّ النمل شىء لا يشذّ عن أحد منهم[٢] .

وأما قوله :

وكأنّ شَاهِرَهُ إذا اسْتَضْوَى بِهِ الزَّ حْفَانِ يَعْصِى بالسِّمَاكِ الأَعْزَلِ[٣]

حَمَلَتْ حَمَائِلُهُ القديمةُ بَقْـلَةً من عَهْدِ عَادٍ غَضَّةً لم تَذْبُلِ

البيت الأول منهما فيه ضرب من التكلف ، وهو منقول من أشعارهم وألفاظهم ، وإنما يقول :

[وتراهُ فى ظُـلَمِ الوَغَى فتخالُه قمرًا يشدُّ على الرجال بكوكب][٤]

فجعل ذلك الكوكبَ السِّمَاكَ ، واحتاج إلى أن يجعله أَعْزَلَ للقافية ! ولو لم يحتج إلى ذلك كان خيرًا له ؛ لأنّ هذه الصفة[٥] فى هذا الموضع

---

(١) م : « ويصف » .

(٢) فى ديوان المعانى ٢/٥٧ « ويشبه الفرند بدب النمل ، فمن قديم ما قيل فيه قول امرئ القيس :

متوسداً عضْباً مضاربه فى متنه كمدبة النمل

(٣) كذا فى النسخ ، وفى الديوان :

وكأن شاهره إذا استعصى به فى الروع يعصى بالسماك الأعزل

وفى اللسان ١٩/٢٩٤ « وعصى بسيفه وعصابه يعصُو عصاً : أخذه أخذ العصا ، أو ضرب به ضربه بها » .

وفى اللسان ١٢/٣٢٨ « والسماكان : نجمان نيران ، أحدهما السماك الأعزل ، والآخر السماك الرامح . . . وسمى أعزل لأنه لا شىء بين يديه من الكواكب ، كالأعزل الذى لا رمح معه ، ويقال : سمى أعزل لأنه إذا طلع لا يكون فى أيامه ريح ولا برد ، وهو أعزل منها » .

(٤) الزيادة من م . وفى س ، ك : « وإنما يقول : قمر يشد على الرجال بكوكب » .

(٥) م : « هذه القصة » .

تفض من الموصوف[١] ، وموضع[٢] التكلف الذى ادَّعيناه ، الحَشو الذى ذكره من قوله : « إذا استَضْوَى به الزَّحْفَان » . وكان يكفى أن يقول : كأنّ صاحبه يَعْصِى بالسِّمَاكِ ، وهذا ، وإن كان قد تمحل فيه للفظ ، فهو لغو[٣] ، على ما بينّا .

وأما البيت الثانى ففيه لغو من جهة قوله : [« حمائله القديمة » ، ولا يوصف السيف بأن][٤] حمائله قديمة ، ولا فضيلة له فى ذلك .

ثم تشبيه السيف بالبَقْلة من تشبيهات العامة ، والكلامِ الرَّذْل النَّذْل ، لأن العامة[٥] قد يتفق منها تشبيه وَاقِعٌ حَسَن .

ثم انظر إلى هذا المقطع الذى هو بالعِىِّ أَشْبَهُ منه بالفصاحة ، وإلى اللُّكْنَةِ أقربُ منه إلى البراعة .

وقد بينّا أن مُرَاعاة الفواتح والخواتم ، والمطالع والمقاطع ، والفصل والوصل ، بعد صحة الكلام ، ووُجودِ الفصاحة فيه — : مما لا بدّ منه ، وأن الإخلال بذلك يُخِلّ بالنظم ، ويُذْهِبُ رونقَه ، ويحيل بهجتَه ، ويأخذ ماءه وبهاءه[٦] .

* * *

---

(١) م: « نقص » س: « تفضه » .
(٢) س ، ك: « من الموضع » .
(٣) م: « فيه بلفظ فهو لغز » .
(٤) الزيادة من م .
(٥) م: « تشبيهاً العامة البذل ، لأن العامة » .
(٦) سقطت هذه الكلمة من م .

وقد أطلتُ عليك فيما نقلت، وتكلفت ما سطرت ؛ لأن هـــذا القبيلَ قبيلٌ موضوع، متعمَّل مصنوع .

وأصل الباب فى الشعر على أن ينظر إلى جملة القصة ، ثم يتعمل الألفاظ ، ولا ينظر بعد ذلك إلى مواقعها ، ولا يتأمل مَطَارِحَها . وقد يقصد تارة إلى تحقيق الأغراض ، وتصوير المعانى التى فى النفوس ، ولكنه يلحق بأصل بابه ، ويميل بك إلى موضوعه[1]، وبحسب الاهتمام بالصنعة يقع فيها[2] التَّفَاضُل .

وإن أردت أن تعرف أوصافَ الفرسِ، فقد ذكرتُ لك أنّ الشعراءَ قد تصرَّفُوا فى ذلك بما يقع إليك — إن كنت من أهل الصنعة — مما يَطُولُ علَيَّ نقلُهُ ، وكذلك فى السيف .

وذكر لى بعضُ أهل الأدب : أن أَحْسنَ قطعةٍ فى السيف قول أبى الهَوْلِ الحِمْيَرِىّ[3] :

---

(١) س ، ك: « إلى موضعه » .

(٢) م: « فيه » .

(٣) اسمه عامر بن عبد الرحمن ، مدح المهدى والهادى والرشيد والأمين . وكان خبيث اللسان، هجا خلقا كثيراً، منهم : جعفر بن يحيى البرمكى . راجع تاريخ بغداد ١٢/٢٣٧ — ٢٣٨ وفى ديوان المعانى ٢/٥٢ « ومن بليغ ما قيل فى وصف السيف قول ابن يامين . قال محمد بن داود بن الجراح عن أبى هفان عن الإياسى القاضى ، عن الهيثم بن عدى قال : لما صار سيف عمرو بن معدى كرب — الذى يسمى : الصمصامة — إلى الهادى، وكان عمرو وهبه لسعيد ابن العاص ، فتوارثه ولده إلى أن مات المهدى، فاشتراه موسى الهادى منهم بمال جليل ، وكان موسى من أوسع بنى العباس خلقاً وأكثرهم عطاء للمال . قال: فجرده ووضعه بين يديه وأذن للشعراء فدخلوا ودعا بمكتل فيه دنانير فقال :

حَازَ صَمْصامةَ الزُّبَيْدِيِّ مِنْ بَيْـــن جميع الأَنَام موسى الأمينُ[1]
سيفُ عمرو وكانَ — فيما سَمِعْنَا — خَيْرَ ما أُطْبِقَتْ عليه الجُفُونُ[2]
أَخْضَرُ اللَّوْنِ بَيْنَ بُرْدَيْهِ حَدٌّ مِنْ ذُعَافٍ تَمِيسُ فيه المَنُونُ[3]
أَوْقَدَت فَوْقَهُ الصَّواعقُ نارًا ثُمَّ شَابَتْ له الذُّعَافَ القُيُونُ[4]
فإِذا ما شَهَرْتَهُ بَهَرَ الشَّمْـــسَ ضِيَاءً فَلَمْ تَكَدْ تَسْتَبِينُ[5]
يَسْتَطِيرُ الأَبْصَارَ كالقَبَسِ المُشْـــعَلِ لا تَسْتَقِيمُ فيه العيونُ[6]

قولوا فى هذه السيف، فبدرهم ابن يامين فقال : حاز»، إلخ. وكذلك نسب هذا الشعر لابن يامين البصرى فى وفيات الأعيان ١٥٩/٥ ومروج الذهب ٢٤٥/٣ وهو لأبى الهول الحميرى فى الحيوان ٨٧/٥ وقد ذكر المعافى بن زكريا فى الجليس والأنيس أن موسى الهادى أمر بإحضار الشعراء فكان بالباب منهم : أبو الهول ، وأبو الغول التميمى ، وسلم الخاسر . . . فأما أبو الهول فلم يصف شيئاً ، وأما سلم فلم يرض ما قال ، وأما أبو الغول فوصف فأحسن وأخذ الصلة : عشرة آلاف درهم والحملان والخلع وانصرف . وأمر لأبى الهول وسلم الخاسر بخمسة آلاف وانصرفا ، فكان الشعر لأبى الغول حيث يقول : حاز ، الخ . وانظر كتاب التشبيهات لابن أبى عون ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(١) فى اللسان ٢٤٠/١٥ « الصّمصّام والصّمصامة : السيف الذى لا ينثنى ، والصمصامة : سيف عمرو بن معدى كرب » .

(٢) كذا فى الحيوان . وفى الجليس والأنيس، وديوان المعانى، ومروج الذهب ، ووفيات الأعيان « خير ما أغمدت » .

(٣) فى وفيات الأعيان « بين حديه برد من ذباح تميس » .

(٤) فى وفيات الأعيان « شابت فيه » . وديوان المعانى « شابت به ». وفى الحيوان « ثم ساطت به الزعاف المنون » . والذعاف : سم ساعة ، كما فى اللسان ٨/١١ .

(٥) فى م ، ا ، ب ووفيات الأعيان وديوان المعانى « فإذا ما سللته » .

(٦) فى ديوان المعانى ووفيات الأعيان « ما تستقر » .

وكأنَّ الفِرِنْدَ والرَّوْنَقَ الجا ... رِىَ فى صفحتيه ماءٌ مَعِينُ(١)
نِعْمَ مِخْرَاقُ ذى الحَفِيظَةِ فى الهَيْـ ... ـجاءِ يَعْصِى به ، ونِعْمَ القَرِينُ(٢)
ما يُبَالِى إذا انْتَحَاهُ بِضَرْبٍ ... أشمالٌ سَطَتْ به أَمْ يَمِينُ(٣)

* * *

وإنما يُوازَن شعر البُحْتُرِىّ بشعر شاعر من طبقته ، ومن أهل عصره ، ومن هو فى مضماره أو فى منزلته .

ومعرفةُ أَجْنَاس الكلام ، والوقوف على أسراره ، والوقوع على مقداره ، شىءٌ — وإن كان عزيزًا ، وأَمْرٌ — وإن كان بعيدًا — : فهو سهل على أهله ، مستجيب لأصحابه ، مطيع لأربابه ، ينقدون الحروف ، ويعرفون الصُّرُوف .

وإنما تبقى الشبهة فى ترتيب الحال بين البُحْتُرِى ، وأبى تَمَّام ، وابن الرُّومى ، وغيره .

ونحن وإن كنا نُفَضِّل البحترى بديباجة شعره ، على ابن الرُّومى

---

(١) فى المرجعين السابقين : « والجوهر الجارى ». وفى م : «على صفحته». وس « فى صفحتيه ». وفى اللسان ٣/٣٤٤ « وصَفحُ السيف وصُفحه : عرْضه ، والجمع : أصفاح . وصفحتا السيف : وجهاه » .

(٢) م : « يقضى به » . وفى ديوان المعانى : « فى الهيجا بعضاّنها » .

(٣) فى ديوان المعانى : « اذا انتضاه » . وبعده فيه :

وكأن المنون نيطت إليه ... فهو من كل جانبيه منون

أخذ عليه من هذه الأبيات تشبيه السيف بالشمس ثم بالقبس ؛ لأنه قد حطه درجات » .

وغيره من أهل زمانه — : تقدّمه بحسن عبارته ، وسلاسة كلامه[١] ، وعذوبة ألفاظه ، وقله تعقد قوله .

والشعرُ قَبيلٌ مُلتَمَس مستدرَك ، وأمر ممكن مُطيع[٢] .

ونظم القرآن عالٍ عن أن يعلق به الوَهْم ، أو يسموَ إليه الفكر ، أو يطمع فيه طامع ، أو يطلبه طالب : ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[٣]﴾ .

وكنتُ قد ذكرتُ لك قبل هذا : أنك إن كنت بصنعة علم اللسان مُتدرِّباً،وفيه متوجهاً متقدماً ، أمكنكَ الوقوفُ على ماذكرنا ، والنفوذُ فيما وصفنا ، وإلا فاجلسْ فى مجلس المقلِّدين ، وارْضَ بمواقف المتحيرين .

ونصحتُ لك حيثُ قلتُ : انظر ، هل تعرفُ عُرُوقَ الذهب ، ومحاسن الجوهر ، وبدائع الياقوت ، ودقائق[٤] السحر ، من غير معرفة بأسباب هذه الأمور ومقدماتها ؟ وهل يُقطع سَمْتُ البلاد من غير اهتداء فيها ؟

ولكل شيء طريق يُتَوصل إليه به ، وباب يؤخذ نحوه فيه ، ووجه يؤتَى منه .

---

(١) م: « عبارته ، وعذوبة ألفاظه » .
(٢) س: « منطبع » .
(٣) سورة فصلت ٤٢ .
(٤) س: « ودقاق » .

ومعرفةُ الكلام أشدُّ من المعرفة بجميع ماوصفت[١] لك ؛ وأغمضُ وأدقُّ وألطف .

وتصويرُ مافى النفس ، وتشكيل مافى القلب ، حتى تعلمه وكأنك مشاهده ، وإن كان قد يَقعُ بالإشارة ، ويحصلُ بالدلالة والأمارة كما يحصل بالنطق الصريح ، والقول الفصيح . فللإشارات أيضاً مراتب ، وللسان[٢] منازل . وربَّ وصفٍ يُصَوِّر لك الموصوف كما هو على جهته لا خُلْفَ فيه ، وربَّ وَصْفٍ يَبَرُّ[٣] عليه[٤] ويتعداه ، وربَّ وصف يقصر عنه .

ثم إذا صدَقَ الوصفُ ، انقسم إلى صحة وإتقان ، وحسن وإحْسان ، وإلى إجمال وشرح ، وإلى استيفاء وتقريب ، وإلى غير ذلك من الوجوه .

ولكل مذهبٌ وطريق ، وله[٥] باب وسبيل :

فوصف الجملة الواقعة ، كقوله تعالى : ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا[٦] ﴾ .

والتفسير كقوله : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً

---

(١) م: « ما ذكرت » .
(٢) ا ، ب: « ومنازل » .
(٣) كذا فى ا ، ب ، م ، ك . وفى س: « يربو » .
(٤) م: « علته » ! .
(٥) س: « وكل مذهب وطريق له باب » .
(٦) سورة الكهف ١٨ .

وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا[١] ﴾ إلى آخر الآيات فى هذا المعنى .

وكنحو قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ، إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ[٢] ﴾ .

هذا مما يصوِّر الشيء على جهته ، ويمثل أهوال ذلك اليوم .

ومما يصوِّر لك الكلام الواقع فى الصفة ، كقوله حكايةً عن السَّحَرَة لمَّا توعَّدهم فرعون بما توعدهم به حين آمنوا : ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ، إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ[٣] ﴾ .

وقال فى موضع آخر : ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ، وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ، رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ[٤] ﴾ .

وهذا يُنبئ عن كلام الحزين لِمَا ناله ، الجازع لما مَسَّه .

ومن باب التسخير والتكوين ، قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ[٥] ﴾ .

---

(١) سورة الكهف ٤٧
(٢) سورة الحج ١ — ٢
(٣) سورة الشعراء ٥١ — ٥٢
(٤) سورة الأعراف ١٢٥ — ١٢٦
(٥) سورة يس ٨٢

وقوله : ﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ[١] ﴾ .

وكقوله : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ[٢] ﴾ .

وتقصِّى أقسام ذلك مما يطول ، ولم أقصد استيفاء ذلك ، وإنما ضربت لك المثل بما ذكرتُ لتستدلَّ ، وأشرت إليك بما أشرتُ لتتأمَّلَ .

* * *

وإنما اقتصرنا على ذكر قصيدة البحترى ، لأنَّ الكُتَّاب يفضِّلونه على أهل دهره ، ويقدِّمونه على من فى عصره ؛ ومنهم من يدعى له الإعجاز غُلُوًّا ، ويزعم أنه يُنَاغِي النَّجْمَ فى قوله عُلُوًّا ؛ والْمُلْحِدَةُ تَسْتَظْهِرُ بشعره ، وتتكثّر بقوله ، وترى[٣] كلامه من شبهاتهم ، وعباراته مُضَافةً[٤] إلى ما عندهم من تُرَّهاتِهم . فَبَيَّنا قَدْرَ درجته ، وموضعَ رتبته ، وحدَّ كلامه .

وهيهات أن يكون المطموعُ فيه كالمأْيُوسِ منه[٥] ، وأن يكون الليل كالنّهار ، والباطل كالحقِّ ، وكلام رب العالمين ككلام البشر[٦] .

---

(١) سورة البقرة ٦٥

(٢) سورة الشعراء ٦٣

(٣) كذا فى م ، ك وفى س « وتدعى » .

(٤) س : « مضافاً » .

(٥) م : « كالمعجوز عنه » .

(٦) م : « ككلام الآدميين » .

* * *

فإن قال قائل : فقد قدَحَ الملحد فى نظم القرآن ، وادَّعى عليه الخلل فى البيان ؛ وأضاف إليه الخطأ فى المعنى واللفظ ، [وزعم ما زعم[1]] ، وقال ما قال ؛ فهل من فصْلٍ ؟

قيل : الكلام على مطاعن الملحدة فى القرآن مما قد سُبِقْنا إليه ، وصنَّفَ أهلُ الأدب فى بعضه ، فَكَفَوْا ، وأتى المتكلمون على ما وقع إليهم ، فشفَوْا ؛ ولولا ذلك لاستقصينا القول فيه فى كتابنا .

وأما الغرض الذى صنّفنا فيه فى التفصيل والكشف عن إعجاز القرآن[2] ، فلم نجده على التقريب الذى قصدنا ، وقد رجونا أن يكون ذلك مُغْنِياً ووافياً .

وإن سهّل الله لنا ما نويناه : من إملاء « معانى القرآن[2] » ، ذكرنا فى ذلك ما يشتبه من الجنس الذى ذكروه ؛ لأن أكثر ما يقع من الطعن عليه ، فإنما يقع على جهل القوم بالمعانى ، أو بطريقة كلام العرب .

وليس ذلك من مقصود كتابنا هذا ، وقد قال النبى صلى الله عليه

(١) الزيادة من ا ، ب ، م
(٢) ما بين الرقمين ساقط من م

وسلم : « فضلُ كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه[١] » .

وقد قصدنا فيما أمليناه الاختصار ، ومهّدنا الطريق ، فمن كمل طبعُه للوقوع[٢] على فضل أجناس الكلام استدرك ما بيّنا ، ومن تعذّر عليه الحكم بين شعر جَرِيرٍ والفَرَزْدَق والأَخْطَل ، والحكم بين فضل زُهَير والنَّابِغَة ، أو الفضل[٣] بين البحترى وأصحابه ، ولم يعرف سُخْف[٤] مُسَيْلِمَةَ فى نظمه ، ولم يعلم أنه من الباب الذى يُهْزَأُ به ويُسْخرُ منه ، كشعر أبى العَنْبَسِ[٥] فى جملة الشعر ، وشعر على بن صَلاءة[٦] — : فكيف يمكنه النظر فيما وصفنا ، والحكم على ما بيّنا ؟ !

* * *

(١) يقول الشيخ أحمد محمد شاكر فى تخريجه لهذا الحديث : رواه الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى ، (٤ : ٥٧ من شرح المباركفورى) ، ضمن حديث ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب » وكذلك رواه الدارمى فى سننه (٢ : ٤٤١ طبعة دمشق) . ونقله الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٩ : ٥٨—٥٩) عن الترمذى ، وقال : « ورجاله ثقات إلا عطية العوفى ، ففيه ضعف » .

(٢) كذا فى م ، ك . وفى س « للوقوف »

(٣) م : « والفصل »

(٤) م : « فضل مسيلمة » ! !

(٥) كذا فى م ، ك. وفى ا : « أبى العمبس ».وس : « أبى العيس ».وأبو العنبس : هو محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن أبى العنبس بن المغيرة بن ماهان ، أحد الأدباء الملحاء ، كان خبيث اللسان ، هاجى أكثر شعراء زمانه ، ونادم المتوكل ، وله مع البحترى خبر مشهور ، توفى سنة خمس وسبعين ومائتين . راجع تاريخ بغداد ١/٢٣٨ ومعجم الشعراء ص ٤٤٢ والأغانى ١٨/١٧٣—١٧٥

(٦) كذا فى ا . وفى م « على بن صلابه » . و س ، ك « على بن صلاة »

فإن قال[١] قائل : فاذكر لنا من هؤلاء الشعراء الذين سميتهم الأشعر والأبلغ .

قيل له : هذا أيضاً خارج عن غرض هذا الكتاب ، وقد تكلّم فيه الأدباء . ويحتاج أن يجرد[٢] لنحو هذا كتاب[٣]، ويفرد له باب ؛ وليس من قبيل ما نحن فيه بسبيل .

وليس لقائل أن يقول : قد يَسْلَمُ بعضُ الكلام من العَوَارِض والعُيوبِ ، ويبلغُ أَمَدَه[٤] فى الفصاحة والنَّظمِ العجيب ؛ ولا يبلغ عندكم حدّ المعجز ؛ فلم قضيتم بما قضيتم به فى القرآن دون غيره من الكلام ؟

وإنما لم يصح[٥] هذا السؤال ، وما نذكر فيه من أشعار فى نهاية الحسن ، وخطبٍ ورسائلَ فى غاية الفضل — : لأنَّا قد بَيَّنَّا أَنَّ هذه الأجْنَاس قد وقع التَّنازُع[٦] فيها ، والمُسَامَاةُ عليها ، والتَّنافُس فى طرقها ، والتَّنافر فى بابها ؛ وكان البَوْنُ بين البعض والبعض فى الطبقة الواحدة قريباً ، والتفاوتُ خفيفاً ، وذلك القَدْرُ من السبق إنْ ذَهَبَ عنه[٧]

(١) ا ، ب « قال لنا »
(٢) كذا فى م ، ب . وفى ا « يجود » . و س ، ك « يجدد »
(٣) ا : « كتابا »
(٤) م : « أمره »
(٥) م : « يصحح »
(٦) س : « التزاع »
(٧) س : « عن »

الوَاحِدُ ، لم ييأس منه الباقون ، ولم ينقطع الطمع فى مثله .

وليس كذلك سَمْتُ القرآن ، لأنه قد عُرِفَ أنّ الوَهْمَ ينقطع دون مُجَارَاته ، والطَّمعَ يرتفع عن مُبَارَاته ومُسَامَاته ؛ وأنّ الكُلَّ فى العجز عنه على حَدٍّ واحد .

وكذلك قد يزعم زاعمون[1] : أنَّ كلام الجَاحِظِ من السَّمْتِ الذى لا يؤخذ[2] فيه ، والباب الذى لا يُذهب[3] عنه ؛ وأَنْتَ تجد قوماً يَرَوْنَ كلامَه قريباً ، ومِنْهاجَه مَعِيباً ، ونطاق قوله ضيِّقاً ، حتى يستعين بكلام غيره ، ويفزع إلى ما يُوَشِّحُ به كلامَه : من بيت سائرٍ ، ومَثَل[4] نادر ، وحكمة مُمهَّدة منقولة ، وقصة عجيبة مأْثُورَة . وأما كلامُه فى أثناء ذلك فسطورٌ قليلة ، وألفاظٌ يسيرة ، فإذا أُحْوِجَ إلى تطويل الكلام خالياً عن شىء يستعين به — فيخلط بقوله من قول غيره — كان كلاماً[5] ككلام غيره .

فإن أردت أن تحقق هذا ، فانظرْ فى كتبه فى « نَظْمِ القرآن » وفى « الردّ على النّصارَى » وفى « خبرِ الوَاحِد » وغير ذلك مما يجرى

---

(١) م : « زاعم »
(٢) م : « لا يوجد »
(٣) كذا فى ب ، ك . وفى م : « الذى يذهب عنه »
(٤) كذا فى ا ، ب ، م . وفى س : «ومتصل» . و ك : « ومثل بيت نادر »
(٥) سقطت هذه الكلمة من م .

هذا المجرى ، هل تجد فى ذلك كلّه ورقةً [واحدة[١]] تشتمل على نظمٍ بديع ، أو كلام مليح ؟

على أنّ متأخرى الكتاب قد نازعُوه فى طريقته ، وجَاذَبُوه على منهجه ، فمنهم من سَاوَاهُ حين سَامَاه ، ومنهم من أبرَّ عليه إذْ باراه .

هذا « أبو الفضل بن العَمِيد » قد سلك مسلكه[٢] ، وأخذ طريقه ، فلم يُقَصِّرْ عنه ، ولعلَّه قد بانَ تَقَدُّمه عليه ، لأنَّه يأخذ فى الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهبه ، ويكمّلها على شروط صنعته ، ولا يقتصر على أن يأتى بالأَسْطُرِ من نحو كلامه ، كما ترى الجاحظ يفعله فى كتبه ، متى ذَكَرَ مِنْ كلامه سطرًا أتبعه من كلام الناس[٣] أوراقاً ؛ وإذا ذَكَر منه صفحةً بنى عليه من قول غيرِه كتاباً .

وهذا يدلّك على أنّ الشيء إذا استُحْسِنَ اتُّبِعَ ، وإذا استُمْلِحَ قُصِدَ له وتُعُمِّدَ[٤] . وهذا الشيء يرجع إلى الأخذ بالفضل ، والتنافس فى التقدم .

فلو كان فى مقدور البشر معارضة القرآن لهذا الغرض وحده ، لكثرت المعارضات ، ودامت المنافسات .

فكيف وهناك دواعٍ لا انتهاء لها ، وَجَوالِبُ لا حَدَّ لكثرتها ،

---

(١) الزيادة من ا ، م ، ب .

(٢) م ، ا ، ب : « سلك مذهبه » .

(٣) م : « من كلام غيره » .

(٤) م : « وتعمل » .

لأنهم لو كانوا عارضوه لتوصَّلوا إلى تكذيبه ، ثم إلى قَطْعِ المحامين دونه عنه ، أو تنفيرهم عليه ، وإدخال الشبهات[1] على قلوبهم ، وكان القومُ يَكتفُون بذلك عن بَذْل النفوس ، ونَصْبِ الأرواح ، والإخْطَارِ بالأموال والذَّرَارِى ، فى وَجْهِ عَدَاوَتِه ، ويستغنون بكلامٍ — هو طَبْعُهُم وعادتهم وصناعتهم — عن محاربته ، وطولِ مُنَاقَشَتِه[2] ومجاذبته .

وهذا الذى عرضناه على [عقلك ، وجلوناه على[3]] قلبك ، يكفى إن هُدِيتَ لِرُشْدِكَ ، ويشفى إن دُلِلْتَ على قَصْدِكَ .

ونسأل اللهَ حُسْنَ التوفيق ، والعِصْمَةَ والتَّسْدِيد ؛ إنّه لا معرفةَ إلا بهدايته ، ولا عصمةَ إلا بكِفَايته ؛ وهو على ما يشاء قدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) م: « أو يقلبوهم عليه بإدخال الشبه »

(٢) س ، ك: « منافسته »

(٣) الزيادة من ا ، م وفيها « لقلبك »

فصـــل

فإن[1] قال قائل : قد يجوز أن يكون أهلُ عصرِ النبي صلى الله عليه وسلم قد عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وإن كان مَنْ بعدهم من أهل الأعصَارِ لم يعجزوا ؟

قيل : هذا سؤال معروف ، وقد أجيب عنه بوجوه ، منها ما هو صواب ، ومنها ما فيه[2] خلل :

لأنّ من كان يجيب عنه : بأنهم[3] لا يقدرون على معارضته فى الإخبار عن الغيوب إن قدروا على مثل نظمه — فقد سَلَّم المسألة ؛ لأنا ذكرنا أن نظمه معجز لا يُقْدر عليه ، فإذا أجاب بما قدمناه فقد وافق السائل على مراده .

والوجه أن يقال : فيه طرق :

منها : أنّا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله ، فمَنْ بَعْدَهم أعْجَزُ ؛ لأن فصاحة أولئك فى وجوهِ ما كانوا يتفنّنون[4] فيه من القول ، مما لا يزيد عليه فصاحةُ مَنْ بعدهم ،

---

(١) ا : « إن »

(٢) م : « ما هو »

(٣) م : « لأنهم »

(٤) م : « يتقنون »

وأحسن[١] أحوالهم أنْ يُقارِبُوهم أو يُسَاوُوهم ، فأمّا أن يتقدموهم أو يسبقوهم ، فلا .

ومنها : أنّا قد علمنا عجزَ سائرِ أَهلِ الأعْصَارِ كعلمنا بعجز أهل العصر الأول ، والطريق فى العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد ، لأنّ التّحدّى فى الكلِّ على جهة واحدةٍ ، والتنافس[٢] فى الطباع على حدّ [واحد[٣]] ، والتكليف[٤] على منهاج لا يختلف . ولذلك قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً[٥] ﴾ .

---

(١) م : « من بعدهم ، فإذا أحسن»
(٢) س : « والتنافر »
(٣) الزيادة من م
(٤) كذا فى ا ، م ، ب وفى س ، ك « والتكلف »
(٥) سورة الإسراء ٨٨

فصـــل

﴿ في التحدّي ﴾

يجب أن تعلم أن مِن حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن : يَدَّعُوا فيها أنها من دلالتهم وآياتهم ؛ لأنه لا يصح بعثة النبي من غير أن يؤتَى دلالة ، ويؤيدَ بآية ، لأن النبي لا يتميز من الكاذب بصورته[1] ، ولا بقول نفسه ، ولا بشيء آخر ، سوى البرهان الذي يظهر عليه ، فيستدل به على صدقه .

فإذا ذَكَرَ لهم أنّ هـذه آيتي ، وكانوا عاجزين عنها ، صح له ما ادّعاه .

ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهاناً له .

وليس يكون معجزاً إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا بمثله ، فإذا تحداهم وَبانَ عَجْزُهم صار ذلك معجزاً .

وإنما احتيج في باب القرآن إلى التَّحدِّي ، لأَن من النّاس من لا يعرف كونه معجزاً ، فإنما يُعرف أولاً إعجازُه بطريق[2] ، لأنَّ الـكلامَ المعجز لا يتميز من غيره بحروفه[3] وصورته ، وإنما يَحتاجُ إلى علمٍ وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزاً .

(١) م: « في صورته »
(٢) س: « بطريقة »
(٣) م: « من صورته »

فإن كان لا يعرف بعضُهم إعجازه ، فيجب أن يعرف هذا ، حتى يمكنه أن يستدل به .

ومتى رأى أهلَ ذلك اللسان قد عجزُوا عنه بأجمعهم ، مع التّحدّى إليه ، والتقريع به ، والتمكين[1] منه — صَارَ حينئذ بمنزلة من رأى اليَدَ البَيْضَاء ، وانقلابَ العصى ثعباناً تَتَلَقَّفُ مَا يَأفِكُون .

وأَمَّا من كان من أهل صنعة العربية ، والتقدُّم فى البلاغة ، ومعرفة فنون[2] القول ، ووجوه المنطق ، فإِنَّهُ يعرف — حين يسمعه — عجزَه عن الإتيان بمثله ، ويعرف أيضاً أهلُ عصره ، ممن هو فى طبقته أو يدانيه فى صناعته ، عَجْزَهم عنه ، فلا يحتاج إلى التَّحدِّى حتى يعلم به كونه مُعْجِزاً .

ولو كان أهلُ الصّنعة الذين صفتهم ما بَيَّنَّا لا يعرفون كَوْنَه معجزاً حتى يعرفوا عجزَ غيرهم عنه ، لم يجز أن يعرف النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن معجز حتى يَرَى عَجْزَ قريش عنه بعد التّحدّى إليه ، وإذا عَرَفَ عجزَ قريش لم يعرف عَجْزَ سائرِ العربِ عنه حتى ينتهى إلى التحدى إلى أقصاهم ، وحتى يعرف عجز مُسَيْلِمَةَ الكذّاب عنه ، ثم يعرف حينئذ كونه مُعْجزاً .

وهذا القول — إن قيل — أفحش ما يكون من الخطأ ! !

---

(١) ا: « والتمكن »

(٢) م: « والمعرفة بفنون »

فيجب أنْ تكون منزلةُ أهل الصنعة فى معرفة إعجاز القرآن بأنفسهم مَنْزِلَةَ من رأى اليَدَ البَيْضَاءِ وفَلْقَ البَحْرِ ، بأَنَّ ذلك معجز.

وأما مَنْ لم يكن من أهل الصنعة فلا بد له من مرتبة قبل هذه المرتبة ، يَعْرِفُ بها كونَه معجزًا ، فيساوى حينئذ أهل الصنعة ، فيكون استدلالهما فى تلك الحالة به على صدق مَنْ ظَهَرَ ذلك عليه على سَوَاء[١] ، إذا ادّعاه — دلالةً على نبوته ، وبُرهانًا على صدقه .

فأَمَّا مَنْ قدَّر أن القرآن لا يصير معجزًا إلا بالتحدى إليه ، فهو كتقدير من ظنَّ أن جميع آيات موسى وعيسى عليهما السلام ليست بآيات حتى يقع التحدّى إليها والحض عليها ، ثم يقع العجز عنها ، فيعلم حينئذ أنها معجزات[٢] .

وقد سلف من كلامنا فى هذا المعنى ما يغنى عن الإعادة .

ويبين ما ذكرناه فى غير البليغ : أنّ الأعجمى الآن لا يعرف إعجاز القرآن إلا بأُمور زائدة على الأعجمى الذى كان فى ذلك الزّمان مشاهدًا له، لأنَّ مَنْ هو من أهل العصر يحتاج أن يعرف أولاً أن العرب عجزوا عنه ، وإنما يعلم عجزهم عنه بنقل الناقلة إليه أن[٣] النبى صلى الله عليه وسلم قد تحدَّى العرب إليه فعجزوا عنه ، ويحتاج فى النقل إلى شروط ، وليس يصير القرآن بهذا النقل معجزًا ، كذلك لا يصير معجزًا بأَنْ

---

(١) س : « سواه »

(٢) م : « معجزة »

(٣) م : « لأن »

يعلم العربى الذى ليس ببليغ أنهم قد عجزوا عنه بأجمعهم[١] ، بل هو معجز فى نفسه ، وإنما طريق معرفة هـــذا[٢] وقوفهم على العلم بعجزهم عنه .

---

(١) س: « بأبلغهم »
(٢) م: « طريق المعرفة بهذا »

فصل

﴿ فى قدر المعجز من القرآن ﴾

الذى ذهب إليه عامة أصحابنا — وهو قول [الشيخ][1] أبى الحسن الأشْعَرى فى كتبه — : أن أقلّ ما يعجز عنه من القرآن السُّورةُ ، قصيرةً كانت أو طويلة ، أو ما كان بقدرها .

قال : فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة[2] ، وإن كانت سورةَ الـكَوْثَر ، فذلك معجز .

قال : ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر .

وذهبت[3] المُعْتَزِلَةُ إلى أن كل سورة برأسها فهى معجزة .

وقد حُـكى عنهم نحوُ قولنا ، إلا أنَّ منهم من لم يشترط كَوْنَ الآية بقدر السّورة ، بل شَرط الآيات الـكثيرة .

وقد علمنا أنه تحداهم تحديًا إلى السّورِ كلها ، ولم يَخُصَّ . ولم يأتوا لشىء منها بمثل ، فعُلم أنّ جميع ذلك معجز .

وأما قوله عز وجل : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾[4] ، فليس بمخالف

---

(١) الزيادة من م .

(٢) س: « السورة » .

(٣) س: « وذهب » .

(٤) سورة الطور ٥٢ .

لهذا ؛ لأنَّ الحديث التَّام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة .

وهذا يؤكد ما ذهب إليه أصحابنا ويؤيده ، وإن كان قد يتأول قوله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ على أن يكون راجعاً إلى القَبِيل دون التفصيل .

وكذلك يُحْمَلُ قولُه تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا القُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾[1] ، على القبيل ، لأنه لم يجعل الحجة عليهم عجزَهم عن الإتيان بجميعه من أوله إلى آخره .

فإن قيل : هل تعرفون إعجاز السُّوَر القِصَارِ بما تعرفون به إعجاز السّور الطِّوال ؟ وهل تعرفون إعجاز كل قَدْرٍ من القرآن بلغ الحدَّ الذى قدرتموه بمثل ما تعرفون به إعجاز سورة البقرة ونحوها ؟

فالجواب : أن [شيخنا][2] أبا الحسن الأشْعَرى ، رحمه الله[3] ، أجاب عن ذلك : بأن كلَّ سورة قد عُلِم كَوْنُها مُعجزةً بعجز العرب عنها .

وسمعت بعضَ الكبراء من أهل هذا الشأن ، يقول : إن ذلك يصح أن يكون علم ذلك توقيفاً .

والطريقة الأولى أسدُّ . وليس هذا الذى ذكرناه أخيراً بمناف له ،

---

(١) سورة الإسراء ٨٨

(٢) الزيادة من م

(٣) م: « رحمة الله عليه »

لأنه لا يمتنع أن يعلم إعجازه بطرق مختلفة تَتَوَافَق عليه وتجتمع فيه .

واعلمْ أنّ تحت اختلاف هذه الأجوبة ضرباً من الفائدة .

لأنَّ الطريقةَ الأولى تبين أن ما علم به كون جميع القرآن معجزًا موجودٌ فى كل سورة ، صغرتْ أو كبرت ، فيجب أن يكون الحكم فى الكل واحدًا .

والطريقةُ الأخيرة تتضمن تَعَذُّرَ معرفة إعجاز القرآن بالطريقة التى سلكناها فى كتابنا[1] من التفصيل الذى بيّنا ، فيما تعرف به فى الكلام الفصاحة ، وتتبين به[2] البلاغة ، حتى يعلم ذلك بوجه[3] آخر ، فيستوى فى هذا القَدْرِ البليغُ وغيرُه ، فى أن لا يعلمَهُ معجزًا حتى يستدلَّ به من وجه آخر سوى ما يعلمه البلغاء من التقدّم فى الصنعة ، وهذا غير ممتنع .

أَلاَ ترى أن الإعجاز فى بعض السور والآيات أظهرُ ، وفى بعضها أغمض [وأدق ؟ فلا يفتقر البليغ][4] فى النظر فى حال بعضها إلى تأمّل كثيرٍ ، ولا بحثٍ شديد ، حتى يتبين له الإعجاز .

ويفتقر فى بعضها إلى نظر دقيق وبحث لطيف ، حتى يقع على الجليَّة ، ويصل إلى المطلب .

---

(١) س: « فى بناء من التفصيل » .

(٢) س ، ك: « فيه » .

(٣) م : « توجه » .

(٤) الزيادة من ا ، ب ، م ، ك وفى س « أغمض وقد لايحتاج فى النظر » .

ولا[١] يمتنع أن يذهب عليه الوَجْهُ فى بعض السُّوَر ، فيحتاج أن يفزع فيه إلى إجماع أو توقيف، أو ما عَلِمَهُ من عَجْزِ العربِ قَاطِبةً عنه .

فإن ادّعى ملحدٌ ، أو زعم زنْدِيقٌ ، أَنَّه لا يقع العجزُ عن الإتيان بمثل السّور القصار أو الآيات بهذا المقدار !

قلنا له : إنّ الإعجاز قد حصل بما بيّناه ، وعُرف بما وقفنا عليه[٢] من عجز العرب عنه .

ثم فيه شىء آخر ، وهو : أن هذا سؤال لا يستقيم للملحد[٣]، لأنه يَزْعُمُ أَنَّه ليس فى القرآن كلّه إعجاز ، فكيف يجوز أن يناظره على تفصيله[٤] ؟ !

وإذا ثبت لنا معه إعجازه فى السّور الطّوال ، قامت الحجة عليه ، وثبتت المعجزة ، ولا معنى لطلبه لكثرة الأدلة والمعجزات . ونحن نعلم أن[٥] إعجاز البعض بما بيناه ، والبعض الآخر بأنه[٦] إذا ثبت الأصل لم يبق بعد ذلك إلا قولنا ؛ لأنا عرَفْنا فى البعض[٧] الإعجاز بما بينا ، ثم عَرَفنا فى الباقى بالتَّوْقِيف ، ونحو ذلك .

---

(١) م: « فلا »
(٢) م: « بما وصفناه من »
(٣) م: « للملحدة »
(٤) م : « على بعضه »
(٥) م: « نعلم إعجاز »
(٦) م: « لأنه »
(٧) م: « فى بعض »

وليس بممتنع اختلافُ حالِ الكلامِ ، حتى يكون الإعجازُ على بعضه أظهر ، وفى بعضه أغمض ؛ ومَن آمَن ببعضٍ دون بعضٍ كان مذموماً ، على ما قال الله تعالى : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ .[1] وقال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] . فظاهره عند بَعْضِ أهل التأويلِ كالدَّليل على أن الشِّفاء[3] ببعضه أوْقَعُ ، وإنْ كُنَّا نقول : إنه يدل على أن الشِّفاء[3] فى جميعه .

واعلمْ أنّ الكلامَ يقع فيه الأبلغ والبليغُ ، ولذلك كانوا يسمُّون الكلمةَ : « يتيمةً » ، ويسمون البيتَ الواحد : « يتيماً »[4] .

سمعتُ إسماعيل بن عَبَّاد[5] يقول : سمعت أبا بكر بن مِقْسَم[6] يقول : سمعت ثَعْلباً يقول : [سمعت سَلَمَةَ[7] يقول] :[8] سمعت الفرّاء

---

(١) سورة البقرة ٨٥

(٢) سورة الإسراء ٨٢

(٣) ما بين الرقمين ساقط من م

(٤) م : « بيتا »

(٥) س : « عبادة » وقد توفى الصاحب إسماعيل بن عباد سنة خمس وثمانين وثلثمائة ، كما فى وفيات الأعيان ١/٢٠٩

(٦) اسمه محمد بن الحسن بن يعقوب ، ولد سنة ٢٦٥ ومات سنة ٣٥٤ راجع ترجمته فى معجم الأدباء ١٨/١٥٠ — ١٥٤ وبغية الوعاة ص ٣٦ وتاريخ بغداد ٢/٢٠٦ — ٢٠٨

(٧) هو سلمة بن عاصم النحوى ، وراق الفراء ، راجع ترجمته فى بغية الوعاة ص ٢٦٠ ومعجم الأدباء ١١/٢٤٢ — ٢٤٣ وتاريخ بغداد ٩/١٣٤

(٨) الزيادة من ا ، ب ، م . وفى س ، ك « ثعلبا يقول سمعت الفراء » وهو خطأ فإن الفراء مات سنة سبع ومائتين ، عن سبع وستين سنة ، وقد ولد

يقول : العرب تسمى البيتَ الواحد يتيماً ، وكذلك يقال[١] : « الدرة اليتيمة » ، لانفرادها ، فإذا بلغ البيتين والثلاثة فهى « نتفة » ، وإلى العشرة تسمى « قطعة » ، وإذا بلغ العشرين استحقَّ أن يسمى « قصيدًا » ، وذلك مأخوذ من المخّ القَصِيدِ ، وهو المُتَرَاكِمُ بعضُه على بعض ، وهو ضد الرَّارِ[٢] ، ومثله الرَّثِيد[٣] .

انتهت الحكاية ، ثم استشهد بقول لَبِيد[٤] :

فَتَذَكَّرَا ثَقَلاً رَثِيدًا بَعْدَ مَا أَلْقَتْ ذُكَاءُ يَمِينَهَا فى كافِرِ[٥]

ثعلب سنة مائتين ، وتوفى سنة إحدى وتسعين ومائتين . كما فى بغية الوعاة ص ٤١١ ، ١٧٣

(١) م: « تقول »

(٢) فى اللسان ٤/٣٥٤ « وأصله من القصيد وهو المخ السمين الذى يتقصد ، أى يتكسر لسمنه ، وضده الرير والرار ، وهو المخ السائل الذائب الذى يميع كالماء ولا يتقصد »

(٣) س: « الرثيد »

(٤) فى اللسان ٤/١٥٢ « وقال ثعلبة بن صُعير المازنى — وذكر الظليم والنعامة ، وأنهما تذكرا بيضهما فى أدْحيهما فأسرعا إليه — فتذكرا ثقلا إلخ والرثد بالتحريك : متاع البيت المنضود بعضه فوق بعض ، والمتاع رثيد ومرثود » ونسبه لثعلبة أيضاً فى ٦/٤٦٣ ، كما نسبه له أيضاً ابن قتيبة فى الشعر والشعراء ١/٢٤٣ وهو لثعلبة من قصيدة فى المفضليات ص ١٣٠

(٥) س: « رثيدا » م: « فى كفار » وفى اللسان ٦/٤٦٣ «وذكاء: اسم للشمس . ألقت يمينها فى كافر : أى بدأت للمغيب . قال الجوهرى : ويحتمل أن يكون أراد الليل ، وذكر ابن السكيت أن لبيدا سرق هذا المعنى فقال :

حتى إذا ألقتْ يداً فى كافر وأجن عوْرات الثغور ظلامها »

وانظر الشعر والشعراء ١/٢٤٣

يريد بيضَ النَّعام ، لأنه ينضد بعضه على بعض .

وكذلك يقع فى الـكلام البيتُ الوَحْشِىّ والنَّادر ، والمثل السائر ؛ والمعنى الغريب ، والشىء الذى لو اجتهَدَ له لم يقع عليه ، فيَتَّفِقُ له ويصادفه .

قال لى بعضُ علماء هذه الصَّنعة — وجارَيْتُهُ فى ذلك — : إنَّ هذا مما لا سبب له يخصه ، وإنما سببه الغزارة[1] فى أصل الصنعة ، والتقدم فى عيون[2] المعرفة ؛ فإذا وجد ذلك وقع له من الباب ما يطرد عن حساب ، وما يشذّ عن تفصيل الحساب .

فأما ما قلنا : مِنْ أَنَّ ما بَلَغَ قَدْرَ السُّورة مُعْجِزٌ، فإنَّ ذلك صحيح .

---

(١) كذا فى ا ، ك ، م ، ب وفى س « القرارة »

(٢) كذا فى س ، ك وفى ا ، ب ، م « فى عنوان »

فصـــل

﴿ فى أنه هل يُعلم إعجاز القرآن ضرورةً ؟ ﴾

ذهب [الشيخ][١] أبو الحسن الأَشْعَرى إلى أن ظهور ذلك عن[٢] النبي صلى الله عليه وسلم يُعلم ضرورةً ، وكونَه معجزًا يعلم باستدلال[٣]. وهذا المذهب محكى عن المخالفين .

والذى نقوله فى هذا : أن الأعجمى لا يمكنه أن يعلم إعجازَه إلا استدلالًا ، وكذلك مَن لم يكن بليغاً .

فأما البليغ الذى قد أحاط بمذاهب العربية وغرائب الصنعة ، فإنه يعلم من نفسه ضرورةً عجزَه عن الإتيان بمثله ، ويعلم عجزَ غيره بمثل ما يعرف عجزَ نفسه ؛ كما أنه إذا علم الواحدُ منَّا أنه لا يقدر على ذلك ، فهو[٤] يعلم عجزَ غيره استدلالًا .

---

(١) الزيادة من م

(٢) س ، ك: « على »

(٣) م : « بالاستدلال »

(٤) م: « فقد » . ك : « وهو » . ا : « وقد »

فصـــل

﴿ فيما يتعلق به الإعجاز ﴾

إن قال قائل : بَيِّنُوا لنا ما الذى وقع التحدى إليه ؟ : أهو الحروف المَنْظُومَة ؟ أو الكلام القائم بالذات ؟ أو غير ذلك ؟

قيل : الذى تحدّاهم به : أن يأتوا بمثل الحروف التى هى نظم القرآن ، منظومةً كنظمها، متتابعةً كتتابعها ، مُطَّرِدَةً كاطّرادها ؛ ولم يتحدَّهم إلى أن يأتوا بمثل الكلام القديم الذى لا مثل له .

وإن كان كذلك فالتحدى واقع إلى أن يأتوا بمثل الحروف المنظومة، التى هى عبارة عن كلام الله تعالى فى نظمها وتأليفها ، وهى حكاية لكلامه ، ودلالات عليه ، وأمارات[1] له ، على أن يكونوا مستأنفين لذلك، لا حاكين بما أتى به النبى صلى الله عليه وسلم .

ولا يجب أن يُقَدِّرَ مقدر أو يظنّ ظانّ أنّا حين قلنا : إن القرآن معجز ، وإنَّه[2] تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله — أردْنا غير ما فسّرْناه ، من العبارات عن الكلام القديم القائم بالذات .

وقد بينّا قبل هذا أنه لم يكن ذلك معجزًا ، لكونه عبارة عن

(١) م : « ودلالة . . . وأمارة »

(٢) س : « فإنه »

الـكلام[١] القديم،لأن التوراة والإنجيل عبارة عن الـكلام[٢] القديم. وليس ذلك بمعجز فى النظم والتأليف ، وكذلك ما دون الآية — كاللفظة — عبارةٌ عن كلامه ، وليست بمنفردها بمعجزة .

وقد جوَّز بعض أصحابنا : أن يتحداهم إلى مثل كلامه القديم القائم بنفسه !

والذى عول عليه مشايخنا ما قدّمنا ذكره ، وعلى ذلك أكثر مذاهب الناس .

ولم نُحِبّ أن نفسّر ونذكر مُوجَبَ هذا المذهب الذى حكيناه وما يتصل به ، لأنه خارج عن غرض كتابنا ، لأن الإعجاز وَاقِعٌ[٣] فى نظم الحروف التى هى دلالات وعبارات عن كلامه ، وإلى مثل هذا النظم وقع التحدى ، فبينّا وجه ذلك ، وكيفيةَ ما نتصور[٤] القول فيه ، وأزلنا تَوَهُّمَ مَن يتوهَّمُ[٥] أن الـكلام القديم حروفٌ منظومة ، أو حروفٌ غير منظومة ، أو شيءٌ مؤلَّف[٦] أو غير ذلك ، مما يصح أن يُتَوَهَّمَ ، على ما سبق من إطْلاقِ القول فيما مضى .

---

(١) م ، ك : « كلام »

(٢) ك ، م: « كلام »

(٣) س : « وقع »

(٤) س ، ك: « ما يتصور»

(٥) س ، ك: « من يتوهم »

(٦) ا ، م: « مؤتلف أو نحو »

فصـــل

﴿ فى وصف وجوه من البلاغة ﴾

ذكر بعضُ أهل الأدب والكلام[(١)] : أن البلاغة على عشرة أقسام[(٢)] :

الإيجَاز ، والتشبيه ، والاستعارة ،والتّلاؤُم ، والفوَاصِل ، والتَّجَانس، والتَّصْرِيف ، والتَّضْمِين ، والمبالغة ، وحسن البيان[(٣)] .

فأما الإيجاز فإنما يحسن مع ترك الإخلال باللفظ والمعنى ، فيأتى باللفظ القليل الشامل لأُمور كثيرة .

وذلك ينقسم إلى حذف ، وقصر :

---

(١) هذا البعض الذى لم يشأ المؤلف أن يصرح باسمه هو معاصره أبو الحسن على بن عيسى الرمانى ، المعتزلى (٢٩٦ — ٣٨٤ هـ) صاحب كتاب النكت فى إعجاز القرآن ، الذى نقل عنه المؤلف هذا الفصل الطويل . راجع ترجمة الرمانى فى ابن خلكان ٤٦١/٢ ، وبغية الوعاة ٣٤٤ والإمتاع والمؤانسة ١٣٣/١ ومعجم الأدباء ٧٣/١٤ — ٧٨ وفهرست ابن النديم ص ١٤ ، ٧٣ ، ٧٨ ونزهة الألبا ص ٣٨٩ — ٣٩٢ .

(٢) النكت ص ١

(٣) قال الرمانى بعد ذلك : « ونحن نفسرها باباً باباً : الإيجاز تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى ، وإذا كان المعنى يمكن أن يعبر عنه بألفاظ كثيرة فالألفاظ القليلة إيجاز . والإيجاز على وجهين : حذف وقصر ، فالحذف إسقاط كلمة للإجزاء عنها بدلالة غيرها من الحال أو فحوى الكلام . والقصر : بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف » .

فالحذف : الإسقاط للتخفيف ، كقوله : ﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ﴾[١] .

وقوله : ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ﴾[٢] .

وحذف الجواب كقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾[٣] . كأنه قيل : لكان هذا القرآن .

والحذف أبلغ من الذكر ،لأن النفس تذهب كلَّ مذهب فى القصد من الجواب[٤] .

والإيجازُ بالقصر[٥] كقوله : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ[٧] ﴾ .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾[٨] .

وقوله : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾[٩] .

---

(١) سورة يوسف ٨٢

(٢) سورة محمد ٢١

(٣) سورة الرعد ٣١

(٤) فى النكت بعد ذلك : « ولو ذكر الجواب لقصر على الوجه الذى تضمنه البيان » .

(٥) قال الرمانى ص ٢ : « وأما الإيجاز بالقصر دون الحذف فهو أغمض من الحذف ، وإن كان الحذف غامضاً للحاجة إلى العلم بالمواضع التى تصلح من المواضع التى لا تصلح »

(٦) سورة البقرة ١٧٩

(٧) سورة المنافقون ٤

(٨) سورة يونس ٢٣

(٩) سورة فاطر ٤٣ . وقال الرمانى بعد استشهاده بالآيات السابقة :

والإطناب[١] فيه بلاغة ، فأما التطويل ففيه عِيٌّ[٢] .

« وهذا الضرب من الإيجاز فى القرآن كثير . وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل . وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت فى البلاغة والإيجاز . وذلك يظهر من أربعة أوجه : أنه أكثر فى الفائدة ، وأوجز فى العبارة ، وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة ، وأحسن تأليفاً بالحروف المتلائمة . أما الكثرة فى الفائدة ففيه كل ما فى قولهم : القتل أنفى للقتل ، وزيادة معان حسنة : منها إبانة العدل لذكره القصاص ، ومنها إبانة الغرض المرغوب فيه لذكر الحياة ، ومنها الاستدعاء بالرغبة والرهبة لحكم الله به ، وأما الإيجاز فى العبارة ، فإن الذى هو نظير : القتل أنفى للقتل — قوله تعالى « القصاص حياة » والأول أربعة عشر حرفاً ، والثانى عشرة حروف . وأما بعده عن الكلفة بالتكرير الذى فيه على النفس مشقة ، فإن فى قولهم : القتل أنفى للقتل — تكريراً غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر فى باب البلاغة عن أعلى طبقة . وأما الحسن بتأليف الحروف المتلائمة فهو مدرك بالحس ، وموجود فى اللفظ ، فإن الخروج من الفاء إلى اللام أعدل من الخروج من اللام إلى الهمزة ؛ لبعد الهمزة من اللام ، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء أعدل من الخروج من الألف إلى اللام . فباجتماع هذه الأمور التى ذكرناها صار أبلغ منه وأحسن ، وإن كان الأول بليغاً حسناً » .

(١) س: « وإطناب »

(٢) قال الرمانى ص ٣: « والإيجاز بلاغة والتقصير عى ، كما أن الإطناب بلاغة والتطويل عى . والإيجاز لا إخلال فيه بالمعنى المدلول عليه ، وليس كذلك التقصير ، لأنه لا بد فيه من الإخلال . فأما الأطناب فإنما يكون فى تفصيل المعنى وما يتعلق به فى المواضع التى يحسن فيها ذكر التفصيل . . . فأما التطويل فعيب وعى ، لأنه تكلف الكثير فيما يكفى فيه القليل ، فكان كالسالك طريقاً بعيداً جهلا منه بالطريق القريب . وأما الإطناب فليس كذلك ؛ لأنه كمن سلك طريقاً بعيداً لما فيه من النزهة الكثيرة والفوائد العظيمة ، فيحصل له فى الطريق إلى غرضه من الفائدة نحو ما يحصل له بالغرض المطلوب » .

* * *

وأما التشبيه، فهو العقد[١] على أن أحد الشيئين يسدُّ مَسدَّ الآخر فى حس أو عقل، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾[٢].

وقوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ[٣]﴾.

وقوله: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾[٤].

---

(١) س، ك: «التشبيه بالعقد». والتصحيح من م والنكت ص ٥

(٢) سورة النور ٣٩. وقال الرمانى بعد ذكره لهذه الآية ص ٦: «وهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، وقد اجتمعا فى بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة. ولو قيل: يحسبه الرائى ماء، ثم يظهر أنه على خلاف ما قد رأى لكان بليغاً، وأبلغ منه لفظ القرآن؛ لأن الظمآن أشد حرصاً عليه، وتعلق قلب به. ثم بعد هذه الخيبة حصل على الحساب الذى يصيره إلى عذاب الأبد فى النار، نعوذ بالله من هذه الحال. وتشبيه أعمال الكفار بالسراب من حسن التشبيه، فكيف إذا تضمن مع ذلك حسن النظم، وعذوبة اللفظ، وكثرة الفائدة، وصحة الدلالة».

(٣) سورة إبراهيم ١٨. وقال الرمانى ص ٧: «فهذا بيان قد أخرج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة. فقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الهلاك وعدم الانتفاع والعجز عن الاستدراك لما فات؛ وفى ذلك الحسرة العظيمة، والموعظة البليغة».

(٤) سورة الأعراف ١٧١. وقال الرمانى ص ٧: «وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة، وقد اجتمعا فى معنى الارتفاع فى الصورة. وفيه أعظم الآية لمن فكر فى مقدورات الله تعالى عند مشاهدته لذلك أو علمه به، ليطلب الفوز من قبله، ونيل المنافع بطاعته».

وقوله : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾[1]

وقوله : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ

---

(١) سورة يونس ٢٤ . وقال الرمانى ص٧ : « وهذا بيان قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة . وقد اجتمع المشبه والمشبه به فى الزينة والبهجة ، ثم الهلاك بعده . وفى ذلك العبرة لمن اعتبر ، والموعظة لمن تفكر فى أن كل فان حقير وإن طالت مدته ، وصغير وإن كبر قدره » .

(٢) سوره القمر ١٩ ، ٢٠ . وقال الرمانى ص٨ : « وهذا بيان قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به العادة . وقد اجتمعا فى قلع الريح لهما ، وإهلاكها إياهما . وفى ذلك الآية الدالة على عظيم القدرة ، والتخويف من تعجيل العقوبة » .

(٣) سورة الرحمن ٣٧ . وقال الرمانى : « فهذا تشبيه قد أخرج مالم تجر به عادة إلى ما قد جرت به ، وقد اجتمعا فى الحمرة وفى لين الجواهر السيالة ، وفى ذلك الدلالة على عظم الشأن ونفوذ السلطان ، لتنصرف الهمم إلى ماهنالك بالأمل » .

نَبَاتُهُ ، ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ، ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾[١] .

وقوله : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ، إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾[٥] .

وقوله: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ

---

(١) سورة الحديد ٢٠ وقال الرمانى ص ٨: « فهذا تشبيه قد أخرج ما لم تجر به عادة إلى ما قد جرت به . وقد اجتمعا فى شدة الإعجاب ، ثم فى التغير بالانقلاب . وفى ذلك الاحتقار للدنيا ، والتحذير من الاغترار بها والسكون إليها »

(٢) سورة الحديد ٢١ وقال الرمانى: « فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة . وفى ذلك البيان العجيب بما قد تقرر فى النفس من الأمور ، والتشويق إلى الجنة بحسن الصفة مع ما لها من السعة » .

(٣) سورة الجمعة ٤ وقال الرمانى ص ٨: « وهذا تشبيه قد أخرج فيهما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة . وقد اجتمعا فى الجهل بما حملا . وفى ذلك العيب لطريقة من ضيّع العلم بالاتكال على حفظ الرواية من غير دراية » .

(٤) سورة الأعراف ١٧٦ وقال الرمانى ص ٧: « فهذا بيان قد أخرج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه . وقد اجتمعا فى ترك الطاعة على كل وجه من وجوه التدبير ، وفى التخسيس ، فالكلب لا يطيعك فى ترك اللهث حملت عليه أو تركته . وكذلك الكافر لا يطيعك بالإيمان على رفق ولا عنف . وهذا يدل على حكمة الله سبحانه فى أنه لا يمنع اللطف » .

(٥) سورة الحاقة ٧ وقال الرمانى ص ٩ « وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة . وقد اجتمعا فى خلو الأجساد من الأرواح . وفى ذلك الاحتقار لكل شىء يؤول به الأمر إلى ذلك المآل » .

اتَّخَذَتْ بَيْتاً ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ[١] ﴾ .

وقوله : ﴿ وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ[٢] ﴾ .

وقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾[٣] . ونحو ذلك .

* * *

ومن ذلك : باب الاستعارة ، وذلك يُباين[٤] التشبيه .

كقوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً[٥] ﴾ .

---

(١) سورة العنكبوت ٤١ وقال الرمانى : « فهذا تشبيه قد أخرج ما لا يعلم بالبديهة إلى ما يعلم بالبديهة . وقد اجتمعا فى ضعف المعتمد ووَهْى المستند . وفى ذلك التحذير من حمل النفس على الغرور بالعمل على غير يقين ، مع الشعور بما فيه من التوهين » .

(٢) سورة الرحمن ٢٤ وقال الرمانى : « فهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له القوة فيها . وقد اجتمعا فى العظم ، إلا أن الجبال أعظم . وفى ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر من الفلك الجارية مع عظمها ، وما فى ذلك من الانتفاع بها وقطع الأقطار البعيدة فيها » .

(٣) سورة الرحمن ١٤ وقال الرمانى : « وهذا تشبيه قد أخرج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له القوة . وقد اجتمعا فى الرخاوة والجفاف ، وإن كان أحدهما بالنار والآخر بالرياح » .

(٤) كذا فى ا ، م . وفى ك ، س : « الاستعارة وهو بيان التشبيه »

(٥) سوره الفرقان ٢٣ وقال الرمانى ص ١٠ : « حقيقة " قدمنا " هنا : عمدنا . وقدمنا أبلغ منه ، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر لأنه من أجل إمهاله لهم كمعاملة الغائب عنهم ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم . وفى هذا تحذير من الاغترار بالإمهال . والمعنى الذى يجمعهما العدل ؛ لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل . والقدوم أبلغ لما بينا . وأما هباء منثوراً فبيان قد أخرج ما لا تقع عليه حاسة إلى ما تقع عليه حاسة » .

وكقوله : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1] .

وكقوله : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴾[2] .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ ﴾[3] .

وكقوله : ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾[4] .

وقوله: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[5] .

فالدّمغ والقذف مستعارٌ .

---

(١) سورة الحجر ٩٤ وقال الرمانى ص ١١ : « حقيقته بلغ ما تؤمر به . والاستعارة أبلغ من الحقيقة ، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة . والتبليغ قد يضعف حتى لا يكون له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع . والمعنى الذى يجمعهما الإيصال ، إلا أن الإيصال الذى له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ » .

(٢) سورة الحاقة ١١ وقال الرمانى ص ١١ : « حقيقته علا . والاستعارة أبلغ ، لأن طغى علا قاهراً . وهو مبالغة فى عظم الحال » .

(٣) سورة الأعراف ١٥٤ وقال الرمانى ص ١٢ : «حقيقته انتفاء الغضب. والاستعارة بسكت أبلغ ؛ لأنه انتفى انتفاء مراصد بالعود ، فهو كالسكوت على مراصدة الكلام بما توجبه الحكمة فى الحال ، فانتفاء الغضب بالسكوت عما يكره. والمعنى الجامع بينهما الإمساك عما يكره » .

(٤) سورة الإسراء ١١ وقال الرمانى ص ١٢ : « فمبصرة ها هنا استعارة. وحقيقتها : مضيئة . وهى أبلغ من مضيئة ؛ لأنه أدل على موقع النعمة ، لأنه يكشف عن وجه المنفعة . وقيل هو بمعنى ذات إبصار ، وعلى هذا يكون حقيقة » .

(٥) سورة الأنبياء ١٢ وقال الرمانى ص ١٣ : « القذف والدمغ ها هنا مستعار . وهو أبلغ ، لأن فى القذف دليلا على القهر ، لأنك إذا قلت : قذف به إليه ، فإنما معناه ألقاه إليه على جهة الإكراه والقهر .فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب . ويدمغه أبلغ من يذهبه ، لما فى يدمغه من التأثير فيه ، فهو أظهر فى النكأة وأعلى فى تأثير القوة»

وقوله : ﴿ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾[١] .

وقوله : ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا ﴾[٦] .

---

(١) سورة يس ٣٧ وقال الرمانى : « نسلخ مستعار ، وحقيقته : نخرج . والاستعارة أبلغ ؛ لأن السلخ إخراج الشىء مما لابسه وعسر انتزاعه منه لالتحامه به ، فكذلك قياس الليل » .

(٢) سورة الأنفال ٧ وقال الرمانى ص ١٣ : « اللفظ ها هنا بالشوكة مستعار ، وهو أبلغ . وحقيقته : السلاح ، فذكر الحد الذى به تقع المخافة واعتمد على الإيماء إلى النكتة ، إذ كان السلاح يشتمل على ما له حد وما ليس له حد ، فشوكة السلاح هى التى تبقى » .

(٣) سورة فصلت ٥١ وقال الرمانى : « عريض ها هنا مستعار . وحقيقته : كثير . والاستعارة فيه أبلغ ، لأنه أظهر بوقوع الحاسة عليه ، وليس كذلك كل كثرة . وقيل : عريض لأن العرض أدلّ على الطول » .

(٤) سورة محمد ٤ وقال الرمانى ص ١٤ : « وهذا مستعار . وحقيقته: حتى يضع أهل الحرب أثقالها ، فجعل وضع أهلها الأثقال وضعاً لها على جهة التفخيم لشأنها »

(٥) سورة التكوير ١٨ وقال الرمانى ١١ : وتنفس ها هنا مستعار . وحقيقته : إذا بدأ انتشاره . وتنفس أبلغ منه . ومعنى الابتداء فيهما ، إلا أنه فى التنفس أبلغ ؛ لما فيه من الترويح عن النفس » .

(٦) سورة البقرة ٢١٤ وقال الرمانى ص ١٤ : « هذا مستعار . وزلزلوا أبلغ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم . ومعنى حركة الإزعاج فيهما ، إلا أن الزلزلة أبلغ وأشد » .

وقوله : ﴿ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ (٢) .

وقوله : ﴿حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (٣) .

وقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ (٤) .

وقوله : ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (٥) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ﴾ (٦) .

---

(١) سورة آل عمران ١٧٨ وقال الرمانى : « حقيقته : تعرضوا للغفلة عنه . والاستعارة أبلغ ؛ لما فيه من الإحالة على ما يتصور » .

(٢) سورة يونس ٢٤ وقال الرمانى ص ١٦ : « أصل الحصيد للنبات . وحقيقته : مهلكة . والاستعارة أبلغ ؛ لما فيه من الإحالة على إدراك البصر » .

(٣) سورة الأنبياء ١٥ وقال الرمانى : « أصل الخمود للنار ، وحقيقته : هادئين . والاستعارة أبلغ ؛ لأن خمود النار أقوى فى الدلالة على الهلاك ، على حد قولهم : طفىء فلان كما يطفأ السراج » .

(٤) سورة الشعراء ٢٢٥ وقال الرمانى ص ١٦ : « واد ها هنا مستعار . وكذلك الهيمان . وهو من أحسن البيان ، وحقيقته : يخلطون فيما يقولون ، لأنهم ليسوا على قصد الطريق الحق . والاستعارة أبلغ ، لما فيه من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك من تخليط الإنسان بالهيمان فى كل واد يعن له فيه الذهاب » .

(٥) سورة الأحزاب ٤٦ وقال الرمانى ص ١٦ : « السراج ها هنا مستعار ، وحقيقته : مبيناً ، والاستعارة أبلغ ، للإحالة على ما يظهر بالحاسة » .

(٦) سورة الإسراء ٢٩ وقال الرمانى ص ١٧ : « حقيقته : لا تمنع نائلك كل المنع . والاستعارة أبلغ ، لأنه جعل منع النائل بمنزلة غل اليد إلى العنق ، وذلك مما يحس الحال ، والتشبيه فيه بالمنع فيهما ، إلا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يكره » .

وقوله : ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ﴾[١] .

وقوله : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ ﴾[٢] . يريد : أن لا إحساس بآذانهم من غير صمم .

وقوله : (ولَمَّا سُقِطَ فى أَيْدِيهِمْ[٣]) .

وهذا أوقع من اللفظ الظاهر ، وأبلغ من الكلام الموضوع [له][٤] .

* * *

(١) سورة السجدة ٢١ وقال الرمانى ص ١٧ : « حقيقته : لنعذبنهم . والاستعارة أبلغ ، لأن إحساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه ولأنه جعل بدل إحساس الطعام المستلذ إحساس الآلام لأن الأسبق فى الذوق ذوق الطعام » .

(٢) سورة الكهف ١١ وقال الرمانى ص ١٧ : « حقيقته : منعناهم الإحساس بآذانهم من غير صمم . والاستعارة أبلغ لأنه كالضرب على الكتاب فلا يقرأ ، كذلك المنع من الإحساس فلا يحس . وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير عمى فلا يبطل الإدراك رأساً ، وذلك بتغميض الأجفان ، وليس كذلك منع السماع من غير صمم فى الآذان ؛ لأنه إذا ضرب عليها من غير صمم دل على عدم الإحساس من كل جارحة يصح بها الإدراك ، ولأن الأذن لما كان طريقاً إلى الانتباه ثم ضرب عليها لم يكن سبيل إليه » .

(٣) سورة الاعراف ١٤٩ وقال الرمانى ص ١٧ : « هذا مستعار . وحقيقته : ندموا لما رأوا من أسباب الندم . إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط فى اليد ، فكانت حاله أكشف فى سوء الاختيار لما يوجب الوبال » .

(٤) الزيادة من ا ، ك ، م

وأما التلاؤم، فهو: تعديل الحروف فى التأليف. وهو نقيض التنافر، [الذى هو][1] كقول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ[2]

قالوا: هو من شعر الجن! وحروفه متنافرة، لا يمكن إنشاده إلاَّ بِتَتَعْتُعٍ فيه![3]. والتلاؤم على ضربين:

أحدهما فى الطبقة الوسطى، كقوله[4]:

رَمَتْنِي وسِتْرُ اللهِ بَيْنِي وَبَيْنَها عَشِيَّةَ آرَامِ الكِنَاسِ رَمِيمُ[5]

رَمِيمُ التى قالت لِجاراتِ بَيْتِها: ضَمِنْتُ لكم أن لا يزالَ يَهِيمُ[6]

---

(١) الزيادة من م.

(٢) البيت مجهول النسبة، بل نسب إلى الجن، وحرب: هو حرب بن أمية بن عبد شمس، والد أبى سفيان بن حرب. راجع البيان والتبيين ١ / ٦٥ والحيوان ٦/ ٢٠٧ وشرح شواهد الشافية ص ٤٨٧ ونهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى ص ٢٦ والبداية والنهاية لابن كثير ٢ / ٢٧٧

(٣) نص عبارة الرمانى ص ١٨: «وذكروا أن هذا من أشعار الجن، لأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات فلا يتتعتع. وإنما السبب فى ذلك ما ذكرناه من تنافر الحروف».

(٤) هو أبو حية النميرى كما فى الكامل للمبرد ص ١٩ وأمالى الشريف ٢/ ١٠٢ وحماسة ابن الشجرى ص ١٥٣ وأمالى القالى ٢ / ٢٨٠

(٥) فى الكامل ص ١٩: «قيل فى ستر الله: الإسلام، وقيل إنه الشيب، وقيل ما حرّم الله». وفى الأمالى: «عشية أحجار الكناس» وكذلك فى اللسان ١٥/ ١٤٨ وفيه: «أراد بأحجار الكناس: رمل الكناس» والكناس الموضع الذى تأوى إليه الظباء ورميم اسم جارية، مأخوذ من العظام الرميم، وهى البالية، كما قال الأخفش فى زياداته على الكامل ص ١٩ وفى اللسان: «ورميم من أسماء الصبا وبه سميت المرأة، ثم أنشد البيت شاهداً على ذلك».

(٦) سقط هذا البيت من ا، م

أَلاَ رُبَّ يومٍ لو رَمَتْنِي رَمَيْتُها ولكنَّ عَهْدِي بالنِّضَالِ قديمُ[١]

قالوا[٢] : والمتلائم فى الطبقة العليا القرآنُ كله ، وإن كان بعضُ الناس أحسنَ إحساساً له من بعض ، كما أن بعضَهم يفطن للموزون بخلاف بعض .

والتلاؤم[٣] : حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، ووقع المعنى فى القلب . وذلك كالخط الحسن والبيان الشافى ، والمتنافر

---

(١) قال أبو العباس المبرد : « يقول رمتنى بطرفها وأصابتنى بمحاسنها ، ولو كنت شابًّا لرميت كما رُميت ، وفَتنتُ كما فُتنتُ ، ولكن قد تطاول عهدى بالشباب »

(٢) نص عبارة الرمانى بعد الأبيات : « والمتلائم فى الطبقة العليا القرآن كله ، وذلك بين لمن تأمله ، والفرق بينه وبين غيره من الكلام فى تلاؤم الحروف ، على نحو الفرق بين المتلائم والمتنافر فى الطبقة الوسطى . وبعض الناس أشد إحساساً بذلك وفطنة له من بعض ، كما أن بعضهم أشد إحساساً بتمييز الموزون فى الشعر من المكسور ، واختلاف الناس فى ذلك من جهة الطباع كاختلافهم فى الصور والأخلاق . والسبب فى التلاؤم تعديل الحروف فى التأليف ، فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً »

(٣) قال الرمانى ص ١٨ : « والفائدة فى التلاؤم حسن الكلام فى السمع ، وسهولته فى اللفظ ، وتقبل المعنى له فى النفس لما يرد عليها من أحسن الصورة وطريق الدلالة . ومثل ذلك مثل قراءة الكتاب فى أحسن ما يكون من الخط والظرف ، وقراءته فى أقبح ما يكون من الظرف والخط ، فذلك متفاوت فى الصورة وإن كانت المعانى واحدة . . . والتلاؤم فى التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد ، وذلك يظهر بسهولته على اللسان ، وحسنه فى الأسماع ، وتقبله فى الطباع . فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان فى صحة البرهان فى أعلى الطبقات ظهر الإعجاز للجيد الطباع ، البصير بجواهر الكلام ، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها إذا تفاوت ما بينهما »

كالخط القبيح ، فإذا أُنضاف إلى التلاؤم حسن البيان وصحة البرهان فى أعلى الطبقات ، ظَهَرَ الإعجاز لمن كان جَيِّدَ الطَّبع ، وبصيراً بجواهر[١] الكلام ، كما يظهر له أعلى طبقة الشعر .

والمتنافر[٢]، ذهب الخليلُ إلى أنه من بُعْدٍ شديد ، أو قُرْبٍ شديد ؛ فإذا بَعُدَ فهو كالطَّفْر[٣] . وإذا قَرُب جداً كان بمنزلة مشى المقيَّد . ويبين ذلك بقرب مخارج الحروف وتباعدِها .

* * *

وأما الفواصل : فهى حروف متشاكلة فى المقاطع ، يقع بها إفهام المعانى ، وفيها بلاغة . والأسجاع عيبٌ ، لأن السجع يتبعه[٤] المعنى ، والفواصل تابعة للمعانى[٥] . والسجع كقول مُسَيْلِمَة .

---

(١) س ، ك : « بجودة الكلام »

(٢) قال الرمانى ص ١٨ : « وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد ، أو القرب الشديد ، وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر ، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشى المقيد ، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه ، وكلاهما معيب على اللسان ، والسهولة من ذلك فى الاعتدال ، ولذلك وقع فى الكلام الإدغام والإبدال » .

(٣) س ، ك : « كالظفر » .

(٤) س ، ك : « يتبع » .

(٥) قال الرمانى ص ١٩ : « والفواصل بلاغة ، والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعانى ، وأما الأسجاع فالمعانى تابعة لها ، وهو قلب ما توجبه الحكمة فى الدلالة ، إذا كان الغرض الذى هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعانى التى الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلته إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذى

ثم الفواصلُ قد تقع على حروف متجانسة ، كما قد تقع على حروف متقاربة ؛ ولا تحتمل القوافى ما تحتمل الفواصل ، لأنها ليست فى الطبقة العليا فى البلاغة ، لأن الكلام يحسن فيها بمجانسة القوافى وإقامة الوزن[1] .

وأما التَّجَانُسُ ، فهو : بيــــان بأنواع الكلام الذى يجمعه أصل واحد .

وهو على وجهين : مُزَاوَجَة ، ومناسبة .

فالمُزَاوَجَةُ كقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اُعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاُعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اُعْتَدَى عَلَيْكُمْ[2] ﴾ .

توجبه الحكمة ، ومثله مثل من رصع تاجاً ثم ألبسه زنجيًّا ساقطاً ، أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً ! وقبح ذلك وعيبه بين لمن له أدنى فهم . . . وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة ؛ لأنها طريق إلى أظهار المعانى التى يحتاج إليها فى أحسن صورة يدل بها عليها » .

(١) قال الرمانى ص ٢٠ : « وإنما حسن فى الفواصل الحروف المتقاربة لأنه يكتنف الكلام من البيان ما يدل على المراد فى تمييز الفواصل والمقاطع لما فيه من البلاغة وحسن العبارة . وأما القوافى فلا تحتمل ذلك ؛ لأنها ليست فى الطبقة العليا من البلاغة . وإنما حسن الكلام فيها إقامة الوزن ومجانسة القوافى ، فلو بطل أحد الشيئين خرج عن ذلك المنهاج ، وبطل ذلك الحسن الذى له فى الأسماع ، ونقصت رتبته فى الأفهام. والفائدة فى الفواصل دلالتها على المقاطع ، وتحسينها بالتشاكل ، وإبداؤها فى الآى بالنظائر » .

(٢) سورة البقره ١٩٤ وقال الرمانى ص ٢١ : «فالمزاوجة تقع فى الجزاء كقوله تعالى : " فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه " أى جازوه بما يستحق على طريق العدل ، إلا أنه استعير للثانى لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة فى المقدار ، فجاء على مزاوجة الكلام بحسن البيان » .

وقوله : ﴿ ومَكَرُوا ومَكَرَ اللهُ ﴾(١) .

وكقول عَمْرُو بن كُلْثُوم(٢) :

أَلَا لَا يَجْهَلَنْ أحـــدٌ علينا فنجهلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا(٣)

* * *

وأمّا المُنَاسَبة ، فهى كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ(٤) ﴾ .

وقوله : ﴿ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلُوبُ والأَبْصَارُ ﴾(٥) .

* * *

---

(١) سورة آل عمران ٥٤ وقال الرمانى ص٢١ : « أى جازاهم على مكرهم ، فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر لتحقيق الدلالة على أن وبال المكر راجع عليهم ومختص بهم » .

(٢) من معلقته ، وهو فى شرح القصائد العشر ص ٢٣٨ وأمالى المرتضى ٢ / ٨ والصاحبى ص ١٩٦ وما اتفق لفظه واختلف معناه فى القرآن الكريم للمبرد ص ١٤ وأساس البلاغة ١ / ١٤٥ ومجمع البيان ١ / ٥٢

(٣) قال الرمانى ص ٢٢ : « فهذا حسن فى البلاغة ولكنه دون بلاغة القرآن ، لأنه لا يؤذن بالعدل كما آذنت بلاغة القرآن ، وإنما فيه الإيذان براجع الوبال فقط . . . » .

(٤) سورة التوبة ١٢٧ وقال الرمانى ص ٢٢ : « الثانى من التجانس وهو المناسبة ، وهى تدور فى فنون المعانى التى ترجع إلى أصل واحد ، فمن ذلك قوله « ثم انصرفوا . . . فجونس بالانصراف عن الذكر صرف القلب عن الخير . والأصل فيه واحد ، وهو الذهاب عن الشىء ؛ أما هم فذهبوا عن الذكر ، وأما قلوبهم فذهب عنها الخير » .

(٥) سورة النور ٣٧ وقال الرمانى : « فجونس بالقلوب التقلب . والأصل واحد فالقلوب تتقلب بالخواطر ، والأبصار تتقلب فى المناظر . والأصل التصرف » .

وأما التَّصْرِيفُ[1]، فهو : تصريف الكلام فى المعانى ، كتصريفه فى الدلالات المختلفة[2] ؛ كتصريف « الملك » فى معانى الصفات ، فَصُرِّفَ فى معنى «مالك» و «ملك» و « ذى الملكوت » و «المليك»، وفى معنى « التمليك » و « والتملك » و « الإملاك » ؛ وتصريفِ المعنى فى الدلالات المختلفة ، كما كرر من قصة موسى فى مواضع[3] .

* * *

وأما التَّضْمِين ، فهو : حصول معنىً فيه من غير ذكره له باسم أو صفةٍ هى عبارةٌ عنه[4] .

---

(١) بقية كلام الرمانى بعد ذلك : « وهو عقدها به على جهة التعاقب. فتصريف المعنى فى المعانى كتصريف الأصل فى الاشتقاق فى المعانى المختلفة ، وهو عقدها به على جهة المعاقبة كتصريف الملك » إلخ .

(٢) قال الرمانى ص ٢٣ : « . . . وهذا الضرب من التصريف فيه بيان عجيب يظهر فيه المعنى بما يكتنفه من المعانى التى تظهره وتدل عليه »

(٣) قال الرمانى ص ٢٣ : « أما تصريف المعنى فى الدلالات المختلفة فقد جاء فى القرآن فى غير قصة ، منها قصة موسى عليه السلام ، ذكرت فى سورة الأعراف ، وفى طه ، والشعراء ، وغيرها ، لوجوه من الحكمة : منها التصرف فى البلاغة من غير نقصان عن أعلى مرتبة . ومنها تمكين العبرة والموعظة . ومنها حل شبهة فى المعجزة . . . » .

(٤) قال الرمانى بعد ذلك ص ٢٤ : « والتضمين على وجهين : أحدهما ما كان يدل عليه الكلام مما كان يدل عليه دلالة الإخبار . والآخر ما يدل عليه دلالة القياس . فالأول كذكرك الشيء بأنه محدث ، فهذا يدل على الحادث دلالة الإخبار ، فأما حادث فيدل على المحدث دلالة القياس دون دلالة الإخبار. والتضمين فى الصفتين جميعاً ، إلا أنه على الوجه الذى بينا . . . »

وذلك على وجهين :

تضمينٌ تُوجِبُهُ البِنْية ، كقولنا : « معلوم » ، يوجب أنه لا بد من عالم .

وتضمينٌ يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلّا به ، كالصفة بضارب ، يدل على مضروب(١) .

والتضمين كله إيجاز ، [وذكر : أن] التضمين الذى تدل عليه دلالات القياس أيضاً إيجاز(٢) .

وذكر : أنّ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ من باب التضمين ، لأنه

---

(١) قال الرمانى ص ٢٤ : « والتضمين على وجهين : تضمين توجبه البنية وتضمين يوجبه معنى العبارة من حيث لا يصح إلا به ، ومن حيث جرت العادة بأن يقصد به . فالذى توجبه نفس البنية فالصفة بمعلوم توجب أنه لا بد من عالم وكذلك مكرم . وأما الذى يوجبه معنى العبارة من حيث لا تصح إلا به فكالصفة بقاتل ، تدل على مقتول من حيث لا يصح معه معنى قاتل ولا مقتول ، فهو على دلالة التضمين . والتضمين الذى يوجبه معنى العبارة من جهة جريان العادة فكقولهم : السكر بستين ، المعنى فيه بستين ديناراً ، فهذا مما حذف وضمن الكلام معناه لجريان العادة به » .

(٢) قال الرمانى : « والتضمين كله إيجاز استغنى به عن التفصيل ؛ إذ كان مما يدل دلالة الأخبار فى كلام الناس ، وأما التضمين الذى يدل عليه دلالة القياس فهو إيجاز فى كلام الله عز وجل خاصة ؛ لأنه تعالى لا يذهب عليه وجه من وجوه الدلالة ، فنصبه لها يوجب أن يكون قد دل عليها من كل وجه يصح أن يدل عليه ، وليس كذلك سبيل غيره من المتكلمين بتلك العبارة ؛ لأنه قد يذهب عنه دلالتها من جهة القياس ، ولا يخرجه ذلك عن أن يكون قد قصد بها الإبانة عما وضعت له فى اللغة من غير أن يلحقه فساد فى العبارة »

تضمن تعليم الاستفتاح فى الأمور باسمه على جهة التعظيم لله تبارك وتعالى، أو التبرك باسمه[١].

* * *

وأمَّا المبالغة، فهى: الدلالة على كثرة المعنى، وذلك على وجوه:

منها مبالغة فى الصفة المبينة لذلك، كقولك: «رَحْمن» عدل عن «راحم[٢]» للمبالغة، وكقوله: «غَفَّار» وكذلك فَعَّال[٣] وفَعُول، كقوله: «شكور» و«غفور»، وفَعِيل، كقوله: «رحيم» و«قدير».

ومن ذلك أن يبالغ باللفظة التى هى صفة عامة[٤]، كقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾[٥]. وكقوله: ﴿فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ القَوَاعِدِ[٦]﴾.

(١) قال الرمانى: «وكل آية فلا تخلو من تضمين لم يذكر باسم أو صفة، فمن ذلك: "بسم الله الرحمن الرحيم" قد ضمن التعلم لاستفتاح الأمور على جهة التبرك به والتعظيم لله بذكره، وأنه أدب من آداب الدين وشعار المسلمين، وأنه إقرار بالعبودية واعتراف بالنعمة التى هى من أجل نعمه، وأنه ملجأ الخائف، ومعتمد للمستنجح».

(٢) س، ك: «عدل عن ذلك للمبالغة» وقال الرمانى بعد ذلك: «ولا يجوز أن يوصف به إلا الله عز وجل؛ لأنه يدل على معنى لا يكون إلا له، وهو معنى وسعت رحمته كل شىء».

(٣) غفار مثال لفعال. وقد ترك المؤلف من الأوزان التى ذكرها الرمانى: مفعل كمدعس ومطعن، ومفعال كمنحار ومطعام.

(٤) قال الرمانى ص ٢٥: «الضرب الثانى المبالغة بالصيغة العامة فى موضع الخاصة» كقوله، إلخ.

(٥) سورة الزمر ٦٢

(٦) سورة النحل ٢٦ وهذه الآية قد مثل بها الرمانى للضرب الثالث من ضروب المبالغة، وهو إخراج الكلام مخرج الإخبار عن الأعظم الأكبر للمبالغة ثم قال: «أى أتاهم بعظيم بأسه فجعل ذلك إتياناً له على المبالغة».

وكقوله : ﴿ ولاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فى سَمِّ الخِيَاطِ[1] ﴾ .

وكقوله : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ[2] ﴾ .

وقد يدخل فيه الحذف الذى تقدم ذكره للمبالغة[3] .

* * *

وأما حُسْنُ البيان ، فالبيان على أربعة أقسام[4] : كلامٌ ، وحال ، وإشارة ، وعلامة .

---

(١) سورة الأعراف ٤٠ وقد مثل بها الرمانى للضرب الرابع ، وهو إخراج الممكن إلى الممتنع للمبالغة .

(٢) سورة سبأ ٢٤ وقد مثل بها الرمانى للضرب الخامس ، وهو إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة فى العدل ، والمظاهرة فى الحجاج

(٣) قال الرمانى ص ٢٦ : « الضرب السادس حذف الأجوبة للمبالغة كقوله تعالى : (ولو ترى إذ وقفوا على النار) و (لو يرى الذين كفروا إذ يرون العذاب) ومنه (ص والقرآن ذى الذكر) كأنه قيل : لجاء الحق ، أو لعظم الأمر ، أو لجاء بالصدق . كل ذلك يذهب إليه الوهم لما فيه من التفخيم . والحذف أبلغ من الذكر لأن الذكر يقصر على وجه ، والحذف يذهب بالوهم إلى كل وجه من وجوه التعظيم ، لما قد تضمنه من التفخيم »

(٤) قال الرمانى ص ٢٦ « البيان هو الإحضار لما يظهر به تمييز الشىء من غيره فى الإدراك والبيان على أربعة أقسام . . . والكلام على وجهين : كلام يظهر به تميز الشىء من غيره فهو بيان ، وكلام لا يظهر به تميز الشىء فليس ببيان ، كالكلام المخلط والمحال الذى لا يفهم به معنى . وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن ، من قبل أنه قد يكون على عى وفساد» ثم حكى ما حكى عن عى باقل وإفلات الظبى من يده ، ثم قال : « فهذا وإن كان قد آكد للافهام فهو أبعد الناس عن حسن البيان »

ويقع التفاضل فى البيان ، ولذلك قال عزّ من قائل : ﴿ الرَّحْمَنُ ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[١] ﴾ .

[ونقيضه العِيّ ، ومنه][٢] قيل : أَعْيَا من بَاقِلٍ ، سئل عن ظبية فى يده : بكم اشتراها ؟ فأراد أن يقول : بأحد عشر ، فأشار بيديه مادًّا أصابعه العشرة ، ثم أدْلَع لسانَه ، وأفلتت الظبيةُ من يده ! !

* * *

ثم البيان على مراتب[٣] .

قلنا[٤] : قد كنا حكَيْنا أنّ من الناس من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التى ذكرنا أنها تسمى « البديع » فى أول الكتاب ، مما مضتْ أمثلتُه فى الشعر .

ومن الناس من زعم : أنه يأخذ ذلك من هذه الوجوه التى عددناها فى هذا الفصل .

---

(١) سورة الرحمن ١ — ٤ وسبب استشهاد الرمانى بهذه الآية أنه قال : ص ٢٧ « وليس يحسن أن يطلق اسم بيان على قبيح من الكلام ؛ لأن الله قد مدح البيان واعتد به فى أياديه الجسام فقال (الرحمن علم القرآن ، خلق الإنسان علمه البيان) ولكن إذا قيد بما يدل على أنه يعنى به إفهام المراد جاز »

(٢) الزيادة من م .

(٣) قال الرمانى ص ٢٧ : « وحسن البيان فى الكلام على مراتب : فأعلاها مرتبة ما جمع أسباب الحسن فى العبارة من تعديل النظم حتى يحسن فى السمع ، ويسهل على اللسان ، وتتقبله النفس تقبل البرهان ، وحتى يأتى على مقدار الحاجة فيما هو حقه من المرتبة . . . والقرآن كله فى نهاية حسن البيان . . . »

(٤) م : « فإنا قد » .

واعلم أن الذى بيناه قبل هذا وذهبنا إليه هو سديد[1] ، وهو أن هذه الأمور تنقسم :

فنها ما يمكن الوقوع عليه ، والتعمل له ، ويُدْرَك بالتعلم ؛ فما كان كذلك فلا سبيل إلى معرفة إعجاز القرآن به .

وأما ما لاسبيل إليه بالتعلم والتعمل من البلاغات ، فذلك هو الذى يدل على إعجازه ؛ ونحن نضرب لذلك أمثلةً ، لتقف على ما ذهبنا إليه .

وذكرنا فى هـذا الفصل عن هـذا القائل : أن التشبيه تعرف به البلاغة ، وذلك مسلَّم ، ولـكن[2] إن قلنا : ما وقع من التشبيه فى القرآن معجز ، عرض[3] علينا من التشبيهات الجارية فى الأشعار ما لا يخفى عليك ، وأنت تجد فى شعر ابن المُعْتَزّ من التشبيه البديع الذى يشبه السحر ، وقد تتبع فى هذا ما لم يتتبع غيره ، واتَّفق له ما لم يتفق لغيره من الشعراء .

وكذلك كثير من وجوه البلاغة ، قد بينَّا أن تَعَلُّمَها يمكن ، وليس تقع البلاغة بوجه واحد منها دون غيره .

فإن كان إنما يعنى هذا القائل أنه إذا أتى فى كل معنًى يتفق فى كلامه بالطبقة العالية ، ثم كان ما يصل به كلامه بعضه ببعض ، وينتهى

---

(١) ك : « شديد » .

(٢) م: « وذلك إن » .

(٣) م: « اعترض » .

منه إلى متصرفاته — : على أتم البلاغة وأبدع البراعة، فهذا مما لا نأباه، بل نقول به .

وإنما ننكر أن يقول قائل : إن بعض هذه الوجوه بانفرادها قد حصل فيه الإعجاز من غير أن يقارنه ما يتصل به [من][1] الكلام ويُفْضِى إليه، مثل ما يقول[2] : إن ما أقسم به وحدَه بنفسه معجز، وإن التشبيه معجز، وإن التجنيس معجز، والمطابقة بنفسها معجزة .

فأما الآية التى فيها ذكر التشبيه، فإن ادَّعى إعجازها لألفاظها ونظْمها وتأليفها، فإنى لا أدفع ذلك وأصححه، ولكن لا أدعى إعجازها لموضع التشبيه .

وصاحِبُ المقالة التى حكيناها، أضاف ذلك إلى موضع التشبيه وما قُرِن به من الوجوه، ومن تلك الوجوه ما قد بينا أن الإعجاز يتعلق به كالبيان، وذلك لا يختص بجنس من المُبَيَّن[3] دون جنس، ولذلك قال : ﴿ هذا بَيَانٌ لِلنَّاسِ[4] ﴾ . وقال : ﴿ تِبْيانًا لِكُلِّ شَىْءٍ[5] ﴾ وقال : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ[6] ﴾ . فكرر فى مواضع [جَلَّ[7]] ذِكرُه : أنه مبين .

---

(١) الزيادة من م .
(٢) م « ما نقول » .
(٣) م « بجنس دون جنس » .
(٤) سورة آل عمران ١٣٨
(٥) سورة النحل ٨٩
(٦) سورة الشعراء ١٩٥
(٧) الزيادة من م .

فالقرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ما جمع وُجوهَ الحُسْن وأسبابَه ، وطرقَه وأبوابه : من تعديل النظم وسلامته[١] ، وحسنه وبهجته ، وحسن موقعه فى السمع ، وسهولته على اللسان ، ووقوعه فى النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهَد ، وتشكّله على جهته ، حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف ، مما لا ينحصر حسناً وبهجةً وسناءً ورفعةً .

وإذا علا الكلام فى نفسه ، كان له من الوقع فى القلوب والتمكُّن فى النفوس ، ما يُذْهل ويُبهج ، ويُقْلق ويؤنس ، ويُطمع ويُؤْيس ، ويُضحك ويبكى ، ويُحزن ويُفرح ، ويُسكن ويُزعج ، ويُشْجِى ويطرب[٢] . ويَهُزُّ الأعْطَاف ، ويَستميل نحوه الأسماع[٢] . ويُورث الأَرْيَحِيَّةَ والعِزّة ، وقد يبعث على بَذْل المُهَجِ والأموال شجاعةً وجُودًا ، ويرمى السامع من وراء رأيه مرمى[٣] بعيدًا .

وله مسالك فى النفوس لطيفة ، ومداخل إلى القلوب دقيقة .

وبحسب ما يترتب فى نظمه ، ويتنزّل فى موقعه ، ويجرى على سَمْتِ مَطلِعِه ومقطعه — يكونُ عجيبُ تأثيراته ، وبديعُ مقتضياته .

وكذلك على حسب مصادره ، يتصوّرُ وجوه مَوارِده .

---

(١) م « وسلاسته » .
(٢) ما بين الرقمين ساقط من م .
(٣) م « وترمى السامع من ورائه مرمى » .

وقد[١] ينبئ الكلام عن محل صاحبه ، ويدل على مكان متكلمه ، ويُنبِّه على عظيم شأن أهله ، وعلى علوّ محله .

ألا ترى أن الشعر فى الغزل إذا صدر عن محبّ ، كان أرقّ وأحسن ؛ وإذا صدر عن مُتَعَمِّل[٢] ، وحصل من متصنّع ، نادى على نفسه بالمُداجاة ، وأخبر عن خَبيئته فى المراياة[٣] . ؟ !

وكذلك قد يصدر الشعر فى وصف الحرب عن الشجاع ، فيعلم وجه صدوره ، ويدل على كنهه وحقيقته .

وقد يصدر عن المتشبه ، ويخرج عن المتصنع ، فيعرف من حاله ما ظن أنه يخفيه ، ويظهر من أمره خلاف ما يبديه .

وأنت تعرف[٤] لقول المتنبّى :

فالخيلُ واللّيـــلُ والبَيْدَاء تَعْرِفُنِى
والحرْبُ والضَّرْبُ والقِرْطَاسُ والقَلَمُ[٥]

من الوقع[٦] فى القلب — لما[٧] تعلم أنه من أهل الشجاعة — ما لا تجده للبُحْتَرِىّ فى قوله :

---

(١) م: « فقد » .

(٢) س ، ك : « متغزل » .

(٣) ا: « خبيثه » م « جنسه فى المرامات » .

(٤) كذا فى ا ، م ، ك : وفى س « تجد » .

(٥) ديوانه ٢٦٢/٢ وهى رواية الواحدى ، وفى ك : « والحرب والطعن » ا « والطعن والضرب » .

(٦) م: « الموقع » . ك : « الواقع » .

(٧) م: « ما تعلم » .

وأنا الشجاعُ وقد بَدَا لك موْقِفِي ... بِعَقَرْقَسٍ والمَشْرَفِيَّةُ شُهَّدِي[١]

وتجد لابن المُعْتَزِّ فى موقع شعره من القلب ، فى الفخر وغيره ، مالا تجده لغيره ؛ لأنه إذا قال :

إذا شئتُ أوْقَرْتُ البِلادَ حَوَافِرًا ... وسارتْ ورائى هاشِمٌ ونِزَارُ

وعَمَّ السماءَ النَّقْعُ حتى كأنه ... دخانٌ وأطرافُ الرِّماحِ شَرَارُ[٢]

وقال :

قـد تردَّيتُ بالمكارم دَهْرًا ... وكَفَتْنِى نَفْسِى مِنَ الإفتخارِ[٣]

أنا جيشٌ إذا غَزَوْتُ وَحِيدًا ... ووَحِيدٌ فى الجَحْفَلِ الجَرَّار

وقال :

أيها السائِلِى عَنِ الحسَبِ الأطْـ ... ـيَبِ ما فَوْقَهُ لِخَلْقٍ مَزِيدُ[٤]

نحن آلُ الرَّسولِ والعِتْرَةُ الحقُّ ... وأهلُ القُرْبَى ، فماذا تريد ؟[٥]

ولنـا ما أضاءَ صُبْحٌ عليـه ... وأتتْهُ راياتُ ليـلٍ سُودُ[٦]

وكما أنشدنا الحسنُ بن عبد الله ، قال : أنشدنا محمد بن يحيي لابن المعتز قصيدتَه التى يقول فيها :

أنا ابن الذى سادَهُمْ فى الحيا ... ةِ وسادَهُمْ بِىَ تحتَ الثَّرَى[٧]

---

(١) ديوانه ٤٦١

(٢) ديوانه ص ٣٧ وفى م ، ك : « وعم سماء النقع »

(٣) ديوانه ص ٣٩ وفى ا ، ك ، م : « بالمكارم حولى »

(٤) ديوانه ص ٣٠

(٥) ا ، م ، ك : « القربى » س : « القرى »

(٦) م : « وأنا ما أضاء » وفى الديوان : « أتته آيات »

(٧) ديوانه ص ٦

ومالىَ فى أحــدٍ مَرْغَبٌ   بَلَى فىَّ يَرْغَبُ كلُّ الوَرَى
وأَسْهَرُ للمجد والمَـكْرُمَاتِ   إذا اكْتَحَلَتْ أعينٌ بالكَرَى[1]

فانظر فى[2] القصيدة كلّها ، ثم فى جميع شعره ، تعلمْ أنه مَلِكُ الشعر ، وأنّه يليق به من الفخر خاصةً ، ثم مما يتبعه مما يتعاطاه ، مالا يليق بغيره ، بل ينفر عن سواه .

ولم أحب أن أكثر عليك ، فأطوّل الكتاب بما يخرج عن غرضه .

وكما ترى من[3] قول أبى فِرَاس الحمدانى فى نفسك إذا قال :

ولا أُصْبِحُ الحَىَّ الخَلُوفَ بغارة
ولا الجيشَ ما لم تأته قَبْلىَ النُّذْرُ[4]
وَيَا رُبَّ دَارٍ لم تَخَفْنِى مَنِيعةٍ
طَلَعْتُ عليهـا بالرَّدَى أنَا والفَجْرُ
وسَاحِبَةِ الأذيال نحـوى لَقِيتُهـا
فـلم يلقها جافى اللقـاء ولا وَعْرُ[5]

---

(١) ا ، م ، ك « اكتحلت » س « كحلت »

(٢) م « فانظر هذه »

(٣) م : « فى »

(٤) ديوانه ٢١٢/٢

(٥) فى الديوان رواية أخرى هى : « جَهْم اللقاء »

وَهَبْتُ لهـا ما حَازَهُ الجيشُ كله
وأُبْتُ ولم يُكشف لأبياتها سِتْرُ[١]

وما رَاحَ يُطْغِينِي بأثوابه الغِنَى
ولا بات يَثْنينى عن الكرم الفقرُ

وما حاجتى فى المـال أَبْغِي وُفُورَهُ
إذا لَمْ أَفِرْ وَفْرِى فلا وَفَرَ الوَفْرُ[٢]

والشيء إذا صدر من أهله ، وبدا من أصله ، وانتسب إلى ذويه ، سلم فى نفسه ، وبانتْ فخامته ، وشُوهِدَ[٣] أثر الاستحقاق فيه .

وإذا صدر من متكلِّف ، وبدا من متصنع ، بَانَ أثرُ الغُرْبَةِ[٤] عليه ، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه ، وعُرف شمائل التّحير[٥] منه .

إنّا نعرف فى شعر أبى نواس أَثَرَ الشَّطَارَةِ ، وتمكُّنَ البطَالة ، وموقع كلامه فى وصف ما هو بسبيله من أمرِ العِيَارَة[٦] ، ووصف الخمر

(١) هذه راوية فى الديوان ، وهناك رواية أخرى وهى : « ورحت ولم يكشف لأثوابها ستر » . وفى م : « وهبت له »

(٢) هذه رواية م والديوان . وفى س ، ك : « إذا لم أفر وفرى »

(٣) س : « وشواهد »

(٤) ا ، ك « الغربة » م « العرمة » س « الغرابة »

(٥) س « شمائل التخير » ك « بشمائل التخير »

(٦) كذا فى ا ، ك . وفى م « من أمر العناية فى وصف الخمر » س « من أمر المغازلة ووصف » . وفى اللسان ٣٠٢/٦ « يقال غلام عيار : نشيط فى المعاصى »

والحمار ؛ كما نعرف موقع كلام ذى الرُّمَّةِ فى وصف المَهامِهِ والبَوادِى والجمال وَالأنْسَاعِ والأزِمَّة .

وَعَيْبُ أبى نُوَّاسٍ التصرُّفُ فى وصف الطلول والرِّبَاعِ والوحش ، ففكَّرْ فى قوله :

دع الأطلالَ تَسْفِيها الجَنُوبُ ... وتُبْلِى عَهْدَ جِدَّتِها الخُطوبُ(١)

وخَلِّ لراكبِ الوَجْناء أَرْضاً ... تَخُبُّ به النَّجِيبةُ والنَّجِيبُ(٢)

بِلادٌ نَبْتُها عُشَرٌ وطَلْحٌ ... وأَكْثَرُ صَيْدِها ضَبُعٌ وذِيبُ(٣)

ولا تأخذْ عن الأعراب لهوًا ... ولا عيشاً ، فعيشهمُ جَدِيبُ

دع الألبانَ يَشْربُها رجالٌ ... رقيقُ العيش عندهمُ غَرِيبُ(٤)

إذا رابَ الحليبُ فَبُلْ عليه ... ولا تَحْرَجْ ، فما فى ذاك حُوبُ(٥)

فأطْيَبُ منه صافيةٌ شَمُولٌ ... يَطُوفُ بكأسها ساقٍ أديبُ(٦)

كأنّ هَدِيرَها فى الدَّنّ يَحْكِى ... قِرَاةَ القَسّ قابَلَهُ الصَّلِيبُ

أعاذلَ أقصِرِى عَنْ طُولِ لَوْمِى ... فَرَاجِى تَوْبَتِى عندى يَخِيبُ

تَعِيبِينَ الذُّنوبَ . وأىّ حُرٍّ ... مِنَ الفتيانِ ليسَ له ذنوب ؟ !

---

(١) ديوانه ص ١٠٤ وفى ا « تسقيها »

(٢) س: « تخب بها »

(٣) راجع وصف أبى حنيفة للعشر فى اللسان ٦/ ٢٥٠ والطلح فى اللسان ٣/٣٦٥

(٤) سقط هذا البيت من م .

(٥) م: « ولا تتحرجن فى ذاك »

(٦) م: « ساق أريب »

وقوله :

صِفَةُ الطُّلولِ بلاغـةُ الفَدْمِ فاجعلْ صِفاتِكَ لابنةِ الكَرْمِ[1]

وسمعت الصاحب إسماعيل بن عبَّاد يقول : سمعت بَرَاكَوَيْه[2] الزَّنْجَانِي يقول :

أنشد بعضُ الشعراءِ هلالَ بن يزيدَ قصيدةً على وزن قصيدة الأعْشَى :

ودِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ وهلْ تُطِيقُ وَداعاً أيُّها الرَّجلُ ؟

وكان وصف فيها الطلل ، قال براكويه[3] : فقال لى هلال : فقلت بديها :

إذا سمعتَ فتًى يَبْكِي على طَلَلٍ مِنْ أَهْلِ زَنْجَانَ ، فاعلم أنه طَلَلُ

* * *

وإنما ذكرتُ لك هذه الأمور ، لتعلمَ أن الشيء فى معدِنه أعزّ ، وإلى مَظانّه أحنّ[4] ، وإلى أصله أنْزَع ، وبأسبابه أليق ؛ وهو[5] يدل على ما صدَرَ منه ، وينبه ما أنتج عنه ، ويكون قرارُه على موجَب

---

(١) ديوانه ٣٢٣ .

(٢) فى ل ، س : « برلكويه » . وفى م : « ابن راكويه » . وانظر ترجمة « براكويه » فى يتيمة الدهر للثعالبى ٣/٤٠٤–٤٠٥

(٣) راجع التعليق السابق . وفى م : «فقال ابن زاكويه قال : « ما تقول ؟ فقلت بديهاً »

(٤) كذا فى ل ، م . وفى س : « وفى مظانه أحسن »

(٥) م : « وهذا »

صورته ، وأنوارُه على حسب محله ؛ ولكل شيء حدّ ومذهب ، ولكلّ كلامٍ سبيل ومنهج .

وقد ذكر أبو بكر الصّديقُ رضى الله عنه فى كلام مُسَيْلِمَةَ ما أخبرتُكَ به ، فقال : إن هذا كلام لم يخرج من إلّ[1] . فدل على أن الكلام الصادر عن عزّة الرّبوبيَّة ورِفْعة الإلهية، يتميز عما لم يكن كذلك .

* * *

ثم رجع الكلام بنا إلى ما ابتدأنا به من عظيم شأن البيان[2] ، ولو لم يكن فيه إلا ما مَنَّ به الله على خلقه بقوله : ﴿ خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ[3] ﴾ .

فأما بيان القرآن فهو أشرف بيان وأهْدَاه ، وأكمَلُه وأعلاه ، وأبلَغُه وأسْناه .

---

(١) فى اللسان ٢٦/١٣ عن ابن سيدة « والإل : الله عز وجل ، بالكسر ، وفى حديث أبى بكر رضى الله عنه لما تلى عليه سجع مسيلمة : إن هذا لشىء ما جاء من إل ولا بر ، فأين ذهب بكم ؟ أى من ربوبية . وقيل : الإل : الأصل الجيد ، أى لم يجىء من الأصل الذى جاء منه القرآن . وقيل : الإل : النسب والقرابة . فيكون المعنى : إن هذا كلام غير صادر من مناسبة الحق ، ولا إدلاء بسبب بينه وبين الصدق » . والنص فى اللسان محرف ، صححناه بما يستقيم به .

(٢) بل الحق إنه رجع إلى نقل كلام الرمانى فى البيان الذى سبق نقله لبعضه .

(٣) سورة الرحمن ٣ ــ ٤

تأمل قوله تعالى : ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ[١] ﴾ . فى شدة التنبيه على تركهم الحقّ والإعراض عنه . وموضع امتنانه بالذكر والتحذير[٢] .

وقوله : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ[٣] ﴾ . وهذا بليغ فى التَّحْسِير .

وقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ[٤] ﴾ . وهذا يدل على كونهم مَجْبُولِينَ على الشرّ ، مُعَوَّدِينَ لمخالفة النهى والأمر[٥] .

وقوله : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ[٦] ﴾ . هو فى نهاية المنع[٧] من الخُلَّة إلا على التقوى .

وقوله : ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ[٨] ﴾ . وهذا نهاية فى التحذير من التفريط .

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

---

(١) سورة الزخرف ٥

(٢) نص عبارة الرمانى ص ٢٨ : « فهذا أشد ما يكون من التقريع »

(٣) سورة الزخرف ٣٩ وقال الرمانى : « فهذا أعظم ما يكون من التحسير »

(٤) سورة الأنعام ٢٨

(٥) قال الرمانى : « وهذا أدل دليل على العدل ، من حيث لم يقتطعوا عما يتخلصون به من ضرر الجرم ، ولا كانت قبائحهم على طريق الخير »

(٦) سورة الزخرف ٦٧ وقال الرمانى : « وهذا أشد ما يكون له من التنفير عن الخلة إلا على التقوى »

(٧) س ، ك « الوضع »

(٨) سورة الزمر ٥٦ وقال الرمانى : « فهذا أشد ما يكون من التحذير من التفريط »

اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[١] ﴾ . هو النهاية فى الوعيد والتهديد[٢] .

وقوله : ﴿ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا العذابَ يَقُولُونَ : هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ . وتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ . يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ[٣] ﴾ ؛ نهاية فى الوعيد .

وقوله : ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[٤] ﴾ ؛ نهاية فى الترغيب .

وقوله : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ ، وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ، إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾[٥] ؛ وكذلك قوله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾[٦] ؛ نهايةٌ فى الحِجاج[٧] .

وقوله : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[٨] ؛ نهاية فى الدلالة على علمه بالخفيات .

---

(١) سورة فصلت ٤٠

(٢) الرمانى ص ٢٨

(٣) سورة الشورى ٤٤ـ٤٥

(٤) الزخرف ٧١

(٥) سورة المؤمنون ٩١

(٦) سورة الأنبياء ٢١

(٧) قال الرمانى ص ٢٩ : « وهذا أبلغ ما يكون من الحجاج ، وهو الأصل الذى عليه الاعتماد فى صحة التوحيد ؛ لأنه لو كان إله آخر لبطل الخلق بالتمانع بوجودهما دون أفعالهما »

(٨) سورة الملك ١٣ ــ ١٤

ولا وجه للتطويل ، فإن بيان الجميع فى الرفعة وكبر المنزلة على[1] سواء .

وقد ذكرنا من قبل : أن البيان يصح أن يتعلق به الإعجاز ، وهو معجز من القرآن .

* * *

وما حكينا عن صاحب الكلام : من المبالغة فى اللفظ ، فليس ذلك بطريق الإعجاز ، لأن الوجوه التى ذكرها قد تتفق فى كلام غيره ، وليس ذلك بمعجز ، بل قد يصح أن يقع فى المبالغة فى المعنى والصفة ، وجوه من اللفظ تثمر[2] الإعجاز .

* * *

وتَضْمِينُ المعانى أيضاً[3] قد يتعلق به الإعجاز إذا حصلت للعبارة طريق البلاغة فى أعلى[4] درجاتها .

* * *

وأما الفَوَاصِل فقد بيّنا أنه يصح أن يتعلق بها الإعجاز ، وكذلك قد بيّنا فى المقاطع والمطالع نحو هذا ، وبيّنا فى تلاؤم الكلام ما سبق : من صحة تعلق الإعجاز به .

---

(١) سقطت من م

(٢) س: « يثمر »

(٣) م: « وأيضاً »

(٤) م: « بالعبارة . . . من أعلى »

* * *

والتصرّف فى الاستعارة البديعة يصح أن يتعلق به الإعجاز ، كما يصح مثل ذلك فى حقائق الكلام ؛ لأنَّ البلاغة فى كل واحد من البابَيْنِ تجرى مجرى واحدًا ، وتأخذ مأخذًا مفردًا .

* * *

وأما الإيجاز والبَسْطُ فيصح أن يتعلق بهما الإعجاز[١] ، كما يتعلق بالحقائق .

* * *

والاستعارة والبيان فى كل واحد منهما مالا[٢] يضبط حدّه ، ولا يقدّر قَدْرُه ، ولا يمكنُ التوصلُ إلى ساحل بحره بالتعلم ، ولا يُتطرَّق إلى غَوْرِه بالتَّسَبُّب . وكلُّ ما يمكن تعلمه ، ويتهيأ تَلَقُّنه ، ويمكن تحصيله[٣] ، ويستدرك أخذه — فلا يجب أن يطلب وقوع الإعجاز به .

ولذلك قلنا : إن السجع مما ليس يلتمس فيه الإعجاز ، لأن ذلك أمر محدود ، وسبيل مَوْرُودٌ ؛ ومتى تدرَّب الإنسانُ به واعتاده: لم يستصعب عليه أن يجعل جميع كلامه منه .

وكذلك التَّجْنِيسُ والتَّطْبِيقُ ،متى أخذ أخذهما[٤] وطلب وجههما ،

(١) س : « إعجاز »

(٢) م « منهما لا يضبط »

(٣) كذا فى ا ، م . وفى ك ، س « تخليصه »

(٤) كذا فى ا ، م . وفى س ، ك « أخذ أحدهما »

استوفى ما شاء ، ولم يتعذّر عليه أن يملأ خطابه منه ، كما أُولِع بذلك أبو تَمَّام والبُحْتُرِيّ ، وإن كان البحترى أشغف بالمطابق ، وأقل طلباً للمُجَانس .

فإن قال قائل : هلا قلت : إن هذين البابين يقع فيهما مرتبة عالية ، لا يوصل إليها بالتعلّم ، ولا تملك بالتعمّل ؛ كما ذكرتم فى البيان وغير ذلك ؟

قلنا : لو عمد إلى كتاب « الأَجْنَاس » ، ونظر فى كتاب « العَيْن » ؛ لم يتعذّر عليه التجنيس الكثير .

فأما الإِطْبَاقُ فهو أقرب منه . وليس كذلك البيان والوجوه التى رأينا الإعجاز فيها ؛ لأنها لا تستوفى بالتعلم .

فإن قيل : فالبيان قد يتعلم ؟

قيل : إن الذى يمكن أن يتوصل إليه بالتعلّم يتقارب[1] فيه الناس ، وتتناهى فيه العادات ، وهو كما يعلم من مقادير القوى فى حمل الثقيل ، وأن الناس يتقاربون[2] فى ذلك، فَيَرْمُونَ[3] فيه إلى حد ، فإذا تجاوزُوه وقفوا بعده ولم يمكنهم التخطّى ، ولم يقدروا على التعدّى ؛ إلا أن يحصل ما يخرق العادةَ ، وينقض العُرْفَ ؛ ولن يكون ذلك إلا للدلالة على النبوّات ، على شروط فى ذلك .

---

(١) كذا فى م ، ك . وفى س « يتفاوت »

(٢) كذا فى ك . وفى م « يتفاوتون »

(٣) ك ، م « ويرمون »

والقدرُ الذى يفوت الحدَّ فى البيان ، ويتجاوز الوهم[١] ، ويشذّ عن الصنعة ، ويقذفه الطبع —: فى النادر القليل ، كالبيت البديع ، والقطعة الشريفة التى تتفق فى ديوان شاعر[٢] ، والفِقْرة تتفق فى رسالة[٣] كاتب ، حتى يكون الشاعر ابنَ بيتٍ أو بيتين ، أو قطعةٍ أو قطعتين ؛ والأديبُ شَهِيرَ[٤] كلمةٍ أو كلمتين . وذلك أمر قليل[٥] .

ولو كان كلامه كلّه يطَّرد على ذلك المَسْلَك ، ويستمر على ذلك المنهج ؛ أمكنَ أن يدَّعِيَ فيه الإعجازَ .

ولكنك إن كنت من أهل الصنعة : تعلم قلة الأبيات الشَّوَارِد ، والكلمات الفَرَائِد[٦] ، وأمّهات القلائد .

فإن أردت أن تجد قصيدةً كلّها وحشية ، وأردت أن تراها مثل بيت من أبياتها مرضية ؛ لم تجد ذلك فى الدواوين ، ولم تظفر بذلك إلى يوم الدين .

ونحن لم ننكر أن يستدرك البشر كلمة شريفة ، ولفظة بديعة ؛ وإنما أنكرنا أن يقدروا على مثل نظم سورة أو[٧] نحوها ، وأَحَلْنا أن

---

(١) م: « ويتجاوز الفهم . . . على »
(٢) م: « الشاعر »
(٣) س ، ك: « فى رسالة »
(٤) س ، ك: « شهيد » !
(٥) م: « قريب »
(٦) م ، ا: « الفوارد »
(٧) م: « ونحوها »

يتمكنوا من حقٍّ فى البلاغة ، ومقدار فى الخطابة .

وهذا كما قلناه : من[1] أن صورة الشعر قد تتفق فى القرآن ، وإن لم يكن له حكم الشعر .

* * *

فأما قَدْرُ المعجز فقد بينّا أنها السّورةُ ، طالت أو قصرت ، وبعد ذلك خلاف :

من[2] الناس من قال : مقدار كل سورة أو أطول آية فهو معجز .

وعندنا كل واحد من الأمرين معجز ، والدلالة عليه ما تقدم[3] ، والبلاغة لا تتبين بأقل من ذلك ، فلذلك لم نحكم بإعجازه ، وما صح أن تتبين فيه[4] البلاغة؛ ومحصولها الإبانةُ فى الإبلاغ عن ذات النّفْس على أحسن معنى وأجزل لفظ ، وبلوغ الغاية فى المقصود بالكلام .

فإذا بلغ الكلامُ غايتَه فى هذا المعنى ، كان بالغاً وبليغاً . فإذا[5] تجاوز حد البلاغة إلى حيث لا يقدر عليه أهل الصناعة ، وانتهى إلى أَمَدٍ[6] يعجز عنه الكامل فى البراعة — صح أن يكون له حكم المعجزات ، وجاز أن يقع موقع الدلالات .

---

(١) سقطت من م

(٢) م: « بين »

(٣) م: « ما قد »

(٤) م: « فيه من »

(٥) م: « وإذا »

(٦) كذا فى ا ، م . وفى ك ، س: « أمر ».

وقد ذكرنا أنه بجنسه[١] وأسلوبه مُباينٌ لسائر كلامهم ، ثم بما يتضمن من تجاوزه فى البلاغة الحدَّ الذى يقدر عليه البشر .

* * *

فإن قيل : فإذا[٢] كان يجوز عندكم أن يتفق فى شعر الشاعر قطعةٌ عجيبة شاردة ، تباين جميع ديوانه فى البلاغة ، ويقع فى ديوانه بيتٌ واحد يخالف[٣] مألوف طبعه ، ولا يُعْرَفُ سببُ ذلك البيت ، ولا تلك القطعة فى التفصيل ، ولو أرادَ أن يأتىَ بمثل ذلك أو يجعلَ[٤] جميع كلامه من ذلك النمط ، لم يجد إلى ذلك سبيلًا ، وله سبب فى الجملة وهو التقدم فى الصنعة ؛ لأنه[٥] يتفق من المتأخر فيها — : فهلَّا قلتم : إنه إذا بلغ فى العلم بالصناعة مَبالِغَهُ القُصْوَى[٦] ، كان جميع كلامه من نمط ذلك البيت وسَمْتِ تلك القطعة ؟ وهلَّا قلتم : إن القرآن من هـــذا البـــاب ؟

فالجواب : أنا لم نجد أحدًا بلغ الحدّ الذى وصفتم فى العادة ، وهذا الناسُ وأهـلُ البلاغة أشعارُهم عندنا محفوظةٌ ، وخطبهم منقولة ، ورسائلهم مأثورة ، وبلاغاتهم مَروية ، وحكمهم مشهورة ؛ وكذلك أهل

---

(١) م « لجنسه »
(٢) م ، ك : « إذا »
(٣) ا « مخالف »
(٤) س ، ك « ويجعل »
(٥) م « لأنه لا يتفق »
(٦) س « مبالغة قصوى » . م ، ا « الغاية القصوى »

الـكهانة والبلاغة ، مثل قُسّ بن سَاعِدَةَ ، وسَحْبَان وَائِل ، ومثل[١] شِقٍّ ، وسَطِيح ، وغيرِهم — كلامُهم معروف عندنا ، وموضوعٌ بين أيدينا ، لا يخفى علينا فى الجملة بلاغةُ بليغ ، ولا خطابة خطيب ، ولا براعة شاعر مُفْلِقٍ ، ولا كتابة كاتب مُدقِّق .

فلمَّا لم نجد فى شىء من ذلك مايدانى القرآن فى البلاغة ، أو يشا كله فى الإعجاز ، مع ما وقع من التحدى إليــه المدةَ الطويلة ، وتقدّمَ من التقريع فى المجازاة[٢] الأمَدَ المديدَ ، وثبت له وحدَه خاصةً قصَبُ السَّبْق ، والاستيلاء على الأمد[٣] ، وعَجَز الـكلّ عنه ، ووقفوا دونه حيارى ، يعرفون عجزهم ، وإن جهل قوم سببه ، ويعلمون نقصهم ، وإن أغفل قوم وجهه — رأينا أنه ناقض للعادة ، ورأينا[٤] أنه خارق للمعروف فى الجِبِلَّة[٥] . وخَرْقُ العادة إنما يقع بالمعجزات على وجه إقامة البرهان على النبوات ، وعلى أن من ظهرتْ عليه ، ووقعت موقع الهداية إليه ، صادقٌ فيما يدعيه من نبوته ، ومحقٌّ فى قوله ، ومصيب فى هَدْيِه ، قد شهدت[٦] له الحجة البالغة ، والـكلمة التامة ، والبرهان النيّر ، والدليل البيّن .

---

(١) سقطت من ا

(٢) كذا فى ك ، م . وفى س « والمجازاة »

(٣) كذا فى م ، ا . وفى س ، ك « الأمر »

(٤) هنا خرم فى ا

(٥) كذا فى م ، ب . وفى س ، ك « فى الحيلة »

(٦) كذا فى ك ، م ، ب . وفى س « قد سادت »

فصـــل

﴿ في حقيقة المعجز[1] ﴾

معنى قولنا : « إن القرآن معجز » على أصولنا : أنه لا يَقدر العبادُ عليه ، وقد ثبت أن المعجز الدال على صدق النبي صلى الله عليه وسلم لا يصحُّ دخوله تحت قدرة[2] العباد ، وإنما ينفرد الله تعالى بالقدرة عليه ، ولا يجوز أن يعجز العباد عما تستحيل قدرتهم عليه ، كما يستحيل عجزهم عن فعل الأجسام ، فنحن لا نقدر على[3] ذلك وإن لم يصحَّ وصفنا بأنَّا عاجزون عن ذلك حقيقةً ، وكذلك معجزات سائر الأنبياء على هذا .

فلما لم يَقْدِر عليه أحدٌ شُبِّه بما يعجز عنه العاجز ، وإنما لا يقدر العباد على[4] الإتيان بمثله ، لأنه لو صح أن يقدروا عليه بطلت[5] دلالة المعجز ، وقد أجرى [اللهُ][6] العادةَ بأن يتعذر فعل ذلك منهم[7] ، وأن لا يقدروا عليه .

---

(١) م ، ب : « المعجزة »

(٢) ك ، م : « قد »

(٣) م « الأجسام ثم لا يقدروا على »

(٤) ك ، ب : « وإنما تعذر على العباد الإتيان »

(٥) م ، ك : « بطل »

(٦) الزيادة من ب

(٧) س : « أن . . . منه »

ولو كان غير خارج عن العادة لأتوا بمثله، أو عرضوا[١] عليه من كلام فصحائهم وبلغائهم، ما يُعارِضه.

فلما لم يشتغلوا بذلك، عُلم أنهم فطنوا لخروج[٢] ذلك عن أوزان كلامهم، وأساليب نظامهم؛ وزالت أطماعُهم عنه.

وقد كنا بينَّا أنّ التواضع ليس يجب أن يقع على قول الشعر[٣] ووجوه النظم المستحسنة فى الأوزان المطرِبة للسمع، ولا يُحتاج فى مثله إلى توقيف، وأنه يتبين أن مثل ذلك يجرى فى الخطاب، فلما جرى فيه فطنُوا له واختاروه [وطلبوه[٤]]؛ وطلبوا أنواع الأوزان والقوافى، ثم وقفوا[٥] على حسن ذلك وقدَرُوا عليه، بتوفيق الله عزوجل[٦]، وهو الذى جمع خواطرهم عليه، وهداهم له[٧]، وهيَّأ دواعيهم إليه، ولكنَّه أَقْدرَهم على حدّ محدود، وغايةٍ فى العُرفِ مَضْرُوبة، لعلمِه بأنّه[٨] سيجعل القرآن معجزًا، ودلّ على عظم[٩] شأنه بأنهم قدَرُوا على ما بينّا من التأليف، وعلى ما وصفنا من النظم،

---

(١) س: «وعرضوا»
(٢) ك: «فطنوا خروج»
(٣) م: «الشعراء»
(٤) الزيادة من ب، م
(٥) ك: «وقعوا». م: «ولماوقفوا»
(٦) ب: «وهذا»
(٧) ك: «وبدأ». م: «وبذ»
(٨) س: «بأن»
(٩) كذا فى ك. وفى م: «عظيم»

من غير تَوْقِيفٍ ولا اقتفاء[1] أثرٍ ، ولا تحدٍّ إليه ولا تَقْرِيع .

فلو كان هذا من ذلك القَبيل ، أو من الجنس الذى عرفوه وألفوه ، لم تَزُلْ أطماعُهم عنه ، ولم يُدْهَشُوا عند وروده عليهم ، فكيف[2] وقد أمهلهم وفسَحَ لهم فى الوقت ، وكان يدعو إليه سنين كثيرة ، وقال عز من قائل : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وجَاءَكُمُ النَّذِيرُ[3] ﴾ .

وبظهور العجز عنه بعد طول التقريع والتحدِّى ، بانَ أنَّه خارجٌ عن عاداتهم ، وأنَّهم لا يقدرون عليه .

وقد ذكرنا أن العرب كانت تعرف مايُبَاين عادتَها[4] من الكلام البليغ ، لأنَّ ذلك طبعُهم ولغتهم ، فلم يحتاجوا إلى تجربة عند سماع القرآن ، وهذا فى البلغاء منهم ، دون المتأخرين فى الصنعة .

والذى ذكرناه يدلك على أنه لا كلامَ أزيدُ فى قدر البلاغة من القرآن .

وكل من جوَّز أن يكون للبشر قدرة على أن يأتوا بمثله فى البلاغة ، لَمْ يُمْكِنْه أن يعرف أن القرآن معجز بحال .

---

(١) كذا فى م ، ا ، ك . وفى س « ولا اقتضاء » !

(٢) ا ، م « كيف »

(٣) سورة فاطر ٤٥

(٤) س ، ك « عاداتها »

ولو لم يكن جرى فى المعلوم[١] أنه سيجعل القرآن معجزًا ، لكان[٢] يجوز أن تجرى عادات[٣] البشر بقدر زائد على ما ألفوه من البلاغة ، وأمر يفوق ما عرفوه من الفصاحة .

وأمّا نظمُ القرآن ، فقد قال أصحابنا [فيه][٤] : إن الله تعالى يَقْدِرُ على نظم [هيئة أخرى تَزيد فى الفصاحة عليه ، كما يقدر على مثله .

وأما بلوغ بعض[٥] نظم] القرآن[٦] الرتبةَ[٧] التى لامزيد عليها ، فقد[٨] قال مخالفونا : إن هذا غير ممتنع ، لأن فيه من الكلمات الشريفة ، الجامعة للمعانى البديعة ، وانْضَافَ[٩] إلى ذلك حسنُ الموقع ، فيجب أن يكون قد بلغ النهاية ، لأنه عندهم — وإن زاد على ما فى العادة —

---

(١) س « العلوم »

(٢) م « كان »

(٣) م « عادة » . ويلى هذه الكلمة فى سائر النسخ المطبوعة قبل طبعتنا هذه ما يلى « الأولين وأخبار المرسلين ، وكذلك لا يوجد خلف فيما يتضمنه من الإخبار عن الغيوب » — إلى قول المؤلف : « وكذلك من يسمع القرآن يعلم أنه كلام الله وإن اختلف الحال فى ذلك »

وهذا الكلام الطويل الذى تبلغ سطوره : ٤١ سطراً مقحم هنا فى غير موضعه ، وقد سبق بنصه وفصه فى ص ١٧ س ٩ إلى ص ١٩ س ١ من طبعة السلفية ، وهو فى طبعتنا هذه من ص ١٧ سطر ١ إلى ص ٢٠ س ٧ ! وهذا من أعجب العجب .

(٤) الزيادة من ا ، ك

(٥) ب « بعضهم نظم »

(٦) الزيادة من ا ، ب ، م

(٧) س « فى الرتبة »

(٨) س : « وقال »

(٩) م « فانضاف »

فإن الزائد عليها وإن تفاوتَ ، فلا بد[1] من أن ينتهي إلى حدٍّ لا مزيد عليه .

والذى تقوله[2] : أنه لا يمتنع أن يقال : إنه يقدر الله تعالى على أن يأتى بنظمٍ[3] أبلغَ وأبدع[4] من القرآن كلّه .

وأما قُدَرُ[5] العباد فهى متناهية فى كل ما يقدرون عليه ، مما تصح قدرتهم عليه .

---

(١) سقطت من م

(٢) س: « نقول »

(٣) م: « بنظم القرآن »

(٤) ا ، م: « وأبرع »

(٥) كذا فى ا ، م . وفى س: « قدرة »

فصـــل

﴿ فى كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأمور تتصل بالإعجاز ﴾

إن قال قائل : إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أفصحَ العرب — وقد قال هذا فى حديث مشهور ، وهو صادق فى قوله — : فهلاّ قلتم : إن القرآن من نظمه ، لقدرته فى الفصاحة على مقدار لا يبلغه غيره ؟

قيل : قد علمنا أنه لم يتحدَّهم إلى مثل قوله وفصاحته . والقدر الذى بينه وبين كلام غيره من الفصحاء[١] ، كقدر ما بين شعر الشاعرَين ، وكلام الخطيبين فى الفصاحة ، وذلك مما[٢] لا يقع به الإعجاز .

وقد بيّنا قبل هذا : أنا إذا وازنّا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور ، وبين نظم القرآن — تَبَيَّنَ من البَوْنِ بينهما مثلُ ما بين كلام الله عز وجل و [بين][٣] كلام الناس ، فلا[٤] معنى لقول من ادّعى أن كلام النبي صلى الله عليه وسلم معجز ، وإن كان دُونَ القرآن فى الإعجاز .

فإن[٥] قيل : لولا أن كلامه معجز لم يَشْتَبِه على ابن مَسْعُودٍ الفَصْلُ

---

(١) كذا فى س ، ك . وفى م : «والقدر الذى بين كلامه وكلامهم من الفصاحة كقدر»

(٢) م: «وذلك ما لا يقع الإعجاز به»

(٣) الزيادة من م

(٤) س: «ولا»

(٥) م: «فلو»

بين المُعَوِّذَتَين وبين غيرهما من القرآن[1] ؟

وكذلك لم يشتبه دعاء القنوت فى أنه هل هو[2] من القرآن أم لا ؟

[قيل : هذا من تخليط الملحدين ؛ لأن عندنا أن الصحابة لم يَخْفَ عليهم ما هو من القرآن[3]] .

ولا يجوز أن يخفى عليهم القرآنُ من غيره : وعَدَدُ السُّوَرِ عندهم محفوظ مضبوط .

وقد يجوز أن يكون شذَّ عن مصحفه ، لا لأنه نَفَاهُ من القرآن ، بل عَوَّلَ على حفظ الكُلِّ إيَّاه .

---

(١) يزعم بعض الرواة عن عبد الرحمن بن يزيد النخعى أنه قال : « كان عبد الله بن مسعود يحك المعوذتين من مصاحفه ويقول : إنهما ليستا من كتاب الله » ! ! ! وقال السيوطى فى الإتقان ١/١٣٧ : « وقال النووى فى شرح المهذب : أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن ، وأن من جحد منها شيئاً كفر ، وما نقل عن ابن مسعود باطل ليس بصحيح . وقال ابن حزم فى كتاب القدح المعلى ، تتميم المحلى : هذا كذب على ابن مسعود وموضوع » . وقد أبى ابن حجر إلا تصحيح تلك الرواية ، فقال فى شرح البخارى : « فقول من قال إنه كذب عليه مردود ، والطعن فى الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل ، بل الرواية صحيحة ، والتأويل محتمل » . ثم لم يستطع تأويلا مقبولا ، والله يغفر لنا وله . وانظر تأويل مشكل القرآن ص ٢٠ ، ٢١ ، ٣٣ — ٣٥

(٢) م « هل بين من القرآن هذا من تخليط الملحدين »

(٣) اشتبه ذلك على أُبَيّ فزاده فى مصحفه على أنه قرآن ؛ لأنه — كما قال ابن قتيبة فى تأويل مشكل القرآن ص ٣٣ — « رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو به فى الصلاة دعاء دائماً ، فظن أنه من القرآن ، وأقام على ظنه ، ومخالفة الصحابة جميعاً ، كما أقام على التطبيق » .

(٤) الزيادة من ا ، ب

على أن الذى يروونه خَبَرُ وَاحَدٍ ، لا يُسْكَنُ إليه فى مثل هذا ، ولا يعمل عليه .

ويجوز أن يَكتبَ على ظهر مصحفه دُعَاءَ القُنُوتِ لئلاَّ ينساه ، كما يكتب الواحد منا بعضَ الأدعية على ظهر مصحفه .

وهذا نحو ما يذكره الجهال : من اختلاف كثيرٍ بين مصحف ابن مسعود ، وبين مصحف عثمان رحمة الله عليهما .

ونحن لا ننكر أن يَغْلَطَ فى حروفٍ معدودة ، كما يَغْلَطُ الحافظُ فى حروف ويَنْسَى ، وما لا نجيزه[1] على الحُفاظ مما لم نجزه عليه .

ولو كان قد أنكر السورتين على ما ادَّعَوْا ، لكانت الصحابة تناظره على ذلك ، وكان يظهر وينتشر ؛ فقد تناظروا فى أقل من هذا ، وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل ، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه ؟ ! وقد[2] علمنا إجماعَهم على ما جمعوه فى المصحف ، فكيف يُقْدح بمثل[3] هذه الحكايات الشاذَّة المولَّدة[4] فى الإجماع المُتَقَرِّر ، والاتفاق المعروف ؟ !

ويجوز[5] أن يكون الناقل اشتبه[6] عليه ، لأنه خالف فى النظم

(١) ك : « وما لا يجيزه » م « وما لا يجيزه الحفاظ منا لم نجزه عليه »
(٢) م « لقد »
(٣) م « تقدح مثل »
(٤) م « الشاذة المؤلفة » . س « بالإجماع »
(٥) م « فيجوز »
(٦) كذا فى ا ، م ، ك . وفى س « أشبه »

والترتيب ، فلم يثبتهما فى آخر القرآن ، والاختلاف بينهم فى موضع الإثبات غيرُ الكلام فى الأصل ، ألا ترى أنهم قد اختلفوا فى أول ما نزل من القرآن :

فمنهم من قال : قوله : ﴿ اقْرَأْ بِاسمِ رَبِّكَ ﴾[١] .

ومنهم من قال : ﴿ يا أَيُّهَا المُدَّثِرُ ﴾[٢] .

ومنهم من قال : فاتحةُ الكتاب[٣] .

واختلفوا أيضاً فى آخر ما أنزل[٤] :

فقال ابن عباس : ﴿ إذا جاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾[٥] .

وقالت عائشة : سورةُ المائدة .

وقال البَراء بن عَازِب[٦] : آخرُ ما أنزل سورة براءة .

---

(١) سورة العلق ١ وهذا القول هو الصحيح ، وهو أول قول أورده السيوطى فى الإتقان ١/٣٩

(٢) سورة المدثر ١ وهذا القول فى الإتقان ١/٤٠

(٣) انظره فى الإتقان ١/٤٠

(٤) راجع أقوال العلماء فى ذلك فى الإتقان ١/٤٤ ــ ٤٨

(٥) سورة النصر ١

(٦) هو أبو عمارة البراء بن عازب بن الحارث بن عدى بن جشم بن مجدعة الأوسى الأنصارى ، استصغره الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر فرده ، ثم غزا معه خمس عشرة غزوة . وتوفى سنة اثنتين وسبعين ، وقيل : سنة إحدى وسبعين . راجع تاريخ الإسلام ٣/١٣٩ وخلاصة تذهيب الكمال ص ٣٩ والمعارف ص ١٤٢

وقال سعيد بن جُبَيْر[١] : آخرُ ما أُنزل قوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا يوماً تُرْجَعُونَ فيهِ إلى اللهِ ﴾[٢] .

وقال السُّدِّى[٣] : آخرُ ما أُنزل : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إلهَ إلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾[٤] .

ويجوز أن يكون فى مثل هذا خلاف[٥] ، وأن يكون كلُّ واحدٍ ذَكَرَ آخرَ ما سمع .

* * *

ولو كان القرآن من كلامه ، لكان البَوْنُ بين كلامه وبينه مثل ما بين خطبةٍ وخطبةٍ ينشئهما[٦] رجل واحد ، وكانوا يعارضونه ؛ لأنَّا قد علمنا أنَّ القَدْرَ الذى بين كلامهم وبين كلام النبى صلى الله عليه وسلم لا يخرج إلى حد الإعجاز ، ولا يتفاوتُ التفاوتَ الكثير ، ولا

(١) كتب سعيد بن جبير لعبد الله بن عتبة بن مسعود ، ثم كتب لأبى بردة وهو على القضاء وبيت المال . وخرج مع ابن الأشعث ، فلما انهزم أصحاب ابن الأشعث من دير الجماجم ، هرب سعيد إلى مكة ، فأخذه خالد بن عبد الله القسرى ، وكان والى الوليد بن عبد الملك على مكة ، فبعث به إلى الحجاج ، فأمر الحجاج فضربت عنقه سنة أربع وتسعين ، راجع المعارف ص ١٩٧

(٢) سورة البقرة ٢٨١

(٣) هو إسماعيل بن عبد الرحمن ، مولى قريش حجازى الأصل ، رأى ابن عمر وابن عباس . وروى عن أنس بن مالك . توفى سنة سبع وعشرين ومائة ، فى إمارة ابن هبيرة على العراق . انظر اللباب ١/٥٣٧ وخلاصة تذهيب الكمال ص ٣٠

(٤) سورة التوبة ١٢٩

(٥) م: « اختلاف »

(٦) س: « ينشئها »

يخفى كلامه[١] من جنس أوزان كلامهم ؛ وليس كذلك نظم القرآن ، لأنه خارج من جميع ذلك .

فإن قيل : لو كان على ما ادَّعيتم ، لعرفنا بالضرورة أنه معجز[٢] دون غيره ؟

قيل : معرفة الفصل بين وزن الشعر [أو غيره من أوزان الكلام لا يقع ضرورةً ، ويحتاج فى معرفة ذوق الشعر][٣] ووزنه ، والفرق بينه وبين غيره من الأوزان يحتاج[٤] إلى نظر وتأمل ، وفكر وروية واكتساب ، وإن كان النظم المختلفُ الشديدُ التبايُنِ إذا وُجد أُدْرِكَ اختلافُه بالحاسة ، إلَّا أن كلَّ وزن وقبيلٍ إذا أردنا تمييزه من غيره احتجْنا فيه[٥] إلى الفكرة والتأمل[٦] .

فإن قيل : لو كان معجزًا لم يختلف أهل الملة[٧] فى وجه إعجازه ؟

قيل : قد يثبت الشىء دليلاً وإن اختلفوا فى وجه دلالة البرهان ، كما قد يختلفون فى الاستدلال على حدوث[٨] العالم من الحركة والسكون ، والاجتماع والافتراق .

---

(١) س « كلام »
(٢) م « لعرفنا أنه معجز ضرورة »
(٣) الزيادة من ا ، م
(٤) س « تحتاج إلى »
(٥) سقطت من م
(٦) ا « الفكر »
(٧) م « الملل »
(٨) م « حدث »

فأما المخالفون ، فإنه يتعذر عليهم أن يعرفوا أن القرآنَ كلامُ الله ، لأنّ مذهبهم أنه لا فرق بين أن يكون القرآن من قبل الرسول أو من قبل الله عز وجل فى كونه معجزًا ، لأنه إن خصَّه بقدر من العلم لم تَجْرِ العادةُ بمثله ، أمكنه أن يأتى بما له هذه الرتبة ، وكان متعذرًا على غيره ، لفقد علمه بكيفية النظم .

وليس القوم بعاجزين عن الكلام ، ولا عن النظم والتأليف . والمعنى المؤثر عندهم فى تعذر مثل نظم القرآن علينا : فَقْدُ العلم بكيفية النظم ، وقد بيّنّا قبل هذا أن المانع هو أنهم لا يقدرون عليه .

والمُفْحَمُ قد يعلم كيفية الأوزان واختلافَها ، وكيفية التركيب ، وهو لا يقدر على نظم الشعر .

وقد يعلم الشاعِرَانِ[1] وجوهَ الفصاحة ، وإذا قالا الشعر جاء شعرُ أحدهما فى الطبقة العالية ، وشعرُ الآخر فى الطبقة الوضيعة .

وقد يطَّرد[2] فى شعر المبتدى والمتأخرِ فى الحذق القِطعة الشريفة والبيتُ النادر : مما لا[3] يتفق للشاعر المتقدّم .

والعلمُ بهذا الشأن فى التفصيل لا يغنى ، ويحتاج معه إلى مادة من الطبع ، وتوفيقٍ من الأصل .

---

(١) م « الشاعرين » س « الشاعر »
(٢) كذا فى ا ، م ، ك . وفى س « ترد »
(٣) م ، ا ، ك : « وما لا يتفق »

وقد يتساوى العالِمَان بكيفية الصناعة والنِّسَاجة، ثم يتفق لأحدهما من اللطف فى الصنعة، ما لا يتفق للآخر[١].

وكذلك أهل نظم الكلام — يتفاضلون، مع العلم بكيفية النظم؛ وكذلك أهل الرَّمْىِ يتفاضلون فى الإصابة، مع العلم بكيفية الإصابة.

وإذا وجدتَ للشاعر بيتاً أو قطعةً أحسن من شعر امرئ القيس، لم يدل[٢] ذلك على أنه أعلم بالنظم منه، لأنه لو كان كذلك كان يجب أن يكون جميعُ شعره على ذلك الحدّ، وبحسب ذلك البيت فى الشرف والحسن والبراعة، ولا يجوز أن يعلم نظمَ قطعةٍ ويجهلَ نظم مثلها، وإن[٣] كان كذلك، عُلم أن هذا لا يرجع إلى قدره[٤] من العلم، ولسنا نقول: إنه يستغنى عن العلم فى النظم، بل يكفى علم به فى الجملة، ثم يقف الأمر على القدرة.

وهذا يَبينُ لك بأنه قد يعلم الخط فيكتبُ سطرًا، فلو أراد أن يأتى بمثله بحيث لا يغادر منه شيئاً لتعذَّر، والعلم حاصل.

وكذلك قد يحسن[٥] كيفية الخط، ويميز[٦] الجيدَ منه من الردىء، ولا يمكنه أن يأتى بأرفع درجات الجيد.

---

(١) س: «فى الآخر»

(٢) كذا فى ك، م. وفى س «لا يدل»

(٣) م: «فإذا». س «وإن»

(٤) كذا فى ك، ب. وفى ا، م «ما قدروه». س «إلى قدرة»

(٥) سقطت هذه الكلمة من م

(٦) سقطت هذه الكلمة من ك

وقد يعلم قوم كيفيةَ إدارة[١] الأقلام ، وكيفية تصوير الخط ، ثم يتفاوتون فى التفصيل[٢] ، ويختلفون فى التصوير .

وألزَمَهم أصحابُنا أن يقولوا بقدرتنا على إحداث الأجسام ، وإنما يتعذَّر وقوعُ ذلك مِنَّا بأنّا[٣] لا نعلم الأسباب التى إذا عرفنا إيقاعها على وجوهٍ اتَّفق لنا فعلُ الأجسام .

وقد ذهب بعض المخالفين إلى أن العادة انتقضت بأن أنزله جبْرِيلُ، فصار القرآن معجزاً لنزوله على هذا الوجه ، ومن قبله لم يكن معجزاً ! !

وهذا قول أبى هاشم[٤] ، وهو ظاهر الخطإِ ، لأنه يوجب[٥] أن يكونوا قادرين على مثل القرآن ، وأنه لم [يكن][٦] يتعذر عليهم فعل مثله ، وإنما تعذَّر بإنزاله ، ولو كانوا قادرين على مثل ذلك كان قد اتَّفق من بعضهم مِثْلُه .

وإن كانوا فى الحقيقة غيرَ قادرين قبل نزوله ولا بعدَه على مثله ، فهو قولُنا .

---

(١) سقطت هذه الكلمة من م .

(٢) كذا فى ك ، س . وفى م ، ا « يتقاربون فى التشكيل ». و ب « فى التشكل »

(٣) س « لأنا »

(٤) هو أبو هاشم عبد السلام بن أبى على محمد الجبائى (٢٤٧ — ٣٢١)، وكان يعتبر أن الواجب على المكلف هو الشك ؛ لأن النظر العقلى من غير سابقة شك تحصيل حاصل .

(٥) كذا فى ا ، ب ، ك ، م . وفى س « يلزم »

(٦) س : « وإن لم يتعذر »

وأما قول كثير من المخالفين، فهو على ما بيّنا ، لأنّ معنى المعجز عندهم تعذُّرُ فِعْلِ مثله ، وكان ذلك متعذرًا قبل نزوله وبعده .

فأما الكلام فى أن التأليف هل له نهاية ؟

فقد اختلف المخالفون من المتكلمين فيه :

فمنهم من قال : ليس لذلك نهاية ، كالعدد ، فلا[1] يمكن أن يقال : إنه لا يتأتّى قول قصيدة إلا وقد قيلتْ من قبل .

ومنهم من قال : إنّ ما جرت به العادة فله نهاية ، وما لم تَجْرِ به العادة فلا يمكن أن تُعلم[2] نهايةُ الرتبة فيه .

وقد بيّنا : أنَّ على أصولنا قد تقرر لكلامنا [ونظْمنا][3] حدّ فى العادة ، ولا سبيل إلى تجاوزه ، ولا يقدر [عليه][4] ، فإن القرآن خَرق العادة فزاد عليها .

---

(١) م: « ولا »
(٢) س: « نعلم » . م « يعلم »
(٣) م : « يقرر » . س « قد تقدر لكلامنا حد »
(٤) س: « ولا يقدر فإن »

فصــــل

إن قيل : هل من شرط المعجز أن[1] يعلم أنه أتى به من ظَهَرَ عليه ؟

قيل : لا بد من ذلك ، لأنا إن[2] لم نعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى أتى بالقرآن ، وظهر ذلك من جهته — : لَمْ يمكن أن نستدل به على نبوّته .

وعلى هذا لو تَلَقَّى رجلٌ منه سورةً ، فأتى بها بلداً ، وادَّعَى ظُهُورَها عليه ، وأنها معجزةٌ له — : لم تقم الحجة عليهم حتى يبحثوا وَيَتَبَيَّنُوا أنها ظهرتْ عليه .

وقد تحققنا[3] أنّ القرآن أَتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، وظَهَرَ من جهته ، وجَعَلَه عَلَماً على نبوّته ، وعلمنا ذلك ضرورةً ، فصــار حجةً علينا .

---

(١) م « وأنه »

(٢) سقطت من ك

(٣) كذا فى م ، ا ، ب ، ك . وفى س « حققنا »

فصـــل

قد ذكرنا فى الإبانة عن معجز القرآن وَجيزًا من القول ، رَجَوْنا أن يكفى ، وأَمَّلْنا أن يُقْنِع . والكلام فى أوصافه — إن استُقْصِيَ — بعيدُ الأطراف ، واسع الأكْنَاف ؛ لعلو شأنه ، وشريف مكانه .

والذى سطرناه فى الكتاب ، وإن كان موجزًا ، وما أَمْلَيْنَاه فيه ، وإن كان خَفِيفاً — : فإنه يُنَبِّهُ على الطّريقة ، ويدلُّ على الوجه ، ويهدى[1] إلى الحجة .

ومتى عَظُمَ محلُّ الشئ فقد يكون الإسْهَابُ فيه عِيًّا ، والإكْثَارُ فى وصفه تقصيرًا .

وقد قال الحكيم ، [وقد[2]] سُئل عن البليغ : متى يكون عَيِيًّا ؟ فقال : متى وصف هَوًى أو حبيباً .

وضلَّ أعرابى فى سفر له ليلًا ، وطلع القمر فاهتدى به ، فقال : ما أقول لك ؟ أقول[3] : رفعك الله ؟ وقد رفعك ، أم أقول : نوَّرَكَ الله ؟ وقد نوّرك ، أم أقول : جَمَّلك الله ؟ وقد جمَّلك !

ولولا أن العقول تختلف ، والأفهامَ تتباين ، والمعارفَ تتفاضل — لم نَحْتَجْ إلى ما تكلَّفنا ، ولكن الناس يتفاوتون فى المعرفة ، ولو اتفقوا

---

(١) م : « ويهديك »

(٢) الزيادة من م ، ك

(٣) سقطت من م

فيها لم يَجُزْ أن يتفقوا فى معرفة هذا الفنّ ، أو يجتمعوا فى الهداية إلى هذا العلم ؛ لاتصاله بأسبابٍ [خفية][١] ، وتعلقه بعلوم غامضةِ الغَوْرِ ، عميقة القَعْر ، كثيرة المذاهب ، قليلة الطُّلّاب ، ضعيفة الأصحاب . وبحسب تأتّى[٢] مواقعه تَقَعُ الأفهامُ دونه ، وعلى قدر لطف مَسَالِكِهِ يكون القصورُ عنه .

أنشدنى أبو القاسم الزَّعْفَرانى ، قال : أنشدنى المُتَنَبِّى ، لنفسه ، القطعةَ التى يقول فيها :

وكم مِنْ عائبٍ قَوْلا صَحِيحاً وآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ[٣]
ولكنْ تأخذُ الآذانُ مِنْهُ على قَدْرِ القَرائحِ والعُلُومِ

وأنشدنى الحسن بن عبد الله ، قال : أنشدنا بعضُ مشايخنا ، للبُحْتُرِىّ :

أهزُّ بالشعر أقواماً ذَوِى سِنَةٍ لوأنهم ضُرِبُوا بالسيف ماشعروا[٤]
علىَّ نَحْتُ القَوافِى مِنْ مَقَاطِعِها وما علىَّ لهم أَنْ تَفْهَمَ البَقَرُ[٥]

فإذا كان تقدُ الكلام كله صعباً ، وتمييزُه شديداً ، والوقوع على

---

(١) الزيادة من م
(٢) م: « تنامى »
(٣) فى ديوانه ٢ /٣٧٩
(٤) ديوانه ٦٧٣ « ذوى وسن فى الجهل لو ضربوا »
(٥) م: « من معادنها »

اختلاف فنونه[١] متعذرًا ؛ وهذا فى كلام الآدميين[٢] — : فما ظَنُّكَ بكلام ربّ العالمين ؟ !

* * *

قد أبَنَّا لك أنَّ مَنْ قَدَّرَ أنَّ البلاغة فى عشرة أوجه من الكلام، لا يعرفُ من البلاغة إلّا القليل[٣] ، ولا يفطن منها إلّا لليسير .

ومن زعم أن البديع يقتصر على ما ذكرناه من قبل عنهم[٤] فى الشعر ، فهو متطرِّف .

بَلَى ، إن كانوا يقولون : إن هذه من وجوه البلاغة وغُرَر البديع وأصول اللطيف ، وإن ما يجرى مجرى ذلك ويشاكله مُلْحَقٌ بالأصل، ومَرْدُودٌ على القاعدة — : فهذا قريب .

وقد بينا فى نظم القرآن : أن الجملة تشتمل على بلاغة منفردة ، والأسلوب يختصُّ بمعنًى آخر من الشرف .

ثم الفَواتح والخَواتم ، والمَبَادِئ والمثانى[٥] ، والطَّوالِع والمَقَاطِع ، والوَسَائط والفَواصِل .

ثم الكلام فى نَظْم السُّور والآيات ، ثم فى تفاصيل التفاصيل ،

---

(١) م: « نعوته »

(٢) س ، ك « الآدمى »

(٣) م: « إلا قليلا »

(٤) م: « ما قلناه من قيل عنهم »

(٥) م: « والمنادى والمبانى »

ثم فى الكثير والقليل[١] .

ثم الكلام المُوشَّح والمُرَصَّع ، والمُفصَّل والمُصَرَّع ، والمُجَنَّس والمُوشَّع[٢] ؛ والمُحَلَّى والمُكَلَّل ، والمُطَوَّق والمُتَوَّج ؛ والمَوْزُون والخارج عن الوزن ، والمعتدل فى النظم والمتشابه فيه .

ثم الخروج من فصل إلى فصل ، ووصل[٣] إلى وصل ، ومعنًى إلى معنى ، ومعنى فى معنى ؛ والجمع بين المؤْتَلِف والمُخْتَلِف ، والمتَّفِق والمُتَّسِق .

وكثرةُ التصرّف ، وسلامة[٤] القول فى ذلك كله[٥] من التعسف ، وخروجه عن التعمق[٦] والتَّشَدُّق ، وبعده عن التَّعَمُّل والتَّكَلُّف ، والألفاظُ المفردة ، والإبداع فى الحروف والأدوات ، كالإبداع فى المعانى والكلمات، والبسطُ[٧] والقبض ، والبناء والنَّقْض ، والاختصار[٨] والشرح ، والتشبيه[٩] والوصف .

---

(١) م: « والقريب »

(٢) كذا فى ا ، ب ، م ، ك . وفى س « والموشى »

(٣) م: « ومن وصل »

(٤) م: « وسلاسة »

(٥) م: « كله وسلامته من » . وا « عن »

(٦) م: « العمق »

(٧) م: « والكلمات والاختصار والبسط »

(٨) م: « والاقتصار »

(٩) م: « والتشبيه والأمثال والرصف »

وتميز الابتداع[١] من الاتِّباع ، كتميز المطبوع عن المصنوع[٢] ، والقول الواقع عن غير تكلف ولا تعمل .

* * *

وأنت تتبين[٣] فى كل ما تَصَرَّفَ فيه من الأنواع أنَّه على سَمْتٍ شريف ، ومَرْقَبٍ مُنِيفٍ ، يبهر إذا أخذ فى النوع الرَّبِّىِّ[٤] ، والأمر الشرعىّ ، والكلام الإلهىّ ، الدَّال على أنه يَصْدُرُ عن عِزَّةِ المَلَكُوت ، وشَرَفِ الجَبَرُوت ، ومالا يبلغ الوَهْمُ مَوَاقِعَه : من حكمةٍ[٥] وأحكام ، واحتجاج وتقرير ، واستشهاد وتقريع ، وإعذار وإنذار ، وتبشير وتحذير ، وتنبيه وتلويح ، وإشباع[٦] وتصريح ، وإشارة ودلالة ، وتعليم أخلاق زَكِيَّة ، وأسباب رضيَّة ، وسياسات جامعة ، ومواعظ نافعة ، وأوامرَ صَادِعة ، وقصص مفيدة ، وثناء على[٧] الله عز وجل بما هو أَهْلُه ، وأوصاف كما يستحقه ، وتحميدٍ كما يستوجبه ، وأخبارٍ عن كائنات فى التأّتِى صَدَقتْ ، وأحاديثَ عن المُؤْتَنَفِ تحقَّقت ، ونَواهٍ

---

(١) س : « وتميز الإبداع . . . كتمييز »

(٢) م : « عن المصبوغ »

(٣) م : « ترى » . ك « تتبينه »

(٤) م ، ا « الدينى » . وفى اللسان ١/٣٨٨ « والرّبى : منسوب إلى الربّ »

(٥) م : « من حكم »

(٦) م : « واتساع »

(٧) م : « عن »

زاجرةٍ عن القبائح والفواحش ، وإباحة الطيبات ، وتحريم المضارّ والخبائث ، وحثّ على الجميل والإحسان .

تجد فيه الحكمةَ وفصْلَ الخِطَاب ، مَجْلُوَّةً عليك فى منظر بهيج ، ونظم أنيق ، ومعرض رشيق ، غير مُعْتاصٍ[1] على الأسماع ، ولا مُتَلوٍّ[2] على الأفهام ، ولا مُستكرَهٍ فى اللفظ ، ولا مُسْتوحَش[3] فى المنظر . غريب فى الجنس غير غريب فى القَبِيل ، مُمْتَلِىء ماءً ونَضَارةً ، ولطفاً وغَضَارة ، يَسْرِى فى القلب كما يسرى السرورُ ؛ ويمرُّ إلى مواقعه كما يمر السهم ، ويضىء كما يضىء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر . طموح العُبَاب ، جَمُوح على المُتَنَاوِل المُنْتَاب ، كالرُّوح فى البدن ؛ والنور المُسْتَطِير فى الأُفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ[4] ﴾ .

من تَوَهَّمَ أنَّ الشعرَ يلحظ[5] شأْوَه بانَ ضلالُه ، ووضح[6] جهله . إذ الشعر سَمْتٌ قد تناولتْه الأَلْسُن ، وتداولتْه القلوب ، وانثالت عليه الهَوَاجِس ، وضَرَبَ الشيطانُ فيه بسهمه ، وأخذ منه بحظّه ، وما دُونَهُ مِنْ كلامهم فهو أدنى محلاً ، وأقرب مأخذاً ، وأسهل مطلباً ، ولذلك

(١) س : « متعاص »
(٢) كذا فى ل ، م . وفى س « ولا مفلق »
(٣) س : « ولا متوحش »
(٤) سورة فصلت ٤٢
(٥) كذا فى ل ، م . وفى س « يلحق »
(٦) س ، ك « وصح »

قالوا : فلان مُفْحَمٌ ، فأخرجوه مخرج العيب ، كما قالوا : فلان عَيِي[١] ، فأوردوه مورد النقص .

* * *

والقرآن كتابٌ دل على صدق مُتَحمِّله ، ورسالةٌ دلتْ على صحة قول المرسَل بها ، وبرهان شهد له برهان الأنبياء[٢] المتقدمين ، وبينة على طريقة مَنْ سلف من الأولين[٣] . حيَّرهم[٤] فيه ، إذْ كان من جنس القول الذى زعموا أنهم أدركوا فيه النهاية ، وبلغوا فيه الغاية ؛ فعرفوا عجزهم ، كما عرف قومُ عيسى نقصانَهم فيما قدروا من بلوغ أقصى الممكن فى العلاج ، والوصول إلى أعلى مراتب الطبّ ، فجاءهم بما بَهَرَهم : من إحياء الموتى ، وإبْرَاءِ الأَكْمَهِ والأَبْرَص ؛ وكما أتى موسى بالعصا التى تلقفت ما دقَّقُوا[٥] فيه من سحرهم ، وأتتْ على ما أَجْمَعُوا عليه من أمرهم ، وكما سخَّر لسليمان الريح[٦] والطير والجنّ ، حين كانوا يولعون به من فائق الصنعة ، وبدائع اللطف[٧] . ثم كانت هذه المعجزة

---

(١) س: « عى »
(٢) كذا فى ا ، ب ، م . وفى ك ، س « براهين الأولياء »
(٣) كذا فى م ، ب . وفى ك : « ما سلف إلى الأولين »
(٤) كذا فى ك ، م ، ا . وفى س « تحداهم »
(٥) م: « التى تلقف » . س « تلقفت ما برعوا »
(٦) س ، ل « لسليمان من الرياح »
(٧) ل ، س « يولعون بدقائق الحكمة وبدائع من اللطف »

مما يقف عليها[١] الأول والآخر وقوفاً واحداً ، ويبقى حكمها إلى يوم القيامة .

* * *

انظر وفقك الله لما هديناك إليه ، وفَكِّرْ في الذى دللناك عليه ؛ فالحقُّ منهج واضح، والدين ميزان راجح ؛ والجهل لا يزيد إلّا عَمًى[٢]، ولا يورث إلا ندماً .

قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الذين يَعْلَمُونَ والذينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الألبَابِ[٣] ﴾ .

وقال : ﴿ وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ ولاَ الإيمَانُ ، ولَـكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبَادِنَا[٤] ﴾ .

وقال : ﴿ يُضِلُّ به كَثِيراً ويَهْدِى بِهِ كَثِيراً[٥] ﴾ .

وعلى حسب ما آتى من الفضل ، وأَعْطَى من الكمال والعقل — تَقَعُ الهدايةُ والتبيين، فإن الأمور تتم[٦] بأسبابها، وتحصل بآلتها، ومن سلبه

(١) س ، ك « عليه »
(٢) س: « الإغما »
(٣) سورة الزمر ٩
(٤) سورة الشورى ٥٢
(٥) سورة البقرة ٢٦
(٦) م: « تستمر »

التوفيق ، وحَرَمَه الإرشاد[١] والتسديد — ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فى مَكانٍ سَحِيقٍ ﴾ ، لا يَسْتَطِيعُون حِيلةً ولا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً .

فاحْمَدِ اللهَ على ما رزقك من الفهمِ إن فهمتَ[٢] ، ﴿ وقُلْ : رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ ، [إن أنت علمت[٣]] ؛ ﴿ وقل : رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشياطين ، وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُون ﴾ .

وإن ارتبتَ فيما بيّناه فازددْ فى تعلم الصَّنعة ، وتقدمْ فى المعرفة ؛ فسيقعُ بك على الطريق[٤] الأَرشد ، وسيقف[٥] بك على الوجه الأَحمد ؛ فإنك إذَا فعلت ذلك أَحَطْتَ علماً ، وتيقنتَ فهماً .

ولا[٦] يوسوسْ إليك الشيطان بأنه قد كان ممن[٧] هو أعلم منك بالعربية ، وأدْرَب[٨] منك فى الفصاحة ؛ أقوامٌ [وأىٌّ] أقوامٍ ، ورجالٌ [وأىّ][٩] رجالٍ ، فكذّبوا وارتابوا ؛ لأن القوم لم يذهبوا عن الإعجاز . ولكن اختلفت أحوالهم : فكانوا بين جاهل وجاحد ، وبين

(١) س : « وحرم الرشاد »
(٢) سقطت إن فهمت من م
(٣) الزيادة من ب
(٤) م : « السبيل »
(٥) س : « ويقف » . م « وستقف على الوجه الأحمد »
(٦) م : « فلا »
(٧) م : « من »
(٨) كذا فى م . وفى س ، ك « وأرجح » . وفى ا ، ب « وأدهى »
(٩) الزيادة من م

كافر نعمة وحاسد[١] ؛ وبين ذاهبٍ عن طريق الاستدلال بالمعجزات ، وحائدٍ[٢] عن النظر فى الدّلالات ؛ وناقصٍ فى باب البحث ، ومُخْتَلّ الآلة[٣] فى وجه الفَحْص ، ومستهينٍ بأمر الأديان ، وغاوٍ[٤] تحت حُبَالَةِ الشّيطان ، ومقذوف بخِذْلان الرَّحمن . وأسبابُ الخذلان والجهالة كثيرة ، ودرجات الحرمان مختلفة .

وهلاّ جعلتَ بإزاء الكَفَرة ،مِثْلَ لبيد بن رَبيعَةَ العامرى فى حسن إسلامه ، وكعْبِ بن زُهَير فى صدق إيمانه ، وحسّانَ بن ثابت[٥] ، وغيرهم : من الشعراء والخطباء الذين أسلموا ؟

على أنّ الصَّدْر الأول ما فيهم إلا نجمٌ زَاهِر ، أو بحر[٦] زاخر .

وقد بيّنا : أن لا اعتصام إلا بهداية الله[٧] ، ولا توفيق إلا بنعمة الله . ﴿ وذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فتأملْ ما عرّفناك فى كتابنا ، وفرّغ له قلبك ، واجمع عليه[٨] لُبَّك ؛

---

(١) ك : « وحامد »

(٢) س : « وحائر »

(٣) م : « ومخيل الالة »

(٤) م : « وعار »

(٥) م : « فى سلامة أنبايه »

(٦) م : « وبحر »

(٧) م : « الله تعالى »

(٨) كذا فى ا ، م . وفى ك ، ب ، س « له »

ثم اعتصمْ بالله يَهْدِكَ ، وتوكل عليه يُعِنْكَ[١] ويُجِرْكَ ، واسترشده يُرْشِدْكَ ؛ وهو حَسْبِي وحسبُك ، ونِعْمَ الوكيل[٢] .

---

(١) كذا فى م ، ب . وفى س ، ك « يغنك »

(٢) جاء فى آخر م ، ا ، ك بعد ذلك ما يلى :

(ا) فى م : « تم كتاب الإعجاز ، والحمد لله على نعمه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، وسلم تسليما كثيراً » . وبعد ذلك بخط مغاير : « هذا ما كتبه المؤلف لخزانة كتب عضد الدولة ، وطالع فيه الحسن ابن المؤلف ، سنة تسع وتسعين بعد الثلاثمائة . . .

(ب) فى ا : « والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آله وأصحابه أجمعين . وكان الفراغ منه فى غرة ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة . نسخته من أصل الفقيه الإمام أبى الحجاج يوسف بن عبد العزيز اللخمى ، الذى عليه خط شيخه عمدة أهل الحق ، أبى عبد الله التميمى ، وأخبرنى أنه نسخها من نسخة صحيحة ، عليها مكتوب : فرغ من نسخها فى جمادى الآخرة سنة إحدى وأربع مائة . وقال لى : توفى القاضى المؤلف ، رحمه الله ، سنة أربع وأربع ماية . وعارضت نسختى هذه بالأصل ، وقرأتها عليه وهو يمسك أصله ، والحمد لله رب العالمين »

(ج) وجاء فى ك : « تم كتاب الإعجاز فى القرآن العظيم . وكان الفراغ من نسخه سلخ الشهر المعظم ، رجب سنة ثمنية عشر وستمائة . علقه الشريف حسن ، ابن الشريف محمد ، ابن الشريف على ، ابن الشريف حسين الحسينى ، السمرقندى ، الناسخ . وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما » .

مفاتيح الكتاب

١ — فهرس الآيات

٢ — فهرس الأحاديث

٣ — فهرس الشعر

١ — الأبيات

(ب)

(د)

(ز)

(س)

* * *

* * *

(ى)

* * *

٢ أنصاف الأبيات

(ب)

* * *

(ت)

* * *

(د)

* * *

(ر)

* * *

(ش)

* * *

(ل)

* * *

(و)

* لهُ عَلاَماتٌ على حدّ الصوَى * جليح بن شميذ ١٣٠هـ

* * *

(ى)

* عُميرَةَ وَدّعْ إنْ تَجهزْتَ غاديا * سُحَيم ١٧٣هـ.
* كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيًا * سحَيم ١٧٣

٤ — فهرس الأعلام

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٥ — فهرس الكتب الواردة بكتاب الإعجاز

٦ — فهرس المراجع

الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (حجازى ١٣٦٠ هـ)
أخبار أبى تمام للصولى (لجنة التأليف ١٣٥٦ هـ)
أخبار أبى نواس لابن منظور (الجزء الثانى . بغداد)
أدب الكاتب لابن قتيبة (الرحمانية ١٣٥٥ هـ)
أساس البلاغة للزمخشرى (دار الكتب المصرية ١٣٤١ هـ)
أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى (المنار)
الإصابة فى أسماء الصحابة لابن حجر (السعادة ١٣٢٣ هـ)
الأصمعيات (ليبسك ١٩٠٢ م)
الأضداد لابن الأنبارى (الحسينية ١٣٢٥ هـ)
الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (بولاق ١٢٨٥ هـ)
الاقتضاب لابن السيد البطليوسى (الآداب ببيروت ١٩٠١ م)
أمالى القالى (دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ)
أمالى المرتضى (السعادة ١٣٢٥ هـ)
إمتاع الأسماع للمقريزى (لجنة التأليف ١٩٤١ م)
الإمتاع والمؤانسة للتوحيدى (لجنة التأليف ١٩٤٢ م)

(ب)

البداية والنهاية لابن كثير (السعادة ١٣٥١ هـ)
البديع لابن المعتز (مصطفى الحلبى ١٣٦٤ هـ)
البصائر والذخائر للتوحيدى (لجنة التأليف ١٣٧٣ هـ)
بغية الوعاة للسيوطى (السعادة ١٣٤٩ هـ)
البيان والتبيين للجاحظ (لجنة التأليف ١٣٦٩ هـ)

ت

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (عيسى الحلبى ١٣٧٣ هـ)
تاريخ الإسلام للذهبى (القدسى ١٣٦٧ هـ)

تاريخ الأمم والملوك للطبرى (الحسينية ١٣٢٣ هـ)
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (السعادة ١٣٤٩ هـ)
التاريخ الكبير للبخارى (حيدر آباد)
التشبيهات لابن أبى عون (لندن ١٩٥٢ م)
تفسير ابن جرير الطبرى (بولاق ١٣٢٩ هـ)
التمهيد للباقلانى (دار الفكر العربى ١٣٦٦ هـ)
تهذيب التهذيب لابن حجر (حيدر آباد ١٣٢٥ هـ)

(ج)

الجرح والتعديل لابن أبى حاتم الرازى (حيدر آباد)
جمهرة أشعار العرب لأبى زيد (بولاق ١٣٠٨ هـ)
جمهرة أنساب العرب لابن حزم (المعارف ١٩٤٨ م)
جمهرة اللغة لابن دريد (حيدر آباد ١٣٥١ هـ)

(ح)

حماسة البحترى (الكاثوليكية ببيروت ١٩١٠ م)
حماسة ابن الشجرى (حيدر آباد ١٣٤٥ هـ)
الحيوان للجاحظ (مصطفى الحلبى ١٣٦٤ هـ)

(خ)

خاص الخاص للثعالبى (الخانجى ١٩٠٨ م)
خزانة الأدب لابن حجة الحموى (الخيرية)
خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى (بولاق ١٢٩٩ هـ)
الخصائص لابن جنى (دار الكتب المصرية)
خلاصة تذهيب الكمال للخزرجى (الخيرية ١٣٢٢ هـ)

(د)

دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى (المنار ١٣٦٧ هـ)
دلائل النبوة لأبى نعيم الأصبهانى (حيدر آباد . أولى)

ديوان الأخطل (بيروت ١٨٩١ م)
ديوان الأعشى (فينا ١٩٢٧ م)
ديوان الأفوه الأودى (ضمن الطرائف الأدبية . لجنة التأليف ١٩٣٧ م)
ديوان امرئ القيس (الرحمانية ١٩٣٠ م)
ديوان البحترى (بيروت ١٩١١ م)
ديوان أبى تمام (بيروت)
ديوان جرير (الصاوى ١٣٥٣ هـ)
ديوان حسان بن ثابت (الرحمانية ١٣٤٧ هـ)
ديوان الحطيئة (التقدم ١٣٢٥ هـ)
ديوان الخنساء (الكاثوليكية ببيروت ١٨٩٦ م)
ديوان ابن الدمينة (القاهرة ١٣٣٧ هـ)
ديوان أبى ذؤيب الهذلى (ضمن شعر الهذليين . دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ)
ديوان ذى الرمة (كمبردج ١٩١٩ م)
ديوان ابن الرومى (القاهرة ١٩١٧ م)
ديوان زهير بشرح الأعلم الشنتمرى
ديوان زهير بشرح ثعلب (دار الكتب المصرية ١٣٦٣ هـ)
ديوان سحيم عبد بنى الحسحاس (دار الكتب المصرية ١٩٤٩ م)
ديوان السرى الرفاء (القدسى)
ديوان الشماخ (السعادة ١٣٢٧ هـ)
ديوان طرفة بن العبد (قازان ١٩٠٩ م)
ديوان عبيد بن الأبرص (ليدن ١٩١٣ م)
ديوان علقمة الفحل (المحمودية ١٣٥٣ هـ)
ديوان عمر بن أبى ربيعة (التجارية)
ديوان الفرزوق (الصاوى ١٣٥٤ هـ)
ديوان كثير عزة (الجزائر ١٩٢٨ م)
ديوان كشاجم (بيروت)
ديوان المتنبى بشرح البرقوقى (الرحمانية ١٣٤٨ هـ)
ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى (القدسى ١٣٥٢ هـ)
ديوان ابن المعتز (بيروت ١٣٣٢ هـ)
ديوان النابغة الذبيانى (بيروت ١٣٤٧ هـ)
ديوان أبى نواس (واصف ١٢٩٣ هـ)

(ذ)

الذخائر والأعلاق (القاهرة)
ذيل أمالى القالى (دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ)

(ر)

الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى (الخانجى ١٣٥٧ هـ)

(ز)

زهر الآداب للحصرى (الرحمانية ١٩٢٥ م)
الزهرة لابن أبى داود

(س)

سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى (الرحمانية ١٣٥٠ هـ)
سنن الدارمى (دمشق)
سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى (المصرية)
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى (المؤيد ١٣٣١ هـ)

(ش)

شرح أدب الكاتب للجواليقى (القدسى ١٣٥٠هـ)
شرح الحماسة للتبريزى (التجارية ١٣٥٧ هـ)
شرح الحماسة للمرزوقى (لجنة التأليف ١٣٧١ هـ)
شرح سنن الترمذى للمبار كفورى (الهند)
شرح شواهد الشافية للبغدادى (حجازى ١٣٥٩ هـ)
شرح شواهد المغنى للسيوطى (البهية ١٣٢٢ هـ)
شرح القصائد العشر للتبريزى (السلفية ١٣٤٣ هـ)
شرح المعلقات للزوزنى (الرافعى)
شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (الحلبى ١٣٢٩ هـ)
الشعر والشعراء لابن قتيبة (عيسى الحلبى ١٣٧٠ هـ)

(ص)

الصاحبي لابن فارس (السلفية ١٣٢٨ هـ)
الصناعتين لأبي هلال العسكري (الآستانة ١٣٢٠ هـ)

(ط)

طبقات الشافعية للسبكي (الحسينية)
طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (المعارف ١٩٤٢ م)
الطبقات الكبرى لابن سعد (ليدن ١٣٢٢ هـ)

(ع)

عبث الوليد للمعري (الترقي بدمشق ١٣٥٥ هـ)
العقد الفريد لابن عبد ربه (لجنة التأليف ١٣٥٩ هـ)
العمدة لابن رشيق (التجارية ١٣٥٣ هـ)
عيون الأثر لابن سيد الناس (القدسي ١٣٥٦ هـ)
عيون الأخبار لابن قتيبة (دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ)

(غ)

غرر الخصائص الواضحة للوطواط (الأدبية ١٣١٨ هـ)

(ف)

الفائق للزمخشري (عيسى الحلبي ١٣٦٦ هـ)
فتح الباري لابن حجر (بولاق)
فهرست ابن النديم (التجارية ١٣٤٨ هـ)

(ك)

الكامل للمبرد (مصطفى الحلبي ١٣٥٦ هـ)
الكتاب لسيبويه (بولاق ١٣١٧ هـ)

(ل)

اللآلى شرح الأمالى للبكرى (لجنة التأليف ١٣٥٤ هـ)
لسان العرب لابن منظور (بولاق ١٣٠٨ هـ)

المؤتلف والمختلف للآمدى (القدسى ١٣٥٤ هـ)
ما اتفق لفظه واختلف معناه فى القرآن الكريم للمبرد (السلفية ١٣٥٠ هـ)
مبادئ اللغة للخطيب الإسكافى (الخانجى ١٣٢٥ هـ)
المجازات النبوية للشريف الرضى (مصطفى الحلبى ١٣٥٦ هـ)
مجمع الأمثال للميدانى (القاهرة ١٣٥٢ هـ)
مجمع البيان للطبرسى (صيدا ١٣٥٤ هـ)
مختارات ابن الشجرى (الاعتماد ١٩٢٥ م)
مروج الذهب للمسعودى (السعادة ١٣٦٧ هـ)
مصارع العشاق للسراج (الجوائب ١٣٠١ هـ)
مفردات غريب القرآن للراغب الأصفهانى (الميمنية ١٣٢٤ هـ)
المفضليات (المعارف ١٩٥٢ م)
المعارف لابن قتيبة (القاهرة ١٣٥٣ هـ)
المعانى الكبير لابن قتيبة (حيدر آباد ١٣٦٨ هـ)
معاهد التنصيص للعباسى (السعادة ١٣٦٧ هـ)
معجم الأدباء لياقوت (رفاعى ١٣٥٧ هـ)
معجم البلدان لياقوت (الخانجى ١٣٢٣ هـ)
معجم الشعراء للمرزبانى (القدسى ١٣٥٤ هـ)
المعمرين لأبى حاتم السجستانى (السعادة ١٣٢٣ هـ)
مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعرى (الأول . السعادة ١٣٢٣ هـ)
المنتظم لابن الجوزى (حيدر آباد ١٣٥٨ هـ)
الموازنة بين أبى تمام والبحترى للآمدى (حجازى ١٣٦٣ هـ)
الموشح للمرزبانى (السلفية ١٣٤٣ هـ)
ميزان الاعتدال للذهبى (السعادة ١٣٢٥ هـ)
الميسر والقداح لابن قتيبة (السلفية ١٣٤٣ هـ)

نثار الأزهار لابن منظور (الجوائب)
نزهة الألبا فى طبقات الأدبا لابن الأنبارى (حجر ١٢٩٤ هـ)

نظام الغريب للربعى (أمين هندية)
النقائض بين جرير والفرزدق (ليدن ١٩٠٥ م)
نقد الشعر لقدامة بين جعفر (الجوائب ١٣٠٢ هـ)
النكت فى إعجاز القرآن للرمانى (دهلى ١٩٣٤ م)
نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للفخر الرازى (الآداب والمؤيد)
نهج البلاغة جمع الشريف الرضى (الاستقامة)
نوادر أبى زيد (بيروت ١٨٩٤ م)
نوادر القالى (دار الكتب المصرية ١٣٤٤ هـ)

(ى)

يتيمة الدهر للثعالبى (حجازى)

٧ — فهرس الموضوعات

ذخائر العرب

مجموعة جديدة يشترك فيها علماء الشرق والغرب لبعث الكنوز العربية الخالدة ، تقدم إلى جمهور القراء فى أنصع حلة من التحقيق الدقيق وجمال الإخراج .

ظهر منها :

١ – مجالس ثعلب (القسمان الأول والثانى)
٢ – جمهرة أنساب العرب لابن حزم
٣ – إصلاح المنطق لابن السكيت
٤ – رسالة الغفران (عن أقدم نسخة خطية) لأبى العلاء
٥ – ديوان أبى تمام (شرح التبريزى)
٦ – حلية الفرسان وشعار الشجعان لابن هذيل الأندلسى
٧ – طبقات فحول الشعراء لابن سلام
٨ – حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردى
٩ – الورقة لمحمد بن داود بن الجراح
١٠ – المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد
١١ – نسب قريش
١٢ – إعجاز القرآن للباقلانى
١٣ – اللزوميات لأبى العلاء المعرى

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف حضرات

محمد حلمى عيسى والدكتور طه حسين والدكتور أحمد أمين والدكتور عبد الوهاب عزام والشيخ أحمد محمد شاكر والأستاذ إبرهيم مصطفى .